مجاني الأدب
في
حدائق العرب

المطبعة الكاثوليكية - بيروت

Princeton University Library
32101 043490208

2260
.252
.11
V.4

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

James Hall Library
(SY-S10)
Princeton University
Princeton, New Jersey 08540

Cheikho, Louis, 1859-1927, ed.

مجاني الأدب

في

حدائق العرب

للأب لويس شيخو اليسوعي

الجزء الرابع

المطبعة الكاثوليكية
بيروت



2260
.252
.11
V.4

كل الحقوق محفوظة

الباب الأول
في التدين

عظمة الخالق وجبروته

١ سُبْحَانَ مَنْ تَقَدَّسَتْ سُبُحَاتُ جَمَالِهِ عَنْ سِمَةِ الْحُدُوثِ وَالزَّوَالِ. وَتَنَزَّهَتْ سُرَادِقَاتُ جَلَالِهِ عَنْ وَصْمَةِ التَّغَيُّرِ وَالِانْتِقَالِ. تَلَأْلَأَتْ عَلَى صَفَحَاتِ الْمَوْجُودَاتِ أَنْوَارُ جَبَرُوتِهِ وَسُلْطَانِهِ. وَتَهَلَّلَتْ عَلَى وَجَنَاتِ الْكَائِنَاتِ آثَارُ مَلَكُوتِهِ وَإِحْسَانِهِ. تَحَيَّرَتِ الْعُقُولُ وَالْأَفْهَامُ فِي كِبْرِيَاءِ ذَاتِهِ. وَتَوَلَّهَتِ الْأَذْهَانُ وَالْأَوْهَامُ فِي بَيْدَاءِ عَظَمَةِ صِفَاتِهِ. دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ. وَشَهِدَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ نِظَامُ مَصْنُوعَاتِهِ

(شرح مواقف الايجي للجرجاني)

٢ أَلْعَظَمَةُ لَكَ وَالْكِبْرِيَاءُ لِجَلَالِكَ يَا قَائِمَ الذَّاتِ. وَمُفِيضَ الْخَيْرَاتِ. وَوَاجِبَ الْوُجُودِ وَوَاهِبَ الْعُقُولِ وَفَاطِرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ. وَمُبْدِيَ الْحَرَكَةِ وَالزَّمَانِ. وَمُبْدِعَ الْحِينِ وَالْمَكَانِ. وَفَاعِلَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَشْبَاحِ وَجَاعِلَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ. وَمُحَرِّكَ الْأَفْلَاكِ الْمُدَبَّرَاتِ. وَمُزَيِّنَهَا بِالنُّجُومِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ. وَمُقَرِّرَ الْأَرْضِ وَمُمَهِّدَهَا لِأَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَأَصْنَافِ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ. دَامَ حَمْدُكَ وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ. وَتَعَالَى ذِكْرُكَ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ. وَكَثُرَتْ آلَاؤُكَ وَنَعْمَاؤُكَ. أَفِضْ عَلَيْنَا أَنْوَارَ مَعْرِفَتِكَ. وَطَهِّرْ نُفُوسَنَا عَنْ

كُدُورَاتِ مَعْصِيَتِكَ . وَأَمْطِرْ عَلَيْنَا سَحَائِبَ فَضْلِكَ وَمَرْحَمَتِكَ وَاضْرِبْ عَلَيْنَا سُرَادِقَاتِ عَفْوِكَ وَمَغْفِرَتِكَ . وَأَدْخِلْنَا فِي حِفْظِ عِنَايَتِكَ وَمَكْرُمَتِكَ

(عجائب المخلوقات للقزويني)

٣ متن الشيبانية في التوحيد

سَأَحْمَدُ رَبِّي طَاعَةً وَتَعَبُّدَا وَأَنْظِمُ عِقْدًا فِي الْعَقِيدَةِ أَوْحَدَا
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ تَعَزَّزَ قِدَمًا بِالْبَقَا وَتَفَرَّدَا
هُوَ الْأَوَّلُ الْمُبْدِي بِغَيْرِ بِدَايَةٍ وَآخِرُ مَنْ يَبْقَى مُقِيمًا مُؤَبَّدَا
سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَالِمٌ مُتَكَلِّمٌ قَدِيرٌ يُعِيدُ الْعَالَمِينَ كَمَا بَدَا
مُرِيدٌ أَرَادَ الْكَائِنَاتِ لِوَقْتِهَا قَدِيمٌ فَأَنْشَا مَا أَرَادَ وَأَوْجَدَا
إِلَاهٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ قَدِ اسْتَوَى وَبَايَنَ مَخْلُوقَاتِهِ وَتَوَحَّدَا
فَلَا جِهَةٌ تَحْوِي الْإِلَاهَ وَلَا لَهُ مَكَانٌ تَعَالَى عَنْهُمَا وَتَمَجَّدَا
إِذِ الْكَوْنُ مَخْلُوقٌ وَرَبِّي خَالِقٌ لَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْكَوْنِ رَبًّا وَسَيِّدَا
وَلَا حَلَّ فِي شَيْءٍ تَعَالَى وَلَمْ يَزَلْ مَلِيًّا غَنِيًّا دَائِمَ الْعِزِّ سَرْمَدَا
وَلَيْسَ كَمِثْلِ اللهِ شَيْءٌ وَلَا لَهُ شَبِيهٌ تَعَالَى رَبُّنَا أَنْ يُحَدَّدَا
وَمَنْ قَالَ فِي الدُّنْيَا يَرَاهُ بِعَيْنِهِ فَذَلِكَ زِنْدِيقٌ طَغَا وَتَمَرَّدَا
وَلَكِنْ يَرَاهُ فِي الْجِنَانِ عِبَادُهُ كَمَا صَحَّ فِي الْأَخْبَارِ نَرْوِيهِ مُسْنَدَا

٤ رُوِيَ أَنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ سَأَلَ الْإِمَامَ الْغَزَالِيَّ عَنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . فَأَجَابَ :

قُلْ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِّي مَا أَقُولْ أُتْرُكِ الْبَحْثَ فَذَا شَرْحٌ يَطُولْ

ثَمَّ سِرٌّ غَامِضٌ مِنْ دُونِهِ ضُرِبَتْ بِالسَّيْفِ أَعْنَاقُ الْفُحُولْ
أَنْتَ لَا تَعْرِفُ إِيَّاكَ وَلَمْ تَدْرِ مَنْ أَنْتَ وَلَا كَيْفَ الْوُصُولْ
لَا وَلَا تَدْرِي صِفَاتٍ رُكِّبَتْ فِيكَ حَارَتْ فِي خَفَايَاهَا الْعُقُولْ
أَيْنَ مِنْكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا هَلْ تَرَاهَا أَوْ تَرَى كَيْفَ تَجُولْ
أَنْتَ أَكْلَ الْخُبْزِ لَا تَعْرِفُهُ كَيْفَ يَجْرِي فِيكَ أَمْ كَيْفَ يَؤُولْ
فَإِذَا كَانَتْ طَوَايَاكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ بِهَا أَنْتَ جَهُولْ
كَيْفَ تَدْرِي مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَا تَقُلْ كَيْفَ اسْتَوَى كَيْفَ الْوُصُولْ
فَهُوَ لَا كَيْفٌ وَلَا أَيْنٌ لَهُ هُوَ رَبُّ الْكَيْفِ وَالْكَيْفُ يَحُولْ
وَهُوَ فَوْقَ الْفَوْقِ لَا فَوْقٌ لَهُ وَهُوَ فِي كُلِّ النَّوَاحِي لَا يَزُولْ
جَلَّ ذَاتًا وَصِفَاتٍ وَعَلَا وَتَعَالَى رَبُّنَا عَمَّا نَقُولْ

٥ قصيدة لاحمد البرعي في الاستدلال على الحق تعالى

كُلُّ شَيْءٍ مِنْكُمْ عَلَيْكُمْ دَلِيلُ وَضَحَ الْحَقُّ وَاسْتَبَانَ السَّبِيلُ
أَحْدَثَ الْخَلْقَ بَيْنَ كَافٍ وَنُونٍ مَنْ يَكُونُ الْمُرَادُ حِينَ يَقُولُ
مَنْ أَقَامَ السَّمَاءَ سَقْفًا رَفِيعًا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهُ وَهُوَ كَلِيلُ
وَدَحَا الْأَرْضَ فَهْيَ بَحْرٌ وَبَرٌّ وَوُعُورٌ مَجْهُولَةٌ وَسُهُولُ
وَجِبَالٌ مُنِيفَةٌ شَامِخَاتٌ وَعُيُونٌ مَعِينَةٌ وَسُيُولُ
وَرِيَاحٌ تَهُبُّ فِي كُلِّ جَوٍّ وَسَحَابٌ يَسُوقُ الْجِهَاتِ ثَقِيلُ
وَدَرَارِيُّ كُمٌ وَشَمْسٌ وَبَدْرٌ وَنُجُومٌ طَوَالِعٌ وَأُفُولُ
حِكْمَةٌ تَاهَتِ الْبَصَائِرُ فِيهَا وَاعْتَرَاهَا دُونَ الذُّهُولِ ذُهُولُ

فَالسَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْعَرْشُ وَالْكُرْ ... سِيُّ وَالْحُجْبُ ذِكْرُهَا التَّهْلِيلُ
مُمْسِكُ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ وَمُحْيِي الْـ ... حُوتِ فِي الْمَاءِ فَهُوَ كَافٍ كَفِيلُ
سَرْمَدِيُّ الْبَقَا أَخِيرٌ قَدِيمٌ ... قَصَرَتْ عَنْ مَدَى عُلَاهُ الْعُقُولُ
حَيْثُ لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْهِ مَكَانٌ ... يَحْتَوِيهِ أَوْ غُدْوَةٌ وَأَصِيلُ
مَنْ لَهُ الْمُلْكُ وَالْمُلُوكُ عَبِيدٌ ... وَلَهُ الْعِزُّ وَالْعَزِيزُ ذَلِيلُ
كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ يَفْنَى وَيَبْلَى ... وَهُوَ حَيٌّ سُبْحَانَهُ لَا يَزُولُ
أَلِفَتْ بِرَّهُ الْبَرَايَا فَهُمْ فِي ... رَحْمَةٍ ظِلُّهَا عَلَيْهِمْ ظَلِيلُ
سَيِّدِي أَنْتَ مَقْصِدِي وَمُرَادِي ... أَنْتَ حَسْبِي وَأَنْتَ نِعْمَ الْوَكِيلُ
أَحْيِ قَلْبِي بِمَوْتِ نَفْسِي وَصِلْنِي ... وَأَنِلْنِي إِنَّ الْكَرِيمَ يُنِيلُ
وَأَجِرْنِي مِنْ كُلِّ خَطْبٍ جَلِيلٍ ... قَبْلَ قَوْلِ الْوُشَاةِ صَبْرٌ جَمِيلُ
وَافْتَقِدْنِي بِرَحْمَةٍ وَأَقِلْنِي ... مِنْ عِثَارِي فَإِنَّنِي مُسْتَقِيلُ
كَيْفَ يَظْمَا قَلْبِي وَعَفْوُكَ بَحْرٌ ... زَاخِرٌ طَافِحٌ عَرِيضٌ طَوِيلُ
رَبِّ صَفْحًا فَإِنَّ ذَنْبِي كَبِيرٌ ... وَاصْطِبَارِي عَلَى الْعَذَابِ قَلِيلُ
وَالرَّجَا فِيكَ وَالرِّضَا مِنْكَ فَضْلٌ ... وَلَكَ الْمَنُّ وَالْعَطَاءُ الْجَزِيلُ

٦ نخبة من متن بدء الامالي في التوحيد

يَقُولُ الْعَبْدُ فِي بَدْءِ الْأَمَالِي ... لِتَوْحِيدٍ بِنَظْمٍ كَاللَّآلِي
إِلَاهُ الْخَلْقِ مَوْلَانَا قَدِيمٌ ... وَمَوْصُوفٌ بِأَوْصَافِ الْكَمَالِ
هُوَ الْحَيُّ الْمُدَبِّرُ كُلَّ أَمْرٍ ... هُوَ الْحَقُّ الْمُقَدِّرُ ذُو الْجَلَالِ
صِفَاتُ اللهِ لَيْسَتْ عَيْنَ ذَاتٍ ... وَلَا غَيْرًا سِوَاهُ ذَا انْفِصَالِ

صِفَاتُ ٱلذَّاتِ وَٱلْأَفْعَالِ طُرًّا قَدِيمَاتٌ مَصُونَاتُ ٱلزَّوَالِ
نُسَمِّي ٱللهَ شَيْئًا لَا كَٱلْأَشْيَا وَذَاتًا عَنْ جِهَاتِ ٱلسِّتِّ خَالِ
وَلَيْسَ ٱلْإِسْمُ غَيْرًا لِلْمُسَمَّى لَدَى أَهْلِ ٱلْبَصِيرَةِ خَيْرِ آلِ
وَمَا إِنْ جَوْهَرٌ رَبِّي وَجِسْمٌ وَلَا كُلٌّ وَبَعْضٌ ذُو ٱشْتِمَالِ
وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ فَوْقَ ٱلْعَرْشِ لَكِنْ بِلَا وَصْفِ ٱلتَّمَكُّنِ وَٱتِّصَالِ
وَمَا ٱلتَّشْبِيهُ لِلرَّحْمَانِ وَجْهًا فَصُنْ عَنْ ذَاكَ أَصْنَافَ ٱلْأَهَالِي
وَلَا يَمْضِي عَلَى ٱلدَّيَّانِ وَقْتٌ وَأَحْوَالٌ وَأَزْمَانٌ بِحَالِ
وَمُسْتَغْنٍ إِلَاهِي عَنْ عِبَادٍ تَفَرَّدَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَذُو ٱلْمَعَالِي
يُمِيتُ ٱلْخَلْقَ طُرًّا ثُمَّ يُحْيِي فَيَجْزِيهِمْ عَلَى وَفْقِ ٱلْخِصَالِ
لِأَهْلِ ٱلْخَيْرِ جَنَّاتٌ وَنُعْمَى وَلِلْكُفَّارِ إِدْرَاكُ ٱلنَّكَالِ
وَلَا يَفْنَى ٱلْجَحِيمُ وَلَا ٱلْجِنَانُ وَلَا أَهْلُوهُمَا أَهْلُ ٱنْتِقَالِ
يَرَاهُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ كَيْفٍ وَإِدْرَاكٍ وَضَرْبٍ مِنْ مِثَالِ
فَيَنْسَوْنَ ٱلنَّعِيمَ إِذَا رَأَوْهُ فَيَا خُسْرَانَ أَهْلِ ٱلْإِعْتِزَالِ

٧ قصيدة للبرعي في الحق سبحانه

أَغِيبُ وَذُو ٱللَّطَائِفِ لَا يَغِيبُ وَأَرْجُوهُ رَجَاءً لَا يَخِيبُ
وَأَسْأَلُهُ ٱلسَّلَامَةَ مِنْ زَمَانٍ بُلِيتُ بِهِ نَوَائِبُهُ تُشِيبُ
وَأُنْزِلُ حَاجَتِي فِي كُلِّ حَالٍ إِلَى مَنْ تَطْمَئِنُّ بِهِ ٱلْقُلُوبُ
وَلَا أَرْجُو سِوَاهُ إِذَا دَهَانِي زَمَانُ ٱلْجَوْرِ وَٱلْجَارُ ٱلْمُرِيبُ
فَكَمْ لِلّٰهِ مِنْ تَدْبِيرِ أَمْرٍ طَوَتْهُ عَنِ ٱلْمُشَاهَدَةِ ٱلْغُيُوبُ

وَكَمْ فِي ٱلْغَيْبِ مِنْ تَيْسِيرِ عُسْرٍ ... وَمِنْ تَفْرِيجِ نَائِبَةٍ تَنُوبُ
وَمِنْ كَرَمٍ وَمِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ ... وَمِنْ فَرَجٍ تَزُولُ بِهِ ٱلْكُرُوبُ
وَمَا لِي غَيْرَ بَابِ ٱللهِ بَابٌ ... وَلَا مَوْلًى سِوَاهُ وَلَا حَبِيبُ
كَرِيمٌ مُنْعِمٌ بَرٌّ لَطِيفٌ ... جَمِيلُ ٱلسَّتْرِ لِلدَّاعِي مُجِيبُ
حَلِيمٌ لَا يُعَاجِلُ بِٱلْخَطَايَا ... رَحِيمٌ غَيْمُ رَحْمَتِهِ يَصُوبُ
فَيَا مَلِكَ ٱلْمُلُوكِ أَقِلْ عِثَارِي ... فَإِنِّي عَنْكَ أَنَّانِي ٱلذُّنُوبُ
وَأَمْرَضَنِي ٱلْهَوَى لِهَوَانِ حَظِّي ... وَلٰكِنْ لَيْسَ غَيْرُكَ لِي طَبِيبُ
وَعَانَدَنِي ٱلزَّمَانُ وَقَلَّ صَبْرِي ... وَضَاقَ بِعَبْدِكَ ٱلْبَلَدُ ٱلرَّحِيبُ
وَعَدِّ ٱلنَّائِبَاتِ إِلَى عَدُوِّي ... فَإِنَّ ٱلنَّائِبَاتِ لَهَا نُيُوبُ
وَآنَسَنِي بِأَوْلَادِي وَأَهْلِي ... فَقَدْ يَسْتَوْحِشُ ٱلرَّجُلُ ٱلْغَرِيبُ
وَلٰكِنِّي نَبَذْتُ زِمَامَ أَمْرِي ... لِمَنْ تَدْبِيرُهُ فِيهِ عَجِيبُ
هُوَ ٱلرَّحْمَانُ حَوْلِي وَٱعْتِصَامِي ... بِهِ وَإِلَيْهِ مُبْتَهِلًا أُنِيبُ
إِلٰهِي أَنْتَ تَعْلَمُ كَيْفَ حَالِي ... فَهَلْ يَا سَيِّدِي فَرَجٌ قَرِيبُ
وَكَمْ مُتَمَلِّقٍ يُخْفِي عِنَادًا ... وَأَنْتَ عَلَى سَرِيرَتِهِ رَقِيبُ
وَحَافِرِ حُفْرَةٍ لِي هَارَ فِيهَا ... وَسَهْمُ ٱلْبَغْيِ يَدْرِي مَنْ يُصِيبُ
وَمُمْتَنِعِ ٱلْقُوَى مُسْتَضْعَفٍ بِي ... قَصَمْتَ قُوَاهُ عَنِّي يَا حَسِيبُ
وَذِي عَصَبِيَّةٍ بِٱلْمَكْرِ يَسْعَى ... إِلَى سَعْيٍ بِهِ يَوْمٌ عَصِيبُ
فَيَا دَيَّانَ يَوْمِ ٱلدِّينِ فَرِّجْ ... هُمُومًا فِي ٱلْفُؤَادِ لَهَا دَبِيبُ
وَصِلْ حَبْلِي بِحَبْلِ رِضَاكَ وَٱنْظُرْ ... إِلَيَّ وَتُبْ عَلَيَّ عَسَى أَتُوبُ

وَرَاعِ حِمَايَتِي وَتَوَلَّ نَصْرِي وَشُدَّ عُرَايَ إِنْ عَرَتِ الْخُطُوبُ
وَأَفْنِ عِدَايَ وَاقْرِنْ نَجْمَ حَظِّي بِسَعْدٍ مَا لِطَالِعِهِ غُرُوبُ
وَأَلْهِمْنِي لِذِكْرِكَ طُولَ عُمْرِي فَإِنَّ بِذِكْرِكَ الدُّنْيَا تَطِيبُ
فَظَنِّي فِيكَ يَا سَنَدِي جَمِيلٌ وَمَرْعَى ذَوْدِ آمَالِي خَصِيبُ

٨ قصيدة لهُ في الابتهال الى الله تعالى

قِفْ بِالْخُضُوعِ وَنَادِ رَبَّكَ يَاهُو إِنَّ الْكَرِيمَ يُجِيبُ مَنْ نَادَاهُ
وَاطْلُبْ بِطَاعَتِهِ رِضَاهُ فَلَمْ يَزَلْ بِالْجُودِ يُرْضِي طَالِبِينَ رِضَاهُ
وَاسْأَلْهُ مَسْئَلَةً وَفَضْلًا إِنَّهُ مَبْسُوطَتَانِ لِسَائِلِيهِ يَدَاهُ
وَاقْصِدْهُ مُنْقَطِعًا إِلَيْهِ فَكُلُّ مَنْ يَرْجُوهُ مُنْقَطِعًا إِلَيْهِ كَفَاهُ
شَمَلَتْ لَطَائِفُهُ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا مَا لِلْخَلَائِقِ كَافِلٌ إِلَّا هُو
فَعَزِيزُهَا وَذَلِيلُهَا وَغَنِيُّهَا وَفَقِيرُهَا لَا يَرْتَجُونَ سِوَاهُ
مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَيَلْتَجِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقْرُهُمْ بِغِنَاهُ
هُوَ أَوَّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ هُوَ بَاطِنٌ لَيْسَ الْعُيُونُ تَرَاهُ
حَجَبَتْهُ أَسْرَارُ الْجَلَالِ فَدُونَهُ تَقِفُ الظُّنُونُ وَتَخْرَسُ الْأَفْوَاهُ
صَمَدٌ بِلَا كُفْءٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ أَبَدًا فَمَا النُّظَرَاءُ وَالْأَشْبَاهُ
شَهِدَتْ غَرَائِبُ صُنْعِهِ بِوُجُودِهِ لَوْلَاهُ مَا شَهِدَتْ بِهِ لَوْلَاهُ
وَإِلَيْهِ أَذْعَنَتِ الْعُقُولُ فَآمَنَتْ بِالْغَيْبِ تُؤْثِرُ حُبَّهَا إِيَّاهُ
سُبْحَانَ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِوَجْهِهِ وَلَهُ سُجُودٌ أَوْجُهٌ وَجِبَاهُ
طَوْعًا وَكَرْهًا خَاشِعِينَ لِعِزِّهِ وَلَهُ عَلَيْهَا الطَّوْعُ وَالْإِكْرَاهُ

سَلْ عَنْهُ دَارَاتِ الْوُجُودِ فَإِنَّهَا تَدْعُوهُ مَعْبُودًا لَهَا رَبَّاهُ
مَا كَانَ يُعْبَدُ مِنْ إِلَاهٍ غَيْرُهُ وَالْكُلُّ تَحْتَ الْقَهْرِ وَهُوَ إِلَاهُ
أَبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ مِنْ نُطْفَةٍ بَشَرًا سَوِيًّا جَلَّ مَنْ سَوَّاهُ
وَبَنَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَالْعَرْشَ وَالْـكُرْسِيَّ ثُمَّ عَلَا الْجَمِيعَ عُلَاهُ
وَدَحَا بَسِيطَ الْأَرْضِ فَرْشًا مُثْبِتًا بِالرَّاسِيَاتِ وَبِالنَّبَاتِ حُلَاهُ
تَجْرِي الرِّيَاحُ عَلَى اخْتِلَافِ هُبُوبِهَا عَنْ إِذْنِهِ وَالْفُلْكُ وَالْأَمْوَاهُ
رَبٌّ رَحِيمٌ مُشْفِقٌ مُتَعَطِّفٌ لَا يَنْتَهِي بِالْحَصْرِ مَا أَعْطَاهُ
كَمْ نِعْمَةٍ أَوْلَى وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ أَجْلَى وَكَمْ مِنْ مُبْتَلًى عَافَاهُ
فَإِذَا بُلِيتَ بِغُرْبَةٍ أَوْ كُرْبَةٍ فَادْعُ الْإِلَاهَ وَقُلْ سَرِيعًا يَا هُو
لَا يُحْسِنُ الظَّنَّ الْجَمِيلَ بِهِ يَرَى سُوءًا وَلَا رَاجِيهِ خَابَ رَجَاهُ
وَلِحِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يُعْصَى فَلَمْ يَعْجَلْ عَلَى عَبْدٍ عَصَى مَوْلَاهُ
يَأْتِيهِ مُعْتَذِرًا فَيَقْبَلُ عُذْرَهُ كَرَمًا وَيَغْفِرُ عَمْدَهُ وَخَطَاهُ

٩ وللبرعي في حمد الله

لَكَ الْحَمْدُ يَا مُسْتَوْجِبَ الْحَمْدِ دَائِمًا عَلَى كُلِّ حَالٍ حَمْدَ فَانٍ لِدَائِمِ
وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ تَسْبِيحَ شَاكِرٍ لِمَعْرُوفِكَ الْمَعْرُوفِ يَا ذَا الْمَرَاحِمِ
فَكَمْ لَكَ مِنْ سِتْرٍ عَلَى كُلِّ خَاطِئٍ وَكَمْ لَكَ مِنْ بِرٍّ عَلَى كُلِّ ظَالِمِ
وَجُودُكَ مَوْجُودٌ وَفَضْلُكَ فَائِضٌ وَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى لِكَشْفِ الْعَظَائِمِ
وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ مُؤَمِّلٍ وَبِرُّكَ مَمْنُوحٌ لِكُلِّ مُصَادِمِ
فَيَا فَالِقَ الْأَصْبَاحِ وَالْحَبِّ وَالنَّوَى وَيَا قَاسِمَ الْأَرْزَاقِ بَيْنَ الْعَوَالِمِ

وَيَا كَافِلَ الْحِيتَانِ فِي لُجِّ بَحْرِهَا ... وَمُؤْنِسَ فِي الْآفَاقِ وَحْشَ الْبَهَائِمِ
وَيَا مُحْصِيَ الْأَوْرَاقِ وَالنَّبْتِ وَالْحَصَى ... وَرَمْلِ الْفَلَا عَدًّا وَقَطْرَ الْغَمَائِمِ
إِلَيْكَ تَوَسَّلْنَا بِكَ اغْفِرْ ذُنُوبَنَا ... وَخَفِّفْ عَنِ الْعَاصِينَ ثِقْلَ الْمَظَالِمِ
وَحَبِّبْ إِلَيْنَا الْحَقَّ وَاعْصِمْ قُلُوبَنَا ... مِنَ الزَّيْغِ وَالْأَهْوَاءِ يَا خَيْرَ عَاصِمِ
وَدَمِّرْ أَعَادِينَا بِسُلْطَانِكَ الَّذِي ... أَذَلَّ وَأَفْنَى كُلَّ عَاتٍ وَغَاشِمِ
وَمُنَّ عَلَيْنَا يَوْمَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا ... بِسَتْرِ خَطَايَانَا وَمَحْوِ الْجَرَائِمِ

١٠ وله ايضاً من قصيدة في الرجاء بالله

لِكُلِّ خَطْبٍ مُهِمٍّ حَسْبِيَ اللهُ ... أَرْجُو بِهِ الْأَمْنَ مِمَّا كُنْتُ أَخْشَاهُ
وَأَسْتَغِيثُ بِهِ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... وَمَا مَلَاذِيَ فِي الدَّارَيْنِ إِلَّا هُو
ذُو الْمَنِّ وَالْمَجْدِ وَالْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَمَنْ ... يَدْعُوهُ سَائِلُهُ رَبَّاهُ رَبَّاهُ
لَهُ الْمَوَاهِبُ وَالْآلَاءُ وَالْمُثُلُ الْـ ... أَعْلَى الَّذِي لَا يُحِيطُ الْوَهْمُ عُلْيَاهُ
أَلْقَادِرُ الْآمِرُ النَّاهِي الْمُدَبِّرُ لَا ... يَرْضَى لَنَا الْكُفْرَ وَالْإِيمَانُ يَرْضَاهُ
مَنْ لَا يُقَالُ بِحَالٍ عَنْهُ كَيْفَ وَلَا ... لِفَضْلِهِ كَمْ تَعَالَى رَبُّنَا اللهُ
وَلَا يُغَيِّرُهُ مَرُّ الدُّهُورِ وَلَا ... كَرُّ الْعُصُورِ وَلَا الْأَحْدَاثُ تَغْشَاهُ
وَلَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْحُلُولِ وَلَا ... بِالِانْتِقَالِ دَنَا أَوْ نَاءَ حَاشَاهُ
أَنْشَا الْعَوَالِمَ أَعْلَامًا بِقُدْرَتِهِ ... وَأَغْرَقَ الْكُلَّ مِنْهُمْ بَحْرُ نُعْمَاهُ

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

لَسْتُ تُوَبِّ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا ... فَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ يَا عُدَّتِي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... وَمَنْ عَلَيْهِ لِدَفْعِ الضُّرِّ أَعْتَمِدُ

لَقَدْ مَدَدتُ يَدِي وَالضُّرُّ مُشْتَمِلٌ إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ

١١ قصيدة لعبد الغني النابلسي في الثقة بالله

كُنْ مَعَ اللهِ تَرَ اللهَ مَعَكْ وَاتْرُكِ الْكُلَّ وَحاذِرْ طَمَعَكْ
وَالْزَمِ الْقَنْعَ بِمَنْ أَنْتَ لَهُ فِي جَمِيعِ الْكَوْنِ حَتَّى يَسَعَكْ
بِالصَّفَا عَنْ كَدَرِ الْحِسِّ قَعِبْ وَاطْرَحِ الْأَغْيَارَ وَاتْرُكْ خُدَعَكْ
لَا تُمَوِّهْ بِكَ وَاطْلُبْ مِنْكَ مَا فَرَّ مِنْ يَوْمٍ بِشَانٍ ضَبَعَكْ
نُورُكَ اللهُ بِهِ كُنْ مُشْرِقًا وَاحْذَرِ الْأَضْدَادَ تُطْفِئْ شَمَعَكْ
وَاعْبُدِ اللهَ بِكَشْفٍ وَاصْطَبِرْ وَعَلَى الْكَشْفِ تَوَقَّ جَزَعَكْ
لَا تَقُلْ لَمْ يَفْتَحِ اللهُ وَلَا تَطْلُبِ الْفَتْحَ وَحَرِّرْ وَرَعَكْ
كَيْفَمَا شَاءَ فَكُنْ فِي يَدِهِ لَكَ إِنْ فَرَّقَ أَوْ إِنْ جَمَعَكْ
فِي الْوَرَى إِنْ شَاءَ خَفَّضَا ذِقَتَهُ وَإِذَا شَاءَ عَلَيْهِمْ رَفَعَكْ
وَإِذَا ضَرَّكَ لَا نَافِعَ مِنْ دُونِهِ وَالضُّرُّ لَا إِنْ نَفَعَكْ
وَإِذَا أَعْطَاكَ مَنْ يَمْنَعُهُ ثُمَّ مَنْ يُعْطِي إِذَا مَا مَنَعَكْ
لَيْسَ يُوقِيكَ أَذَاهُ أَحَدٌ وَإِنِ انْتَصَرْتَ فِيهِ شَيَّعَكْ
إِنَّمَا أَنْتَ لَهُ عَبْدٌ فَكُنْ جَاعِلًا بِالْقُرْبِ مِنْهُ وَلَعَكْ
كُلَّمَا نَابَكَ أَمْرٌ ثِقْ بِهِ وَاحْتَرِزْ لِلْغَيْرِ تَشْكُو وَجَعَكْ
لَا تُؤَمِّلْ مِنْ سِوَاهُ أَمَلًا إِنَّمَا يَسْقِيكَ مَنْ قَدْ زَرَعَكْ
لَيْتَ لَوْ تَشْعُرُ مَاذَا كُنْتَ مِنْ قَبْلِ مَا مَوْلَى الْمَوَالِي اخْتَرَعَكْ
كُنْتَ لَا شَيْءَ وَأَصْبَحْتَ بِهِ خَيْرَ شَيْءٍ بَشَرًا قَدْ طَبَعَكْ

تَابِعًا كُنْ دَائِمًا أَنْتَ وَلَا تَتَمَنَّ أَنَّهُ لَوْ تَبِعَكْ
وَدَعِ التَّدْبِيرَ فِي الْأَمْرِ لَهُ وَاصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعْ مَنْ صَنَعَكْ
وَاحْتَفِظْ حُرْمَةَ مَنْ يُبْصِرُ إِنْ رُمْتَ فِعْلًا أَوْ تُنَادِي سَمِعَكْ
كُنْ بِهِ مُعْتَصِمًا وَاخْضَعْ لَهُ لَا تُعَانِدْ فِيهِ وَاهْجُرْ بِدَعَكْ

١٢ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْمَانَ فِي هٰذَا الْمَعْنَى :

قَصْدِي رِضَاكَ بِكُلِّ وَجْهٍ أَمْكَنَا فَامْنُنْ عَلَيَّ بِذَاكَ مِنْ قَبْلِ الْفَنَا
وَلَئِنْ رَضِيتَ فَذَاكَ غَايَةُ مَطْلَبِي وَالْقَصْدُ كُلُّ الْقَصْدِ بَلْ كُلُّ الْمُنَى
لَوْ أَبْذِلَنْ رُوحِي فِدًى لَرَأَيْتُهَا أَمْرًا حَقِيرًا فِي جَنَابِكَ هَيِّنَا
وَبَقِيتُ فِي خَجَلٍ كَعَبْدٍ قَدْ جَنَى وَالْكُلُّ مُلْكُكُمُ فَمَا مِنِّي أَنَا
وَلَقَدْ تَفَضَّلْتُمْ بِإِيجَادِي كَمَا أَنْعَمْتُمُ أَيْضًا بِكَوْنِي مُؤْمِنَا
لَوْلَا تَطَوُّلُكُمْ عَلَيَّ وَفَضْلُكُمْ مَا كُنْتُ مَوْجُودًا وَلَا مِنِّي ثَنَا
مَنْ ذَا الَّذِي يَسْعَى وَيَشْكُو فَضْلَكُمْ لَوْ عَمَّرَ الْأَبَدِينَ يَشْكُرُ مُعْلِنَا
وَأَنَا الْمُسِيكِينُ الَّذِي قَدْ جَاءَكُمْ لِلْعَفْوِ مِنْكُمْ طَالِبًا وَلَقَدْ جَنَى
فَبِاسْمِكُمْ وَبِعِزِّكُمْ وَبِجَاهِكُمْ مُنُّوا عَلَيَّ وَأَذْهِبُوا عَنِّي الْعَنَا

قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ :

لَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ سِوَاكَ فَإِنْ يَفُتْ وَدَّعْتُ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَدَاعَا
لَا أَسْتَلِذُّ بِغَيْرِ وَجْهِكَ مَنْظَرًا وَسِوَى حَدِيثِكَ لَا أُرِيدُ سَمَاعَا

١٣ قصيدة للبابي في التوسّل والاستعطاف

هَوَتِ الْمَشَاعِرُ وَالْمَدَا رِكُ عَنْ مَعَارِجِ كِبْرِيَائِكْ

١٤ ـــــــ

إنَّ ٱلعِبادَ وشأنَهُمْ وأُمورَهُمْ ... بيدِ ٱلإلٰهِ يُقلِّبُ ٱلأحوالا
فَدَعِ ٱلعِبادَ ولا تكُنْ بِطِلابِهِمْ ... لَهِجًا تُضَعْضِعُ لِلعِبادِ سُؤالا

قالَ أبو ٱلفَتْحِ ٱلبُسْتيُّ:

تُقَى ٱللهِ وٱلزَمْ هُدى دينِهِ ... ومِنْ بَعْدِ ذا فَٱلزَمِ ٱلقَلْسَفَهْ
ولا تَغْتَرِرْ بِأُناسٍ رَضُوا ... مِنَ ٱلدِّينِ بِٱلزُّورِ وٱلسَّفْسَفَهْ
ودَعْ عَنْكَ قَوْمًا يَعِيبُونَهـا ... فَقَلْسَفَةُ ٱلمَرْءِ فَلُّ ٱلسَّفَهْ

لَمَّا حَضَرَتِ ٱلوَفاةُ أبا ٱلحَسَنِ ٱلهَمَدانيَّ أنشَدَ لِنَفْسِهِ:

قالُوا غَدًا نَأْتي دِيارَ ٱلحِمى ... ويَنْزِلُ ٱلرَّكْبُ بِمَغْناهُمْ
وكُلُّ مَنْ كانَ مُطيعًا لَهُمْ ... أَصْبَحَ مَسْرُورًا بِلُقْياهُمْ
فَقُلْتُ لي ذَنْبٌ فَما حِيلَتي ... بِأَيِّ وَجْهٍ أَتَلَقّاهُمْ
قالُوا أَلَيْسَ ٱلعَفْوُ شأنَهُمْ ... لاسِيَّما عَمَّنْ تَرَجّاهُمْ

الباب الثاني في الزهد

الزهد في الدنيا والانقطاع الى الله

١٥ (مِنَ ٱلتَّهَجُّدِ) خَلَقَ ٱللهُ ٱلخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طاعَتِهِمْ آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ. لِأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصاهُ ولا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أَطاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعايِشَهُمْ ووَضَعَهُمْ فِي ٱلدُّنْيا مَواضِعَهُمْ. فَٱلمُتَّقُونَ فِيها هُمْ أَهْلُ ٱلفَضائِلِ. مَنْطِقُهُمُ ٱلصَّوابُ ومَلْبَسُهُمُ ٱلِٱقْتِصادُ ومَمْشاهُمُ

١٦ ـــــــ

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ . قَلِيلاً زَلَلُهُ . خَاشِعاً قَلْبُهُ . قَانِعَةً نَفْسُهُ . مَتْرُوراً أَكْلُهُ . سَهْلاً أَمْرُهُ . حَرِيزاً دِينُهُ . مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ . مَكْظُوماً غَيْظُهُ . إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ . وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ . يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ . وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ . وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ . بَعِيداً فُحْشُهُ . لَيِّناً قَوْلُهُ . غَائِباً مُنْكَرُهُ . حَاضِراً مَعْرُوفُهُ . مُقْبِلاً خَيْرُهُ . مُدْبِراً شَرُّهُ . فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ . وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ . وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ . لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ . وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ . يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ . لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ . وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ . وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ . وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ . وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ . وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ . وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ . إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ . وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ . وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ . نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ . بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ . وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ . لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ

(الكشكول لبهاء الدين العاملي)

١٦ قصيدة للبرعي في الزهد

أَحْبَابَ قَلْبِي مَضَى زَمَانِي وَتَنَغَّصَتْ عَيْشِيَ الْهُمُومُ
وَفَرَّقَ الْمَوْتُ أَهْلَ عَصْرِي فَلَا صَدِيقٌ وَلَا حَمِيمُ
وَأَخْلَفَ الدَّهْرُ خَلْفَ سَوْءٍ كَأَنَّنِي بَيْنَهُمْ يَتِيمُ

١٨ ـــــــ

مُنِعَ لَمْ يَقْنَعْ. يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي. وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي. يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ. وَيُبْغِضُ الْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ. وَيَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ لَهُ. إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِمًا وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِيًا. يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ. إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا. وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرًّا. تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا تَظُنُّ وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ. يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ. إِنِ اسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُتِنَ. وَإِنِ افْتَقَرَ قَنِطَ وَوَهِنَ. يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ. وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ. إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ. وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ. يَصِفُ الْعِبَرَ وَلَا يَعْتَبِرُ. وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَّعِظُ. فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ. وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ. يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى. يَرَى الْغُنْمَ مَغْرَمًا. وَالْغُرْمَ مَغْنَمًا. يَخْشَى الْمَوْتَ. وَلَا يُبَادِرُ الْفَوْتَ. يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ. وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَحْتَقِرُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ. فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ. وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ. اَللَّهْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ. يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ. يُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيُغْوِي نَفْسَهُ. فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي. وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوفِي. وَيَخْشَى الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ رَبِّهِ وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ. قَالَ جَامِعُ النَّهْجِ: كَفَى بِهٰذَا الْكَلَامِ مَوْعِظَةً نَاجِعَةً وَحِكْمَةً بَالِغَةً وَبَصِيرَةً لِمُبْصِرٍ وَعِبْرَةً لِنَاظِرٍ مُفَكِّرٍ (لبهاء الدين)

٢٠ ـــــــ

لَيسَ الأَصَمُّ وَلَا الأَعمَى سِوَى رَجُلٍ ... لَمْ يَهدِهِ الهَادِيَانِ العَينُ وَالأَثَرُ
لَا الدَّهرُ يَبقَى وَلَا الدُّنيَا وَلَا الفَلَكُ الـ ... أَعلَى وَلَا النَّيِّرَانِ الشَّمسُ وَالقَمَرُ
لَيَرحَلَنَّ عَنِ الدُّنيَا وَإِنْ كَرِهَا ... فِرَاقَهَا الثَّاوِيَانِ البَدوُ وَالحَضَرُ

١٩ قَالَ ابنُ جُبَيرٍ الكِنَانِيُّ أَحَدُ الرَّاحِلِينَ إِلَى المَشرِقِ:

عَجِبتُ لِلمَرءِ فِي دُنيَاهُ تُطمِعُهُ ... فِي العَيشِ وَالأَجَلُ المَحتُومُ يَقطَعُهُ
يُمسِي وَيُصبِحُ فِي عَشوَاءَ يَخبِطُهَا ... أَعمَى البَصِيرَةِ وَالآمَالُ تَخدَعُهُ
يَغتَرُّ بِالدَّهرِ مَسرُورًا بِصُحبَتِهِ ... وَقَد تَيَقَّنَ أَنَّ الدَّهرَ يَصرَعُهُ
وَيَجمَعُ المَالَ حِرصًا لَا يُفَارِقُهُ ... وَقَد دَرَى أَنَّهُ لِلغَيرِ يَجمَعُهُ
تَرَاهُ يُشفِقُ مِن تَضيِيعِ دِرهَمِهِ ... وَلَيسَ يُشفِقُ مِن دِينٍ يُضَيِّعُهُ
وَأَسوَأُ النَّاسِ تَدبِيرًا لِعَاقِبَةٍ ... مَن أَنفَقَ العُمرَ فِي مَا لَيسَ يَنفَعُهُ

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ الحِمْيَرِيُّ مِن قَصِيدَةٍ:

فُؤَادٌ بِأَيدِي النَّائِبَاتِ مُصَابُ ... وَجَفنٌ لِقَبضِ الدَّمعِ فِيهِ مُصَابُ
تَنَاءَتْ دِيَارٌ قَد أَلِفتُ وَجِيرَةٌ ... فَهَل لِي إِلَى عَهدِ الوِصَالِ إِيَابُ
وَفَارَقتُ أَوطَانِي وَلَم أَبلُغِ المُنَى ... وَدُونَ مُرَادِي أَبحُرٌ وَهِضَابُ
مَضَى زَمَنِي وَالشَّيبُ حَلَّ بِمَفرِقِي ... وَأَبعَدُ شَيءٍ أَن يَرُدَّ شَبَابُ
إِذَا مَرَّ عُمرُ المَرءِ لَيسَ بِرَاجِعٍ ... وَإِن حَلَّ شَيبٌ لَم يُفِدهُ خِضَابُ

ذو النون والزاهدة

٢٠ قَالَ ذُو النُّونِ بَينَا أَنَا أَسِيرُ عَلَى سَاحِلِ البَحرِ إِذ بَصُرتُ بِجَارِيَةٍ عَلَيهَا أَطمَارُ شَعرٍ. فَإِذَا هِيَ نَاحِلَةٌ ذَابِلَةٌ. فَدَنَوتُ مِنهَا لِأَسمَعَ مَا تَقُولُ.

فَرَأَيْتُهَا مُتَّصِلَةَ الْأَحْزَانِ بِالْأَشْجَانِ. وَعَصَفَتِ الرِّيَاحُ وَاضْطَرَبَتِ الْأَمْوَاجُ وَظَهَرَتِ الْحِيتَانُ. فَصَرَخَتْ ثُمَّ سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ. فَلَمَّا قَامَتْ نَحَبَتْ ثُمَّ قَالَتْ: سَيِّدِي بِكَ تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ فِي الْخَلَوَاتِ. وَلِعَظَمَتِكَ سَبَّحَتِ النِّينَانُ فِي الْبِحَارِ الزَّاخِرَاتِ. وَلِجَلَالِ قُدْسِكَ تَصَافَقَتِ الْأَمْوَاجُ الْمُتَلَاطِمَاتُ. أَنْتَ الَّذِي سَجَدَ لَكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَضَوْءُ النَّهَارِ. وَالْفَلَكُ الدَّوَّارُ وَالْبَحْرُ الزَّخَّارُ. وَالْقَمَرُ النَّوَّارُ وَالنَّجْمُ الزَّهَّارُ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ بِمِقْدَارٍ لِأَنَّكَ الْعَلِيُّ الْقَهَّارُ. ثُمَّ أَنْشَدَتْ:

يَا مُؤْنِسَ الْأَبْرَارِ فِي خَلَوَاتِهِمْ ... يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّتْ بِهِ الرُّحَّالُ
مَنْ ذَاقَ حُبَّكَ لَا يَزَالُ مُتَيَّمًا ... قَرِحَ الْفُؤَادَ مُتَيَّمًا بَلْبَالُ

فَقُلْتُ لَهَا: عَسَى أَنْ تَزِيدِينِي مِنْ هٰذَا. فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي. ثُمَّ رَفَعَتْ طَرْفَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ فَقَالَتْ:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الْوَدَادِ ... وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَا
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْوَدَادِ ... فَحُبٌّ شُغِلْتُ بِهِ عَنْ سِوَاكَا
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ لِلْحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَا
فَمَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي ... وَلٰكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَا

ثُمَّ شَهِقَتْ شَهْقَةً فَإِذَا هِيَ قَدْ فَارَقَتِ الدُّنْيَا (اسواق الاشواق للمقاعي)

ذلّة الدنيا

٢١ قِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: صِفْ لَنَا الدُّنْيَا فَقَالَ: أَمَلٌ بَيْنَ يَدَيْكَ. وَأَجَلٌ مُطِلٌّ عَلَيْكَ. وَشَيْطَانٌ فَتَّانٌ. وَأَمَانِيُّ جَرَّارَةُ الْعِنَانِ. تَدْعُوكَ

فَسَتُجِيبُ. وَتَرْجُرُهَا فَتَخِيبُ. نَاقِضَةٌ لِلْعَزِيمَةِ مُرْتَجِعَةٌ لِلْعَطِيَّةِ. كُلُّ مَنْ فِيهَا يَجْرِي. إِلَى مَا لَا يَدْرِي. وَقَالَ أَبُو الْعَرَبِ الصِّقِلِّيُّ:

وَلَا يَغُرُّكَ مِنْهَا حُسْنُ بُرْدٍ لَهُ عَلَمَانِ مِنْ عَلَمِ الذَّهَابِ
فَأَوَّلُهُ رَجَاءٌ مِنْ سَرَابٍ وَآخِرُهُ رِدَاءٌ مِنْ تُرَابِ

قَالَ ابْنُ قَاضِي مِيلَةَ:

لِدُنْيَاكَ نُورٌ وَلَكِنَّهُ ظَلَامٌ يَحَارُ بِهِ الْمُبْصِرُ
فَإِنْ عِشْتَ فِيهَا عَلَى أَنَّهَا كَمَا قِيلَ فَنْطَرَةٌ تُعْبَرُ
فَلَا تَعْمُرَنَّ بِهَا مَنْزِلًا فَإِنَّ الْخَرَابَ لِمَا تَعْمُرُ
وَلَا تَدَّخِرَنَّ خِلَافَ التُّقَى فَتَفْنَى وَيَبْقَى الَّذِي تَدَّخِرُ

٢٢ وَمِنْ جَيِّدِ شِعْرِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ قَوْلُهُ:

وَاعَجَبًا لِلنَّاسِ لَوْ فَكَّرُوا وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ أَبْصَرُوا
وَعَبَرُوا الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِهَا فَإِنَّمَا الدُّنْيَا لَهُمْ مَعْبَرُ
أَلْخَيْرُ مِمَّا لَيْسَ يَخْفَى هُوَ الْمَعْرُوفُ وَالشَّرُّ هُوَ الْمُنْكَرُ
وَالْمَوْعِدُ الْمَوْتُ وَمَا بَعْدَهُ الْحَشْرُ فَذَاكَ الْمَوْعِدُ الْأَكْبَرُ
لَا فَخْرَ إِلَّا فَخْرُ أَهْلِ التُّقَى غَدًا إِذَا ضَمَّهُمُ الْمَحْشَرُ
لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ التُّقَى وَالْبِرَّ كَانَا خَيْرَ مَا يُذْخَرُ

زوال الدنيا

٢٣ (مِنَ النَّهْجِ.) وَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ. وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جَدَّ بِكُمُ السَّيْرُ.

وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ. وَكُونُوا قَوْمًا صِيحَ بِهِمْ فَأَنْتَبَهُوا. وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا. فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى. وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ. وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ. وَإِنَّ غَائِبًا يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ. وَإِنَّ قَادِمًا يَقْدَمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشَّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ. فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ نُفُوسَكُمْ غَدًا. فَأَتَّقَى عَبْدٍ مَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ. فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ. وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا. وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا. حَتَّى تَهْجُمَ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا. فَيَالَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ أَنْ يَكُونَ عُمْرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً. وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى شَقْوَةٍ. نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ. وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ. وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ

(لبهاء الدين)

قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

عَلَيْكُمْ سَلَامُ اللهِ إِنِّي مُوَدِّعٌ ... وَعَيْنَايَ مِنْ مَضِّ الْفِرَاقِ تَدْمَعُ
فَإِنْ نَحْنُ عِشْنَا يَجْمَعُ اللهُ بَيْنَنَا ... وَإِنْ نَحْنُ مُتْنَا فَالْقِيَامَةُ تَجْمَعُ
أَلَمْ تَرَ رَيْبَ الدَّهْرِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ... لَهُ عَارِضٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ
أَيَا بَانِيَ الدُّنْيَا لِغَيْرِكَ تَبْتَنِي ... وَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ

أَرَى ٱلْمَرْءَ وَثَّابًا عَلَى كُلِّ فُرْصَةٍ ... وَلِلْمَرْءِ يَوْمًا لَا مَحَالَةَ مَصْرَعُ
تَبَارَكَ مَنْ لَا يَمْلِكُ ٱلْمُلْكَ غَيْرُهُ ... مَتَى تَنْقَضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ يَشْبَعُ
وَأَيُّ ٱمْرِئٍ فِي غَايَةٍ لَيْسَ نَفْسُهُ ... إِلَى غَايَةٍ أُخْرَى سِوَاهَا تَطَلَّعُ

٢٤ قَالَ أَيْضًا:

طُولُ ٱلتَّعَاشُرِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَمْلُولُ ... مَا لِٱبْنِ آدَمَ إِنْ فَتَّشْتَ مَعْقُولُ
يَا رَاعِيَ ٱلشَّاءِ لَا تُغْفِلْ رِعَايَتَهَا ... فَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا ٱسْتُرْعِيتَ مَسْؤُولُ
إِنِّي لَفِي مَنْزِلٍ مَا زِلْتُ أَعْمُرُهُ ... عَلَى يَقِينِي بِأَنِّي عَنْهُ مَنْقُولُ
وَلَيْسَ مِنْ مَوْضِعٍ يَأْتِيهِ ذُو نَفَسٍ ... إِلَّا وَلِلْمَوْتِ سَيْفٌ فِيهِ مَسْلُولُ
لَمْ يُشْغِلِ ٱلْمَوْتُ عَنَّا مُذْ أُعِدَّ لَنَا ... وَكُلِّنَا عَنْهُ بِٱللَّذَّاتِ مَشْغُولُ
وَمَنْ يَمُتْ فَهُوَ مَقْطُوعٌ وَمُجْتَنَبٌ ... وَٱلْحَيُّ مَا عَاشَ مَغْشِيٌّ وَمَوْصُولُ
كُلُّ مَا بَدَا لَكَ فَٱلْآكَالُ فَانِيَةٌ ... وَكُلُّ ذِي أُكُلٍ لَا بُدَّ مَأْكُولُ

٢٥ قَالَ ٱلْأَسْوَدُ ٱلدَّارِمِيُّ بَعْدَ نَكْبَةِ ٱلْأَكَاسِرَةِ لِآلِ ٱلْمُحَرِّقِ:

مَاذَا نُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَهْلَ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى رُسُومِ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ ... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ ٱلْأَوْتَادِ
فَإِذَا ٱلنَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

٢٦ وَمِنْ رَقِيقِ مَا جَاءَ فِي ٱلزُّهْدِ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ:

تَعالَى اللهُ يا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الحِرْصُ أَعْناقَ الرِّجالِ
هَبِ الدُّنْيا تُساقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذٰلِكَ لِلزَّوالِ
تَعَنَّى نَفْسِي إِلَيَّ مِنَ اللَّيالِي تَصَرُّفُهُنَّ حالًا بَعْدَ حالِ
فَمالِي لَسْتُ مَشْغُولًا بِنَفْسِي وَمالِي لا أَخافُ المَوْتَ مالِي
أَما فِي السّالِفِينَ لِيَ اعْتِبارٌ وَما لاقَوْهُ لَمْ يَخْطُرْ بِبالِي
كَأَنِّي بِالمَنِيَّةِ أَزْعَجَتْنِي وَنَعْشِي بَيْنَ أَرْبَعَةٍ عِجالِ
وَخَلْفِي نِسْوَةٌ يَبْكِينَ بَعْدِي كَأَنَّ قُلُوبَهُنَّ عَلَى المَقالِي
وَحَقِّكَ كُلُّ ذا يَفْنَى سَرِيعًا وَلا شَيْءٌ يَدُومُ مَعَ اللَّيالِي

قالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طالِبٍ:

إِنَّما نِعْمَةُ دُنْيا مُتْعَةٌ وَحَياةُ المَرْءِ ثَوْبٌ مُسْتَعارْ
وَصُرُوفُ الدَّهْرِ فِي أَطْباقِهِ حَلَقَةٌ فِيها ارْتِفاعٌ وَانْحِدارْ
بَيْنَما الإِنْسانُ فِي عَلْيائِها إِذْ هَوَى فِي هُوَّةٍ مِنْها فَغارْ

٢٧ قَدْ شَبَّهَ بَعْضُهُمُ الدُّنْيا بِخَيالِ الظِّلِّ فَقالَ:

رَأَيْتُ خَيالَ الظِّلِّ أَعْظَمَ عِبْرَةً لِمَنْ كانَ فِي عِلْمِ الحَقائِقِ راقِي
شُخُوصًا وَأَشْباحًا يُخالِفُ بَعْضُها لِبَعْضٍ وَأَشْكالًا بِغَيْرِ وِفاقِ
تَجِيءُ وَتَمْضِي بابَةً بَعْدَ بابَةٍ وَتَفْنَى جَمِيعًا وَالمُحَرِّكُ باقِ

وَقالَ شَرَفُ بْنُ أَسَدٍ فِي مَعْناهُ:

يا مَنْ تَمَلَّكَ مُلْكًا لا بَقاءَ لَهُ حَمَّلْتَ نَفْسَكَ آثامًا وَأَوْزارا
هَلِ الحَياةُ بِذِي الدُّنْيا وَإِنْ عَذُبَتْ إِلَّا كَطَيْفِ خَيالٍ فِي الكَرَى زارا

وقال بعضهم :

وغايةُ هذي الدارِ لذةُ ساعةٍ ... ويعقبُها الأحزانُ والهمُّ والندمْ
وهاتيكَ دارُ الأمنِ والعزِّ والتقى ... ورحمةِ ربِّ الناسِ والجودِ والكرمْ

٢٨ قال البستيُّ :

أقولُ لمنْ لاحَ المشيبُ بفودِهِ ... وألقيتُهُ عنْ غيِّهِ ليسَ يُقصِرُ
عذلتُكَ أنْ أضللتَ رشدكَ خاطئاً ... وليلُ الشبابِ الوحفُ داجٍ فمعذرُ
فهلْ لكَ في سنِّ الكهولةِ عاذرٌ ... إذا زغتَ عنْ قصدٍ وليلُكَ مقمرُ

قال ابنُ حاجبٍ يذكرُ إيوانَ كسرى :

يا منْ بنى بشاهقِ البنيانِ ... أنسيتَ صنعَ الدهرِ بالإيوانِ
هذي المصانعُ والدساكرُ والبنا ... وقصورُ كسرانا أنوشروانِ
كتبَ الليالي في ذراها أسطراً ... بيدِ البلى وأناملِ الحدثانِ
إنَّ الحوادثَ والخطوبَ إذا سطتْ ... أودتْ بكلِّ موثقِ الأركانِ

ذكر المنية والعواقب

٢٩ قال مالكُ بنُ دينارٍ :

أتيتُ القبورَ فنادَيتُها ... فأينَ المعظَّمُ والمحتقرْ
وأينَ المذلُّ بسلطانِهِ ... وأينَ المذكَّى إذا ما افتخرْ
فنُودِيتُ منْ بينِهِمْ لا أرى ... شخوصاً لهمْ ولا منْ أثرْ
تفانَوْا جميعاً فلا مخبرٌ ... وماتُوا جميعاً ومَاتَ الخبرْ
فيا سائلي عنْ أناسٍ مضَوْا ... أما لكَ فيما ترى معتبرْ

٢٨ ـــــــ

كُلُّنا فِي غَفْلَةٍ وَالْ مَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ
لِبَنِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّ يَا غَبُوقٌ وَصَبُوحُ
رُحْنَ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحْ نَ عَلَيْهِنَّ الْمُسُوحُ
كُلُّ نَطَّاحٍ مِنَ الدَّهْ رِ لَهُ يَوْمٌ نَطُوحُ
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْ كِينُ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمِّ رْتَ مَا عُمِّرَ نُوحُ

٣٢ قَالَ بَهَاءُ الدِّينِ زُهَيْرٌ:

لَيْتَ شِعْرِي لَيْتَ شِعْرِي . أَيُّ أَرْضٍ هِيَ قَبْرِي
ضَاعَ عُمْرِي فِي اغْتِرَابٍ وَرَحِيلٍ مُسْتَمِرِّ
وَمَتَى يَوْمُ وَفَاتِي لَيْتَنِي لَوْ كُنْتُ أَدْرِي
لَيْسَ لِي فِي كُلِّ أَرْضٍ جِئْتُهَا مِنْ مُسْتَقَرِّ
بَعْدَ هٰذَا لَيْتَنِي أَعْرِفُ مَا آخِرُ عُمْرِي
وَمَتَى أَخْلُصُ مِمَّا أَنَا فِيهِ لَيْتَ شِعْرِي
وَلَقَدْ آنَ بِأَنْ أَصْحُو فَمَالِي طَالَ سُكْرِي
أَتُرَى يُسْتَدْرَكُ الْفَا رِطُ مِنْ تَضْيِيعِ عُمْرِي

٣٣ قَالَ آخَرُ:

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ خَيْرًا وَأَنْتَ مَالِكُ مَالِكْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَتَفَانَى وَلَوْنُ حَالِكَ حَالِكْ
لَمْ تَدْرِ نَفْسُكَ حَقًّا أَيَّ الْمَسَالِكِ سَالِكْ

٣٠ ـــــــ

حَسْبُ الْحِمَامِ لَوَ ابْقَاهُمْ وَأَمْهَلَهُمْ أَلَّا يُظَنَّ عَلَى مَعْلُومِهِ حَسَنَا

٣٦ دَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْفَضْلِ عَلَى أَبِي حَفْصٍ الشِّطْرَنْجِيِّ يَعُودُهُ فِي عِلَّتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا. فَأَنْشَدَهُ قَوْلَهُ:

نَعَى لَكَ ظِلَّ الشَّبَابِ الْمَشِيبُ وَنَادَتْكَ بِاسْمِ سِوَاكَ الْخُطُوبُ
فَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِدَاعِي الْفَنَاءِ فَإِنَّ الَّذِي هُوَ آتٍ قَرِيبُ
أَلَسْنَا نَرَى شَهَوَاتِ النُّفُو سِ تَفْنَى وَتَبْقَى عَلَيْهَا الذُّنُوبُ
وَقَبْلَكَ دَاوَى الْمَرِيضَ الطَّبِيبُ فَمَاشَ الْمَرِيضُ وَمَاتَ الطَّبِيبُ
يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ

وَلِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمُ يَصِيرُ إِلَى الذَّهَابِ
أَلَا يَا مَوْتُ لَمْ أَرَ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ وَمَا تَحِيفُ وَمَا تُحَابِي
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبِي كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَى شَبَابِي

٣٧ وَجَاءَ فِي قَلَائِدِ الْعِقْيَانِ:

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَمَنْ بِالْأَرْضِ قَدْ عَمَرُوا قَدْ فَارَقُوا مَا بَنَوْا فِيهَا وَمَا عَمَرُوا
وَأَصْبَحُوا رَهْنَ قَبْرٍ بِالَّذِي عَمِلُوا عَادُوا رَمِيمًا بِهِ مِنْ بَعْدِ مَا دَثَرُوا
أَيْنَ الْعَسَاكِرُ مَا رَدَّتْ وَمَا نَفَعَتْ وَأَيْنَ مَا جَمَعُوا فِيهَا وَمَا ادَّخَرُوا
أَتَاهُمُ أَمْرُ رَبِّ الْعَرْشِ فِي عَجَلٍ لَمْ يُنْجِهِمْ مِنْهُ لَا مَالٌ وَلَا وَزَرُ

قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ وَلَهُ الْيَدُ الطُّولَى فِي مَعَانِي الزُّهْدِ:

اِعْمَدْ لِنَفْسِكَ وَاذْكُرْ سَاعَةَ الْأَجَلِ وَلَا تُغَرَّنَّ فِي دُنْيَاكَ بِالْأَمَلِ

٣٢ ـــــــ

كِتَابٌ فِي مَعَانِيهِ غُمُوضٌ تَلُوحُ لِكُلِّ أَوَّابٍ مُنِيبِ
أَزَالَ اللهُ يَا صَاحِي شَبَابِي فَعُوِّضْتُ الْبَغِيضَ مِنَ الْحَبِيبِ
وَبُدِّلْتُ التَّكَاسُلَ مِنْ نَشَاطِي وَمِنْ حُسْنِ النَّضَارَةِ بِالشُّحُوبِ
كَذَاكَ الشَّمْسُ يَعْلُوهَا اصْفِرَارٌ إِذَا جَنَحَتْ وَمَالَتْ لِلْغُرُوبِ

قَالَ الإِلْبِيرِيُّ:

كَأَنِّي بِنَفْسِي وَهِيَ فِي السَّكَرَاتِ تُعَالِجُ أَنْ تَرْقَى إِلَى اللَّهَوَاتِ
وَقَدْ زُمَّ رَحْلِي وَاسْتَقَلَّتْ رِكَابِي وَقَدْ آذَنَتْنِي بِالرَّحِيلِ حُدَاتِي
إِلَى مَنْزِلٍ فِيهِ عَذَابٌ وَرَحْمَةٌ وَكَمْ فِيهِ مِنْ زَجْرٍ لَنَا وَعِظَاتِ
وَمِنْ أَعْيُنٍ سَالَتْ عَلَى وَجَنَاتِهَا وَمِنْ أَوْجُهٍ فِي التُّرْبِ مُنْغَفِرَاتِ
وَكَمْ وَارِدٍ فِيهِ عَلَى مَا يَسُرُّهُ وَكَمْ وَارِدٍ فِيهِ عَلَى الْحَسَرَاتِ

في الدهر ونوائبه

٣٩ أَنْشَدَ الْخَلِيفَةُ الْمُعْتَضِدُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَصِيدَةً مِنْهَا:

وَلَا تَأْمَنَنَّ الدَّهْرَ إِنِّي أَمِنْتُهُ فَلَمْ يُبْقِ لِي خِلًّا وَلَمْ يَرْعَ لِي حَقًّا
قَتَلْتُ صَنَادِيدَ الرِّجَالِ وَلَمْ أَدَعْ عَدُوًّا وَلَمْ أُمْهِلْ عَلَى طَغْيِهِ خَلْقَا
وَأَخْلَيْتُ دَارَ الْمُلْكِ مِنْ كُلِّ نَازِعٍ فَشَرَّدْتُهُمْ غَرْبًا وَمَزَّقْتُهُمْ شَرْقَا
فَمَا بَلَغَتْ النَّجْمَ عِزًّا وَرِفْعَةً وَصَارَتْ رِقَابُ الْخَلْقِ أَجْمَعُ لِي رِقَّا
رَمَانِي الرَّدَى سَهْمًا فَأَخْمَدَ جَمْرَتِي فَهَا أَنَا ذَا فِي حُفْرَتِي عَاجِلًا أُلْقَى

قَالَ الإِمَامُ أَبُو مُظَفَّرٍ الأَبِيوَرْدِيُّ:

يَا مَنْ يُؤَمِّلُ أَنْ يَعِيشَ مُسَلَّمًا جَذَلَانَ لَا يُدْهَى بِخَطْبٍ يُحْزِنُ

٣٤ ـــــــ

وَرَبُّكَ رَزَّاقٌ كَمَا هُوَ غَافِرٌ فَلِمْ لَمْ تُصَدِّقْ فِيهِمَا بِالسَّوِيَّةِ
فَكَيْفَ تُرَجِّي الْعَفْوَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ وَلَسْتَ تُرَجِّي الرِّزْقَ إِلَّا بِحِيلَةِ
وَهَا هُوَ بِالْأَرْزَاقِ كَفَّلَ نَفْسَهُ وَلَمْ يَتَكَفَّلْ لِلْأَنَامِ بِجَنَّةِ
وَمَازِلْتَ تَسْعَى فِي الَّذِي قَدْ كُفِيتَهُ وَتُهْمِلُ مَا كُلِّفْتَهُ مِنْ وَظِيفَةِ
تُسِيءُ بِهِ ظَنًّا وَتُحْسِنُ تَارَةً عَلَى حَسَبِ مَا يَقْضِي الْهَوَى بِالْقَضِيَّةِ

٤١ للبرعي في الاغراء بالتوبة

يَا مُحْسِنًا بِالزَّمَانِ ظَنًّا لَمْ تَدْرِ مَا يَفْعَلُ الزَّمَانُ
لَا تَتْبَعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا إِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى هَوَانُ
وَاخْجَلْتِي مِنْ عِتَابِ رَبِّي إِنْ قَالَ أَسْرَفْتَ يَا فُلَانُ
إِلَى مَتَى أَنْتَ فِي الْمَعَاصِي تَسِيرُ مُرْخًى لَكَ الْعِنَانُ
لَوْ خَوَّفَتْكَ الْجَحِيمُ بَطْشِي لَشَوَّقَتْ قَلْبَكَ الْجِنَانُ
أَنْتَ شُجَاعٌ عَلَى الْمَعَاصِي وَأَنْتَ عَنْ طَاعَتِي جَبَانُ
عِنْدِي لَكَ الصُّلْحُ وَهُوَ بِرِّي وَعِنْدَكَ السَّيْفُ وَالسِّنَانُ
فَاسْتَحْيِ مِنْ شَيْبَةٍ تَرَاهَا فِي النَّارِ مَسْجُونَةً تُهَانُ
أَيُّ أَوَانٍ تَتُوبُ فِيهِ هَلْ بَعْدَ قَطْعِ الرَّجَا أَوَانُ
يَا سَيِّدِي هٰذِهِ عُيُونِي وَأَنْتَ فِي الْخَطْبِ مُسْتَعَانُ
يَا مَنْ لَهُ فِي الْعُصَاةِ شَأْنٌ وَشَأْنُهُ الْعَطْفُ وَالْحَنَانُ
يَا مَنْ مَلَا بِرُّهُ النَّوَاحِي لَمْ يَخْلُ مِنْ بِرِّهِ مَكَانُ
عَفْوًا فَإِنِّي رَهِينُ ذَنْبٍ حَاشَاكَ أَنْ يَغْلَقَ الرِّهَانُ

٤٢ قَالَ حُرَيْثُ بْنُ جَبَلَةَ الْعُذْرِيُّ وَقِيلَ عِشْيَرُ بْنُ لَبِيدٍ الْعُذْرِيُّ:

يَا قَلْبُ إِنَّكَ فِي الْأَحْيَاءِ مَغْرُورُ ... فَاذْكُرْ وَهَلْ يَنْفَعَنْكَ الْيَوْمَ تَذْكِيرُ
تُرِيدُ أَمْرًا فَمَا تَدْرِي أَعَاجِلُهُ ... خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ
فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَارْضَيَنَّ بِهِ ... فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطٌ ... إِذْ صَارَ فِي الرَّمْسِ تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَوَهُّمُهُ ... وَالدَّهْرُ فِي كُلِّ حَالَيْهِ دَهَارِيرُ
يَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مَسْرُورُ

قَالَ آخَرُ:

وَيْلِي إِذَا كَانَ الْجَحِيمُ جَزَائِي ... مَاذَا يَحِلُّ بِمُهْجَتِي وَبَهَائِي
يُبْلِي الْعَذَابُ مَحَاسِنِي وَيَشِينُهَا ... وَيَطُولُ مِنِّي فِي الْجَحِيمِ بُكَائِي
وَيَقُولُ لِي الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ ... يَا عَبْدَ سَوْءٍ أَنْتَ مِنْ أَعْدَائِي
بَارَزْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي جَاهِلًا ... وَنَسِيتَ وَعْدِي مَا تَخَافُ لِقَائِي
وَتَرَى وُجُوهَ الطَّائِعِينَ كَأَنَّهَا ... بَدْرٌ بَدَا فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءِ
كُشِفُوا الْحِجَابَ فَشَاهَدُوهُ وَأُدْهِشُوا ... وَكُسُوا نَعِيمًا دَائِمًا بِضِيَاءِ

٤٣ قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ خَاتِمَةَ مُسْتَغِيثًا بِهِ تَعَالَى:

يَا مَنْ يَغِيثُ الْوَرَى مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ... إِرْحَمْ عِبَادًا أَكُفُّ الْفَقْرِ قَدْ بَسَطُوا
عَوَّدْتَهُمْ بَسْطَ أَرْزَاقٍ بِلَا سَبَبٍ ... سِوَى جَمِيلِ رَجَاءٍ نَحْوَهُ انْبَسَطُوا
وَعَدْتَ بِالْفَضْلِ فِي وِرْدٍ وَفِي صَدَرٍ ... بِالْجُودِ إِنْ أَقْسَطُوا وَالْحِلْمِ إِنْ قَسَطُوا
عَوَارِفٌ ارْتَبَطَتْ ثُمَّ الْأَنُوفِ بِهَا ... وَكُلُّ صَعْبٍ بِقَيْدِ الْجُودِ يَرْتَبِطُ

يا مَن تَعَرَّفَ بِالْمَعْرُوفِ فَاعْتَرَفَتْ ... بِجَمِّ إِنْعَامِهِ الْأَطْرَافُ وَالْوَسَطُ
وَعَالِمًا بِخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ فَلَا ... وَهْمٌ يَجُوزُ عَلَيْهِ لَا وَلَا غَلَطُ
عَبْدٌ فَقِيرٌ بِبَابِ الْجُودِ مُنْكَسِرٌ ... مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوَافِي حِينَ يَنْضَغِطُ
مَهْمَا أَتَى لِيَمُدَّ الْكَفَّ أَخْجَلَهُ ... قَبَائِحٌ وَخَطَايَا أَمْرُهَا فَرَطُ
يَا وَاسِعًا ضَاقَ خَطْوُ الْخَلْقِ عَنْ نَعَمٍ ... مِنْهُ إِذَا خَطَوُا فِي شُكْرِهَا خَبَطُوا
وَنَاشِرًا بِيَدِ الْإِجْمَالِ رَحْمَتَهُ ... فَلَيْسَ يَلْحَقُ مِنْهُ مُسْرِفًا قَنَطُ
إِرْحَمْ عِبَادًا بِضَنْكِ الْعَيْشِ مَا لَهُمُ ... غَيْرَ الدُّجُنَّةِ لُحْفٌ وَالثَّرَى بُسُطُ
لَكِنَّهُمْ مِنْ ذُرَى عَلْيَاكَ فِي نَمَطٍ ... سَامٍ رَفِيعِ الذُّرَى مَا فَوْقَهُ نَمَطُ
وَمَنْ يَكُنْ بِالَّذِي يَهْوَاهُ مُجْتَمِعًا ... فَمَا يُبَالِي أَقَامَ الْحَيُّ أَمْ شَحَطُوا
نَحْنُ الْعَبِيدُ وَأَنْتَ الْمَلْكُ لَيْسَ سِوَى ... وَكُلُّ شَيْءٍ يُرَجَّى بَعْدَ ذَا شَطَطُ

قَالَ آخَرُ:

أَقْصَرْتُ عَنْ طَلَبِ الْبَطَالَةِ وَالصِّبَا ... لَمَّا عَلَانِي لِلْمَشِيبِ قِنَاعُ
لِلّٰهِ أَيَّامُ الشَّبَابِ وَأَهْلُهُ ... لَوْ أَنَّ أَيَّامَ الشَّبَابِ تُبَاعُ
فَدَعِ الصِّبَا يَا قَلْبُ وَالْهُ عَنِ الْهَوَى ... مَا فِيكَ بَعْدَ مَشِيبِكَ اسْتِمْتَاعُ
وَانْظُرْ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ مُوَدِّعٍ ... فَلَقَدْ دَنَا سَفَرٌ وَحَانَ وَدَاعُ
وَالْحَادِثَاتُ مُوَكَّلَاتٌ بِالْفَتَى ... وَالنَّاسُ بَعْدَ الْحَادِثَاتِ سَمَاعُ

قَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ:

تَعَافُ الْقَذَى فِي الْمَاءِ لَا تَسْتَطِيعُهُ ... وَتَكْرَعُ فِي حَوْضِ الذُّنُوبِ فَتَشْرَبُ
وَتُؤْثِرُ مِنْ أَكْلِ الطَّعَامِ أَلَذَّهُ ... وَلَا تَذْكُرُ الْمِسْكِينَ مِنْ أَيْنَ يَكْسِبُ

٣٨ ـــــــ

إِنَّ ٱلْحَبِيبَ مِنَ ٱلْأَحْبَابِ مُخْتَلَسُ لَا يَمْنَعُ ٱلْمَوْتَ بَوَّابٌ وَلَا حَرَسُ
فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِٱلدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا يَا مَنْ يَعُدُّ عَلَيْهِ ٱللَّفْظَ وَٱلنَّفَسُ
لَا يَرْحَمُ ٱلْمَوْتُ ذَا جَاهٍ لِعِزَّتِهِ وَلَا ٱلَّذِي كَانَ مِنْهُ ٱلْعِلْمُ يُقْتَبَسُ
قَدْ كَانَ قَصْرُكَ مَعْمُورًا لَهُ شَرَفٌ فَقَبْرُكَ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلْأَجْدَاثِ مُنْدَرِسُ

قَالَ ٱبْنُ ٱلزَّقَّاقِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ وَأَوْصَى أَنْ تُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ:

أَإِخْوَانَنَا وَٱلْمَوْتُ قَدْ حَالَ دُونَنَا وَلِلْمَوْتِ حُكْمٌ نَافِذٌ فِي ٱلْخَلَائِقِ
سَبَقْتُكُمُ لِلْمَوْتِ وَٱلْعُمْرُ طَيِّهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْكُلَّ لَا بُدَّ لَاحِقِ
بِعَيْشِكُمُ أَوْ بِٱضْطِجَاعِي فِي ٱلثَّرَى أَلَمْ تَكُ فِي صَفْوٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ رَائِقِ
فَمَنْ مَرَّ بِي فَلْيَمْضِ بِي مُتَرَحِّمًا وَلَا يَكُ مَنْسِيًّا وَفَاءَ ٱلْأَصَادِقِ

٤٦ أَمَرَ أَبُو ٱلصَّلْتِ ٱلْإِشْبِيلِيُّ أَنْ تُكْتَبَ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِهِ:

سَكَنْتُكِ يَا دَارَ ٱلْفَنَاءِ مُصَدِّقًا بِأَنِّي إِلَى دَارِ ٱلْبَقَاءِ أَصِيرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِي ٱلْأَمْرِ أَنِّي صَائِرٌ إِلَى عَادِلٍ فِي ٱلْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا وَزَادِي قَلِيلٌ وَٱلذُّنُوبُ كَثِيرُ
فَإِنْ أَكُ مَجْزِيًّا بِذَنْبِي فَإِنَّنِي بِشَرِّ عِقَابِ ٱلْمُذْنِبِينَ جَدِيرُ
وَإِنْ يَكُ عَفْوٌ ثَمَّ عَنِّي وَرَحْمَةٌ فَثَمَّ نَعِيمٌ زَائِدٌ وَسُرُورُ

حُفِرَتْ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِ ٱبْنِ بَاقٍ وَهِيَ مِنْ تَصْنِيفِهِ:

تَرَحَّمْ عَلَى قَبْرِ ٱبْنِ بَاقٍ وَحَيِّهِ فَمِنْ حَقِّ مَيْتِ ٱلْحَيِّ تَسْلِيمُ حَيِّهِ
وَقُلْ أَمَّنَ ٱلرَّحْمَانُ رَوْعَةَ خَائِفٍ لِتَفْرِيطِهِ فِي ٱلْوَاجِبَاتِ وَغَيِّهِ
وَإِنِّي بِفَضْلِ ٱللهِ أَوْثَقُ وَاثِقٍ وَحَسْبِي وَإِنْ أَذْنَبْتُ حُسْنُ صَفِيِّهِ

٤٧ قال أبو محمد المقري الخياط على لسان ميت:

أيها الزائرون بعد وفاتي جدثا ضمني ولحدا عميقا
سترون الذي رأيت من الموت عيانا وتسلكون طريقا

نظم أسعد مصطفى اللقيمي قبل موته تاريخا لقبره:

قبر به من أوثقته ذنوبه وتعدا لسوء فعاله متخوفا
قد ضاع منه عمره ببطالة والعيش منه بالتكدر ما صفا
ماذا طوى قبر اللقيمي أرخوا مستمنح للعفو أسعد مصطفى

٤٨ لما قتل سيف بن ذي يزن الحميري دفن في صنعاء بمقبرة ووضع في سريره عند رأسه لوح قد كتبت فيه هذه الأبيات:

أنا ابن ذي يزن من فرع ذي يمن ملكت من حد صنعاء إلى عدن
جلبت من فارس جيشا على عجل في البحر أحملهم فيه على السفن
حتى غزوت بهم قوما مهاجرة في البر جاسوا خلال الحي من يمن
بالخسف والذل حتى قال قائلهم ذوقوا ثمار ذوات الحقد والإحن
فأوقعوا بهم والدهر ذو دول حتى كأن مغار القوم لم يكن
حتى إذا ظفرت نفسي بما طلبت وزال ما كان في قلبي من الحزن
ونلت أكثر مما كنت آمله من قتلي الحبش حتى طاب لي وطني
جاء القضاء بما لا يستطاع له دفع ولا يشترى يا قوم بالثمن
من بعد ما جبت أحوالا مصرمة قطر البلاد فلم أعجز ولم أهن
قد صرت مرتهنا في قاع مظلمة لله دري من ثاو ومرتهن

الباب الثالث
في المراثي

رثاء اعرابية لابنها

٤٩ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : حَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ٱبْنٌ لَهَا فَأُصِيبَتْ بِهِ . فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ مُوجَعَةٌ فَقَالَتْ : وَٱللهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَذَوْتُكَ رَضِيعًا . وَفَقَدْتُكَ سَرِيعًا . وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلْحَالَيْنِ مُدَّةُ ٱلتَّذُّ بِعَيْشِكَ فِيهَا . فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ ٱلنَّضَارَةِ وَٱلْغَضَارَةِ وَرَوْنَقِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلتَّنَسُّمِ فِي طِيبِ رَوَائِحِهَا تَحْتَ أَطْبَاقِ ٱلثَّرَى جَسَدًا هَامِدًا وَرِفًا سَحِيقًا وَصَعِيدًا جُرُزًا . أَيْ بُنَيَّ قَدْ سَحَبَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ ٱلْفَنَا وَأَسْكَنَتْكَ دَارَ ٱلْبِلَى . وَرَمَتْنِي بَعْدَكَ نَكْبَةُ ٱلرَّدَى . أَيْ بُنَيَّ لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ ٱلدُّنْيَا صَبَاحُ دَاجٍ ظَلَامُهُ . (ثُمَّ قَالَتْ) : أَيْ رَبِّ وَمِنْكَ ٱلْعَدْلُ وَمِنْ خَلْقِكَ ٱلْجَوْرُ . وَهَبْتَهُ لِي قُرَّةَ عَيْنٍ فَلَمْ تُمَتِّعْنِي بِهِ كَثِيرًا بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكًا . ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِٱلصَّبْرِ وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ ٱلْأَجْرَ فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ وَرَضِيتُ قَضَاءَكَ . فَرَحِمَ ٱللهُ مَنْ تَرَحَّمَ عَلَى مَنِ ٱسْتَوْدَعَتْهُ ٱلرَّدَمَ وَوَسَّدَتْهُ ٱلثَّرَى . أَللّٰهُمَّ ٱرْحَمْ غُرْبَتَهُ وَأُنْسَ وَحْشَتَهُ وَٱسْتُرْ سَوْءَتَهُ يَوْمَ تُنْكَشَفُ ٱلسَّوْءَاتُ . (فَلَمَّا أَرَادَتِ ٱلرُّجُوعَ إِلَى أَهْلِهَا وَقَفَتْ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَتْ) : أَيْ بُنَيَّ إِنِّي قَدْ تَزَوَّدْتُ لِسَفَرِي فَلَيْتَ شِعْرِي مَا زَادُكَ لِبُعْدِ طَرِيقِكَ وَيَوْمِ مَعَادِكَ . أَللّٰهُمَّ إِنِّي

أَسْأَلُكَ لَهُ الرِّضَا بِرِضَايَ عَنْهُ. ثُمَّ قَالَتْ: أَسْتَوْدِعُكَ مَنْ أَسْتَوْدِعُكَ فِي أَحْشَائِي جَنِينًا، وَاثْكَلَ الْوَالِدَاتِ مَا أَمَضَّ حَرَارَةَ قُلُوبِهِنَّ وَأَقْلَقَ مَضَاجِعَهُنَّ وَأَطْوَلَ لَيْلَهُنَّ وَأَقْصَرَ نَهَارَهُنَّ وَأَقَلَّ أُنْسَهُنَّ وَأَشَدَّ وَحْشَتَهُنَّ. وَأَبْعَدَهُنَّ مِنَ السُّرُورِ وَأَقْرَبَهُنَّ مِنَ الْأَحْزَانِ. فَلَمْ تَزَلْ تَقُولُ هٰذَا وَنَحْوَهُ حَتَّى أَبْكَتْ كُلَّ مَنْ سَمِعَهَا. وَحَمِدَتِ اللهَ وَصَلَّتْ رَكَعَاتٍ عِنْدَ قَبْرِهِ وَانْطَلَقَتْ

الاحنف بن قيس والراثية

٥٠ لَمَّا دُفِنَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بِالْكُوفَةِ قَامَتِ امْرَأَةٌ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَتْ: لِلّٰهِ دَرُّكَ مِنْ مُجَنٍّ فِي جَنٍّ، وَمُدْرَجٍ فِي كَفَنٍ. نَسْأَلُ الَّذِي فَجَعَنَا بِمَوْتِكَ. وَابْتَلَانَا بِفَقْدِكَ. أَنْ يَجْعَلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ. وَدَلِيلَ الرُّشْدِ دَلِيلَكَ. وَأَنْ يُوَسِّعَ لَكَ فِي قَبْرِكَ. وَيَغْفِرَ لَكَ فِي حَشْرِكَ. فَلَقَدْ كُنْتَ فِي الْمَحَافِلِ شَرِيفًا. وَعَلَى الْأَرَامِلِ عَطُوفًا. وَلَقَدْ كُنْتَ فِي الْحَيِّ مُسَوَّدًا. وَإِلَى الْخَلِيفَةِ مُوَفَّدًا. وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمِعِينَ. وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ. وَأَنْتَ أَهْلُ لِحُسْنِ الثَّنَاءِ وَطِيبِ الْبَقَاءِ. أَمَا وَالَّذِي كُنْتَ مِنْ أَجَلِهِ فِي عِدَّةٍ. وَمِنَ الْحَيَاءِ إِلَى مُدَّةٍ. وَمِنَ الْمِقْدَارِ إِلَى غَايَةٍ. وَمِنَ الْآثَارِ إِلَى نِهَايَةٍ. الَّذِي رَفَعَ عَمَلَكَ لَمَّا قَضَى أَجَلَكَ. لَقَدْ عِشْتَ حَمِيدًا مَوْدُودًا. وَمُتَّ سَعِيدًا مَفْقُودًا. ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَهِيَ تَقُولُ:

لِلّٰهِ دَرُّكَ يَا أَبَا بَحْرٍ مَاذَا تَعَجَّبَ مِنْكَ فِي الْقَبْرِ
لِلّٰهِ دَرُّكَ أَيَّ حَشْوٍ ثَرًى أَصْبَحْتَ مِنْ عُرْفٍ وَمِنْ نُكْرِ

إِنْ كَانَ دَهْرٌ فِيكَ جَدَّ لَنَا حَدَثًا بِهِ وَهَنَتْ قُوَى ٱلصَّبْرِ
فَلَكَمْ يَدٍ أَسْدَيْتَهَا وَيَدٍ كَانَتْ تَرُدُّ جَرَائِرَ ٱلدَّهْرِ

ثُمَّ ٱنْصَرَفَتْ. فَقَالَ ٱلنَّاسُ: مَا سَمِعْنَا كَلَامَ ٱمْرَأَةٍ قَطُّ أَبْلَغَ وَلَا أَصْدَقَ مِنْهُ. فَسُئِلَ عَنْهَا فَإِذَا هِيَ ٱمْرَأَتُهُ (زهر الآداب للقيرواني)

٥١ قَالَ أَبُو حِبَالِ ٱلْبَرَاءِ بْنُ رِبْعِيٍّ ٱلْفَقْعَسِيُّ يَرْثِي إِخْوَتَهُ:

أَبَعْدَ بَنِي أُمِّي ٱلَّذِينَ تَتَابَعُوا أُرَجِّي حَيَاةً أَمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَجْزَعُ
ثَمَانِيَةٌ كَانُوا ذُؤَابَةَ قَوْمِهِمْ هُمُ كُنْتُ أُعْطِي مَا أَشَاءُ وَأَمْنَعُ
أُولَئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ وَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ
لَعَمْرُكَ إِنِّي بِٱلْخَلِيلِ ٱلَّذِي لَهُ عَلَيَّ دَلَالٌ وَاجِبٌ لَمُفَجَّعُ
وَإِنِّي بِٱلْمَوْلَى ٱلَّذِي لَيْسَ نَافِعِي وَلَا ضَائِرِي فِقْدَانُهُ لَمُمَتَّعُ

٥٢ وَقَالَ أَشْجَعُ بْنُ عَمْرٍو ٱلسُّلَمِيُّ فِي ٱبْنِ سَعِيدٍ:

مَضَى ٱبْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ ٱلصَّفَائِحُ
فَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ مَيِّتًا وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ ٱلصَّحَاصِحُ
سَأَبْكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغِضْ فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَحِنُّ ٱلْجَوَانِحُ
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَازِعٌ وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
كَأَنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ ٱلنَّوَائِحُ
لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ ٱلْمَرَاثِي وَذِكْرُهَا لَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ ٱلْمَدَائِحُ

٥٣ وَقَالَ مُوَيْلِكٌ ٱلْمَزْمُومُ يَرْثِي ٱمْرَأَتَهُ أُمَّ ٱلْعَلَاءِ:

أَمْرُرْ عَلَى الْجَدَثِ الَّذِي حَلَّتْ بِهِ ... أُمُّ الْعَلَاءِ فَنَادِهَا لَوْ تَسْمَعُ
آنَّى حَلَلْتِ وَكُنْتِ جِدَّ فَرُوقَةٍ ... بَلَدًا يَمُرُّ بِهِ الشُّجَاعُ فَيَفْزَعُ
صَلَّى عَلَيْكِ اللهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ ... إِذْ لَا يُلَائِمُكِ الْمَكَانُ الْبَلْقَعُ
فَلَقَدْ تَرَكْتِ صَغِيرَةً مَرْحُومَةً ... لَمْ تَدْرِ مَا جَزَعٌ عَلَيْكِ فَتَجْزَعُ
فَقَدَتْ شَمَائِلَ مِنْ لِزَامِكِ حُلْوَةً ... فَتَبِيتُ تُسْهِرُ أَهْلَهَا وَتُفَجِّعُ
وَإِذَا سَمِعْتُ أَنِينَهَا فِي لَيْلِهَا ... طَفِقَتْ عَلَيْكِ شُؤُونُ عَيْنِي تَدْمَعُ

٥٤ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ يَرْثِي بَنِيهِ :

أَسُكَّانَ بَطْنِ الْأَرْضِ لَوْ يُقْبَلُ الْفِدَا ... فَدَيْنَا وَأَعْطَيْنَاكُمُ سَاكِنِي الظَّهْرِ
فَيَا لَيْتَ مَنْ فِيهَا عَلَيْهَا وَلَيْتَ مَنْ ... عَلَيْهَا ثَوَى فِيهَا مُقِيمًا إِلَى الْحَشْرِ
وَقَاسَمَنِي دَهْرِي بَنِيَّ مُشَاطِرًا ... فَلَمَّا تَقَضَّى شَطْرُهُ مَالَ فِي شَطْرِي
فَصَارُوا دُيُونًا لِلْمَنَايَا وَلَمْ يَكُنْ ... عَلَيْهِمْ لَهَا دَيْنٌ قَضَوْهُ عَلَى عُسْرِ
كَأَنَّهُمُ لَمْ يَعْرِفِ الْمَوْتُ غَيْرَهُمْ ... فَشُكْلٌ عَلَى ثُكْلٍ وَقَبْرٌ إِلَى قَبْرِ
وَقَدْ كُنْتُ حَيَّ الْخَوْفِ قَبْلَ وَفَاتِهِمْ ... فَلَمَّا تُوُفُّوا مَاتَ خَوْفِي مِنَ الدَّهْرِ
فَلِلّٰهِ مَا أَعْطَى وَلِلّٰهِ مَا حَوَى ... وَلَيْسَ لِأَيَّامِ الرَّزِيَّةِ كَالصَّبْرِ

رَثَى ذُو الْوِزَارَتَيْنِ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَجُلًا مَاتَ مَجْذُومًا .

مَاتَ مَنْ كُنَّا نَرَاهُ أَبَدًا ... سَالِمَ الْعَقْلِ سَقِيمَ الْجَسَدِ
كَانَ مِثْلَ السَّيْفِ إِلَّا أَنَّهُ ... حُسِدَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ فَصَدِي

٥٥ قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ يَرْثِي وَلَدًا لَهُ :

قَصَدَ الْمَنُونُ لَهُ فَمَاتَ فَقِيدًا ... وَمَضَى عَلَى صَرْفِ الْخُطُوبِ حَمِيدًا

بِأَبِي وَأُمِّي هَالِكًا أُفْرِدْتُهُ قَدْ كَانَ فِي كُلِّ الْعُلُومِ فَرِيدَا
سُودُ الْمَقَابِرِ أَصْبَحَتْ بِيضًا بِهِ وَغَدَتْ لَهُ بِيضُ الضَّمَائِرِ سُودَا
لَمْ نُزْرَهُ لَمَّا رُزِينَا وَحْدَهُ وَإِنِ اسْتَقَلَّ بِهِ الْمَنُونُ وَحِيدَا
لَكِنْ رُزِينَا الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ فِي فَضْلِهِ وَالْأَسْوَدَ بْنَ يَزِيدَا
وَابْنَ الْمُبَارَكِ فِي الرَّقَائِقِ مُعْمَرًا وَابْنَ الْمُسَيَّبِ فِي الْحَدِيثِ سَعِيدَا
وَالْأَخْفَشَيْنِ فَصَاحَةً وَبَلَاغَةً وَالْأَعْشَيَيْنِ رِوَايَةً وَنَشِيدَا
كَانَ الْوَصِيَّ إِذَا أَرَدتَ وَصِيَّةً وَالْمُسْتَفَادَ إِذَا طَلَبْتَ مُفِيدَا
وَلَّى حَفِيظًا فِي الْأَزِمَّةِ حَافِظًا وَمَضَى وَدُودًا فِي الْوَرَى مَوْدُودَا
مَا كَانَ مِثْلِي فِي الرَّزِيَّةِ وَالِدًا ظَفِرَتْ يَدَاهُ بِمِثْلِهِ مَوْلُودَا
حَتَّى إِذَا بَدَأَ السَّوَابِقَ فِي الْعُلَى وَالْعِلْمِ ضُمِّنَ شِلْوُهُ مَلْحُودَا
يَا مَنْ يُفَنِّدُ مِنَ الْبُكَاءِ مُوَلَّهًا مَا كَانَ يَسْمَعُ فِي الْبُكَا تَفْنِيدَا
تَأْبَى الْقُلُوبُ الْمُسْتَكِنَّةُ لِلْأَسَى مِنْ أَنْ تَكُونَ حِجَارَةً وَحَدِيدَا
إِنَّ الَّذِي بَادَ السُّرُورُ بِمَوْتِهِ مَا كَانَ حُزْنِي بَعْدَهُ لِيَبِيدَا
أَلْآنَ لَمَّا أَنْ حَوَيْتَ مَآثِرًا أَعْيَتْ عِدًى فِي الْوَرَى وَحُسُودَا
وَرَأَيْتُ فِيكَ مِنَ الصَّلَاحِ شَمَائِلًا وَمِنَ السَّمَاحِ دَلَائِلًا وَشُهُودَا
أَبْكِي عَلَيْكَ إِذَا الْحَمَامَةُ أَطْرَبَتْ وَجْهَ الصَّبَاحِ وَغَرَّدَتْ تَغْرِيدَا
لَوْلَا الْحَيَا أَنِّي أَزُنُّ بِبِدْعَةٍ مِمَّا يُعَدِّدُهُ الْوَرَى تَعْدِيدَا
لَجَعَلْتُ يَوْمِي فِي الْمَلَاحَةِ مَأْتَمًا وَجَعَلْتُ يَوْمَكَ فِي الْمَوَالِدِ عِيدَا

٥٦ قَالَ الشَّمَرْدَلُ يَرْثِي أَخَاهُ حَكَمًا:

يَقُولُونَ اُحْتَسِبْ حَكَمًا وَرَاحُوا ... بِأَبْيَضَ لَا يَرَاهُ وَلَا يَرَانِي
وَقَبْلَ فِرَاقِهِ أَيْقَنْتُ أَنِّي ... وَكُلُّ بَنِي أَبٍ مُتَفَارِقَانِ
أَخٌ لِي لَوْ دَعَوْتُ أَجَابَ صَوْتِي ... وَكُنْتُ مُجِيبَهُ أَنَّى دَعَانِي
فَقَدْ أَفْنَى الْبُكَاءُ عَلَيْهِ دَمْعِي ... وَلَوْ أَنِّي الْفَقِيدُ إِذًا بَكَانِي
مَضَى لِسَبِيلِهِ لَمْ يُعْطَ ضَيْمًا ... وَلَمْ تَرْهَبْ غَوَائِلَهُ الْأَدَانِي
قَتَلْنَا عَنْهُ قَاتِلَهُ وَكُنَّا ... نَصُولُ بِهِ لَدَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ
قَتِيلًا لَيْسَ مِثْلَ أَخِي إِذَا مَا ... بَدَا الْخَفِرَاتُ مَذْهُولَ الْجَنَانِ
وَكُنْتَ سِنَانَ رُمْحِي مِنْ قَنَاتِي ... وَلَيْسَ الرُّمْحُ إِلَّا بِالسِّنَانِ
وَكُنْتَ بَنَانَ كَفِّي مِنْ يَمِينِي ... وَكَيْفَ صَلَاحُهَا بَعْدَ الْبَنَانِ
وَكَانَ يَهَابُكَ الْأَعْدَاءُ فِينَا ... وَلَا أَخْشَى وَرَاءَكَ مَنْ رَمَانِي
فَقَدْ أَبْدَوْا ضَغَائِنَهُمْ وَشَدُّوا ... إِلَيَّ الطَّرْفَ وَاغْتَمَزُوا لِيَانِي
فِدَاكَ أَخٌ نَبَا عَنْهُ غِنَاهُ ... وَمَوْلًى لَا تَصُولُ لَهُ يَدَانِ

٥٧ وَمِنْ رَقِيقِ مَرَاثِي لَبِيدٍ:

بَلِينَا وَمَا تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ ... وَتَبْقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ
وَقَدْ كُنْتُ فِي أَكْنَافِ دَارِ مَضَنَّةٍ ... فَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدَ نَافِعُ
فَلَا جَزِعٌ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ... فَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلُهَا ... بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَلَاقِعُ
وَيَمْضُونَ أَرْسَالًا وَنَخْلُفُ بَعْدَهُمْ ... كَمَا ضَمَّ أُخْرَى التَّالِيَاتِ الْمُشَايِعُ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنَ ٱلتُّقَى وَمَا ٱلْمَالُ إِلَّا عَارِيَاتٌ وَدَائِعُ
أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي لُزُومُ ٱلْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا ٱلْأَصَابِعُ
أُخَبِّرُ أَخْبَارَ ٱلْقُرُونِ ٱلَّتِي مَضَتْ أَدِبُّ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ
فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ ٱلسَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنُهُ تَقَادُمُ عَهْدِ ٱلْقَيْنِ وَٱلنَّصْلُ قَاطِعُ
فَلَا تَبْعُدَنْ إِنَّ ٱلْمَنِيَّةَ مَوْعِدٌ عَلَيْنَا فَدَانٍ لِلطُّلُوعِ وَطَالِعُ
أَعَاذِلُ مَا يُدْرِيكَ إِلَّا تَظَنِّيًا إِذَا رَحَلَ ٱلْفِتْيَانُ مَنْ هُوَ رَاجِعُ
أَتَجْزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ ٱلدَّهْرُ بِٱلْفَتَى وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ ٱلْقَوَارِعُ
لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي ٱلضَّوَارِبُ بِٱلْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ ٱلطَّيْرِ مَا ٱللهُ صَانِعُ

٥٨ لَمَّا تُوُفِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ قَالَ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ يَرْثِيهِ:

بِأَيِّ يَدٍ أَسْطُو عَلَى ٱلدَّهْرِ بَعْدَمَا أَبَانَ يَدِي عَضْبُ ٱلذُّبَابَيْنِ قَاضِبُ
وَهَاضَ جَنَاحِي حَادِثٌ جَلَّ خَطْبُهُ وَسُدْتُ عَنِ ٱلصَّبْرِ ٱلْجَمِيلِ ٱلْمَذَاهِبُ
وَمِنْ عَادَةِ ٱلْأَيَّامِ أَنَّ صُرُوفَهَا إِذَا سَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ سَاءَ جَانِبُ
لَعَمْرِي لَقَدْ غَالَ ٱلتَّجَلُّدُ أَنَّنَا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ ٱلْغَيْثِ وَٱلْعَامُ جَادِبُ
فَمَا أَعْرِفُ ٱلْأَيَّامَ إِلَّا ذَمِيمَةً وَلَا ٱلدَّهْرَ إِلَّا وَهْوَ بِٱلثَّارِ طَالِبُ
وَلَا لِي مِنَ ٱلْإِخْوَانِ إِلَّا مُكَاشِرٌ فَوَجْهٌ لَهُ رَاضٍ وَوَجْهٌ مُغَاضِبُ
فَقَدْتُكَ فَقْدًا قَدْ كَانَ لِلْأَرْضِ زِينَةً كَمَا زَيَّنَتْ وَجْهَ ٱلسَّمَاءِ ٱلْكَوَاكِبُ
لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَ ٱلرَّدَى بِكَ فَاتَنِي وَكُلُّ ٱمْرِئٍ يَوْمًا إِلَى ٱللهِ ذَاهِبُ
لَقَدْ أَخَذَتْ مِنِّي ٱلنَّوَائِبُ حُكْمَهَا فَمَا تَرَكَتْ حَقًّا عَلَيَّ ٱلنَّوَائِبُ
وَلَا تَرَكَتْنِي أَرْهَبُ ٱلدَّهْرَ بَعْدَهُ لَقَدْ كَلَّ عَنِّي نَابُهُ وَٱلْمَخَالِبُ

سَقَى جَدَثًا أَمْسَى الْكَرِيمُ ابْنُ صَالِحٍ ... يَحُلُّ بِهِ دَانٍ مِنَ الْمُزْنِ سَاكِبُ
إِذَا بَشَّرَ الرُّوَّادَ بِالْغَيْثِ بَرْقُهُ ... مَرَتْهُ الصَّبَا وَاسْتَجْلَبَتْهُ الْجَنَائِبُ
فَغَادَرَ بَاقِي الدَّهْرِ تَأْثِيرُ صَوْبِهِ ... رَبِيعًا زَهَتْ مِنْهُ الرُّبَى وَالْمَذَانِبُ

٥٩ قَالَ بَكْرُ بْنُ النَّطَّاحِ يَرْثِي مَالِكَ بْنَ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيَّ وَخَرَجَ عَلَى الشُّرَاةِ لِيُقَاتِلَهُمْ فَأُصِيبَ بِسَهْمٍ:

يَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ السِّجَامْ ... عَلَى الْأَمِيرِ الْيَمَنِيِّ الْهُمَامْ
عَلَى فَتَى الدُّنْيَا وَصِنْدِيدِهَا ... وَفَارِسِ الدِّينِ وَسَيْفِ الْإِمَامْ
لَا تَذْخَرِي الدَّمْعَ عَلَى هَالِكٍ ... أَيْتَمَ إِذْ أَوْدَى جَمِيعَ الْأَنَامْ
طَابَ ثَرَى حُلْوَانَ إِذْ ضُمِّنَتْ ... عِظَامُهُ سَقْيًا لَهَا مِنْ عِظَامْ
أَغْلَقَتِ الْخَيْرَاتُ أَبْوَابَهَا ... وَامْتَنَعَتْ بَعْدَكَ يَا ابْنَ الْكِرَامْ
وَأَصْبَحَتْ خَيْلُكَ بَعْدَ الْوَجَى ... وَالْقُرِّ تَشْكُو مِنْكَ طُولَ الْحِمَامْ
إِرْحَلْ بِنَا نَقْرُبْ إِلَى مَالِكٍ ... كَيْمَا نُحَيِّي قَبْرَهُ بِالسَّلَامْ
كَانَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ فِي كَفِّهِ ... غِنًى عَنِ الْبَحْرِ وَصَوْبِ الْغَمَامْ
وَكَانَ فِي الصُّبْحِ كَشَمْسِ الضُّحَى ... وَكَانَ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ الظَّلَامْ
وَسَائِلٍ يَعْجَبُ مِنْ مَوْتِهِ ... وَقَدْ رَآهُ وَهُوَ صَعْبُ الْمَرَامْ
قُلْتُ لَهُ عَهْدِي بِهِ مُعْلَمًا ... يَضْرِبُهُمْ عِنْدَ ارْتِفَاعِ الْقَتَامْ
وَالْحَرْبُ مَنْ طَارَ لَهَا لَمْ يَكَدْ ... يُفْلِتُ مِنْ وَقْعِ صَقِيلِ الْحُسَامْ
لَمْ يَنْظُرِ الدَّهْرُ لَنَا إِذْ عَدَا ... عَلَى رَبِيعِ النَّاسِ فِي كُلِّ عَامْ
لَنْ يَسْتَقِيلُوا أَبَدًا فَقْدَهُ ... مَا هَيَّجَ الشَّجْوَ دُعَاءُ الْحَمَامْ

٦٠ وقال أيضاً يرثيه :

يا حُفْرَةً ضَمَّتْ مَحَاسِنَ مَالِكٍ ... مَا فِيكِ مِنْ كَرَمٍ وَمِنْ إِحْسَانِ
لَهْفِي عَلَى ٱلْبَطَلِ ٱلْمُعَرِّضِ خَدَّهُ ... وَجَبِينَهُ لِأَسِنَّةِ ٱلْفُرْسَانِ
خَرَقَ ٱلْكَتِيبَةَ مُعْلَمًا مُتَكَبِّبًا ... وَٱلْمُرْهَفَاتُ عَلَيْهِ كَٱلنِّيرَانِ
ذَهَبَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ شَيْءٍ بَعْدَهُ ... فَٱلْأَرْضُ مُوحِشَةٌ بِلَا عُمْرَانِ
هَدَمَ ٱلشُّرَاةُ غَدَاةَ مَصْرَعِ مَالِكٍ ... شَرَفَ ٱلْعُلَا وَمَكَارِمَ ٱلْبُنْيَانِ
قَتَلُوا فَتَى ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِي كَانَتْ بِهِ ... تَقْوَى عَلَى ٱللَّزَبَاتِ فِي ٱلْأَزْمَانِ
حَرَمُوا مَعَدًّا مَا لَدَيْهِ وَأَوْقَعُوا ... عَصَبِيَّةً فِي قَلْبِ كُلِّ يَمَانِ
تَرَكُوهُ فِي رَهَجِ ٱلْعَجَاجِ كَأَنَّهُ ... أَسَدٌ يَصُولُ بِسَاعِدٍ وَبَنَانِ
هَوَتِ ٱلْجُدُودُ عَنِ ٱلسُّعُودِ لِفَقْدِهِ ... وَتَمَسَّكَتْ بِٱلنَّحْسِ وَٱلدَّبَرَانِ
لَا يُبْعِدَنَّ أَخُو خُزَاعَةَ إِذْ ثَوَى ... مُسْتَشْهَدًا فِي طَاعَةِ ٱلرَّحْمَانِ
عَزَّ ٱلْغُوَاةُ بِهِ وَذَلَّتْ أُمَّةٌ ... مَحْبُوَّةٌ بِحَقَائِقِ ٱلْإِيمَانِ
وَبَكَاهُ مُصْحَفُهُ وَصَدْرُ حُسَامِهِ ... وَٱلْمُسْلِمُونَ وَدَوْلَةُ ٱلسُّلْطَانِ
وَغَدَتْ تُعَقِّرُ خَيْلُهُ وَتَقَسَّمَتْ ... أَدْرَاعُهُ وَسَوَابِغُ ٱلْأَبْدَانِ
أَفَتَحْمَدُ ٱلدُّنْيَا وَقَدْ ذَهَبَتْ بِمَنْ ... كَانَ ٱلْمُجِيرَ لَنَا مِنَ ٱلْحِدْثَانِ

٦١ قال بهاء الدين العاملي يرثي والده :

قِفْ بِٱلطُّلُولِ وَسَلْهَا أَيْنَ سَاكِنُهَا ... وَرَوِّ مِنْ جُرَعِ ٱلْأَجْفَانِ رَيَّاهَا
وَرَدِّدِ ٱلطَّرْفَ فِي أَطْرَافِ سَاحَتِهَا ... وَرَوِّحِ ٱلرُّوحَ مِنْ أَرْوَاحِ أَرْجَاهَا
وَإِنْ يَفُتْكَ مِنَ ٱلْأَطْلَالِ مُخْبِرُهَا ... فَلَا يَفُوتُكَ مَرْآهَا وَرَيَّاهَا

رُبُوعُ فَضْلٍ يُضَاهِي التِّبْرَ تُرْبَتُهَا ... وَدَارُ أُنْسٍ يُحَاكِي الدُّرَّ حَصْبَاهَا
عَدَا عَلَى جِيرَةٍ حَلُّوا بِسَاحَتِهَا ... صَرْفُ الزَّمَانِ فَأَبْلَاهُمْ وَأَبْلَاهَا
بُدُورُ تَمٍّ غَمَامُ الْمَوْتِ جَلَّلَهَا ... شُمُوسُ فَضْلٍ سَحَابُ التُّرْبِ غَشَّاهَا
فَالْمَجْدُ يَبْكِي عَلَيْهَا جَازِعًا أَسِفًا ... وَالدِّينُ يَنْدُبُهَا وَالْفَضْلُ يَنْعَاهَا
يَا حَبَّذَا أَزْمُنٌ فِي ظِلِّهِمْ سَلَفَتْ ... مَا كَانَ أَقْصَرَهَا عُمْرًا وَأَحْلَاهَا
أَوْقَاتُ أُنْسٍ قَضَيْنَاهَا فَمَا ذُكِرَتْ ... إِلَّا وَقَطَّعَ قَلْبَ الصَّبِّ ذِكْرَاهَا
يَا سَادَةً هَجَرُوا وَاسْتَوْطَنُوا هَجَرًا ... وَاهًا لِقَلْبِ الْمُعَنَّى بَعْدَكُمْ وَاهَا
رَعْيًا لِلَيْلَاتِ وَصْلٍ بِالْحِمَى سَلَفَتْ ... سَقْيًا لِأَيَّامِنَا بِالْخَيْفِ سُقْيَاهَا
لِفَقْدِكُمْ شُقَّ جَيْبُ الْمَجْدِ وَانْصَدَعَتْ ... أَرْكَانُهُ وَبِكُمْ مَا كَانَ أَقْوَاهَا
وَخَرَّ مِنْ شَامِخَاتِ الْعِلْمِ أَرْفَعُهَا ... وَانْهَدَّ مِنْ بَاذِخَاتِ الْحِلْمِ أَرْسَاهَا
يَا ثَاوِيًا بِالْمُصَلَّى مِنْ قُرَى هَجَرٍ ... كُسِيتَ مِنْ حُلَلِ الرِّضْوَانِ أَرْضَاهَا
أَقَمْتَ يَا بَحْرُ بِالْبَحْرَيْنِ فَاجْتَمَعَتْ ... ثَلَاثَةٌ كُنَّ أَمْثَالًا وَأَشْبَاهَا
ثَلَاثَةٌ أَنْتَ أَسْدَاهَا وَأَغْزَرُهَا ... جُودًا وَأَعْذَبُهَا طَعْمًا وَأَحْلَاهَا
حَوَيْتَ مِنْ دُرَرِ الْعَلْيَاءِ مَا حَوَيَا ... لَكِنَّ دُرَّكَ أَعْلَاهَا وَأَغْلَاهَا
يَا أَخْمَصًا وَطِئَتْ هَامَ السُّهَى شَرَفًا ... سَقَاكِ مِنْ دِيَمِ الْوَسْمِيِّ أَسْمَاهَا
وَيَا ضَرِيحًا عَلَا فَوْقَ السِّمَاكِ عُلًا ... عَلَيْكَ مِنْ صَلَوَاتِ اللهِ أَزْكَاهَا
فِيكَ انْطَوَى مِنْ شُمُوسِ الْفَضْلِ آخِرُهَا ... وَمِنْ مَعَالِمِ دِينِ اللهِ أَسْنَاهَا
وَمِنْ شَوَامِخِ أَطْوَادِ الْفُتُوَّةِ أَرْ ... سَاهَا وَأَرْفَعُهَا قَدْرًا وَأَنْهَاهَا
فَاسْحَبْ عَلَى الْفَلَكِ الْعُلْوِيِّ ذَيْلَ عُلًا ... فَقَدْ حَوَيْتَ مِنَ الْعَلْيَاءِ أَعْلَاهَا

عَلَيْكَ مِنِّي سَلَامُ اللهِ مَا صَدَحَتْ عَلَى غُصُونِ أَرَاكِ الدَّوْحِ وَرْقَاهَا

٦٢ قَالَ أَبُو فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيُّ يَرْثِي جَابِرَ بْنَ نَاصِرِ الدِّينِ:

أَلْفِكْرُ فِيكَ مُقَصِّرُ الْآمَالِ وَالْحِرْصُ بَعْدَكَ غَايَةُ الْجُهَّالِ
لَوْ كَانَ يَخْلُدُ بِالْفَضَائِلِ فَاضِلٌ وُصِلَتْ لَكَ الْآجَالُ بِالْآجَالِ
لَوْ كُنْتَ تُفْدَى لَافْتَدَتْكَ سَرَاتُنَا بِنَفَائِسِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَمْوَالِ
أَوْ كَانَ يَدْفَعُ عَنْكَ بَأْسٌ أَقْبَلَتْ صَرْعَى تَكَدَّسُ بِالْقَنَا الْعَسَّالِ
أَعْزِزْ عَلَى سَادَاتِ قَوْمِكَ أَنْ تُرَى فَوْقَ الْفِرَاشِ مُقَلَّبَ الْأَوْصَالِ
وَالسُّمْرُ عِنْدَكَ لَمْ تَرُقَّ صُدُورُهَا وَالْخَيْلُ وَاقِفَةٌ عَلَى الْأَطْلَالِ
وَالسَّابِغَاتُ مَصُونَةٌ لَمْ تُبْتَذَلْ وَالْبِيضُ سَالِمَةٌ مَعَ الْأَبْطَالِ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَمْ يَثْنِهَا حِرْصُ الْحَرِيصِ وَحِيلَةُ الْمُحْتَالِ
مَا لِلْخُطُوبِ وَمَا لِأَحْدَاثِ النَّوَى أَعْجَلْنَ جَابِرَ غَايَةَ الْإِعْجَالِ
لَمَّا تَسَرْبَلَ بِالْفَضَائِلِ وَارْتَدَى بُرْدَ الْعُلَى وَاعْتَمَّ بِالْإِقْبَالِ
وَتَشَاهَدَتْ صِيدُ الْمُلُوكِ لِفَضْلِهِ وَأَرَى الْمَكَارِمَ مِنْ مَكَانٍ عَالِ
أَأَبَا الْمُرَجِّي غَيْرُ حُزْنِي دَارِسٌ أَبَدًا عَلَيْكَ وَغَيْرُ قَلْبِي سَالِ
وَلَئِنْ هَلَكْتَ فَمَا الْوَفَاءُ بِهَالِكٍ وَلَئِنْ بُلِيتَ فَمَا الْوَدَادُ بِبَالِ
لَا زِلْتَ مَغْدُوقَ الثَّرَى مَطْرُوقَهُ بِسَحَابَةٍ مَجْرُورَةِ الْأَذْيَالِ
وَحُجِبْنَ عَنْكَ السَّيِّئَاتُ وَلَمْ يَزَلْ لَكَ صَاحِبٌ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ

٦٣ قَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ مَعْبَدٍ تَرْثِي خَالِدَ بْنَ نَضْلَةَ:

أَأُمَيْمَ هَيْهَاتِ الصِّبَا ذَهَبَ الصِّبَا وَأَطَارَ عَنِّي الْحِلْمَ جَهْلُ غُرَابِي

أَيْنَ الْأُلَى بِالْأَمْسِ كَانُوا جِيرَةً أَمْسَوْا دَفِينَ جَنَادِلٍ وَتُرَابِ
مَاتُوا وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ بِحِيلَةٍ لَأَحَدْتُ صَرْفَ الْمَوْتِ عَنْ أَحْبَابِي
مَا حِيلَتِي إِلَّا الْبُكَاءُ عَلَيْهِمِ إِنَّ الْبُكَاءَ سِلَاحُ كُلِّ مُصَابِ

٦٤ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ زِيَادٍ يَرْثِي أَخَاهُ عُمَرًا :

أَلَا نَوَّهَ الدَّاعِي بِلَيْلٍ فَأَسْمَعَا بِخَرْقٍ كَرِيمٍ كَانَ فِي النَّاسِ أَرْوَعَا
مَضَى صَاحِبِي وَاسْتَقْبَلَ الدَّهْرَ صَرْعَتِي وَلَا بُدَّ أَنْ أَلْقَى حِمَامِي فَأُصْرَعَا
كَأَنْ لَمْ نَكُنْ يَا عَمْرُو فِي دَارِ غِبْطَةٍ جَمِيعًا وَلَمْ نَشْرَعْ إِلَى مَوْعِدٍ مَعَا
دَفَعْنَا بِكَ الْأَيَّامَ حَتَّى إِذَا أَتَتْ تُرِيدُكَ لَمْ نَسْطِعْ لَهَا عَنْكَ مَدْفَعَا
فَلَمْ يَبْلَ ذِكْرٌ مِنْكَ كُنْتَ تُجِدُّهُ جَمِيلٌ وَلَكِنَّ الْبِلَى فِيكَ أَسْرَعَا
وَمَا دَنِسَ الثَّوْبُ الَّذِي زَوَّدُوكَهُ وَإِنْ خَانَهُ رَيْبُ الْبِلَى فَتَقَطَّعَا
وَطَابَ ثَرَى أَصْبَحْتَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَطِيبُ إِذَا كَانَ الثَّرَى لَكَ مَضْجَعَا

٦٥ أَنْشَدَ مُحْرِزُ بْنُ عَلْقَمَةَ يَرْثِي أَخَاهُ شَرِيكًا :

لَقَدْ وَارَى الْمَقَابِرُ مِنْ شَرِيكٍ كَثِيرَ تَكَرُّمٍ وَقَلِيلَ عَابِ
بِهِ كُنَّا نَصُولُ عَلَى الْأَعَادِي وَنَدْفَعُ مِرَّةَ الْقَوْمِ الْغِضَابِ
صَمُوتٌ فِي الْمَجَالِسِ غَيْرُ عِيٍّ جَدِيرٌ حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ
كَرِيمُ الْخُلْقِ لَا طَبِعٌ غَبِينٌ وَلَا فَحَّاشَةٌ نَزِقُ السِّبَابِ
كَرِيمُ مَوَاطِنِ الْأَحْسَابِ عَفٌّ إِذَا الضِّلِّيلُ مَالَ بِهِ التَّصَابِي
دَلُوفٌ بِالْقِرَى وَاللَّيْلُ قَرٌّ إِلَى الْمُسْتَنْمِينَ ذُرَى الرِّكَابِ

٦٦ وَقَالَ الْأَبْيَرْدُ الْيَرْبُوعِيُّ يَرْثِي أَخَاهُ بُرَيْدًا وَتُرْوَى لِسَلَمَةَ الْجُعْفِيِّ :

أَقُولُ لِنَفْسِي فِي الْخَلَاءِ أَلُومُهَا ... لَكِ الْوَيْلُ مَا هٰذَا التَّجَلُّدُ وَالصَّبْرُ
أَمَا تَعْلَمِينَ الْخُبْرَ أَنْ لَسْتُ لَاقِيًا ... أَخِي إِذْ أَتَى مِنْ دُونِ أَثْوَابِهِ الْقَبْرُ
فَتًى كَانَ يُدْنِيهِ الْغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ ... إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ
فَتًى كَانَ يُعْطِي السَّيْفَ فِي الْحَرْبِ حَقَّهُ ... إِذَا هَتَفَ الدَّاعِي وَيَشْقَى بِهِ الْجُزْرُ
وَسَخَّى بِنَفْسِي أَنَّنِي سَوْفَ أَغْتَدِي ... عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفِسَ الْعُمْرُ

٦٧ وَقَالَ أَيْضًا فِيهِ:

تَطَاوَلَ لَيْلِي لَمْ أَنَمْ لَيْلَةً قَلْبَا ... كَأَنَّ فِرَاشِي حَالَ مِنْ دُونِهِ الْجَمْرُ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ... فَقَدْ بَانَ مِنِّي فِي تَذَكُّرِهِ الْعُذْرُ
أَحَقًّا عِبَادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ لَاقِيًا ... يُرِيدُ طِوَالَ الدَّهْرِ مَا لَأَلَّأَ الْغُفْرُ
فَتًى إِنْ هُوَ اسْتَغْنَى يُخَرِّقُ فِي الْغِنَى ... فَإِنْ قَلَّ مَالًا لَا يُؤَدِّبُهُ الْفَقْرُ
فَلَيْتَكَ كُنْتَ الْحَيَّ فِي النَّاسِ بَاقِيًا ... وَكُنْتُ أَنَا الْمَيْتَ الَّذِي غَيَّبَ الْقَبْرُ
فَتًى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ ... إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ قَلَّ بِهَا الْقَطْرُ
كَأَنْ لَمْ يُصَاحِبْنَا بَرِيدٌ بِغِبْطَةٍ ... وَلَمْ تَأْتِنَا يَوْمًا بِأَخْبَارِهِ السَّفْرُ
وَلَمَّا نَعَى النَّاعِي بَرِيدًا تَعَوَّلَتْ ... بِيَ الْأَرْضُ فَرْطَ الْحُزْنِ وَانْقَطَعَ الظَّهْرُ
عَسَاكِرُ تَغْشَى النَّفْسَ حَتَّى كَأَنَّنِي ... أَخُو سَكْرَةٍ دَارَتْ بِهَامَتِهِ الْخَمْرُ
إِلَى اللهِ أَشْكُو فِي بَرِيدٍ مُصِيبَتِي ... وَبَثِّي أَحْزَانًا تَضَمَّنَهَا الصَّدْرُ

٦٨ قَالَتِ الْخَنْسَاءُ تَرْثِي أَخَاهَا صَخْرًا:

قَذًى بِعَيْنِكِ أَمْ بِالْعَيْنِ عُوَّارُ ... أَمْ أَقْفَرَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرَتْ ... فَيْضٌ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِدْرَارُ

تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا ... إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ
لَا بُدَّ مِنْ مِيتَةٍ فِي صَرْفِهَا غِيَرٌ ... وَالدَّهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأَطْوَارُ
يَا صَخْرُ وَارِدَ مَاءٍ قَدْ تَوَارَدَهُ ... أَهْلُ الْمَوَارِدِ مَا فِي وِرْدِهِ عَارُ
وَإِنَّ صَخْرًا لَحَامِينَا وَسَيِّدُنَا ... وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ
لَمْ تَرَهُ جَارَةٌ يَمْشِي بِسَاحَتِهَا ... لِرِيبَةٍ حِينَ يُخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ
مِثْلُ الرُّدَيْنِيِّ لَمْ تَنْفُدْ شَبِيبَتُهُ ... كَأَنَّهُ تَحْتَ طَيِّ الْبُرْدِ أَسْوَارُ
طَلْقُ الْيَدَيْنِ بِفِعْلِ الْخَيْرِ مُعْتَمِدٌ ... صَخْمُ الدَّسِيعَةِ بِالْخَيْرَاتِ أَمَّارُ

٦٩ وَقَالَتْ أَيْضًا:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ
وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

٧٠ قَالَ الْمُتَمِّمُ يَرْثِي أَخَاهُ مَالِكًا:

أَعَيْنِيَ جُودِي بِالدُّمُوعِ لِمَالِكٍ ... إِذَا ذَرَّتِ الرِّيحُ الْكَنِيفَ الْمُرَبَّعَا
فَتًى كَانَ مِقْدَامًا إِلَى الرَّوْعِ رَكْضُهُ ... سَرِيعًا إِلَى الدَّاعِي إِذَا هُوَ أَفْزَعَا
أَبَى الصَّبْرَ آيَاتٌ أَرَاهَا وَإِنَّنِي ... أَرَى كُلَّ حَبْلٍ دُونَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا
وَإِنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ ... وَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا
سَقَى اللهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ ... ذِهَابَ الْغَوَادِي الْمُدْجِنَاتِ فَأَمْرَعَا
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ... فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي يَوْمَ وَدَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا
فَتًى كَانَ أَحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ وَأَشْجَعَ مِنْ لَيْثٍ إِذَا مَا تَمَنَّعَا
تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمْرِيِّ مَالَكَ بَعْدَمَا أَرَاكَ قَدِيمًا نَاعِمَ الْوَجْهِ أَفْرَعَا
فَقُلْتُ لَهَا طُولُ الْإِسَاءَةِ سَاءَنِي وَلَوْعَةُ حُزْنٍ تَتْرُكُ الْوَجْهَ أَسْفَعَا

٧١ قَالَ زُهَيْرٌ يَرْثِي بَعْضَ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ :

أَرَاكَ هَجَرْتَنِي هَجْرًا طَوِيلًا وَمَا عَوَّدْتَنِي مِنْ قَبْلُ ذَاكَا
عَهِدْتُكَ لَا تُطِيقُ الصَّبْرَ عَنِّي وَتَعْصِي فِي وَدَادِي مَنْ نَهَاكَا
فَكَيْفَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ السَّجَايَا وَمَنْ هٰذَا الَّذِي عَنِّي ثَنَاكَا
فَلَا وَاللهِ مَا حَاوَلْتَ غَدْرًا فَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُرُ مَا خَلَاكَا
وَمَا فَارَقْتَنِي طَوْعًا وَلٰكِنْ دَهَاكَ مِنَ الْمَنِيَّةِ مَا دَهَاكَا
فَيَا مَنْ غَابَ عَنِّي وَهُوَ رُوحِي وَكَيْفَ أُطِيقُ مِنْ رُوحِي انْفِكَاكَا
وَلَيْتَكَ لَوْ بَقِيتَ لِضُعْفِ حَالِي وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمُ فِدَاكَا
يَعِزُّ عَلَيَّ حِينَ أُدِيمُ عَيْنِي أُفَتِّشُ فِي مَكَانِكَ لَا أَرَاكَا
خَتَمْتُ عَلَى وَدَادِكَ فِي ضَمِيرِي وَلَيْسَ يَزَالُ مَخْتُومًا هُنَاكَا
لَقَدْ عَجِلَتْ عَلَيْكَ يَدُ الْمَنَايَا وَمَا اسْتَوْفَيْتَ حَظَّكَ مِنْ صِبَاكَا
فَوَا أَسَفِي لِجِسْمِكَ كَيْفَ يَبْلَى وَيَذْهَبُ بَعْدَ بَهْجَتِهِ سَنَاكَا
وَمَا لِي أَدَّعِي أَنِّي وَفِيٌّ وَلَسْتُ مُشَارِكًا لَكَ فِي بَلَاكَا
تَمُوتُ وَمَا أَمُوتُ عَلَيْكَ حُزْنًا وَحَقِّ هَوَاكَ خُنْتُكَ فِي هَوَاكَا
وَيَا خَجَلِي إِذَا قَالُوا مُحِبٌّ وَلَمْ أَنْفَعْكَ فِي خَطْبٍ أَتَاكَا

أَرَى ٱلْبَاكِينَ فِيكَ مَعِي كَثِيرًا وَلَيْسَ كَمَنْ بَكَى مَنْ قَدْ تَبَاكَى
وَيَا مَنْ قَدْ نَوَى سَفَرًا بَعِيدًا مَتَى قُلْ لِي رُجُوعُكَ مِنْ نَوَاكَا
جَزَاكَ ٱللهُ عَنِّي كُلَّ خَيْرٍ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ عَنِّي جَزَاكَا
فَيَا قَبْرَ ٱلْحَبِيبِ وَدِدتُّ أَنِّي حَمَلْتُ وَلَوْ عَلَى عَيْنِي ثَرَاكَا
سَقَاكَ ٱلْغَيْثُ تَهْتَانًا وَإِلَّا فَحَسْبُكَ مِنْ دُمُوعِي مَا سَقَاكَا
وَلَا زَالَ ٱلسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي يُزَفُّ عَلَى ٱلنَّسِيمِ إِلَى ذَرَاكَا

٧٢ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ مِنْ رِثَاءٍ فِي بَنِي أُمَيَّةَ:

بَكَيْتُ وَمَاذَا يَرُدُّ ٱلْبُكَا وَقَلَّ ٱلْبُكَاءُ لِقَتْلَى كُدَا
أُصِيبُوا مَعًا فَتَوَلَّوْا مَعًا كَذٰلِكَ كَانُوا مَعًا فِي رَجَا
بَكَتْ لَهُمُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَنَاحَتْ عَلَيْهِمْ نُجُومُ ٱلسَّمَا
وَكَانُوا ضِيَاءِي فَلَمَّا ٱنْقَضَى زَمَانِي بِقَوْمِي تَوَلَّى ٱلضِّيَا

٧٣ وَقَالَ فِيهِمْ أَيْضًا وَتُرْوَى هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ لِلْعَبَابِيِّ:

أَفَاضَ ٱلْمَدَامِعَ قَتْلَى كُدَا وَقَتْلَى بِكُثْوَةَ لَمْ تُرْمَسِ
وَقَتْلَى بِوَجٍ وَبِٱللَّابَتَيْنِ يَثْرِبَ هُمْ خَيْرُ مَا أَنْفُسِ
وَبِٱلزَّابَيْنِ نُفُوسٌ ثَوَتْ وَأُخْرَى بِنَهْرِ أَبِي فُطْرُسِ
أُولٰئِكَ قَوْمٌ أَنَاخَتْ بِهِمْ نَوَائِبُ مِنْ زَمَنٍ مُتْعِسِ
إِذَا رَكِبُوا زَيَّنُوا ٱلرَّاكِبِينَ وَإِنْ جَلَسُوا زِينَةُ ٱلْمَجْلِسِ
هُمُ أَضْرَعُونِي لِرَيْبِ ٱلزَّمَانِ وَهُمْ أَلْصَقُوا ٱلرَّغْمَ بِٱلْمُعْطَسِ
فَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ قَتْلَاهُمُ وَلَا عَاشَ بَعْدَهُمُ مَنْ نَسِي

٧٤ كان لابن عمار ابن يقال له معن فمات فقال يرثيه :

يا موت مالك مولعًا بضراري ... إني عليك وإن صبرت لزاري
تعدو عليَّ كأنني لك واتر ... وأول منك كما يول فراري
نفس البعيد إذا أردت قريبة ... ليست بناجية مع الأقدار
والمرء سوف وإن تطاول عمره ... يومًا يصير لحفرة الحفار
لما علا عظمي به فكأنه ... من حسن بنيته قضيب نضار
فجعتني بأعز أهلي كلهم ... تعدو عليه عدوة الجبار
هلا بنفسي أو ببعض قرابتي ... أوقعت أو ما كنت بالمختار
وتركت ربتي التي من أجلها ... عفت الجهاد وصرت في الأمصار

٧٥ قالت هند بنت عتبة ترثي أباها وأخويها :

من حس لي الأخوين كالغصنين أو ... من راهما
قرمان لا يتظالمان ولا يرام حماهما
ويلي على أبوي والقبر الذي واراهما
لا مثل كهلي في الكهو ل ولا فتى كفتاهما

٧٦ قال أعرابي يرثي ابنه وكان وقع صريعًا في الحرب :

حسين لا خير في الدنيا ومن فيها ... إذ أنت خليتها في من يخليها
نعى النعاة حسينا لي فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
ألحزم والعزم كانا من صنيعته ... ما كل آلائه يا قوم أحصيها
نروي الرماح بأيدينا فنوردها ... بيضًا ونصدرها حمرًا أعاليها

لَيْتَ ٱلسَّمَاءَ عَلَى مَنْ تَحْتَهَا وَقَعَتْ وَٱنْشَقَّتِ ٱلْأَرْضُ فَٱنْجَابَتْ بِمَنْ فِيهَا
لَا أَصْلَحَ ٱللهُ مِنَّا مَنْ يُصَالِحُكُمْ مَا لَاحَتِ ٱلشَّمْسُ فِي أَعْلَى مَجَارِيهَا

رثاء مشاهير العرب

٧٧ قَالَ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ مُطَيْرٍ ٱلْأَسَدِيُّ فِي مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ:

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ ٱلْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعَا
فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُفْرَةٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَضْجَعَا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا
بَلَى قَدْ وَسِعَتْ ٱلْجُودَ وَٱلْجُودُ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا
فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ ٱلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مُرْتَعَا
وَلَمَّا مَضَى مَعْنٌ مَضَى ٱلْجُودُ فَٱنْقَضَى وَأَصْبَحَ عِرْنِينُ ٱلْمَكَارِمِ أَجْدَعَا

٧٨ قَالَ ثَابِتُ بْنُ هَارُونَ ٱلرَّقِّيُّ ٱلنَّصْرَانِيُّ يَرْثِي أَبَا ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّيَ:

أَلدَّهْرُ أَخْبَثُ وَٱللَّيَالِي أَنْكَدُ مِنْ أَنْ تَعِيشَ لِأَهْلِهَا يَا أَحْمَدُ
قَصَدَتْكَ لَمَّا أَنْ رَأَتْكَ نَفِيسَهَا بُخْلًا بِمِثْلِكَ وَٱلنَّفَائِسُ تُقْصَدُ
ذُقْتَ ٱلْكَرِيهَةَ بَغْتَةً وَفَقَدْتَهَا وَكَرِيهُ فَقْدِكَ فِي ٱلْوَرَى لَا يُفْقَدُ
قُلْ لِي إِنِ ٱسْطَعْتَ ٱلْخِطَابَ فَإِنَّنِي صَبُّ ٱلْفُؤَادِ إِلَى خِطَابِكَ مُكْمَدُ
أَتَرَكْتَ بَعْدَكَ شَاعِرًا وَٱللهِ لَا لَمْ يَبْقَ بَعْدَكَ فِي ٱلْوَرَى مَنْ يُنْشِدُ
أَمَّا ٱلْعُلُومُ فَإِنَّهَا يَا رَبَّهَا تَبْكِي عَلَيْكَ بِأَدْمُعٍ لَا تَجْمُدُ

٧٩ وَرَثَاهُ أَيْضًا أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلْمُظَفَّرُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْكَاتِبُ:

لَا رَعَى ٱللهُ سِرْبَ هٰذَا ٱلزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَاكَ ٱللِّسَانِ

مَا رَأَى ٱلنَّاسُ ثَانِيَ ٱلْمُتَنَبِّي أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِبِكْرِ ٱلزَّمَانِ
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلْكَبِيرَةِ فِي جَيْشٍ وَفِي كِبْرِيَاءِ ذِي سُلْطَانِ
كَانَ فِي لَفْظِهِ نَبِيًّا وَلٰكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجِزَاتُهُ فِي ٱلْمَعَانِي

٨٠ لِأَبِي عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْعَطَوِيِّ مِنَ ٱلْمُرْقِصِ فِي رِثَاءِ ٱبْنِ أَبِي دُوَادَ:

وَلَيْسَ صَرِيرُ ٱلنَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلٰكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقَصَّفُ
وَلَيْسَ فَتِيقُ ٱلْمِسْكِ مَا تَجِدُونَهُ وَلٰكِنَّهُ ذَاكَ ٱلثَّنَاءُ ٱلْمُخَلَّفُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِيهِ:

أَلْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى ٱلزَّمَنِ
وَأَظْلَمَتْ سُبُلُ ٱلْآدَابِ وَٱحْتَجَبَتْ شَمْسُ ٱلْمَكَارِمِ فِي غَيْمٍ مِنَ ٱلْكَفَنِ

٨١ قَالَ جَرِيرٌ يَرْثِي ٱلْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ:

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ هَاجَهُ ٱلذِّكَرُ فَمَا لِدَمْعِكِ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ مُدَّخَرُ
إِنَّ ٱلْخَلِيفَةَ قَدْ وَارَى شَمَائِلَهُ غَبْرَاءُ مَلْحُودَةٌ فِي جَوِّهَا زَوَرُ
أَمْسَى يَنُوءُ وَقَدْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُ مِثْلَ ٱلنُّجُومِ هَوَى مِنْ بَيْنِهَا ٱلْقَمَرُ
كَانُوا شُهُودًا فَلَمْ يَدْفَعْ مَنِيَّتَهُ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ وَلَا رَوْحٌ وَلَا عُمَرُ
وَخَالِدٌ لَوْ أَرَادَ ٱلدَّهْرُ فِدْيَتَهُ أَغْلَوْا مُخَاطَرَةً لَوْ يَنْفَعُ ٱلْخَطَرُ
قَدْ شَفَّنِي رَوْعَةُ ٱلْعَبَّاسِ مِنْ فَزَعٍ لَمَّا أَتَاهُ بِدَيْرِ ٱلْقَسْطَلِ ٱلْخَبَرُ

٨٢ قَالَ ٱلشَّبْرَاوِيُّ يَرْثِي ٱلْعَلَّامَةَ ٱلْعَبَّادِيَّ:

يَا طَالِبًا رَاحَةً مِنْ دَهْرِهِ عَبَثًا أَقْصِرْ فَمَا ٱلدَّهْرُ إِلَّا بِٱلْهُمُومِ مُلِي
كَمْ مَنْظَرٍ رَائِقٍ أَفْنَتْ جَمَالَتَهُ يَدُ ٱلْمَنُونِ وَأَعْيَتْهُ عَنِ ٱلْحِيَلِ

وَكَمْ هُمَامٍ وَكَمْ قَرْمٍ وَكَمْ مَلِكٍ تَحْتَ التُّرَابِ وَكَمْ شَهْمٍ وَكَمْ بَطَلِ
وَكَمْ إِمَامٍ إِلَيْهِ تَنْتَهِي دُوَلٌ قَدْ صَارَ بِالْمَوْتِ مَعْزُولًا عَنِ الدُّوَلِ
وَكَمْ عَزِيزٍ أَذَلَّتْهُ الْمَنُونُ وَمَا إِنْ صَدَّهَا عَنْهُ مِنْ مَالٍ وَلَا خَوَلِ
يَا عَارِفًا دَهْرَهُ يَكْفِيكَ مَعْرِفَةً وَإِنْ جَهِلْتَ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ سَلِ
هَلْ فِي زَمَانِكَ أَوْ مِنْ قَبْلِهِ سَمِعَتْ أُذْنَاكَ أَنَّ ابْنَ أُنْثَى غَيْرُ مُنْتَقِلِ
وَهَلْ رَأَيْتَ أُنَاسًا قَدْ عَلَوْا وَغَلَوْا فِي الْفَضْلِ زَادُوا بِمَا نَالُوا عَنِ الْأَجَلِ
أَوْ هَلْ نَسِيتَ لَدُوا لِلْمَوْتِ أَوْ عَمِيَتْ عَيْنَاكَ عَنْ وَاضِعٍ نَعْشًا وَمُحْتَمِلِ
وَهَلْ رَعَى الْمَوْتُ ذَا عِزٍّ لِعِزَّتِهِ أَوْ هَلْ خَلَا أَحَدٌ دَهْرًا بِلَا خَلَلِ
الْمَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ لَكِنَّ ذَا الْفَضْلِ مَحْمُولٌ عَلَى عَجَلِ
وَلَيْسَ فَقْدُ إِمَامٍ عَالِمٍ عَلَمٍ كَفَقْدِ مَنْ لَيْسَ ذَا عِلْمٍ وَلَا عَمَلِ
وَلَيْسَ مَوْتُ الَّذِي مَاتَتْ لَهُ أُمَمٌ كَمَوْتِ شَخْصٍ مِنَ الْأَوْغَادِ وَالسَّفَلِ
لِأَجْلِ ذَا طَالَ مِنَّا النَّوْحُ وَانْحَدَرَتْ مِنَّا الدُّمُوعُ كَسَيْلٍ وَابِلٍ هَطِلِ
عَلَى إِمَامٍ هُمَامٍ فَاضِلٍ فَطِنٍ حِبْرٍ لَبِيبٍ مَلَاذٍ لِلْعُلُومِ وَلِي
لَهُ يَدٌ وَرَدَتْ بَحْرَ الْهُدَى وَرَوَتْ حَدِيثُهُ عَنْ فُنُونِ السَّادَةِ الْأُوَلِ
وَكَمْ لَهُ مِنْ تَآلِيفٍ بِجَوْهَرِهَا جَلَّتْ وَمَا احْتَاجَ مَعْنَاهَا إِلَى حُلَلِ

٨٣ قَالَ الْيَزِيدِيُّ بْنُ مُغِيرَةَ الْمُقَرِّيُّ يَرْثِي الْكِسَائِيَّ وَمُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ وَكَانَا قَدْ خَرَجَا مَعَ الرَّشِيدِ إِلَى خُرَاسَانَ فَمَاتَا فِي الطَّرِيقِ:

تَصَرَّمَتِ الدُّنْيَا فَلَيْسَ خُلُودُ وَمَا قَدْ تَرَى مِنْ بَهْجَةٍ سَيَبِيدُ
سَيُفْنِيكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونَ الَّتِي خَلَتْ فَكُنْ مُسْتَعِدًّا فَالْفَنَاءُ عَتِيدُ

أَسِيتُ عَلَى قَاضِي ٱلْقُضَاةِ مُحَمَّدٍ فَأَذْرَيْتُ دَمْعِي وَٱلْفُؤَادُ عَمِيدُ
وَقُلْتُ إِذَا مَا ٱلْخَطْبُ أَشْكَلَ مَنْ لَنَا بِإِيضَاحِهِ يَوْمًا وَأَنْتَ فَقِيدُ
وَأَقْلَقَنِي مَوْتُ ٱلْكِسَائِيِّ بَعْدَهُ وَكَادَتْ بِيَ ٱلْأَرْضُ ٱلْفَضَاءُ تَمِيدُ
وَأَذْهَلَنِي عَنْ كُلِّ عَيْشٍ وَلَذَّةٍ وَأَرَّقَ عَيْنِي وَٱلْعُيُونُ هُجُودُ
هُمَا عَالِمَانِ أَوْدَيَا وَتَحَرَّمَا وَمَا لَهُمَا فِي ٱلْعَالَمِينَ نَدِيدُ
فَحَزْنِيَ إِنْ تَخْطُرْ عَلَى ٱلْقَلْبِ خَطْرَةٌ بِذِكْرِهِمَا حَتَّى ٱلْمَمَاتِ جَدِيدُ

٨٤ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَرْثِي ٱلْأَصْمَعِيَّ:

أَسِفْتُ لِفَقْدِ ٱلْأَصْمَعِيِّ لَقَدْ مَضَى حَمِيدًا لَهُ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ سَهْمُ
تَقَضَّتْ بَشَاشَاتُ ٱلْمَجَالِسِ بَعْدَهُ وَوَدَّعَنَا إِذْ وَدَّعَ ٱلْأُنْسُ وَٱلْعِلْمُ
وَقَدْ كَانَ نَجْمَ ٱلْعِلْمِ فِينَا حَيَاتُهُ فَلَمَّا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَفَلَ ٱلنَّجْمُ

٨٥ قَالَ ٱلْمُعْتَمِدُ يَرْثِي أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ:

إِلَى ٱللهِ أَشْكُو أَسًى عَرَانِي كَوَقْعِ ٱلْأَسَلْ
عَلَى رَجُلٍ أَرْوَعٍ يُرَى مِنْهُ فَضْلُ ٱلْوَجَلْ
شِهَابٌ خَبَا وَقْدُهُ وَعَارِضُ غَيْثٍ أَفَلْ
شَكَتْ دَوْلَتِي فَقْدَهُ وَكَانَ يَزِينُ ٱلدُّوَلْ

٨٦ قَالَ ٱلشِّهَابُ ٱلْمَنْصُورِيُّ يَرْثِي ٱلْإِمَامَ كَمَالَ ٱلدِّينِ ٱلسُّيُوطِيَّ:

مَاتَ ٱلْكَمَالُ فَقَالُوا وَلِّ ٱلْحِجَى وَٱلْجَلَالُ
فَلِلْعُيُونِ بُكَاءٌ وَلِلدُّمُوعِ ٱنْهِمَالُ
وَفِي فُؤَادِيَ حُزْنٌ وَلَوْعَةٌ لَا تَزَالُ

لِلّٰهِ عِلْمٌ وَحِلْمٌ وَارَتْهُ تِلْكَ الرِّمَالُ
بَكَى الرَّشَادُ عَلَيْهِ دَمًا وَسُرَّ الضَّلَالُ
قَدْ لَاحَ فِي الْخَيْرِ نَقْصٌ لَمَّا مَضَى وَاخْتَلَالُ
وَكَيْفَ لَمْ نَرَ نَقْصًا وَقَدْ تَوَلَّى الْكَمَالُ
عُلُومُهُ رَاسِخَاتٌ تَزُولُ مِنْهَا الْجِبَالُ
بِقَبْرِهِ الْعِلْمُ ثَاوٍ وَالْفَضْلُ وَالْإِفْضَالُ

٨٧ قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ مَعْبَدٍ يَرْثِي يَحْيَى بْنَ مُعِينٍ:

لَقَدْ عَظُمَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ رَزِيَّةٌ غَدَاةَ نَعَى النَّاعُونَ يَحْيَى فَأَسْمَعُوا
فَقَالُوا وَإِنَّا قَدْ دَفَنَّاهُ فِي الثَّرَى فَكَادَ فُؤَادِي حَسْرَةً يَتَصَدَّعُ
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ لِعَيْنِيَ عَبْرَةً وَلَا جَزَعًا إِنَّا إِلَى اللّٰهِ نَرْجِعُ
أَلَا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ عِظْمُ رَزِيَّتِي بِيَحْيَى إِلَى مَنْ نَسْتَرِيحُ وَنَفْزَعُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُؤْتَى فَيُسْأَلُ بَعْدَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ فِي الْعِلْمِ مُقْنِعُ
لَقَدْ كَانَ يَحْيَى فِي الْحَدِيثِ بَقِيَّةً مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِينَ حِينَ تَقَشَّعُوا
فَلَمَّا مَضَى مَاتَ الْحَدِيثُ بِمَوْتِهِ وَأُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ الْعِلْمُ أَجْمَعُ
وَصِرْنَا حَيَارَى بَعْدَ يَحْيَى كَأَنَّنَا رَعِيَّةُ رَاعٍ بَثَّهُمْ فَتَصَدَّعُوا
وَلَيْسَ بِمُغْنٍ عَنْكَ دَمْعٌ سَفَحْتَهُ وَلَكِنْ إِلَيْهِ يَسْتَرِيحُ الْمُفَجَّعُ
لَعَمْرُكَ مَا لِلنَّاسِ فِي الْمَوْتِ حِيلَةٌ وَلَا لِقَضَاءِ اللّٰهِ فِي الْخَلْقِ مَدْفَعُ
وَلٰكِنَّمَا أَبْكِي عَلَى الْعِلْمِ إِذْ مَضَى فَمَا بَعْدَ يَحْيَى فِيهِ لِلنَّاسِ مَفْزَعُ
فَقَدْ تَرَكَ الدُّنْيَا وَفَرَّ بِدِينِهِ إِلَى اللّٰهِ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُمَتَّعُ

٨٨ قال إسحاق الموصلي يرثي أباه إبراهيم المغني :

أقول له لما وقفت بقبره ... عليك سلام الله يا صاحب القبر
ويا قبر إبراهيم حييت حفرة ... ولا زلت تسقى الغيث من سبل القطر
لقد عزني وجدي عليك فلم يدع ... لقلبي نصيباً من عزاء ولا صبر
وقد كنت أبكي من فراقك ليلة ... فكيف وقد صار الفراق إلى الحشر

٨٩ لما مات أبو إسحاق الصابي رثاه الشريف الرضي الموسوي بقوله:

أعلمت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي
جبل هوى لو خر في البحر اغتدى ... من وقعه متتابع الأزباد
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى ... أن الثرى يعلو على الأطواد

٩٠ قال الشهاب المنصوري يرثي العلامة محيي الدين الكافيجي :

بكت على الشيخ محيي الدين كافيجي ... عيوننا بدموع من دم الهمج
كانت أساريرُ هذا الدهر من درر ... تزهى فبدل ذاك الدر بالسبج
فكم نفى بسماح من مكارمه ... فقراً وقوم بالإعطاء من عوج
يا نور علم أراه اليوم منطفئاً ... وكانت الناس تمشي منه في سرج
فلو رأيت الفتاوى وهي باكية ... رأيتها من نجيع الدمع في لجج
ولو سرت بثناء عنه ريح صبا ... لاستنشقوا من شذاها أطيب الأرج
يا وحشة العلم من فيه إذا اعتركت ... أبطاله فتوارت في دجى الرهج
لم يلحقوا شأو علم من حصائصه ... أنى ورتبته في أرفع الدرج
قد طال ما كان يقرينا ويثرونا ... في حالتيه بوجه منه مبتهج

سَقَّاهُ وَكَسَاهُ اللهُ نُورَ سَنًا مِنْ سُنْدُسِ بِيدِ الْغُفْرَانِ مُنَسَّجِ

٩١ وَقَالَ أَيْضًا يَرْثِي الْحِجَازِيَّ أَبَا الطَّيِّبِ الْخَزْرَجِيَّ:

لَهْفَ قَلْبِي عَلَى أُفُولِ الشِّهَابِ تُحْفَةِ الْقَوْمِ نُزْهَةِ الْأَصْحَابِ
كَانَ فِي مَطْلَعِ الْبَلَاغَةِ يَسْرِي فَتَوَارَى مِنَ الثَّرَى بِحِجَابِ
فَقَدَتْ بِرَّهُ أَيَامَى الْمَعَانِي وَيَتَامَى جَوَاهِرِ الْآدَابِ
هَطَلَتْ أَدْمُعُ السَّحَابِ عَلَيْهِ وَقَلِيلٌ فِيهِ دُمُوعُ السَّحَابِ
وَذَوُو الْجَمْعِ أَصْبَحُوا حِينَ وَلَّى كُلُّهُمْ جَامِعًا بِلَا مِخْرَابِ
يَا شِهَابًا طُلُوعُهُ فِي سَمَا الْفَضْـ ـلِ وَلَكِنْ أُفُولُهُ فِي التُّرَابِ
لَكَ فِيمَا أَلَّفْتَ تَذْكِرَةٌ مِنْ مَا انْتَقَى دُرَّهُ أُولُو الْأَلْبَابِ
رَوْضَةٌ أَيْنَعَتْ بِفَاكِهَةٍ مِنْ حُسْنِ لَفْظٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابِ
فَسَقَى تُرْبَهَا الرَّبَابُ لِتَهْتَزَّ وَتَرْبُو عَلَى سَمَاعِ الرَّبَابِ
وَرَأَى كَسْرَهُ فَقَابَلَهُ اللـ ـهُ تَعَالَى بِالْجَبْرِ يَوْمَ الْحِسَابِ

٩٢ قَالَ عِمَادُ الْكَاتِبِ يَرْثِي صَلَاحَ الدِّينِ:

شَمْلُ الْهُدَى وَالْمُلْكِ عَمَّ شَتَاتُهُ وَالدَّهْرُ سَاءَ وَأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
بِاللهِ أَيْنَ النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي لِلهِ خَالِصَةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي مَا زَالَ سُلْطَانًا لَنَا يُرْجَى نَدَاهُ وَتُتَّقَى سَطَوَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي شَرُفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وَسَمَتْ عَلَى الْفُضَلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي عَنَتِ الْفَرَنْجُ لِبَأْسِهِ ذُلًّا وَمِنْهَا أُدْرِكَتْ ثَارَاتُهُ
أَغْلَالُ أَعْنَاقِ الْعِدَى أَسْيَافُهُ أَطْوَاقُ أَجْيَادِ الْوَرَى حَسَنَاتُهُ

الباب الرابع
في الحلم

٩٣ قال العسجدي لبعض أصحاب ابن العميد ذي الكفايتين: كيف رأيت الوزير. فقال: رأيته يابس العود ذميم المعهود سيء الظن بالمعبود. فقال العسجدي: أما رأيت تلك الأبهة والصيت والمواكب والتجمل الظاهر والدار الجليلة والفرش السني والحاشية الجميلة. فقال ذلك الرجل: الدولة غير السؤدد. والسلطنة غير الكرم. والحظ غير المجد. أين الزوار والمنتجعون. وأين الآملون والشاكرون. وأين الواصفون الصادقون. وأين المنصرفون الراضون. وأين الهبات وأين التفضلات وأين الخلع والتشريفات. وأين الهدايا وأين الضيافات. هيهات هيهات لا تجيء الرئاسة بالترهات. ولا يحصل الشرف بالخزعبلات. أما سمعت قول الشاعر:

أبا جعفر ليس فضل الفتى إذا راح في فرط إعجابه
ولا في فراهة برذونه ولا في ملاحة أثوابه
ولكنه في الفعال الجميل والكرم الأشرف النابه

٩٤ اجتمع عامر بن الظرب العدواني وحمة بن رافع الدوسي عند ملك من ملوك حمير. فقال: لا تسألا حتى أسمع ما تقولان. فقال عامر لحمة: أين تحب أن تكون أيادياك. قال: عند ذي الرتبة

ٱلْعَدِيمِ وَعِنْدَ ذِي ٱلْخُلَّةِ ٱلْكَرِيمِ. وَٱلْمُعْسِرِ ٱلْغَرِيمِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِ ٱلْحَلِيمِ.
قَالَ: مَنْ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِٱلْمَقْتِ. قَالَ: ٱلْفَقِيرُ ٱلْمُخْتَالُ. وَٱلضَّعِيفُ
ٱلصَّوَّالُ. وَٱلْغَنِيُّ ٱلْقَوَّالُ. قَالَ: فَمَنْ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِٱلْمَنْعِ. قَالَ: ٱلْحَرِيصُ
ٱلْكَانِدُ وَٱلْمُسْتَمِيدُ ٱلْحَاسِدُ. وَٱلْمُخَافُ ٱلْوَاجِدُ. قَالَ: مَنْ أَجْدَرُ ٱلنَّاسِ
بِٱلصَّنِيعَةِ. قَالَ: مَنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ. وَإِذَا مُنِعَ عَذَرَ. وَإِذَا مُطِلَ
صَبَرَ. وَإِذَا قَدُمَ ٱلْعَهْدُ ذَكَرَ. قَالَ: مَنْ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ عِشْرَةً. قَالَ: مَنْ
إِذَا قَرُبَ مَنَحَ. وَإِذَا ظُلِمَ صَفَحَ. وَإِنْ ضُوِيقَ سَمَحَ. قَالَ: مَنْ أَلْأَمُ
ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ إِذَا سَأَلَ خَضَعَ. وَإِذَا سُئِلَ مَنَعَ. وَإِذَا مَلَكَ كَنَعَ.
ظَاهِرُهُ جَشِعٌ. وَبَاطِنُهُ طَبَعٌ. قَالَ: فَمَنْ أَجَلُّ ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ عَفَا إِذَا
قَدَرَ. وَأَجْمَلَ إِذَا ٱنْتَصَرَ. وَلَمْ تُطْغِهِ عِزَّةُ ٱلظَّفَرِ. قَالَ: فَمَنْ أَحْزَمُ ٱلنَّاسِ.
قَالَ: مَنْ أَخَذَ رِقَابَ ٱلْأُسُودِ بِيَدَيْهِ. وَجَعَلَ ٱلْعَوَاقِبَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ.
وَنَبَذَ ٱلتَّهَيُّبَ دُبُرَ أُذُنَيْهِ. قَالَ: فَمَنْ أَخْرَقُ ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ رَكِبَ
ٱلْخَطَارَ. وَٱعْتَسَفَ ٱلْعِثَارَ. وَأَسْرَعَ فِي ٱلْبِدَارِ قَبْلَ ٱلِٱقْتِدَارِ. قَالَ: مَنْ
أَجْوَدُ ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ بَذَلَ ٱلْمَجْهُودَ. وَلَمْ يَأْسَ عَلَى ٱلْمَفْقُودِ. قَالَ: مَنْ
أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ حَلَّى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَزِينَ بِٱللَّفْظِ ٱلْوَجِيزِ. وَطَبَّقَ ٱلْمَفْصِلَ
قَبْلَ ٱلتَّخْرِيزِ. قَالَ: مَنْ أَنْعَمُ ٱلنَّاسِ عَيْشًا. قَالَ: مَنْ تَحَلَّى بِٱلْعَفَافِ
وَرَضِيَ بِٱلْكَفَافِ. وَتَجَاوَزَ مَا يُخَافُ إِلَى مَا لَا يُخَافُ. قَالَ: فَمَنْ أَشْقَى
ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ حَسَدَ عَلَى ٱلنِّعَمِ. وَسَخِطَ عَلَى ٱلْقِسَمِ. وَٱسْتَشْعَرَ
ٱلنَّدَمَ عَلَى مَا ٱجْتَرَمَ. قَالَ: مَنْ أَغْنَى ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنِ ٱسْتَشْعَرَ

ٱلنَّاسَ. وَأَظْهَرَ ٱلتَّجَمُّلَ لِلنَّاسِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلنِّعَمِ. وَلَمْ يَسْخَطْ عَلَى ٱلْقَسَمِ. قَالَ فَمَنْ أَحْكَمُ ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ صَمَتَ فَادَّكَرَ. وَنَظَرَ فَٱعْتَبَرَ وَوُعِظَ فَٱزْدَجَرَ. قَالَ: مَنْ أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ. قَالَ: مَنْ رَأَى ٱلْخُرْقَ مَغْنَمًا. وَٱلتَّجَاوُزَ مَغْرَمًا (لابن عبد ربه)

٩٥ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَعْجَبُ مَا فِي ٱلْإِنْسَانِ قَلْبُهُ وَلَهُ مَوَادُّ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَأَضْدَادٌ مِنْ خِلَافِهَا. فَإِنْ سَنَحَ لَهُ ٱلرَّجَاءُ أَذَلَّهُ ٱلطَّمَعُ. وَإِنْ هَاجَهُ ٱلطَّمَعُ أَهْلَكَهُ ٱلْحِرْصُ. وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْيَأْسُ قَتَلَهُ ٱلْأَسَفُ. وَإِنْ عَرَضَ لَهُ ٱلْغَضَبُ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلْغَيْظُ. وَإِنْ أُسْعِدَ بِٱلرِّضَا نَسِيَ ٱلتَّحَفُّظَ. وَإِنْ أَتَاهُ ٱلْخَوْفُ شَغَلَهُ ٱلْحَذَرُ. وَإِنِ ٱتَّسَعَ لَهُ ٱلْأَمْنُ ٱسْتَلَبَتْهُ ٱلْغِرَّةُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ ٱلْجَزَعُ. وَإِنِ ٱسْتَفَادَ مَالًا أَطْغَاهُ ٱلْغِنَى. وَإِنْ عَضَّتْهُ فَاقَةٌ بَلَغَ بِهِ ٱلْبَلَاءُ. وَإِنْ جَهَدَ بِهِ ٱلْجُوعُ قَعَدَ بِهِ ٱلضَّعْفُ. وَإِنْ أَفْرَطَ فِي ٱلشِّبَعِ كَظَّتْهُ ٱلْبِطْنَةُ. فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ قَاتِلٌ

٩٦ نخبة من وصية ابن سعيد المغربي لابنه وقد اراد السفر

أُودِعُكَ ٱلرَّحْمَانَ فِي غُرْبَتِكْ مُرْتَقِبًا رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكْ
فَلَا تُطِلْ حَبْلَ ٱلنَّوَى إِنَّنِي وَٱللهِ أَشْتَاقُ إِلَى طَلْعَتِكْ
وَٱخْتَصِرِ ٱلتَّوْدِيعَ أَخْذًا فَمَا لِي نَاظِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكْ
وَٱجْعَلْ وِصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ وَلَا تَبْرَحْ مَدَى ٱلْأَيَّامِ مِنْ فِكْرَتِكْ
خُلَاصَةُ ٱلْعُمْرِ ٱلَّتِي حُنِّكَتْ فِي سَاعَةٍ زُفَّتْ إِلَى فِطْنَتِكْ

فَلِلتَّجَارِيبِ أُمُورٌ إِذَا طَالَعْتَهَا تَشْحَذُ مِنْ غَفْلَتِكْ
فَلَا تَنَمْ عَنْ وَعْيِهَا سَاعَةً فَإِنَّهَا عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكْ
وَكُلُّ مَا كَابَدْتَهُ فِي النَّوَى إِيَّاكَ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ هِمَّتِكْ
فَلَيْسَ يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ وَإِنَّمَا تُعْرَفُ مِنْ شِيَمَتِكْ
وَامْشِ أَلْهُوِينَا مُظْهِرًا عِفَّةً وَابْغِ رِضَا الْأَعْيُنِ عَنْ هَيْئَتِكْ
وَانْطِقْ بِحَيْثُ الْعِيُّ مُسْتَقْبَحٌ وَاصْمُتْ بِحَيْثُ الْخَيْرُ فِي سَكْتَتِكْ
وَلِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ وَاقْصِدْ لَهُ مَا عِشْتَ فِي بُكْرَتِكْ
وَوَفِّ كُلًّا حَقَّهُ وَلْتَكُنْ تَكْسِرُ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حِدَّتِكْ
وَحَيْثُمَا خَيَّمْتَ فَاقْصِدْ إِلَى صُحْبَةِ مَنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكْ
وَلِلرَّزَايَا وَثْبَةٌ مَا لَهَا إِلَّا الَّذِي تَذْخَرُ مِنْ عُدَّتِكْ
وَلَا تَقُلْ أَسْلَمُ لِي وَحْدَتِي فَقَدْ تُقَاسِي الذُّلَّ فِي وَحْدَتِكْ
وَالْتَزِمِ الْأَحْوَالَ وَزْنًا وَلَا تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكْ
وَلْتَجْعَلِ الْعَقْلَ مَحَكًّا وَخُذْ كُلًّا بِمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكْ
وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِأَلْفَاظِهِمْ وَاصْحَبْ أَخًا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكْ
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصْحَهُ وَفِكْرُهُ وَقْفٌ عَلَى عَثْرَتِكْ
إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ إِنَّهُ عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كَرْبَتِكْ
وَانْمُ نُمُوَّ النَّبْتِ قَدْ زَارَهُ غَيْثُ النَّدَى وَاسْمُ إِلَى قُدْرَتِكْ
وَلَا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمْكِنًا تَذْكَارُهُ يُذْكِي لَظَى حَسْرَتِكْ
وَالشَّرَّ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ فَإِنَّهُ حَوْزٌ عَلَى مُهْجَتِكْ

يَا بُنَيَّ ٱلَّذِي لَا نَاصِحَ لَهُ مِثْلِي وَلَا مَنْصُوحَ لِي مِثْلُهُ. قَدْ قَدَّمْتُ لَكَ فِي هٰذَا ٱلنَّظْمِ مَا إِنْ أَخْطَرْتَهُ بِخَاطِرِكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ رَجَوْتُ لَكَ حُسْنَ ٱلْعَاقِبَةِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى. وَإِنَّ أَخَفَّ مِنْهُ لِلْحِفْظِ وَأَعْلَقَ بِٱلْفِكْرِ وَأَحَقَّ بِٱلتَّقَدُّمِ قَوْلُ ٱلْأَوَّلِ:

يَزِينُ ٱلْغَرِيبَ إِذَا مَا ٱغْتَرَبْ ثَلَاثٌ فَمِنْهُنَّ حُسْنُ ٱلْأَدَبْ
وَثَانِيَةٌ حُسْنُ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةٌ ٱجْتِنَابُ ٱلرِّيَبْ

وَأَصْغِ يَا بُنَيَّ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ ٱلدَّهْرِ وَسَلْمُ ٱلْكَرَمِ وَٱلصَّبْرِ:

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ ٱلدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ لَسَكَنْتُمُ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلْآدَابَا

إِذْ حُسْنُ ٱلْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ. وَٱلْأَدَبُ أَرْحَبُ مَنْزِلٍ. وَلٰكِنْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي أَدِيبٍ مُتَغَرِّبٍ: وَكَانَ كُلَّمَا طَرَأَ عَلَى مَلِكٍ فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وُلِدَ وَإِلَيْهِ قَصَدَ. غَيْرُ مُسْتَرِيبٍ بِدَهْرِهِ. وَلَا مُنْكِرٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ. وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى صُحْبَةِ مَنْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ هَوَاهُ فَٱجْعَلِ ٱلتَّكَلُّفَ لَهُ سُلَّمًا وَهُبَّ فِي رَوْضِ أَخْلَاقِهِ هُبُوبَ ٱلنَّسِيمِ. وَحُلَّ بِطَرْفِهِ حُلُولَ ٱلْوَسَنِ وَٱنْزِلْ بِقَلْبِهِ نُزُولَ ٱلْمَسَرَّةِ حَتَّى يَتَمَكَّنَ لَكَ وِدَادُهُ. وَيَخْلُصَ فِيكَ ٱعْتِقَادُهُ. وَطَهِّرْ مِنَ ٱلْوُقُوعِ فِيهِ لِسَانَكَ. وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ وَلَا تُرَخِّصْ فِي جَانِبِهِ لِحَسُودٍ لَكَ مِنْهُ يُرِيدُ إِبْعَادَكَ عَنْهُ لِمَنْفَعَتِهِ. أَوْ حَسُودٍ لَهُ يُغَارُ لِتُجْمِلَهُ بِصُحْبَتِكَ. وَمَعَ هٰذَا فَلَا تَغْتَرَّ بِطُولِ صُحْبَتِهِ وَلَا تَتَمَهَّدْ بِدَوَامِ رَقْدَتِهِ. فَقَدْ يُنَبِّهُهُ ٱلزَّمَانُ. وَيَتَغَيَّرُ مِنْهُ ٱلْقَلْبُ وَٱللِّسَانُ. وَإِنَّمَا ٱلْعَاقِلُ مَنْ جَعَلَ عَقْلَهُ مِعْيَارًا وَكَانَ كَٱلْمِرْآةِ يَلْقَى كُلَّ وَجْهٍ بِمِثَالِهِ

٧٠ ـــــــ

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارَا

وَاحْرِصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلُ الْقَائِلِ: ثَلَاثَةٌ تُبْقِي لَكَ الْوُدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ. أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ وَتُوَسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ وَتَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ. وَاحْذَرْ كُلَّ مَا بَيَّنَهُ لَكَ الْقَائِلُ: كُلُّ مَا تَغْرِسُهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ. فَإِذَا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ. وَقَوْلُ الْآخَرِ: ابْنُ آدَمَ ذِئْبٌ مَعَ الضَّعْفِ أَسَدٌ مَعَ الْقُوَّةِ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَثْبُتَ عَلَى صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ. (وَيُحْكَى) أَنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ خَطَبَ مِنَ الْخَلِيلِ صُحْبَتَهُ. فَجَاوَبَهُ أَنَّ الصُّحْبَةَ رِقٌّ وَلَا أَضَعُ رِقِّي فِي يَدَيْكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ. وَاسْتَمِلْ مِنْ عَيْنِ مَنْ تُعَاشِرُهُ وَتَفَقَّدْ فِي فَلَتَاتِ الْأَلْسُنِ وَصَفَحَاتِ الْأَوْجُهِ. وَلَا يَحْمِلْكَ الْحَيَاءُ عَلَى السُّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تُبَيِّنَهُ. فَإِنَّ الْكَلَامَ سِلَاحُ السَّلِيمِ. وَبِالْأَنِينِ يُعْرَفُ أَلَمُ الْجَرِيحِ وَاجْعَلْ لِكُلِّ أَمْرٍ أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةً تَجْعَلُهَا نِهَايَةً لَكَ. وَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ. مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ إِذِ الْأَفْكَارُ تَجْلُبُ الْهُمُومَ. وَتُضَاعِفُ الْغُمُومَ. وَمُلَازَمَةُ الْقُطُوبِ. عُنْوَانُ الْمَصَائِبِ وَالْخُطُوبِ. يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ. وَيَشْمَتُ الْعَدُوُّ وَالْمُجَانِبُ. وَلَا تَضُرَّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا نَفْسَكَ لِأَنَّكَ تَنْصُرُ بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ. وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْغَائِبَ الْحَزَنُ. وَلَا يَدْعُونِي بِطُولِ عَتْبِكَ الزَّمَنُ. وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِغَرْنَاطَةَ شَخْصًا قَدْ أَلِفَتْهُ الْهُمُومُ. وَعَشِقَتْهُ

الغموم . ومن صغره إلى كبره لا تراه أبدًا خاليًا من فكرة حتى ثقب بصدر الهم . ومن أعجب ما رأيته منه أنه يتنكد في الشدة ولا يتعلل بأن يكون بعدها فرج ويتنكد في الرخاء خوفًا من أن لا يدوم (ويُنشد) : توقع زوالًا إذا قيل تم . (ويُنشد) : وعند التناهي يقصر المتطاول . وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب . ومثل هذا عمره مخسور يمر ضياعًا . ومتى رفعك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسنه حسدًا لك وقصدًا لتصغير قدرك عندك وتزهيدًا لك فيه فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك وتركن إلى العلم الذي مدحوه . فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مشي الحجلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه . ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه فبقي مخبل المشي كما قيل :

إن الغراب وكان يمشي مشية في ما مضى من سالف الأجيال
حسد القطا وأراد يمشي مشيها فأصابه ضرب من العقال
فأضل مشيته وأخطأ مشيها فلذاك كنوه أبا مرقال

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ويقول : ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يرتاح فيه . فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان . واستخفت طلعته للهوان . وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس . وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم . ولا تزل هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَالْأَمْثَالُ تُضْرَبُ لِذِي اللُّبِّ الْحَكِيمِ . وَذُو الْبَصَرِ يَمْشِي عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ . وَالْقَطِنُ يُقْنِعُ بِالْقَلِيلِ وَيَسْتَدِلُّ بِالْيَسِيرِ . وَاللهُ سُبْحَانَهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ لَا رَبَّ سِوَاهُ (ملخص عن المقري)

طرفة من وصيّة ابن طاهر لابنه

٩٧ أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَحْدَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُزَايَلَةِ سُخْطِهِ وَحِفْظِ رَعِيَّتِكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَالْزَمْ مَا أَلْبَسَكَ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْهُ وَالْعَمَلُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنْجِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ . فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ الرَّأْفَةَ بِمَنِ اسْتَرْعَاكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ . وَأَلْزَمَكَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ فِيهِمْ. وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالدَّفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ . وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَالْأَمْنَ لِسَبِيلِهِمْ . وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ . وَمُؤَاخِذُكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ وَمُوقِفُكَ عَلَيْهِ وَمُسَائِلُكَ عَنْهُ وَمُثِيبُكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ . فَفَرِّغْ لِذٰلِكَ فَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَنَظَرَكَ وَلَا يَشْغَلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَأَنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلَاكُ شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوَفِّقُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ لِرُشْدِكَ . وَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ نَفْسَكَ وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ أَفْعَالَكَ الْمُوَاظَبَةَ عَلَى مَا افْتَرَضَ

اللهُ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ. وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللهِ وَتَقْوَاهُ. وَآثِرِ الْفِقْهَ وَأَهْلَهُ وَالدِّينَ وَحَمَلَتَهُ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا تَزَيَّنَ بِهِ الْمَرْءُ الْفِقْهُ فِي الدِّينِ وَالطَّلَبُ لَهُ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ. وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ. فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْآمِرُ بِهِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي الْمُوبِقَاتِ كُلِّهَا. وَمَعَ تَوْفِيقِ اللهِ يَزْدَادُ الْعَبْدُ مَعْرِفَةً لَهُ وَدَرَكًا لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ. مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنَسَةِ بِكَ وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ. وَعَلَيْكَ بِالِاقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا. فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَنَ نَفْعًا وَلَا أَحْضَرَ أَمْنًا وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا مِنْهُ. وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ وَالرُّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَقِوَامِ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالِاقْتِصَادِ. فَآثِرْهُ فِي دُنْيَاكَ كُلِّهَا وَلَا تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَالْأَجْرِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ. وَلَا غَايَةَ لِلِاسْتِكْثَارِ فِي الْبِرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ. إِذَا كَانَ يُطْلَبُ بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتُهُ وَمُرَافَقَةُ أَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ وَيُحْصِنُ مِنَ الذُّنُوبِ وَأَنَّهُ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ وَمَنْ يَلِيكَ وَلَا تَسْتَصْلِحُ أُمُورَكَ بِأَفْضَلَ مِنْهُ. فَأْتِهِ وَاهْتَدِ بِهِ تَتِمَّ أُمُورُكَ وَتَزِدْ مَقْدُرَتُكَ وَتَصْلُحُ خَاصَّتُكَ وَعَامَّتُكَ. وَلَا تَتَّهِمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تُوَلِّيهِ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ أَمْرَهُ فَإِنَّ إِيقَاعَ التُّهَمِ بِالْبُرَاءِ وَالظُّنُونَ السَّيِّئَةَ بِهِمْ مَأْثَمٌ. وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوُّ اللهِ الشَّيْطَانُ فِي أَمْرِكَ مَغْمَزًا فَإِنَّهُ

إنَّما يكتفي بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغمّ في سوء الظنّ ما ينغصك لذاذة عيشك. واعلم أنك تجد بحسن الظنّ قوّة وراحة وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ... وتفرّد بتقويم نفسك تفرّد من يعلم أنه مسؤول عما صنع ومجزيّ بما أحسن ومأخوذ بما أساء. فإنّ الله عزّ وجلّ جعل الدين حرزًا وعزًا ورفع من اتّبعه وعزّزه. فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى. وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه. ولا تعطّل ذلك ولا تتهاون به. ولا تؤخّر عقوبة أهل العقوبة فإنّ في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنّك. واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك. وإذا عاهدت عهدًا ففِ به وإذا وعدت خيرًا فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب كلّ ذي عيب من رعيتك واسدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله وأقص النميمة. فإنّ أوّل فساد أمورك في عاجلها وآجلها تقريب الكذوب لأنّ الكذب رأس المآثم. والزور والنميمة خاتمتها لأنّ النميمة لا يسلم صاحبها. ولا يستتمّ لمطيعها أمر. وأحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الأشراف بالحق. وواسِ الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره. والتمس فيه

٧٦ ـــــــ

وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيَكَ الدُّنْيَا وَغُرُورُهَا أَهْلَ الْآخِرَةِ فَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ. فَإِنَّ التَّهَاوُنَ يُورِثُ التَّفْرِيطَ وَالتَّفْرِيطُ يُورِثُ الْبَوَارَ. وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا وَلَا تُمَالِئَنَّ حَاسِدًا وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا. وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا وَلَا تُصَدِّقَنَّ نَمَّامًا وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَّارًا. وَلَا تَأْتِيَنَّ مَدْحًا وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا. وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مُحَابَاةً وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا....

وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا. وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتَكَ لِأَنَّكَ رَاعِيهِمْ وَقَيِّمُهُمْ. تَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَمَقْدُرَتِهِمْ وَتُنْفِذُهُ فِي قَوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوَدِهِمْ. فَاسْتَعْمِلْ عَلَيْهِمْ ذَا الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالْخِبْرَةِ بِالْعَمَلِ وَالْعِلْمِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَفَافِ. وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقَلَّدْتَ وَأُسْنِدَ إِلَيْكَ. وَلَا يَشْغَلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفْكَ عَنْهُ صَارِفٌ. فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ. وَحُسْنَ الْأُحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ. وَأَحْرَزْتَ بِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعَنْتَ عَلَى الصَّلَاحِ. وَفَشَتِ الْعِمَارَةُ بِنَاحِيَتِكَ وَظَهَرَ الْخِصْبُ فِي كُوَرِكَ. وَكَثُرَ خَرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ. وَقَوِيتَ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِبَاطِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ الْمَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ. وَكُنْتَ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ. وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعُدَّةٍ. فَنَافِسْ فِي ذَلِكَ وَلَا تُقَدِّمْ عَلَيْهِ شَيْئًا تَحْمَدُ فِيهِ مَغَبَّةَ أَمْرِكَ. وَاجْعَلْ

فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عُمَّالِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا. فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذٰلِكَ. فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالصُّنْعِ فَأَمْضِهِ. وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ. ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ. فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ وَقَدْ أَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَأَغْوَاهُ ذٰلِكَ وَأَعْجَبَهُ. فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنَقَضَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ. فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَوْنِ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ وَأَكْثِرْ فِي اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ. وَأَفْرِغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِغَدِكَ وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ. فَإِنَّ لِلْغَدِ أُمُورًا وَحَوَادِثَ تُلْهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَخَّرْتَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا أَخَّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أُمُورُ يَوْمَيْنِ فَيُثْقِلُكَ ذٰلِكَ حَتَّى تُعْرِضَ عَنْهُ. وَإِذَا أَمْضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ نَفْسَكَ وَبَدَنَكَ وَأَحْكَمْتَ أُمُورَ سُلْطَانِكَ. وَانْظُرْ أَحْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي السِّنِّ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَسْتَيْقِنُ صَفَاءَ طَوِيَّتِهِمْ وَشَهِدَتْ مَوَدَّتُهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتُهُمْ بِالنُّصْحِ وَالْمُخَالَطَةِ عَلَى أَمْرِكَ. فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ. وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمِ الْحَاجَةُ فَاحْتَمِلْ مُؤْنَتَهُمْ وَأَصْلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِخَلَّتِهِمْ مَسًّا. وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ وَالْمُحْتَقَرِ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ. فَسَلْ عَنْهُ أَخْفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمْثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ رَعِيَّتِكَ. وَبُرْهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيهَا بِمَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَهُمْ. وَتَعَاهَدْ ذَوِي الْبَأْسَاءِ وَأَيْتَامَهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللهُ فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصِّلَةِ لَهُمْ. لِيُصْلِحَ اللهُ بِذَلِكَ عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَةً وَزِيَادَةً وَأَجْرًا لِلْأَضْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ. وَاعْرِفْ مَا تَجْمَعُ عُمَّالُكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَيُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا تَجْمَعْ حَرَامًا وَلَا تُنْفِقْ إِسْرَافًا. وَأَكْثِرْ مُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُشَاوَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ. وَلْيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا وَإِيثَارَ مَكَارِمِ الْأُمُورِ وَمَعَالِيهَا. وَلْيَكُنْ أَكْرَمُ دُخَلَائِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عَيْبًا فِيكَ لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْبَتُكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ وَإِعْلَانِكَ مَا فِيهِ مِنَ النَّقْصِ. فَإِنَّ أُولَئِكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَائِكَ وَمُظَاهِرُونَ لَكَ. وَانْظُرْ عُمَّالَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكُتَّابَكَ فَوَقِّتْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكُتُبِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ عُمَّالِكَ وَأُمُورِ كُوَرِكَ وَرَعِيَّتِكَ. ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ. وَكَرِّرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدْبِيرَ لَهُ. فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضِهِ. وَمَا كَانَ مُخَالِفًا لَكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى التَّثَبُّتِ فِيهِ وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ. وَلَا تَمْتَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفٍ تُؤْتِيهِ إِلَيْهِمْ وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي

أُمور أمير المؤمنين. ولا تضعن المعروف إلا على ذلك. وتفهم كتابي إليك وأكثر النظر فيه والعمل به. وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله رضى ولدينه نظاماً ولأهله عزاً وتمكيناً وللذمة وللملة عدلاً وصلاحاً. وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك. والسلام (لابن الاثير)

٩٨ وصية محمد الدكدجي لابنه

زُرْ والديك وقف على قبريهما ... فكأنني بك قد نقلت إليهما
لو كنت حيث هما وكانا بالبقا ... زاراك حبواً لا على قدميهما
ما كان ذنبهما إليك فطالما ... منحاك نفس الود من نفسيهما
كانا إذا ما أبصرا بك علة ... جزعا لما تشكو وشق عليهما
كانا إذا سمعا أنينك أسبلا ... دمعيهما أسفا على خديهما
وتمنيا لو صادفا بك راحة ... بجميع ما يحويه ملك يديهما
فنسيت حقهما عشية أسكنا ... دار البقا وسكنت في داريهما
فلتلحقنهما غداً أو بعده ... حتماً كما لحقا هما أبويهما
ولتندمن على فعالك مثل ما ... ندما هما قدماً على فعليهما
بشراك لو قدمت فعلاً صالحاً ... وقضيت بعض الحق من حقيهما
فاحفظ حفظت وصيتي واعمل بها ... فعسى تنال الفوز من ربيهما

٩٩ من شعر المثقب العبدي:

لا تقولن إذا ما لم ترد ... أن تتم الوعد في شيء نعم

حَسَنٌ قَوْلُ نَعَمْ مِنْ بَعْدِ لَا ... وَقَبِيحٌ قَوْلُ لَا بَعْدَ نَعَمْ
إِنَّ لَا بَعْدَ نَعَمْ فَاحِشَةٌ ... فَبِلَا فَابْدَأْ إِذَا خِفْتَ النَّدَمْ
وَإِذَا قُلْتَ نَعَمْ فَاصْبِرْ لَهَا ... بِنَجَازِ الْوَعْدِ إِنَّ الْخُلْفَ ذَمْ
أَكْرِمِ الْجَارَ وَرَاعِي حَقَّهُ ... إِنَّ عِرْفَانَ الْفَتَى الْحَقَّ كَرَمْ
إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَمْدَحُنِي ... حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِبْتُ شَتَمْ

١٠٠ قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ الثَّقَفِيُّ يَعِظُ ابْنَهُ بَدْرًا:

يَا بَدْرُ وَالْأَمْثَالُ يَضْرِبُهَا لِذِي اللُّبِّ الْحَكِيمُ
دُمْ لِلْخَلِيلِ بِوُدِّهِ مَا خَيْرُ وِدٍّ لَا يَدُومُ
وَاعْرِفْ لِجَارِكَ حَقَّهُ وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ الْكَرِيمُ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الضَّيْفَ يَوْ ... مًا سَوْفَ يَحْمَدُ أَوْ يَلُومُ
وَالنَّاسُ مُبْتَنِيَانِ مَحْمُودُ الْبِنَايَةِ أَوْ ذَمِيمُ
وَاعْلَمْ بُنَيَّ فَإِنَّهُ بِالْعِلْمِ يَنْتَفِعُ الْعَلِيمُ
أَنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا مِمَّا يَهِيجُ لَهُ الْعَظِيمُ
وَالتَّبْلُ مِثْلُ الدَّيْنِ تُقْـ ... ـضَاهُ وَقَدْ يُلْوَى الْغَرِيمُ
وَالْبَغْيُ يَصْرَعُ أَهْلَهُ وَالظُّلْمُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ
وَلَقَدْ يَكُونُ لَكَ الْبَعِيدُ أَخًا وَيَقْطَعُكَ الْحَمِيمُ
وَالْمَرْءُ يُكْرَمُ لِلْغِنَى وَيُهَانُ لِلْعَدَمِ الْعَدِيمُ
قَدْ يُقْتِرُ الْحَوْلُ التَّقِيُّ وَيُكْثِرُ الْحَمْقُ الْأَثِيمُ
يُمْلَا لِذَاكَ وَيُبْتَلَى هٰذَا فَأَيُّهُمَا الْمُضِيمُ

٨٢ ـــــــ

مَنْ تَنَاسَى ذُنُوبَهُ قَتَلَتْهُ وَأَبَانَتْ عَنْهُ الْوَلِيَّ الْحَمِيمَا
ذِكْرُكَ الذَّنْبَ نَفْرَةٌ عَنْهُ تُبْقِي لَكَ إِنْكَارَ فِعْلِهِ مُسْتَدِيمَا

لَيْسَ التَّفَضُّلُ يَا أَخِي أَنْ تُحْسِنَا لِأَخٍ يُجَازِي بِالْجَمِيلِ مِنَ الثَّنَا
إِنَّ التَّفَضُّلَ أَنْ تُجَازِيَ مَنْ أَسَا لَكَ بِالْجَمِيلِ وَأَنْتَ عَنْهُ فِي غِنَى

مِنْ عَيْنِي الْمَرْءِ يَبْدُو مَا يَكْتَمُهْ حَتَّى يَكُونَ الَّذِي يَرْعَاهُ يَفْهَمُهْ
مَا يُضْمِرُ الْمَرْءُ يَبْدُو مِنْ شَمَائِلِهِ لِنَاظِرٍ فِيهِ يَهْدِيهِ تَوَسُّمُهْ

تَعْظِيمُكَ النَّاسَ تَعْظِيمٌ لِنَفْسِكَ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ طُرًّا وَالْأَوِدَّاءِ
مَنْ عَظَّمَ النَّاسَ يَعْظُمْ فِي النُّفُوسِ بِلَا مَوْنَةٍ وَيَنَلْ عِزَّ الْأَعِزَّاءِ

وَمُسْتَقِيمٍ مِنْ أَخٍ خُلَّةً وَفِيهِ مَعَايِبُ تُسْتَرْذَلُ
كَأَعْمَى يُخَافُ عَلَى أُعْوَرٍ عِثَارًا وَعَنْ نَفْسِهِ يَغْفُلُ

خُذِ الْأُمُورَ بِرِفْقٍ وَاتَّئِدْ أَبَدًا إِيَّاكَ مِنْ عَجَلٍ يَدْعُو إِلَى وَصَبِ
الرِّفْقُ أَحْسَنُ مَا تُؤْتَى الْأُمُورُ بِهِ يُصِيبُ ذُو الرِّفْقِ أَوْ يَنْجُو مِنَ الْعَطَبِ

إِنَّ الْمُسِيءَ إِذَا جَازَيْتَهُ أَبَدًا بِفِعْلِهِ زِدْتَهُ فِي غَيِّهِ شَطَطَا
أَلْعَفْوُ أَحْسَنُ مَا يُجْزَى الْمُسِيءُ بِهِ يُهِينُهُ أَوْ يُرِيهِ أَنَّهُ سَقَطَا

سَرِيرَةُ الْمَرْءِ تُبْدِيهَا شَمَائِلُهُ حَتَّى يَرَى النَّاسُ مَا يُخْفِيهِ إِعْلَانَا
فَاجْعَلْ سَرِيرَتَكَ التَّقْوَى تَرَى أَمَلًا فِي كُلِّ مَا أَنْتَ تَبْغِيهِ وَبُرْهَانَا

تَثَبَّتْ بِالْأُمُورِ وَلَا تُبَادِرْ لِشَيْءٍ دُونَ مَا نَظَرٍ وَفِكْرِ
قَبِيحٌ أَنْ تُبَادِرَ ثُمَّ تُخْطِي وَتَرْجِعَ لِلتَّثَبُّتِ دُونَ عُذْرِ

١٠٢ نخبة من حكم اوردها البستي في ديوانه

يَا مَنْ يُسَامِي الْعُلَى عَفْوًا بِلَا تَعَبِ هَيْهَاتِ نَيْلُ الْعُلَى عَفْوًا بِلَا تَعَبِ
عَلَيْكَ بِالْجِدِّ إِنِّي لَمْ أَجِدْ أَحَدًا حَوَى نَصِيبَ الْعُلَى مِنْ غَيْرِ مَا نَصَبِ

أَلْحُرُّ فِي التَّحْقِيقِ مُعْتِقُ ذَاتِهِ مِنْ رِقِّ شَهْوَتِهِ وَمِنْ غَفَلَاتِهِ
وَمَنِ اقْتَنَى مَا لَيْسَ يُمْكِنُ غَصْبُهُ مِنْهُ وَوَفَّرَ جَاهِدًا حَسَنَاتِهِ
فَأَصِخْ لِوَعْظِي وَانْتَفِعْ بِنَصَائِحِي وَابْخَلْ بِبَاقِي الْعُمْرِ قَبْلَ فَوَاتِهِ
وَأَمِتْ بِجُهْدِكَ قُوَّةَ الْغَضَبِ الَّذِي تَحْيَا الْبَصِيرَةُ وَالتُّقَى بِمَمَاتِهِ
وَعَلَيْكَ بِالْعَدْلِ الَّذِي هُوَ لِلْفَتَى إِنْ عُدَّتِ الْأَوْصَافُ خَيْرُ صِفَاتِهِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ مَرَارَةَ الْعَيْشِ الَّذِي يَأْتِي الْفَتَى فِي الْخَوْفِ مِنْ بَغَتَاتِهِ
وَالْمَرْءُ لَيْسَ يَخَافُ مِنْ رَكَضَاتِهِ إِلَّا لِوَهْنٍ دَبَّ فِي عَزَمَاتِهِ
أَنَّى يَخَافُ الْمَوْتَ حَيٌّ عَالِمٌ يَعُدُّهُ فَصْلًا مُقَوِّمَ ذَاتِهِ
لَاسِيَّمَا وَوَرَاءَ ذَلِكَ لِلْفَتَى عَيْشٌ رَخَاءُ الْعَيْشِ فِي لَذَّاتِهِ
مَنْ ظَنَّ أَنَّ فَنَاءَهُ مِنْ مَوْتِهِ فَاعْلَمْ بِأَنَّ فَنَاءَهُ بِحَيَاتِهِ

قُلْ لِلْفَقِيهِ مَقَالًا لَيْسَ يَعْدَمُ مِنْ حُلْوِ الْعِتَابِ وَمُرِّ الْعَتْبِ تَمْزِيجَا
إِذَا فَطِمْتَ امْرَءًا عَنْ عَادَةٍ قَدُمَتْ فَأَجْعَلْ لَهُ يَا عَقِيدَ الْفَضْلِ تَدْرِيجَا
وَلَا تُعَنِّفْ إِذَا قَوَّمْتَ ذَا عِوَجٍ فَرُبَّمَا أَعْقَبَ التَّقْوِيمُ تَعْوِيجَا

تَكَثَّرْتَ بِالْأَمْوَالِ جَهْلًا وَإِنَّمَا ... تَكَثَّرْتَ بِاللَّاتِي تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
فَأَنْتَ عَلَيْهَا خَائِفٌ غَصْبَ غَاصِبٍ ... وَحِيلَةَ مُحْتَالٍ خَؤُونٍ وَمُرْصِدِ
إِذَا نَامَتِ الْأَجْفَانُ بِتَّ مُكَابِدًا ... دُجَى اللَّيْلِ إِشْفَاقًا بِطَرْفٍ مُسَهَّدِ
فَهَلَّا اقْتَنَيْتَ الْبَاقِيَاتِ الَّتِي لَهَا ... دَوَامٌ عَلَى طُولِ الزَّمَانِ الْمُؤَبَّدِ
فَضَائِلُ نَفْسَانِيَّةٌ لَيْسَ يَهْتَدِي ... إِلَى سَلْبِهَا مِنْ أَهْلِهَا كَيْدُ مُعْتَدِي
هِيَ الْعِلْمُ وَالتَّقْوَى هِيَ الْبَأْسُ وَالْحِجَى ... هِيَ الْجُودُ بِالْمَوْجُودِ وَالْفِكْرُ فِي الْغَدِ

وَلِلْمَرْءِ أَضْدَادٌ يَرُومُونَ قَسْرَهُ ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْهُمْ عَلَى حَالَةٍ بُدُّ
فَإِنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ جَفَاهُ شِرَارُهُمْ ... وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَالْخِيَارُ لَهُ ضِدُّ

مَنْ صَادَمَ الدَّهْرَ مُغْتَرًّا بِقُوَّتِهِ ... فَأَحْكُمْ عَلَيْهِ بِأَنَّ الدَّهْرَ قَدْ صَدَمَهْ
وَمَنْ يُبِحْ قُرْنَاءَ السُّوءِ عِشْرَتَهُ ... يَكُنْ قَصَارَاهُ مِنْ إِيْنَاسِهِمْ نَدَمَهْ
كَمْ مِنْ وُجُودٍ إِذَا اسْتَوْضَحْتَ صُورَتَهُ ... رَأَيْتَ أَشْرَفَ مِنْ مَحْصُولِهِ عَدَمَهْ
وَكُلُّ ذِي شَرَفٍ لَوْلَا خَصَائِصُهُ ... مِنَ الْفَضَائِلِ سَاوَى رَأْسُهُ قَدَمَهْ

١٠٣ نخبة من اراجيز الشيخ السابوري

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْقَاهِرِ ... الْوَاحِدِ الْفَرْدِ الْمَلِيكِ الْقَادِرِ
مُدَبِّرِ الْخَلْقِ وَمُنْشِي الرِّزْقِ ... ذِي الْمَنِّ وَالطَّوْلِ إِلٰهِ الْخَلْقِ
هٰذَا كِتَابٌ جَامِعُ الْآدَابِ ... مُفَصَّلٌ مُنْتَظِمُ الْأَبْوَابِ
حَبَّرْتُهُ بِمَنْطِقِي تَحْبِيرَا ... لَمْ آلُ فِيهِ النُّصْحَ وَالتَّيْسِيرَا
أَوْدَعْتُهُ مَحَاسِنَ الْمَذَاهِبِ ... فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ وَفِي التَّجَارِبِ

وَكُلَّ قَوْلٍ حَسَنٍ مُنْتَخَبِ يُؤْثَرُ عَنْ أَهْلِ الْحِجَى وَالْأَدَبِ
وَمَا أَتَى مِنْ مَثَلٍ مَضْرُوبِ مُسْتَمْلَحٍ مُسْتَطْرَفٍ غَرِيبِ
يَزْدَادُ ذُو الْعِلْمِ إِذَا رَوَاهُ عِلْمًا إِلَى مَحْمُودِ مَا أَنْشَاهُ
وَيُحْكِمُ الْمُغَفَّلَ الْمَغْمُورَا حَتَّى تَرَاهُ أَرِبًا نَحْرِيرَا
وَالْمَرْءُ لَنْ يَسْتَكْمِلَ الْآدَابَا وَلَوْ يَعِيشُ سَالِمًا أَحْقَابَا
لَكِنَّهُ يَزْدَادُ فِي الْأَيَّامِ عِلْمًا بِنَقْضِ الْأَمْرِ وَالْإِبْرَامِ
وَإِنَّهُ يَزْدَادُ يَوْمًا يَوْمَا فِي دَهْرِهِ تَجْرِبَةً وَعِلْمَا

١٠٤ التجارب

وَاقْطَنْ لِصَرْفِ الدَّهْرِ وَالْعَجَائِبِ فَإِنَّهُ لَا عِلْمَ كَالتَّجَارِبِ
كَفَاكَ مَنْ عَاشَرْتَ مِنْ إِخْوَانِ مَعْرِفَةً بِصُورَةِ الزَّمَانِ
لَا تَحْمَدَنْ قَبْلَ اخْتِبَارٍ أَحَدَا بِخُلَّبٍ مِنْ بَرْقِهِ إِذَا بَدَا
فَرُبَّمَا أَخْلَفَكَ الطَّرِيرُ بِلَامِعٍ أَنْتَ بِهِ غَرِيرُ
إِنْ خِفْتَ مِنْ عَاقِبَةِ النَّدَامَهْ فَارْضَ مِنَ النَّوَالِ بِالسَّلَامَهْ
نَدَامَةُ الْمَرْءِ عَلَى التَّقْصِيرِ أَيْسَرُ مِنْ نَدَامَةِ التَّعْزِيرِ
وَطَالِبُ الْفَضْلِ مِنَ الْأَعْدَاءِ كَذِي غَلِيلٍ شَرِقٍ بِمَاءِ
وَانْتَهِزِ الْفُرْصَةَ إِمَّا مَرَّتْ فَرُبَّمَا طَلَبْتَهَا فَفَرَّتْ
وَالْأَمْرُ إِنْ أَعْيَا عَلَيْكَ مِنْ عَلِ فَاطْلُبْهُ قَبْلَ فَوْتِهِ مِنْ أَسْفَلِ
مَنْ لَمْ يَعِظْهُ الدَّهْرُ بِالتَّجَارِبِ لَمْ يَتَّعِظْ يَوْمًا بِقَوْلِ صَاحِبِ
رُبَّ رَحًا دَارَتْ بِمَنْ يَلِيهَا تَطْحَنُ فِي الْحُرُوبِ مُرْكِبِيهَا

مَنْ جَالَسَ ٱلْأَعْدَاءَ وَٱلْحُسَّادَا لَمْ يَعْدَمِ ٱلْخَبَالَ وَٱلْفَسَادَا
وَوَحْدَةُ ٱلْمَرْءِ بِلَا أَنِيسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ سَيِّئِ ٱلْجَلِيسِ
نَاصِحْ أَخَاكَ فِي ٱلْمِلِمَّاتِ ٱلْخَيِّرْ وَكُنْ إِذَا نَاصَحْتَهُ عَلَى حَذَرْ
إِذَا لَقِيتَ ٱلنَّاسَ بِٱلنَّصِيحَهْ فَوَطِّنِ ٱلنَّفْسَ عَلَى ٱلْفَضِيحَهْ
مَنْ صَدَقَ ٱلصَّاحِبَ وَٱلرَّفِيقَا لَمْ يَدَعِ ٱلصِّدْقُ لَهُ صَدِيقَا
مَنْ سَلَكَ ٱلْقَصْدَ إِذَا مَا سَارَا فِي كُلِّ وَجْهٍ أَمِنَ ٱلْعِثَارَا

١٠٥ الصمت وحفظ اللسان

أَلصَّمْتُ لِلْمَرْءِ حَلِيفُ ٱلسِّلْمِ وَشَاهِدٌ لَهُ بِفَضْلِ ٱلْحُكْمِ
وَحَارِسٌ مِنْ زَلَلِ ٱللِّسَانِ فِي ٱلْقَوْلِ إِنْ عَيَّ عَنِ ٱلْبَيَانِ
فَعُذْ بِهِ مُعْتَصِمًا مِنَ ٱلْخَطَا أَوْسَقَطٍ يُفْرِطُ فِي مَا فَرَطَا
إِنَّ ٱلسُّكُوتَ يُعْقِبُ ٱلسَّلَامَهْ فَرُبَّ قَوْلٍ يُورِثُ ٱلنَّدَامَهْ
إِسْتَبْدَلَ ٱلْخِيفَةَ مِنْ أَمَانِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَحْذَرُ مِنْ لِسَانِهِ
يَظَلُّ مَكْرُوبًا طَوِيلًا سَقَمُهْ مَنْ لَا يَزِمُّ قَوْلَهُ وَيَخْطِمُهْ
مَنْ لَمْ يَكُنْ لِسَانُهُ مِنْ هَمِّهِ يَفْرَحُ بِهِ وَيَسْتَرِيحُ مِنْ غَمِّهِ
مِنْ أَحْمَدِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي ٱلْإِنْسَانِ زِيَادَةُ ٱلْعَقْلِ عَلَى ٱللِّسَانِ
إِسْرَافُ ذِي ٱلْإِطْنَابِ فِي ٱلْمَقَالِ أَضَرُّ مِنْ إِسْرَافِهِ فِي ٱلْمَالِ
لَا شَيْءَ مِنْ جَوَارِحِ ٱلْإِنْسَانِ أَحَقُّ بِٱلسَّجْنِ مِنَ ٱللِّسَانِ
إِنَّ ٱللِّسَانَ سَبُعٌ عَقُورُ إِنْ لَمْ يَسُسْهُ ٱلرَّأْيُ وَٱلتَّدْبِيرُ
لَا تُطْلِقَنَّ ٱلْقَوْلَ فِي غَيْرِ بَصَرْ إِنَّ ٱللِّسَانَ غَيْرُ مَأْمُونِ ٱلضَّرَرْ

فَالْقَوْلُ مَا أَرْسَلْتَهُ عَلَى عَجَلْ مُوَكَّلٌ بِهِ الْعِثَارُ وَالزَّلَلْ
يَا رُبَّ مَحْفُورٍ مِنَ الْمَقَالِ يَهِيجُ شَرًّا غَيْرَ مُسْتَقَالِ
وَلَفْظَةٍ زَائِغَةٍ سَبِيلُهَا قَدْ سَلَبَتْ نِعْمَةَ مَنْ يَقُولُهَا
لَا تُطْلِقَنْ فِي مَجْلِسٍ مَقَالَهْ إِذَا مَضَتْ لَيْسَ لَهَا إِقَالَهْ

١٠٦ الصبر

وَالصَّبْرُ فَاعْلَمْ مِنْ أَعَدِّ الْعُدَدِ عَلَى صُرُوفِ النَّائِبَاتِ الْعُوَّدِ
فَاجْعَلْهُ إِنْ هَمَّ أَلَمَّ مَعْقِلَا وَاجْعَلْهُ عِنْدَ النَّائِبَاتِ مَوْئِلَا
فَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى مِضْمَارِ مُخْتَلِفُ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْبَلَايَا صَابِرَا سَلَا كَمَا يَسْلُو الْبَهِيمُ صَاغِرَا
فَاصْبِرْ إِذَا مَا عَضَّكَ الزَّمَانُ فَكُلُّ يَوْمٍ لِلْمَلِيكِ شَانُ
مَنْ يَعْتَصِمْ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْحَادِثِ فَالْحَبْلُ فِي يَدَيْهِ غَيْرُ نَاكِثِ
إِذَا أَتَى مَا لَا تُطِيقُ دَفْعَهُ فَالصَّبْرُ أَوْلَى مَا اقْتَنَيْتَ نَفْعَهُ
حُلُولُ مَا حَلَّ مِنَ الْبَلَاءِ كَالضَّيْفِ يَوْمًا حَلَّ فِي الْفِنَاءِ
فَاصْبِرْ لِضَيْفٍ بِكَ يَوْمًا نَزَلَا لَا يَلْبَثُ النَّازِلُ أَنْ يَرْتَحِلَا

١٠٧ صدق النطق

وَأَكْرَمُ الْآدَابِ صِدْقُ الْمَنْطِقِ أَكْرِمْ بِهِ أَكْرِمْ بِهِ مِنْ خُلُقِ
أَعْدَلُ شَاهِدٍ عَلَى الصَّلَاحِ أَقْرَبُ مِنْهَاجٍ إِلَى الْفَلَاحِ
شَرِّفْ بِهِ أَخْلَاقَكَ الْكَرِيمَهْ أَسْتُرْ بِهِ حَالَاتِكَ الذَّمِيمَهْ
مَنْ صَدَقَ الْحَدِيثَ فِي الْمَقَالِ شَارَكَهُ الْمُثْرُونَ فِي الْأَمْوَالِ

وَٱلْكِذْبُ فَٱعْلَمْ أَفْظَعُ ٱلْمَسَاوِي صَاحِبُهُ مُشْفٍ عَلَى ٱلْمَهَاوِي
مَنْ يَشْتَهِرْ يَوْمًا بِكِذْبِ ٱلْمَنْطِقِ ثُمَّ أَتَى بِٱلصِّدْقِ لَمْ يُصَدَّقِ
مَنْ عَذُبَ ٱلْكِذْبُ عَلَى لِسَانِهِ فَٱلصِّدْقُ لَيْسَ كَائِنًا مِنْ شَانِهِ
وَلٰكِنَّهُ ٱلْمَنْطِقِ بِٱلصَّوَابِ خَيْرٌ مِنَ ٱلْإِفْصَاحِ بِٱلْكِذَابِ
لَا تَعْصِيَنْ قَوْلَ ذَوِي ٱلتَّجَارِبِ . لَا تَسْتَعِنْ فِي عَمَلٍ بِكَاذِبِ

١٠٨ الكارم

وَٱنْزِعْ إِلَى مَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ فَإِنَّهَا مِنْ أَنْفَسِ ٱلْأَعْلَاقِ
تَحْمِيكَ مِنْ قَوَارِعِ ٱلْمَلَامَهْ تَمْنَحُكَ ٱلْإِعْزَازَ وَٱلْكَرَامَهْ
أَزْيَنُ حِلْيَةٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ وَأَشْجَعُ ٱلْأَنْصَارِ وَٱلْأَعْوَانِ
فَٱرْحَلْ إِلَيْهَا طَالِبًا لِفَضْلِهَا وَٱسْمُ إِلَيْهَا رَاغِبًا فِي نَيْلِهَا
فَإِنَّهَا تُحْلُكَ ٱلْفَضَائِلَا حَمْدًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَذُخْرًا آجِلَا
عَلَيْكَ مَا يُحْمَدُ مِنْ مَقَالِ فَرْضٌ عَلَيْهِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلْفِعَالِ
فَكُلُّ مَا ٱسْتَحْيَيْتَ أَنْ يُقَالَا فِيكَ فَلَا تَجْتَبِهِ فِعَالَا
عَلَيْكَ حُسْنَ ٱلْبِشْرِ فِي ٱللِّقَاءِ فَإِنَّهُ مِنْ سَبَبِ ٱلْإِخَاءِ
يُرِي عَلَى صَاحِبِهِ قَبُولَا مِنَ ٱلْوَرَى وَمَنْظَرًا جَمِيلَا
يُهْدِي لَكَ ٱلْإِجْلَالَ وَٱلْإِعْظَامَا يَذُودُ عَنْكَ ٱلْهَمَّ وَٱلْمَلَامَا

١٠٩ القصيدة الزينبية لصالح بن عبد القدوس وقيل لعليّ بن ابي طالب

صَرَمَتْ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ(*) وَٱلدَّهْرُ فِيهِ تَصَرُّمٌ وَتَقَلُّبُ

(*) انما اراد الشاعر بزينب هنا الدنيا وبالغانيات في البيت بعده ملذّاتها

وَكَذَاكَ وَصْلُ الْغَانِيَاتِ فَإِنَّهُ ... آلٌ بِبَلْقَعَةٍ وَبَرْقُ خُلَّبُ
فَدَعِ الصِّبَا فَلَقَدْ عَدَاكَ زَمَانُهُ ... وَازْهَدْ فَعُمْرُكَ مَرَّ مِنْهُ الْأَطْيَبُ
ذَهَبَ الشَّبَابُ فَمَا لَهُ مِنْ عَوْدَةٍ ... وَأَتَى الْمَشِيبُ فَأَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرَبُ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يَا مُذْنِبُ
وَاخْشَ مُنَاقَشَةَ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ ... لَا بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ
وَاللَّيْلُ فَاعْلَمْ وَالنَّهَارُ كِلَاهُمَا ... أَنْفَاسُنَا بِهِمَا تُعَدُّ وَتُحْسَبُ
لَمْ يَنْسَهُ الْمَلَكَانِ حِينَ نَسِيتَهُ ... بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لَاهٍ تَلْعَبُ
وَالرُّوحُ فِيكَ وَدِيعَةٌ أُودِعْتَهَا ... سَتَرُدُّهَا بِالرَّغْمِ مِنْكَ وَتُسْلَبُ
وَغُرُورُ دُنْيَاكَ الَّتِي تَسْعَى لَهَا ... دَارٌ حَقِيقَتُهَا مَتَاعٌ يَذْهَبُ
وَجَمِيعُ مَا حَصَّلْتَهُ وَجَمَعْتَهُ ... حَقًّا يَقِينًا بَعْدَ مَوْتِكَ يُنْهَبُ
تَبًّا لِدَارٍ لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... وَمَشِيدُهَا عَمَّا قَلِيلٍ يَخْرَبُ
فَاسْمَعْ هُدِيتَ نَصَائِحًا أَوْلَاكَهَا ... بَرٌّ نَصُوحٌ لِلْأَنَامِ مُجَرِّبُ
أَهْدَى النَّصِيحَةَ فَاتَّعِظْ بِمَقَالِهِ ... فَهُوَ التَّقِيُّ اللَّوْذَعِيُّ الْأَدْرَبُ
لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ الْخَؤُونَ لِأَنَّهُ ... مَا زَالَ قِدْمًا لِلرِّجَالِ يُؤَدِّبُ
وَعَوَاقِبُ الْأَيَّامِ فِي غُصَّاتِهَا ... مَضَضٌ يَذِلُّ لَهُ الْأَعَزُّ الْأَنْجَبُ
وَيَفُوزُ بِالْمَالِ الْحَقِيرِ مَكَانَةً ... فَتَرَاهُ يُرْجَى مَا لَدَيْهِ وَيُرْغَبُ
وَيُبَشُّ بِالتَّرْحِيبِ عِنْدَ قُدُومِهِ ... وَيُقَامُ عِنْدَ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ
فَاقْنَعْ فَفِي بَعْضِ الْقَنَاعَةِ رَاحَةٌ ... وَلَقَدْ كُسِي ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ أَشْعَبُ
لَا تَحْرِصَنْ فَالْحِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ ... فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقِي الْحَرِيصَ وَيُتْعِبُ

كَمْ عَاجِزٍ فِي النَّاسِ يَأْتِي رِزْقُهُ ... رَغَدًا وَيُحْرَمُ كَيِّسٌ وَيُخَيَّبُ
فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللهِ فَالْزَمْهَا تَفُزْ ... إِنَّ التُّقَى هُوَ الْبَهِيُّ الْأَهْيَبُ
وَاعْمَلْ بِطَاعَتِهِ تَنَلْ مِنْهُ الرِّضَا ... إِنَّ الْمُطِيعَ لِرَبِّهِ لَمُقَرَّبُ
وَارْعَ الْأَمَانَةَ وَالْخِيَانَةَ فَاجْتَنِبْ ... وَاعْدِلْ وَلَا تَظْلِمْ يَطِبْ لَكَ مَكْسَبُ
وَاحْذَرْ مِنَ الْمَظْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ دُعَاءَهُ لَا يُحْجَبُ
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْأَقَارِبِ كُلِّهِمْ ... بِتَذَلُّلٍ وَاسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَذْنَبُوا
وَإِذَا بُلِيتَ بِنَكْبَةٍ فَاصْبِرْ لَهَا ... مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسَلَّمًا لَا يُنْكَبُ
وَإِذَا أَصَابَكَ فِي زَمَانِكَ شِدَّةٌ ... أَوْ نَالَكَ الْخَطْبُ الْكَرِيهُ الْأَصْعَبُ
فَادْعُ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ ... يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبُ
وَاحْذَرْ مُوَاخَاةَ الدَّنِيِّ لِأَنَّهُ ... يُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحَ الْأَجْرَبُ
وَاخْتَرْ صَدِيقَكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَاخُرًا ... إِنَّ الْقَرِينَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُنْسَبُ
وَدَعِ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا ... إِنَّ الْكَذُوبَ يَشِينُ حُرًّا يَصْحَبُ
وَذَرِ الْحُقُودَ وَلَوْ صَفَا لَكَ مَرَّةً ... وَابْعَدْهُ عَنْ رُؤْيَاكَ لَا يُسْتَجْلَبُ
إِنَّ الْحُقُودَ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... فَالْحِقْدُ بَاقٍ فِي الصُّدُورِ مُغَيَّبُ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ ... فَالْمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطَبُ
وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ ... ثَرْثَارَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ
وَالسِّرَّ فَاكْتُمْهُ وَلَا تَنْطِقْ بِهِ ... فَهُوَ الْأَسِيرُ لَدَيْكَ إِذْ لَا يَنْشَبُ
وَاحْرِصْ عَلَى حِفْظِ الْقُلُوبِ مِنَ الْأَذَى ... فَرُجُوعُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ يَصْعُبُ
إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَ وِدُّهَا ... شِبْهُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لَا يُشْعَبُ

وَاحْذَرْ عَدُوَّكَ إِذْ تَرَاهُ بَاسِمًا ... فَاللَّيْثُ يَبْدُو نَابُهُ إِذْ يَغْضَبُ
وَإِذَا الصَّدِيقَ رَأَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا ... فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُتَجَنَّبُ
لَا خَيْرَ فِي وِدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ ... حُلْوِ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَقَلَّبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ ... وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ
وَإِذَا رَأَيْتَ الرِّزْقَ عَزَّ بِبَلْدَةٍ ... وَخَشِيتَ فِيهَا أَنْ يَضِيقَ الْمَكْسَبُ
فَارْحَلْ فَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةُ الْفَضَا ... طُولًا وَعَرْضًا شَرْقُهَا وَالْمَغْرِبُ
فَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي ... فَالنُّصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ
خُذْهَا إِلَيْكَ قَصِيدَةً مَنْظُومَةً ... جَاءَتْ كَنَظْمِ الدُّرِّ بَلْ هِيَ أَعْجَبُ
حِكَمٌ وَآدَابٌ وَجُلُّ مَوَاعِظٍ ... أَمْثَالُهَا لِذَوِي الْبَصَائِرِ تُكْتَبُ
فَاصْغِ لِوَعْظِ قَصِيدَةٍ أَوْلَاكَهَا ... طَوْدُ الْعُلُومِ الشَّامِخَاتِ الْأَهْيَبُ

١١٠ لامية ابن الوردي

إِعْتَزِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْغَزَلْ ... وَقِلِ الْفَضْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ
وَدَعِ الذِّكْرَى لِأَيَّامِ الصِّبَا ... فَلِأَيَّامِ الصِّبَا نَجْمٌ أَفَلْ
وَاتْرُكِ الْعَادَةَ لَا تَحْفِلْ بِهَا ... تُمْسِ فِي عِزٍّ رَفِيعٍ وَتَجَلْ
وَافْتَكِرْ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي ... أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدْ أَمْرًا جَلَلْ
وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى ... كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ
وَاتَّقِ اللهَ فَتَقْوَى اللهِ مَا ... جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلْ
لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرْقًا بَطَلًا ... إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي اللهَ الْبَطَلْ

كُتِبَ ٱلْمَوْتُ عَلَى ٱلْخَلْقِ فَكَمْ ... قَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُوَلْ
أَيْنَ نُمْرُودٌ وَكَنْعَانُ وَمَنْ ... مَلَكَ ٱلْأَرْضَ وَوَلَّى وَعَزَلْ
أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا ... هَلَكَ ٱلْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ ٱلْقُلَلْ
أَيْنَ أَرْبَابُ ٱلْحِجَى أَهْلُ ٱلنُّهَى ... أَيْنَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْقَوْمُ ٱلْأُوَلْ
سَيُعِيدُ ٱللهُ كُلًّا مِنْهُمُ ... وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ
أَيْ بُنَيَّ ٱسْمَعْ وَصَايَا جُمِعَتْ ... حِكَمًا خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ ٱلْمِلَلْ
أَطْلُبِ ٱلْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا ... أَبْعَدَ ٱلْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ ٱلْكَسَلْ
وَٱحْتَفِلْ بِٱلْفِقْهِ فِي ٱلدِّينِ وَلَا ... تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ
وَٱهْجُرِ ٱلنَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ ... يَعْرِفِ ٱلْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ
لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَيَّامُهُ ... كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى ٱلدَّرْبِ وَصَلْ
فِي ٱزْدِيَادِ ٱلْعِلْمِ إِرْغَامُ ٱلْعِدَى ... وَجَمَالُ ٱلْعِلْمِ إِصْلَاحُ ٱلْعَمَلْ
جَمِّلِ ٱلْمَنْطِقَ بِٱلنَّحْوِ فَمَنْ ... يُحْرِمِ ٱلْإِعْرَابَ بِٱلنُّطْقِ ٱخْتَبَلْ
إِنْظِمِ ٱلشِّعْرَ وَلَازِمْ مَذْهَبِي ... فِي أَطْرَاحِ ٱلرِّفْدِ لَا تَبْغِ ٱلنِّحَلْ
فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى ٱلْفَضْلِ وَمَا ... أَحْسَنَ ٱلشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ
مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةٌ ... وَعَنِ ٱلْبَحْرِ ٱجْتِزَاءٌ بِٱلْوَشَلْ
إِطْرَحِ ٱلدُّنْيَا فَمَنْ عَادَاتِهَا ... تَخْفِضُ ٱلْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلْ
عِيشَةُ ٱلرَّاغِبِ فِي تَحْصِيلِهَا ... عِيشَةُ ٱلْجَاهِلِ فِيهَا أَوْ أَقَلْ
كَمْ جَهُولٍ بَاتَ فِيهَا مُكْثِرًا ... وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِعِلَلْ
كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنَلْ فِيهَا ٱلْمُنَى ... وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ ٱلْأَمَلْ

فَاتْرُكِ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّكِلْ ... إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيَلْ
لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا ... إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلْ
قَدْ يَسُودُ الْمَرْءُ مِنْ دُونِ أَبٍ ... وَبِحُسْنِ السَّبْكِ قَدْ يُنْفَى الزَّغَلْ
إِنَّمَا الْوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا ... يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلْ
قِيمَةُ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ ... أَكْثَرُ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَمْ أَقَلْ
بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلٍ رُتْبَةٌ ... وَكِلَا هٰذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَلْ
لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَلَوْ ... حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلْ
دَارِ جَارَ السُّوءِ بِالصَّبْرِ وَإِنْ ... لَمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النُّقَلْ
جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ ... لَا تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ
لَا تَلِ الْأَحْكَامَ إِنْ هُمْ سَأَلُوا ... رَغْبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَذَلْ
إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ ... وَلِيَ الْأَحْكَامَ هٰذَا إِنْ عَدَلْ
قَصِّرِ الْآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ ... فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلْ
غِبَّ وَزُرْ غِبًّا تَزِدْ حُبًّا فَمَنْ ... أَكْثَرَ التَّرْدَادَ أَضْنَاهُ الْمَلَلْ
لَا يَضُرُّ الْفَضْلَ إِقْلَالٌ كَمَا ... لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفَلْ
خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ ... وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلَلْ
حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ ... فَاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلْ
فَمُكْثُ الْمَاءِ يَبْقَى آسِنًا ... وَمَرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلْ

١١١ نونية ابي الفتح البستي

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ ... وَرِبْحُهُ غَيْرَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ

وَكُلُّ وِجْدَانِ حَظٍّ لَا ثَبَاتَ لَهُ ... فَإِنَّ مَعْنَاهُ فِي ٱلتَّحْقِيقِ فِقْدَانُ

يَا عَامِرًا لِخَرَابِ ٱلدَّهْرِ مُجْتَهِدًا ... بِٱللهِ هَلْ لِخَرَابِ ٱلْعُمْرِ عُمْرَانُ

وَيَا حَرِيصًا عَلَى ٱلْأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا ... أَنُسِيتَ أَنَّ سُرُورَ ٱلْمَالِ أَحْزَانُ

زُعِ ٱلْفُؤَادَ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ... فَصَفْوُهَا كَدَرٌ وَٱلْوَصْلُ هِجْرَانُ

وَأَرْعِ سَمْعَكَ أَمْثَالًا أُفَصِّلُهَا ... كَمَا يُفَصَّلُ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ

أَحْسِنْ إِلَى ٱلنَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ ... فَطَالَمَا ٱسْتَعْبَدَ ٱلْإِنْسَانَ إِحْسَانُ

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ ... أَتَطْلُبُ ٱلرِّبْحَ فِي مَا فِيهِ خُسْرَانُ

أَقْبِلْ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لَا بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

وَكُنْ عَلَى ٱلدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ ... يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنَّ ٱلْحُرَّ مِعْوَانُ

وَٱشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا ... فَإِنَّهُ ٱلرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ

مَنْ يَتَّقِ ٱللهَ يُحْمَدْ فِي عَوَاقِبِهِ ... وَيَكْفِهِ شَرَّ مَنْ عَزُّوا وَمَنْ هَانُوا

مَنِ ٱسْتَعَانَ بِغَيْرِ ٱللهِ فِي طَلَبٍ ... فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجْزٌ وَخِذْلَانُ

مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَنَّاعًا فَلَيْسَ لَهُ ... عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِخْوَانٌ وَأَخْدَانُ

مَنْ جَادَ بِٱلْمَالِ مَالَ ٱلنَّاسُ قَاطِبَةً ... إِلَيْهِ وَٱلْمَالُ لِلْإِنْسَانِ فَتَّانُ

مَنْ سَالَمَ ٱلنَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِمْ ... وَعَاشَ وَهْوَ قَرِيرُ ٱلْعَيْنِ جَذْلَانُ

مَنْ كَانَ لِلْعَقْلِ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ غَدَا ... وَمَا عَلَى نَفْسِهِ لِلْحِرْصِ سُلْطَانُ

مَنْ مَدَّ طَرْفًا بِفَرْطِ ٱلْجَهْلِ نَحْوَ هَوًى ... أَغْضَى عَلَى ٱلْحَقِّ يَوْمًا وَهْوَ خَزْيَانُ

مَنِ ٱسْتَشَارَ صُرُوفَ ٱلدَّهْرِ قَامَ لَهُ ... عَلَى حَقِيقَةِ طَبْعِ ٱلدَّهْرِ بُرْهَانُ

مَنْ يَزْرَعِ ٱلشَّرَّ يَحْصُدْ فِي عَوَاقِبِهِ ... نَدَامَةً وَلِحَصْدِ ٱلزَّرْعِ إِبَّانُ

مَن اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ وَفِي ... قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صِلٌّ وَثُعْبَانُ
كُنْ رَيِّقَ الْبِشْرِ إِنَّ الْحُرَّ هِمَّتُهُ ... صَحِيفَةٌ وَعَلَيْهَا الْبِشْرُ عُنْوَانُ
وَرَافِقِ الرِّفْقَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ فَلَمْ ... يَنْدَمْ رَفِيقٌ وَلَمْ يَذْمُمْهُ إِنْسَانُ
وَلَا يَغُرَّكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرَقٌ ... فَالْخُرْقُ هَدْمٌ وَرِفْقُ الْمَرْءِ بُنْيَانُ
أَحْسِنْ إِذَا كَانَ إِمْكَانٌ وَمَقْدُرَةٌ ... فَلَنْ يَدُومَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِمْكَانُ
فَالرَّوْضُ يَزْدَانُ بِالْأَنْوَارِ فَاغِمَةً ... وَالْحُرُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ يَزْدَانُ
صُنْ حُرَّ وَجْهِكَ لَا تَهْتِكْ غِلَالَتَهُ ... فَكُلُّ حُرِّ لِحُرِّ الْوَجْهِ صَوَّانُ
دَعِ التَّكَاسُلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا ... فَلَيْسَ يَسْعَدُ بِالْخَيْرَاتِ كَسْلَانُ
لَا ظِلَّ لِلْمَرْءِ يَعْرَى مِنْ نُهًى وَتُقًى ... وَإِنْ أَظَلَّتْهُ أَوْرَاقٌ وَأَفْنَانُ
وَالنَّاسُ أَعْوَانُ مَنْ وَالَتْهُ دَوْلَتُهُ ... وَهُمْ عَلَيْهِ إِذَا عَادَتْهُ أَعْوَانُ
سَحْبَانُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ بَاقِلٌ حَصِرٌ ... وَبَاقِلٌ فِي ثَرَاءِ الْمَالِ سَحْبَانُ
لَا تُودِعِ السِّرَّ وَشَّاءً بِهِ مَذِلًا ... فَمَا رَعَى غَنَمًا فِي الدَّوِّ سِرْحَانُ
لَا تَحْسَبِ النَّاسَ طَبْعًا وَاحِدًا فَلَهُمْ ... غَرَائِزٌ لَسْتَ تُحْصِيهِنَّ أَلْوَانُ
مَا كُلُّ مَاءٍ كَصَدَّاءٍ لِوَارِدِهِ ... نَعَمْ وَلَا كُلُّ نَبْتٍ فَهْوَ سَعْدَانُ
لَا تَخْدِشَنَّ بِمَطْلٍ وَجْهَ عَارِفَةٍ ... فَالْبِرُّ يَخْدِشُهُ مَطْلٌ وَلَيَّانُ
لَا تَسْتَشِرْ غَيْرَ نَدْبٍ حَازِمٍ يَقِظٍ ... قَدِ اسْتَوَى مِنْهُ إِسْرَارٌ وَإِعْلَانُ
فَلِلتَّدَابِيرِ فُرْسَانٌ إِذَا رَكَضُوا ... فِيهَا أَبَرُّوا كَمَا لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ
وَلِلْأُمُورِ مَوَاقِيتٌ مُقَدَّرَةٌ ... وَكُلُّ أَمْرٍ لَهُ حَدٌّ وَمِيزَانُ
فَلَا تَكُنْ عَجِلًا فِي الْأَمْرِ تَطْلُبُهُ ... فَلَيْسَ يُحْمَدُ قَبْلَ النُّضْجِ بُحْرَانُ

كَفَى مِنَ ٱلْعَيْشِ مَا قَدْ سَدَّ مِنْ عَوَزٍ ... فَفِيهِ لِلْحُرِّ قُنْيَانٌ وَغُنْيَانُ
وَذُو ٱلْقَنَاعَةِ رَاضٍ مِنْ مَعِيشَتِهِ ... وَصَاحِبُ ٱلْحِرْصِ إِنْ أَثْرَى فَغَضْبَانُ
إِذَا جَفَاكَ خَلِيلٌ كُنْتَ تَأْلَفُهُ ... فَٱطْلُبْ سِوَاهُ فَكُلُّ ٱلنَّاسِ إِخْوَانُ
حَسْبُ ٱلْفَتَى عَقْلُهُ خِلًّا يُعَاشِرُهُ ... إِذَا تَحَامَاهُ إِخْوَانٌ وَخُلَّانُ
هُمَا رَضِيعَا لِبَانٍ حِكْمَةٌ وَتُقًى ... وَسَاكِنَا وَطَنٍ مَالٌ وَطُغْيَانُ
إِذَا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنٌ فَلَهُ ... وَرَاءَهُ فِي بَسِيطِ ٱلْأَرْضِ أَوْطَانُ
يَا ظَالِمًا فَرِحًا بِٱلْعِزِّ سَاعَدَهُ ... إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ فَٱلدَّهْرُ يَقْظَانُ
مَا ٱسْتَمْرَأَ ٱلظُّلْمَ لَوْ أَنْصَفْتَ آكِلُهُ ... وَهَلْ يَلَذُّ مَذَاقَ ٱلْمَرْءِ خُطْبَانُ
يَا أَيُّهَا ٱلْعَالِمُ ٱلْمَرْضِيُّ سِيرَتُهُ ... أَبْشِرْ وَأَنْتَ بِغَيْرِ ٱلْمَاءِ رَيَّانُ
وَيَا أَخَا ٱلْجَهْلِ قَدْ أَصْبَحْتَ فِي لُجَجٍ ... وَأَنْتَ مَا بَيْنَهَا لَا شَكَّ ظَمْآنُ
لَا تَحْسَبَنَّ سُرُورًا دَائِمًا أَبَدًا ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
يَا رَافِلًا فِي ٱلشَّبَابِ ٱلْوَحْفِ مُنْتَشِيًا ... مِنْ كَأْسِهِ هَلْ أَصَابَ ٱلرُّشْدَ نَشْوَانُ
لَا تَغْتَرِرْ بِشَبَابٍ رَائِقٍ خَضِلٍ ... فَكَمْ تَقَدَّمَ قَبْلَ ٱلشَّيْبِ شُبَّانُ
وَيَا أَخَا ٱلشَّيْبِ لَوْ نَاصَحْتَ نَفْسَكَ لَمْ ... يَكُنْ لِمِثْلِكَ فِي ٱلْإِسْرَافِ إِمْعَانُ
هَبِ ٱلشَّبِيبَةَ تُبْلِي عُذْرَ صَاحِبِهَا ... مَا عُذْرُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ
كُلُّ ٱلذُّنُوبِ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُهَا ... إِنْ شَيَّعَ ٱلْمَرْءَ إِخْلَاصٌ وَإِيمَانُ
وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ ٱلدِّينَ يَجْبُرُهُ ... وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ ٱلدِّينِ جُبْرَانُ
خُذْهَا سَوَائِرَ أَمْثَالٍ مُهَذَّبَةٍ ... فِيهَا لِمَنْ يَبْتَغِي ٱلتِّبْيَانَ تِبْيَانُ
مَا ضَرَّ حَسَّانَهَا وَٱلطَّبْعُ صَائِغُهَا ... أَنْ لَمْ يَصُغْهَا قَرِيعُ ٱلدَّهْرِ حَسَّانُ

الباب الخامس
في الأمثال

امثال في معانٍ مختلفة جمعها ابن عبد ربّه في العقد الفريد (*)

١١٢ (في الصمت) * الصَّمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعِلُهُ * عَيٌّ صامِتٌ خَيْرٌ مِنْ عَيٍّ ناطِقٍ * الصَّمتُ يُكسِبُ أهلَهُ المَحَبَّةَ * إستكثِرْ مِنَ الهَيْبَةِ الصَّمُوتُ * النَّدَمُ على السُّكوتِ خَيْرٌ مِنَ النَّدَمِ على الكَلامِ * (مَنْ أصابَ مَرَّةً وأخطأَ مَرَّةً) * شُخْبٌ في الإناءِ وشُخْبٌ في الأرضِ ١ * يَشُجُّ مَرَّةً ويَأسُو أُخرى * سَهْمٌ لكَ وسَهْمٌ عليكَ * أطْرُقي ومِيشي ٢ * (إنكشافُ الأمرِ بعدَ اكتتامِهِ) * حَصْحِصَ الحَقُّ * أبدَى الصَّريحُ عَنِ الرَّغْوَةِ * صَرَّحَ المَحْضُ عَنِ الزُّبْدَةِ * أفرَخَ القَوْمُ بَيْضَتَهُمْ ٣ * بَرِحَ الخَفاءُ وكُشِفَ الغِطاءُ * (الدُّعاءُ بالخَيْرِ) للقادِمِ مِنْ سَفَرِهِ : خَيْرٌ جاءَ وزُدَّ في أهلٍ ومالٍ ٤ * بَلَغَ اللهُ بكَ أكْلأَ العُمُرِ ٥ * نَعِمَ عَوْفُكَ ٦ * في الزَّواجِ : على يَدِ الخَيْرِ واليُمْنِ * بالرِّفاءِ والبَنينَ ٧ * هُنِئْتَ ولا تَنْكَدُ ٨ * هَوَتْ أُمُّهُ وهَبَلَتْ

(*) اعلم ان ما في الحاشية من الشروح كان متّصلاً بالأمثال ففصلناهُ عنها لاتمام السياق

١ شُبِّه بالحالب الجاهل الذي يحلُب شُخباً في الإناء وشخباً في الأرض

٢ أصلهُ أن يُخلَط الوَبَر بالصوف . والمِطراق العود الذي يُضرَب به بين ما خُلِط

٣ أي أخرجوا فرختها . يُريدون أظهروا سرَّهم

٤ أي جعلك الله كذلك

٥ أي أقصاهُ

٦ أي نَعِم بالك

٧ يُريد بالرفاء الكثرة (كذا في الاصل) . يُقال رفأتهُ إذا دعوت لهُ بالكثرة

٨ أي أصابك خير ولا أصابك ضرٌّ

أُمُّهُ ١ * (أَلدُّعَاءُ بِالشَّرِّ) * خَوَى نَجْمُهُ وَرَكَدَتْ رِيحُهُ * بَاخَ مِيسَمُهُ وَكَبَا جَوَادُهُ * خَمَدَ ضِرَامُهُ وَنَضَبَ مَاؤُهُ * إِنْثَلَمَ رُكْنُهُ وَانْهَارَ جُرْفُهُ * نَقِبَ خِفُّهُ وَدَمِنَ ظِلْفُهُ * رَغِمَ أَنْفُهُ وَخَرَّ سَقْفُهُ * غَارَ مَاؤُهُ وَسَقَطَ بَهَاؤُهُ * قَرِعَ فِنَاؤُهُ وَصَفِرَ إِنَاؤُهُ * (رَمْيُ الرَّجُلِ غَيْرَهُ بِالْمُعْضِلَاتِ) * رَمَاهُ بِأَقْحَافِ رَأْسِهِ * وَرَمَاهُ بِثَالِثَةِ الْأَثَافِيِّ ٢ * أَلْعَصِيَّةُ وَالْأَفِيكَةُ ٣ * كَأَنَّمَا أُفْرِغَ عَلَيْهِ ذَنُوبًا ٤ * (أَلْمَكْرُ وَالْخَلَابَةُ) * فَتَلَ فِي ذِرْوَتِهِ ٥ * ضَرَبَ أَخْمَاسًا لِأَسْدَاسٍ ٦ * وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَلذَّنَبُ يَأْدُو لِلْغَزَالِ ٧ * (فِي الرَّجُلِ الْمُبَرِّزِ فِي الْفَضْلِ) * مَا يُشَقُّ غُبَارُهُ ٨ * إِذَا جَرَى الْمُذَكِّي حَسَرَتْ عَنْهُ الْحُمُرُ ٩ * جَرْيُ الْمُذَكِّيَاتِ غِلَابٌ أَوْ غِلَابٌ * لَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ دُونَ الْغَايَةِ الْقُصْوَى * (أَلرَّجُلُ النَّبِيهُ الذِّكْرِ) * مَا يُخْجَرُ فُلَانٌ فِي الْعِكْمِ ١٠ * مَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ ١١ * أَشْهَرُ مِنَ الْأَبْلَقِ * وَهَلْ

---

١ يدعون عليه وهم يُريدون الحمد لهُ . ونحوهُ اذا أحسن قاتلهُ الله وأخزاهُ الله . ومنهُ قول امرئ القيس : ما لهُ لا عُدَّ من نفره

٢ يُريد قطعةً من الحبل يُجعل الى جنبها الثنتان وتكون هي الثالثة

٣ إذا رماهُ بالبُهتان

٤ إذا كلَّمهُ كلمةً يُسكتهُ بها

٥ أي خادعهُ حتى أزالهُ عن رأيهِ . ويُروى عن الزُّبير حين سأل عائشة عن الخروج الى البَصرة فأبت عليهِ : فما زال يفتل في الذروة والغارب حتى أجابت

٦ يُريدون المُناكرة . وقال آخر :

إذا أراد امروٌ مكرًا جنى عِللًا وظلَّ يَضرب أخماسًا لأسداسِ

٧ أي يختلهُ ليوقعهُ

٨ أصلهُ السابق من الخيل

٩ أي كما يسبق الفرس القارح الحُمُر

١٠ الحكم الجوالق يُريد أنَّهُ لا يخفى مكانهُ

١١ يُضرب لكل أمرٍ مشهورٍ وكانت فيهِ وقعةٌ مشهورةٌ قُتل فيها المُنذر بن ماء السماء فضُربت مثلًا

يَخْفَى عَلَى النَّاسِ النَّهَارُ . وَمِثْلُهُ : وَهَلْ يَخْفَى عَلَى النَّاظِرِ الصُّبْحُ * وَهَلْ يَجْهَلُ فُلَانًا إِلَّا مَنْ يَجْهَلُ الْقَمَرَ * (أَلرَّجُلُ الْعَزِيزُ يَعِزُّ بِهِ الذَّلِيلُ) * إِنَّ الْبُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ ١ * لَا حُرَّ بِوَادِي عَوْفٍ ٢ * تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الْأَبْلَقُ ٣ * مَنْ عَزَّ بَزَّ * مَنْ قَلَّ ذَلَّ * مَنْ أَمِرَ فَلَّ (أَمِرَ أَيْ كَثُرَ) * (أَلرَّجُلُ الصَّعْبُ) * فُلَانٌ أَلْوَى بَعِيدُ الْمُسْتَمَرِّ * مَا بَلَلْتُ مِنْهُ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ ٤ * مَا يُقَعْقَعُ لِي بِالشِّنَانِ * مَا يُصْطَلَى بِنَارِهِ * مَا تُقْرَنُ بِهِ الصَّعْبَةُ * (أَلرَّجُلُ الْعَالِمُ النِّحْرِيرُ) * إِنَّهُ لَنِقَابٌ وَإِنَّهُ لَعِضٌّ ٥ * أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ٦ * وَمِثْلُهُ : إِنَّهُ لَجُذَلُ حِكَاكٍ * عَنَّتْهُ تَشْفِي الْجَرَبَ ٧ * لِذِي الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرَعُ الْعَصَا ٨ * إِنَّهُ لَأَلْمَعِيٌّ ٩ * مَا حَكَّكْتُ قَرْحَةً إِلَّا أَدْمَيْتُهَا * الْأُمُورُ تَتَشَابَهُ مُقْبِلَةً وَتَظْهَرُ مُدْبِرَةً . وَلَا يَعْرِفُهَا مُقْبِلَةً إِلَّا الْعَالِمُ النِّحْرِيرُ . فَإِذَا أَدْبَرَتْ عَرَفَهَا الْجَاهِلُ وَالْعَالِمُ * (أَلرَّجُلُ الْمُجَرَّبُ) * إِنَّهُ لَشَرَّابٌ

---

١ أَلْبُغَاث صغار الطير تستنسر تصير نسورًا ٢ يُريدون عَوف بن مُحَلِّم الشيبانيّ وكان منيعًا ٣ مارد حصن بدومة والأبلق حصن السموءل ٤ وأصله السهم المكسور الفُوق الساقط النصل . يقول : فهذا ليس كذلك ٥ النقاب الذكي والعِضّ العالم النحرير

٦ قال الأصمعي : الجُذَيل تصغير الجِذل . وهو عود يُنصب للإبل الجربا، لتحتكّ به من الجرب فأراد أن رأيه يُشفى به. والعُذَيق تصغير عَذق . والعَذق بالفتح النخلة نفسها . فاذا مالت النخلة الكريمة بنوا من جانبها المائل بناء مرتفعًا يدعمها لكي لا تسقط فذلك الترجيب . وصغّرها للمدح

٧ والعنّة شيء تُعالج به الإبل إذا جربت ٨ وأوّل من قُرعت له العصا سعد بن مالك الكِنانيّ . ثم قُرعت لعامر بن الظرب العدوانيّ . وكان حكمًا في الجاهليّة فكبر حتى أنكر عقله . فقال لبنيه : إذا أنا زغتُ فقوّموني . وكان إذا زاغ قُرعت له العصا فيترع عن ذلك ٩ وهو الذي يُصيب بالظنّ

بِأَنْقَعَ ١ * إِنَّهُ لَخَرَّاجٌ وَلَّاجٌ * حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ وَشَرِبَ أَفَاوِيقَهُ ٢ * رَجُلٌ مُنَجَّذٌ ٣ * أَوَّلُ لُغْزٍ وَأَخْرَقُ * لَا تَغْزُ إِلَّا بِغُلَامٍ قَدْ غَزَا * زَاحِمْ بِعُودٍ أَوْ دَعْ * أَلْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْخُمْرَةَ . وَقَالَتِ الْعَامَّةُ : أَلشَّارِبُ لَا يُضْفَرُ لَهُ * (أَلِانْتِقَالُ مِنْ ذُلٍّ إِلَى عِزٍّ) * كُنْتَ كُرَاعًا فَصِرْتَ ذِرَاعًا * كُنْتَ عَنْزًا فَاسْتَتْيَسْتَ * كُنْتَ بُغَاثًا فَاسْتَنْسَرْتَ * (إِعْجَابُ الرَّجُلِ بِأَهْلِهِ) * كُلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيهَا مُعْجَبَةٌ * أَلْقَرَنْبَى فِي عَيْنِ أُمِّهَا حَسَنَةٌ * زُيِّنَ فِي عَيْنِ وَالِدٍ وَلَدُهُ * حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدُّ * (تَشْبِيهُ الرَّجُلِ بِأَبِيهِ) * مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ * أَلْعُصَيَّةُ مِنَ الْعَصَا * مَا أَشْبَهَ حَجَلَ الْجِبَالِ بِأَلْوَانِ صُخُرِهَا * مَا أَشْبَهَ الْحَوْلَ بِالْقَبْلِ . وَمَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ * شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمَ ٤ * قَالَ زُهَيْرٌ :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَامَّةِ : لَا تَلِدُ الدُّبَّةُ إِلَّا ذُبَّا * حَذْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَحَذْوُ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ ٥ * (أَلْحِلْمُ) * إِذَا نَزَا الشَّرُّ فَاقْعُدْ ٦ * وَمِنْهُ . أَلْحَلِيمُ مَطِيَّةُ الْجَهُولِ * لَا يَنْتَصِفُ حَلِيمٌ مِنْ جَاهِلٍ * أَخِرِ الشَّرَّ فَإِنْ شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي الْحَلِيمِ : إِنَّهُ كَوَاقِعِ الطَّيْرِ وَكَسَاكِنِ

---

١ أي معاود للخير والشرّ ٢ أي اختبر من الدهر خيرهُ وشرَّهُ . فالشطر هو شطر الحلبة والثيقة اسم اللبن حين يجتمع في الضرع ما بين الحلبتين ٣ وهو المجرّب . وأصلهُ من النواجذ يُقال : قد عضّ على ناجذهِ إذا استحكم ٤ يُقال هذا في الولد إذا كانت فيهِ طبيعةٌ من أبيهِ ٥ والقُذَّة الريشة من ريش السهم تُحذَى على صاحبتها ٦ أي فاحلُم ولا تسارع اليهِ

١٠٢ ـــــــ

بِهِمْ عُقَابُ مَلاعٍ ١ * وَالْمَنَايَا عَلَى الْحَوَايَا ٢ * أَتَتْهُمُ الدُّهَيْمُ تَرْمِي بِالرَّضْفِ ٣ * وَهٰذَا أَمْرٌ لَا يُنَادَى وَلِيدُهُ ٤ * إِلْتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانِ * وَبَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى وَجَاوَزَ الْحِزَامُ الطِّبْيَيْنِ * وَتَقُولُ الْعَامَّةُ : بَلَغَ السِّكِّينُ الْعَظْمَ * (أَلْيَأْسُ وَالْخَيْبَةُ) * مَنْ لِي بِالسَّانِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ ٥ * جَاءَ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ ٦ * أَطَالَ الْغَيْبَةَ وَجَاءَ بِالْخَيْبَةِ * وَنَظِيرُهُ : سَكَتَ أَلْفًا وَنَطَقَ خَلْفًا ٧ * (أَلظُّلْمُ تَرْجِعُ عَاقِبَتُهُ عَلَى صَاحِبِهِ) * مَنْ حَفَرَ مَغْوَاةً وَقَعَ فِيهَا ٨ * يَعْدُو عَلَى كُلِّ أَمْرِئٍ مَا يَأْتَمِرُ * عَادَ الرَّمْيُ عَلَى النَّزْعَةِ ٩ * وَتَقُولُ الْعَامَّةُ : كَالْبَاحِثِ عَنْ مُدْيَةٍ * رُمِيَ بِحَجَرِهِ وَقُتِلَ بِسِلَاحِهِ * (نَفْيُ الْمَالِ عَنِ الرَّجُلِ) * مَا لَهُ سَعْنَةٌ وَلَا مَعْنَةٌ ١٠ * مَا لَهُ هِلَّعٌ وَلَا هِلَّعَةٌ ١١ * مَا لَهُ هَارِبٌ وَلَا قَارِبٌ ١٢ * مَا لَهُ عَافِطَةٌ وَلَا نَافِطَةٌ ١٣ *

---

١ يُقال ذلك في الواحد والجمع . وأحسبها معدولةً عن ملبع ٢ قال أبو عُبيد : الحوايا في هذا الموضع مركبٌ من مراكب النساء واحدتها حويةٌ . وأحسب أصلها إنَّ قومًا قُتِلوا فحُملوا على الحوايا فصارت مثلًا ٣ معناه الداهية العظيمة ٤ معناه انَّ الأمر اشتدَّ حتَّى ذهلت المرأة أن تدعو وليدها ٥ أي من لي باليُمن بعد الشؤم

٦ قال الشاعر:

وما زالتُ أقطعُ عرض البلاد ... من المَشرِقَين إلى المَغرِبَين
وأَدرَعُ الخوف تحت الدُّجى ... وأَستصحبُ النسرَ والفرقَدَين
وأطوي وأَنشُرُ ثوب الهموم ... إلى أن رجعتُ بخُفَّي حُنَين

٧ اي اطال السكوت وتكلَّم بالقبيح . وهذا المثل يقع في باب العي ولهُ ههنا وجهٌ ايضًا ٨ والمغاوة البير تُحفر للذئاب ويجعل فيها جديٌ ليسقط الذئب فيها ليصيدهُ فيُصطاد ٩ وهم الرُّماة يرجع عليهم رميهم ١٠ معناهُ لا شيء لهُ ١١ وهما الجدي والعناق ١٢ معناهُ ليس لهُ أحدٌ يهرب منهُ ولا أحدٌ يقرب اليهِ فليس لهُ شيءٌ ١٣ وهما الضائنة والماعزة

١٠٤ ـــــــ

إنَّ الزَّرازيرَ لمَّا قامَ قائمُها ... توهَّمتْ أنَّها صارتْ شواهينا
إنْ كنتَ تطلبُ عزًّا فادرعْ تعبًا ... أوفارضَ بالذُّلِّ واختَرْ راحةَ البدنِ
أيا حجرَ الشَّحْذِ حتَّى متى ... تسنُّ الحديدَ ولا تقطعُ
إذا لمْ يعِ قولَ النَّصيحِ قبولْ ... فكلُّ معاريضِ الكلامِ فضولْ
إذا ما الجُرْحُ رُمَّ على فسادٍ ... تبيَّنَ فيهِ تفريطُ الطَّبيبِ
إذا اللهُ لمْ يحرسْكَ ممَّا تخافُهُ ... فلا السَّيفُ قطَّاعٌ ولا الدِّرعُ مانعُ
إذا نُدِبوا للقولِ قالوا فأحسنوا ... ولكنَّ حسنَ القولِ خالفَهُ الفعلُ
إنَّ السَّماءَ إذا لمْ تبكِ مُقلتُها ... لمْ تضحكِ الأرضُ عنْ شيءٍ منَ الزَّهرِ
بذا قضتِ الأيَّامُ ما بينَ أهلِها ... مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ
تريدينَ إدراكَ المعالي رخيصةً ... ولا بُدَّ دونَ الشَّهدِ منْ إبرِ النَّحلِ
صديقُ عدوِّي داخلٌ في عداوتي ... وإنِّي لمَنْ ودَّ الصَّديقَ ودودُ
فلا حديقتُهمْ يُجنى لها ثمرٌ ... ولا سماؤُهمُ تنهلُّ بالدِّيمِ
قدْ تنكرُ العينُ ضوءَ الشَّمسِ منْ رمدٍ ... ويُنكرُ الفمُ طعمَ الماءِ منْ سقمِ
كريشةٍ بمهبِّ الرِّيحِ ساقطةٍ ... لا تستقرُّ على حالٍ منَ القلقِ
كِبْرٌ بلا نسبٍ فيهِ بلا حسبٍ ... فخرٌ بلا أدبٍ هذا منَ العجبِ
لمْ أردَّ الطَّيرَ عنْ شجرٍ ... قدْ بلوتُ المرَّ منْ ثمرِهْ
لا خيرَ في حسنِ الجسومِ وطولِها ... إنْ لمْ يزنْ حسنَ الجسومِ عقولُ
لا تقطعنَّ ذنبَ الأفعى وترسلَها ... إنْ كنتَ شهمًا فأتبعْ رأسَها الذَّنبا
لهُ خلائقُ بيضٌ لا يغيِّرُها ... صرفُ الزَّمانِ كما لا يصدأُ الذَّهبُ

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِي نَافِذًا ... فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ فُحُولَا
مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَايَا ... كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ
مَا أَنْتَ أَوَّلَ سَاوٍ غَرَّهُ قَمَرٌ ... وَرَائِدٍ أَعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ
مَا إِنْ يَضُرُّ الْعَضْبَ كَوْنُ قِرَابِهِ ... خَلَقًا وَلَا الْبَازِي حَقَارَةُ عُشِّهِ
وَكَيْفَ يَبِيتُ مُضْطَجِعًا جَبَانٌ ... فَرَشْتَ لِجَنْبِهِ شَوْكَ الْقَتَادِ
وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلَائِقِ
وَمَا فِي سَطْوَةِ الْأَرْبَابِ عَيْبٌ ... وَلَا فِي زَلَّةِ الْعُبْدَانِ عَارُ
وَمَا الْحَدَاثَةُ عَنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ ... قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشِّيَبِ
وَمَا مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلٍ ... إِذَا لَمْ أُبَجِّلْ عِنْدَهُ وَأُكَرَّمِ
وَمَا كُلُّ نَاوٍ لِلْجَمِيلِ بِفَاعِلٍ ... وَلَا كُلُّ فَعَّالٍ لَهُ بِمُتَمِّمِ
وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ ... وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنِ مَنْ لَا يُجَرِّبُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يُولِي الْجَمِيلَ مُحَبَّبٌ ... وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبُ
وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَعَالِي ... فَلَا يَذَرُ الْمَطِيَّ بِلَا سَنَامِ
وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ ... فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ
وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ
وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لَا يَرْعَوِي ... عَنْ جَهْلِهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ
وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ ... وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ
وَكُلٌّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى ... وَلَكِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ
وَرُبَّ كَئِيبٍ لَيْسَ تَنْدَى جُفُونُهُ ... وَرُبَّ كَئِيبِ الدَّمْعِ غَيْرُ كَئِيبِ

وَفي تَعَبٍ مَنْ يَجْحَدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا ... وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِي لَهَا بِضَرِيبِ
وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُلَّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ ... مَحَا الذَّنْبَ كُلَّ النَّحْوِ مَنْ جَاءَ تَائِبَا
وَإِطْرَاقُ طَرْفِ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَافِعٍ ... إِذَا كَانَ طَرْفُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِمُطْرِقِ
وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيَعْرِفُ سَعْيَهُ ... إِذَا حَصَلَتْ عِنْدَ الْإِلٰهِ الْحَصَائِلُ
وَقَدْ نَبَحَ الْكَلْبُ السَّحَابَ وَدُونَهَا ... مَهَامِهُ تَغْشَى نَظْرَةَ الْمُتَأَمِّلِ
وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ ... عَلَى الْمَاءِ خَانَتْهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ
وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَى ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ
وَهَلْ يَدَّعِي اللَّيْلُ الدَّجُوجِيُّ أَنَّهُ ... تَضِيءُ ضِيَاءَ الشَّمْسِ شُهْبُ ظَلَامِهِ
وَلَا تَشِمْ كُلَّ خَالٍ لَاحَ بَارِقُهُ ... وَلَوْ تَرَاءَى هَتُونَ السَّكْبِ ثَجَّاجَا
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ ... لَا تَلْتَظِي إِنْ لَمْ تُثِرْهَا الْأَزْنُدُ
وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ
وَمَنْ يَنْشُدِ الرُّكْبَانَ عَنْ كُلِّ غَالِبٍ ... فَلَا بُدَّ أَنْ يُلْفِي بَشِيرًا وَنَاعِيَا
وَأَوَّلُ مَا يَكُونُ اللَّيْثُ شِبْلًا ... وَمَبْدَأُ طَالِعَةِ الْقَمَرِ الْهِلَالُ
وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ صُورَتَهُ ... وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ
وَكَمْ مُضِرٍ بُغْضًا يُرِيكَ مَحَبَّةً ... وَفِي الزَّنْدِ نَارٌ وَهْوَ فِي اللَّمْسِ بَارِدُ
وَمَا كُلُّ أَزْهَارِ الرِّيَاضِ أَرِيجَةٌ ... وَلَا كُلُّ أَطْيَارِ الْفَلَا تَتَرَنَّمُ
وَمَا كُلُّ مَنْ هَزَّ الْحُسَامَ بِضَارِبٍ ... وَلَا كُلُّ مَنْ أَجْرَى الْيَرَاعَ بِكَاتِبِ
وَمَا كُلُّ وَحْشٍ تَرَى ضَيْغَمًا ... وَلَا كُلُّ عُودٍ يُسَمَّى عَفَارَا

يُخْفِي ٱلْعَدَاوَةَ وَهْيَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ نَظَرُ ٱلْعَدُوِّ بِمَا أَسَرَّ يَبُوحُ
يَا جُلَّ مَا بَعُدَتْ عَلَيْكَ بِلَادُنَا وَطِلَابُنَا فَٱرْعُدْ بِأَرْضِكَ وَٱبْرُقِ
يَمُرُّ وَعِيدُ ٱلظَّالِمِينَ بِسَمْعِهِ كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ ٱللُّجَيْنِ ذُبَابُ
يَلْقَاكَ وَٱلْعَسَلُ ٱلْمُصَفَّى يُجْتَنَى مِنْ قَوْلِهِ وَمِنَ ٱلْفِعَالِ ٱلْعَلْقَمُ

١١٤ نخبة من تغريد الصادح لابن حجة الحموي

مَنْ عَرَفَ ٱللهَ أَزَالَ ٱلتُّهَمَهْ وَقَالَ كُلٌّ فِعْلِهِ لِلْحِكْمَهْ
وَمَنْ أَغَاثَ ٱلْبَائِسَ ٱلْمَلْهُوفَا أَغَاثَهُ ٱللهُ إِذَا أُخِيفَا
فَإِنَّ مِنْ خَلَائِقِ ٱلْكِرَامِ رَحْمَةَ ذِي ٱلْبَلَاءِ وَٱلْأَسْقَامِ
وَإِنَّ مِنْ شَرَائِطِ ٱلْعُلُوِّ أَلْعَطْفَ فِي ٱلْبُؤْسِ عَلَى ٱلْعَدُوِّ
لَا تَغْتَرِرْ بِٱلْحَفْظِ وَٱلسَّلَامَهْ فَإِنَّمَا ٱلْحَيَاةُ كَٱلْمُدَامَهْ
وَٱلْعُمْرُ مِثْلُ ٱلْكَاسِ وَٱلدَّهْرُ ٱلْقَذَرْ وَٱلصَّفْوُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلْكَدَرْ
فَإِنَّمَا ٱلرِّجَالُ بِٱلْإِخْوَانِ وَٱلْيَدُ بِٱلسَّاعِدِ وَٱلْبَنَانِ
وَمُوجِبُ ٱلصَّدَاقَةِ ٱلْمُسَاعَدَهْ وَمُقْتَضَى ٱلْمَوَدَّةِ ٱلْمُعَاضَدَهْ
وَإِنْ رَأَيْتَ ٱلنَّصْرَ قَدْ لَاحَ لَكَا فَلَا تُقَصِّرْ وَٱحْتَرِزْ أَنْ تَهْلِكَا
وَأَضْعَفُ ٱلْمُلُوكِ طُرًّا عَقْدَا مَنْ غَرَّهُ ٱلسِّلْمُ فَأَقْصَى ٱلْجُنْدَا
لَا تَيْأَسَنْ مِنْ فَرَجٍ وَلُطْفِ وَقُوَّةٍ تَظْهَرُ بَعْدَ ضُعْفِ
تُنَالُ بِٱلرِّفْقِ وَبِٱلتَّأَنِّي مَا لَمْ تُنَلْ بِٱلْحِرْصِ وَٱلتَّعَنِّي
لَا خَيْرَ فِي جَسَامَةِ ٱلْأَجْسَامِ بَلْ هُوَ فِي ٱلْعُقُولِ وَٱلْأَفْهَامِ
لَا تَحْتَقِرْ شَيْئًا صَغِيرًا مُحْتَقَرْ فَرُبَّمَا أَسَالَتِ ٱلدَّمَّ ٱلْإِبَرْ

كَمْ حَسَنٍ ظَاهِرُهُ قَبِيحُ وَسَيِّءٍ عُنْوَانُهُ مَلِيحُ
فَالْعَاقِلُ الْكَامِلُ فِي الرِّجَالِ لَا يَنْثَنِي لِزُخْرُفِ الْمَقَالِ
مَا طَابَ فَرْعٌ أَصْلُهُ خَبِيثُ وَلَا زَكَا مَنْ مَجْدُهُ حَدِيثُ
وَالْبَغْيُ فَاحْذَرْهُ وَخِيمُ الْمَرْتَعِ وَالْعُجْبُ فَاتْرُكْهُ شَدِيدُ الْمَصْرَعِ
وَالْغَدْرُ بِالْعَهْدِ قَبِيحٌ جِدًّا شَرُّ الْوَرَى مَنْ لَيْسَ يَرْعَى الْعَهْدَا

١١٥ من قصيدة ابي العتاهية المثلية

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ يَرْتَهِنُ الرَّأْيَ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
مَا عَيْشُ مَنْ آفَتُهُ بَقَاؤُهُ تَغَّصَ عَيْشًا كُلُّهُ فَنَاؤُهُ
يَا رُبَّ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجُهْدِهِ قَدْ سَرَّنَا اللهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيبُ إِلَّا لِأَمْرٍ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْدِنٌ وَجَوْهَرُ وَأَوْسَطٌ وَأَصْغَرٌ وَأَكْبَرُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجَوْهَرِهْ أَصْغَرُهُ مُتَّصِلٌ بِأَكْبَرِهْ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلٌّ مُمْتَزِجْ وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْهُ تَخْتَلِجْ
أَلْخَيْرُ وَالشَّرُّ هُمَا أَزْوَاجُ لِذَا نِتَاجٌ وَلِذَا نِتَاجُ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضُ يَخْبُثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضُ
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عُدَّا بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ جِدًّا
عَجِبْتُ حَتَّى غَمَّنِي السُّكُوتُ صِرْتُ كَأَنِّي حَائِرٌ مَبْهُوتُ
كَذَا قَضَى اللهُ فَكَيْفَ أَصْنَعُ أَلصَّمْتُ إِنْ ضَاقَ الْكَلَامُ أَوْسَعُ

الباب السادس
في الأمثال والاشارات

الملك المتروي

١١٦ ذكر الحكماء . وذوو الفضل من العلماء . أنه كان في بعض الأمصار . تاجر من أعيان التجار . وكان له غلام مخايل السعادة من جبينه لائحة . وروائح النجابة من أذيال شمائله فائحة . فأوسق له أبوه مركبا من المتاجر والمنافع . وأخذ في تعبية البضائع . وسلمه إلى الهواء والماء . بعد أن توكل على رب السماء . فسار بعض أيام . وهو في أهنإ مرام . وأطيب عيش ومقام . الماء رائق . والهواء موافق . والنكد مفارق . والسرور مرافق . وبينما السفينة من نسف العواصف أمينة . تجاري السهم والطير . وتبادي الدهم في السير . وإذا بالرياح هاجت . والأمواج ماجت . وأثباج البحر تصادمت . وأطواد الأمواج على العرفاء تلاطمت . فعجز ذلك الملاح وترك شيمة الوقار والسكينة . ورقم نقش الخروف في ألواح السفينة . فشاهدوا من الهواء الأهوال . وغدا قاع البحر كالجبال . وصار طائر ذلك الغراب بمن فيه من الأصحاب . كأحوال الدنيا بين صعود وهبوط . وقيام وسقوط . طورا يسامون الأفلاك ويناجون الأملاك . وطورا يهبطون الغور . وينظرون قرن الثور .

وربّما مرقوا منه من تحت الزور. فلم يزالوا عاجزين حيارى سكارى وما هم بسكارى يتناشدون:

وفلك ركبناه والبحر ذو هواء فثار وحار ومارا
فطورًا علونا السماء وطورًا رمينا الى الارض منها انحدارا

وآخر الأمر نسفت السفينة الرياح وأوعر الله سهلها. وخرقها فأغرقها وأهلها. وذهب البحر بأموالها وأرواحها. وتعلّق الغلام بلوح من ألواحها. واستمرّ تقذفه الأمواج. وتصطدم به أثباج البحر الهياج. إلى أن وصل إلى ساحل. فخرج وهو كئيب ناحل. وصعد إلى جزيرة. فواكهها غزيرة. ووضعها عجيب. ليس بها داع ولا مجيب. فجعل يمشي في جنّاتها إلى أن أداه التوفيق. إلى فم طريق. فسار في تلك الجادّة. وهداية الله له مادّة. فانتهى به المسير. إلى أن تراءى له سواد كبير. وبلغ مملكة عظيمة. وولاية جسيمة. ورأى على بعد مدينة. مسوّرة حصينة. فعمد إلى ذلك البلد. وتوجّه نحوه وقصد. فاستقبله طائفة من الرعال. نساء ورجال. يتبعهم جنود مجنّدة. وطوائف محشّدة. من طبول تضرب. وفوارس تلعب. وزمور ترعق. وألسنة بالثناء تنطق. حتّى إذا وصلوا إليه. ترامَوْا عليه. وأكبّوا بين يديه. يقبّلون يديه ورجليه. مستبشرين برؤيته. متبرّكين بطلعته. ثمّ ألبسوه الخلع السنيّة. وقدّموا له فرسًا عليّة. بكنبوش ذهب. وسرج مغرق. ووضعوا

١١٢ ـــــــ

وَالسَّوِيَّةِ . مُتَعَهِّدُ أُمُورِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ . بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ وَأَصْنَافِ الْمَبَارِّ . مُؤَسِّسُ قَوَاعِدِ الْمَمْلَكَةِ وَالسَّلْطَنَةِ عَلَى أَرْكَانِ الْعَقْلِ وَالْعَدْلِ مَهْمَا أَمْكَنَهُ . مُتَفَحِّصٌ عَنْ مَصَالِحِ الْمَمْلَكَةِ . سَالِكٌ مَعَ كُلِّ مِنْ أَرْبَابِ الْوَظَائِفِ مَا يَقْتَضِي مَسْلَكُهُ . ثُمَّ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ مِنْ بَيْنِ أُولَئِكَ الْجَمَاعَةِ عَلَى شَابٍّ جَلِيلِ الْبَرَاعَةِ . لَهُ فِي سُوقِ الْفَضْلِ وَالْوَفَاءِ أَوْفَرُ بِضَاعَةٍ . مُتَّصِفٌ بِأَنْوَاعِ الْكَمَالِ مُتَحَلٍّ بِزِينَةِ الْأَدَبِ وَالْجَمَالِ . فَاتَّخَذَهُ وَزِيرًا . وَفِي أُمُورِهِ نَاصِحًا وَمُشِيرًا . فَجَعَلَ يُلَاطِفُهُ وَيُرْضِيهِ . وَيُكْرِمُهُ وَيُدْنِيهِ . وَيُفِيضُ عَلَيْهِ مِنْ مَلَابِسِ الْإِنْعَامِ . وَخِلَعِ الْإِفْضَالِ وَالْإِكْرَامِ . مَا مَلَكَ بِهِ حَبَّةَ قَلْبِهِ . وَاسْتَصْفَى خَالِصَ وُدِّهِ وَلُبِّهِ . وَسَكَنَ فِي سُوَيْدَائِهِ . وَتَمَكَّنَ بِهِ مِنْ ضَمِيرِ أَحْشَائِهِ . إِلَى أَنِ اخْتَلَى بِهِ وَتَلَطَّفَ فِي خِطَابِهِ . وَاسْتَنْصَحَهُ فِي جَوَابِهِ . وَسَأَلَهُ عَنْ أَمْرِ إِمْرَتِهِ وَمُوجِبِ رِفْعَتِهِ وَسَلْطَنَتِهِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةِ الرِّفَاقِ . وَلَا أَهْلِيَّةٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ . وَلَا هُوَ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ . وَلَا فِي بَحْرِ السَّلْطَنَةِ لَهُ فُلْكٌ . وَلَا مَعَهُ مَالٌ وَلَا خَيْلٌ يُهْدِيهَا . وَلَا رِجَالٌ وَلَا مَعْرِفَةٌ يُدْلِي بِهَا . وَلَا شَجَاعَةٌ وَفَضِيلَةٌ يَهْتَدِي بِتَهْذِيبِهَا . فَقَالَ ذَلِكَ الشَّابُّ فِي الْجَوَابِ : اعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ أَنَّ هَذِهِ الْبَلْدَةَ وَعَسَاكِرَ إِقْلِيمِهَا وَجُنْدَهُ قَدِ اخْتَرَعُوا أَمْرًا . وَاصْطَلَحُوا عَلَى عَادَةٍ تُجْرَى . سَأَلُوا الرَّحْمَانَ أَنْ يُقَيِّضَ لَهُمْ فِي أَوَانٍ . شَخْصًا مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ . يَكُونُ عَلَيْهِمْ ذَا سُلْطَانٍ . فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ . فَسَلَكُوا فِي أَمْرِهِ هَذِهِ الْمَسَالِكَ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَدِمَتْ عَلَيْهِمْ يُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى

رَجُلًا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَيْهِمْ. فَيَسْتَقْبِلُونَهُ كَمَا اسْتَقْبَلُوكَ. وَيَسْلُكُونَ مَعَهُ طَرِيقَةَ الْمُلُوكِ. مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ وَلَا زِيَادَةٍ. وَقَدْ صَارَتْ هٰذِهِ لَهُمْ عَادَةً. فَيَسْتَمِرُّ عَلَيْهِمْ سَنَةً. فِي هٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْحَسَنَةِ. فَإِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ الْمَعْدُودُ. وَجَاءَ ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ. عَمَدُوا إِلَى ذٰلِكَ السُّلْطَانِ وَقَدْ صَارَ فِيهِمْ ذَا إِمْكَانٍ وَمَكَانٍ وَعُلْقَةٍ وَنَشَبٍ. وَإِخَاءٍ وَنَسَبٍ. وَثَبَتَتْ لَهُ أَوْتَادٌ. وَصَارَ لَهُ أَهْلٌ وَأَوْلَادٌ. جَرُّوهُ بِرِجْلِهِ مِنَ التَّخْتِ. وَسَلَبُوهُ ثَوْبَ الْعِزَّةِ وَالرَّخْتِ. وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَالنَّكَالِ. وَأَوْثَقُوهُ بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ. وَحَمَلَهُ الْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ. وَأَتَوْا بِهِ إِلَى بَحْرٍ قَرِيبٍ فَوَضَعُوهُ فِي قَارِبٍ. وَسَلَّمُوهُ إِلَى مُوَكَّلِينَ لِيُوصِلُوهُ إِلَى ذٰلِكَ الْجَانِبِ. فَيُوصِلُوهُ إِلَى ذٰلِكَ الْبَرِّ. وَهُوَ قَفْرٌ أَغْبَرُ. لَيْسَ بِهِ أَنِيسٌ وَلَا رَفِيقٌ. وَلَا جَلِيسٌ وَلَا صَدِيقٌ. وَلَا زَادٌ وَلَا مَاءٌ. وَلَا نُشُوءٌ وَلَا نَمَاءٌ. وَلَا مُغِيثٌ وَلَا مُعِينٌ. وَلَا قَرِيبٌ وَلَا قَرِينٌ. وَلَا قُدْرَةٌ وَلَا إِمْكَانٌ. عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْعُمْرَانِ. وَلَا ظِلٌّ وَلَا ظَلِيلٌ. وَلَا إِلَى الْخَلَاصِ سَبِيلٌ. وَلَا إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ دَلِيلٌ. فَيَسْتَمِرُّ هُنَاكَ فَرِيدًا طَرِيدًا إِلَى أَنْ يَهْلِكَ عَطَشًا وَجُوعًا. لَا يَمْلِكُ إِقَامَةً وَلَا يَسْتَطِيعُ رُجُوعًا. ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ أَهْلُ هٰذِهِ الْبِلَادِ. مَا لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ مُعْتَادٍ. فَيَخْرُجُونَ بِالْأُهْبَةِ الْكَامِلَةِ. إِلَى تِلْكَ الطَّرِيقِ السَّابِلَةِ. فَيَقْبِضُ اللّٰهُ تَعَالَى لَهُمْ رَجُلًا. فَيَفْعَلُونَ مَعَهُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا مَعَ غَيْرِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا. وَهٰذَا دَأْبُهُمْ وَدَيْدَنُهُمْ. وَقَدْ ظَهَرَ لَكَ ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ. فَقَالَ ذٰلِكَ الْغُلَامُ الْمُفْلِحُ. لِذٰلِكَ

ٱلْوَزِيرُ ٱلْمُصْلِحُ : فَهَلِ ٱطَّلَعَ أَحَدٌ مِمَّنْ تَقَدَّمَ عَلَى عَاقِبَةِ هٰذَا ٱلْمَأْثَمِ .
قَالَ : كُلٌّ عَرَفَ ذٰلِكَ . وَتَحَقَّقَ أَنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ هَالِكٌ . وَلٰكِنْ غُرُورُ ٱلسَّلْطَنَةِ يُلْهِيهِ . وَسُرُورُ ٱلتَّحَكُّمِ وَٱلتَّسَلُّطِ يُطْغِيهِ . وَحُضُورُ ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ لِسُوءِ ٱلْعَاقِبَةِ يُنْسِيهِ . وَلَا يُفِيقُ مِنْ غَفْلَتِهِ . وَيَسْتَيْقِظُ مِنْ رَقْدَتِهِ . إِلَّا وَعَامُهُ قَدْ مَضَى . وَٱلْأَجَلُ ٱلْمَضْرُوبُ قَدِ ٱنْقَضَى . وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ نَوَازِلُ ٱلْبَلَاءِ . وَهَجَمَ عَلَيْهِ بَوَازِلُ ٱلْقَضَاءِ . فَيَسْتَغِيثُ . وَلَا مُغِيثَ . وَيُنَادِي ٱلْخَلَاصَ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْغُلَامُ هٰذَا ٱلْكَلَامَ . أَطْرَقَ مُفَكِّرًا . وَبَقِيَ مُتَحَيِّرًا . وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْ أَمْرَهُ وَيَتَلَافَ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ وَيَتَدَبَّرْ حَالَهُ . وَمَصِيرَهُ وَمَآلَهُ . هَلَكَ هَلَاكَ ٱلْأَبَدِ . وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ . فَأَخَذَ يُفَكِّرُ فِي وَجْهِ ٱلْخَلَاصِ . وَٱلتَّفَصِّي مِنْ شَرَكِ ٱلِٱقْتِنَاصِ . ثُمَّ قَالَ لِلْوَزِيرِ ٱلنَّاصِحِ ٱلْخَبِيرِ : أَيُّهَا ٱلرَّفِيقُ ٱلشَّفِيقُ . وَٱلنَّصُوحُ ٱلصَّدِيقُ . جَزَاكَ ٱللهُ خَيْرًا . وَكَفَاكَ ضَيْمًا وَضَيْرًا . إِنِّي قَدْ فَكَّرْتُ فِي شَيْءٍ يَنْفَعُ نَفْسِي وَيُحْيِيهَا . وَيَدْفَعُ شَرَّ هٰذِهِ ٱلْبَلِيَّةِ ٱلَّتِي وَقَعْتُ فِيهَا . وَلَمْ يَبْقَ جِهَةُ مَخْلَصٍ . مِنْ هٰذَا ٱلْمَقْنَصِ . إِلَّا طَرِيقٌ وَاحِدٌ . وَسَبِيلٌ غَيْرُ مُتَعَاهَدٍ . وَهُوَ أَنْ تَأْخُذَ طَائِفَةً مِنَ ٱلْبَنَّائِينَ . وَجَمَاعَةً مِنَ ٱلْمُهَنْدِسِينَ وَٱلنَّجَّارِينَ . فَتَأْمُرَهُمْ أَنْ يَبْنُوا لَنَا هُنَاكَ مَدِينَةً . وَيُشَيِّدُوا لَنَا فِيهَا أَمَاكِنَ مَكِينَةً . وَمَخَازِنَ وَحَوَاصِلَ . وَتَمْلَأَهَا مِنَ ٱلزَّادِ ٱلْمُتَوَاصِلِ . مِنَ ٱلْمَآكِلِ ٱلطَّيِّبَةِ . وَٱلْأَطْعِمَةِ وَٱلْأَشْرِبَةِ ٱللَّذِيذَةِ ٱلْمُسْتَعْذَبَةِ . وَلَا تَغْفُلَ عَنِ ٱلْإِرْسَالِ . وَلَا تُجَيِّزَ ٱلْإِمْهَالَ وَٱلْإِهْمَالَ . فِي ٱلظَّهِيرَةِ وَٱلْأَسْحَارِ وَٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ . إِذْ

أَوْقَاتُنَا مَحْدُودَةٌ. وَأَنْفَاسُنَا مَعْدُودَةٌ. وَسَاعَةٌ تَمْضِي مِنْهَا غَيْرُ مَرْدُودَةٍ. بِحَيْثُ إِذَا نُقِلْنَا مِنْ هٰذِهِ الدِّيَارِ. وَطُرِحْنَا فِي تِلْكَ الْمَهَامِهِ وَالْقِفَارِ. وَجَفَانَا الْأَصْحَابُ. وَتَخَلَّى الْأَخِلَّاءُ عَنَّا وَالْأَحْبَابُ. وَأَنْكَرَنَا الْمَعَارِفُ وَالْأَوِدَّاءُ. وَاحْتَوَشَتْنَا فِي تِلْكَ الْبَيْدَاءِ. فُنُونُ الدَّاءِ. نَجِدُ مَا نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الْأَوَدِ. مُدَّةَ إِقَامَتِنَا فِي ذٰلِكَ الْبَلَدِ. فَأَجَابَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ. وَاخْتَارَ مِنَ الْبَنَّائِينَ جَمَاعَةً. وَأَحْضَرَ الْمَرَاكِبَ. وَقَطَعَ الْبَحْرَ إِلَى ذٰلِكَ الْجَانِبِ. وَجَعَلَ الْمَلِكُ يُمِدُّهُمْ بِالْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ. عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ وَمَدَى السَّاعَاتِ. إِلَى أَنْ أَنْهَى الْبَنَّاؤُونَ الْعِمَارَةَ. وَأَكْمَلُوا حَوَاصِلَ الْمَلِكِ وَدَارَهُ. وَأَجْرَوْا فِيهَا الْأَنْهَارَ. وَغَرَسُوا فِيهَا الْأَشْجَارَ. فَصَارَتْ تَأْوِي إِلَيْهَا الْأَطْيَارُ. وَيَتَرَنَّمُ فِيهَا الْبُلْبُلُ وَالْهَزَارُ. وَغَدَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْأَمْصَارِ. وَبَنَوْا حَوَالَيْهَا الضِّيَاعَ وَالْقُرَى. وَزَرَعُوا مِنْهَا الْوِهَادَ وَالذُّرَى. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهَا مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْخَزَائِنِ. وَنَفَائِسِ الْجَوَاهِرِ وَالْمَعَادِنِ. وَجَهَّزَ الْخَدَمَ وَالْحَشَمَ. وَصُنُوفَ الْاِسْتِعْدَادَاتِ مِنَ النِّعَمِ. فَمَا انْقَضَتْ مُدَّةُ مُلْكِهِ. وَدَنَتْ أَوْقَاتُ هُلْكِهِ. إِلَّا وَنَفْسُهُ إِلَى مَدِينَتِهِ تَاقَتْ. وَرُوحُهُ إِلَى مُشَاهَدَتِهَا اشْتَاقَتْ. وَهُوَ مُسْتَوْفِزٌ لِلرَّحِيلِ. وَرَايِضٌ لِلنُّهُوضِ وَالتَّحْوِيلِ. فَلَمَّا تَكَامَلَ لَهُ فِي الْمُلْكِ الْعَامُّ. لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ. مِمَّنْ كَانَ يَفْدِيهِ بِرُوحِهِ. مِنْ خَادِمِهِ وَنَصُوحِهِ. وَمَنْ كَانَ سَامِعًا لِكَلِمَتِهِ. مِنْ أَعْيَانِ خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ. وَقَدْ تَجَرَّدُوا لِلْجَذْبِ مِنَ السَّرِيرِ. وَنَزْعِ مَا عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِ الْحَرِيرِ. وَمَشَوْا عَلَى عَادَتِهِمُ الْقَدِيمَةِ.

وَسَلَبُوهُ مَمْلَكَتَهُ ٱلْعَظِيمَةَ . وَزَالَتِ ٱلْحِشْمَةُ وَٱلْكَلِمَةُ وَٱلْحُرْمَةُ . وَشَدُّوا وِثَاقَهُ وَذَهَبُوا بِهِ إِلَى ٱلْحَرَّاقَةِ وَوَضَعُوهُ . وَقَدْ رَبَطُوهُ فِي ٱلْمَرْكَبِ ٱلَّذِي هَيَّأُوهُ . وَأَوْصَلُوهُ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْبَرِّ مِنَ ٱلْبَحْرِ . فَمَا وَصَلَ إِلَيْهِ إِلَّا وَقَدْ أَقْبَلَتْ خَدَمُهُ عَلَيْهِ . وَتَمَثَّلَتْ طَوَائِفُ ٱلْحَشَمِ وَٱلنَّاسِ لَدَيْهِ . وَدُقَّتِ ٱلْبَشَائِرُ لِقُدُومِهِ . وَحَلَّ فِي سُرُورِهِ ٱلْمُقِيمِ وَنِعَمِهِ . وَٱسْتَمَرَّ فِي أَتَمِّ سُرُورٍ . وَٱسْتَقَرَّ فِي أَوْفَرِ حُبُورٍ (ملخص عن فاكهة الخلفاء لابن عربشاه)

نخبة

من كشف الاسرار عن حكم الطيور والازهار لابن غانم المقدسي

المقدّمة

١١٧ لَقَدْ أَخْرَجَنِي ٱلْفِكْرُ يَوْمًا لِأَنْظُرَ مَا أَحْدَثَتْهُ أَيْدِي ٱلْقِدَمِ فِي ٱلْحَدَثِ . وَأَوْجَدَتْهُ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْبَالِغَةُ لَا لِلْعَبَثِ . فَٱنْتَهَيْتُ إِلَى رَوْضَةٍ قَدْ رَقَّ أَدِيمُهَا . وَرَاقَ نَسِيمُهَا . وَنَمَّ طِيبُهَا . وَغَنَّى عَنْدَلِيبُهَا . وَتَحَرَّكَتْ عِيدَانُهَا . وَتَمَايَلَتْ أَغْصَانُهَا . وَتَبَلْبَلَتْ بَلَابِلُهَا . وَتَسَلْسَلَتْ جَدَاوِلُهَا . وَتَسَرَّحَتْ أَنْهَارُهَا . وَتَضَوَّعَتْ أَقْطَارُهَا . وَتَنَمَّقَتْ أَزْهَارُهَا . وَصَوَّتَ هَزَارُهَا . فَقُلْتُ : يَا لَهَا مِنْ رَوْضَةٍ مَا أَهْنَاهَا . وَخَلْوَةٍ مَا أَصْفَاهَا . فَيَا لَيْتَنِي ٱسْتَصْحَبْتُ صَدِيقًا حَمِيمًا . يَكُونُ لِطِيبِ حَضْرَتِي نَدِيمًا . فَنَادَانِي لِسَانُ ٱلْحَالِ . فِي ٱلْحَالِ . أَتُرِيدُ نَدِيمًا أَحْسَنَ مِنِّي . أَوْ مُجِيبًا أَفْصَحَ مِنِّي . وَلَيْسَ فِي حَضْرَتِكَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ نَاطِقٌ بِلِسَانِ حَالِهِ . مُنَادٍ عَلَى نَفْسِهِ بِدُنُوِّ ٱرْتِحَالِهِ . فَٱسْمَعْ لَهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ رِجَالِهِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ نَسِيمَ الصَّبَا لَهُ نَفَسٌ نَشْرُهُ صَاعِدُ
فَطَوْرًا يَنُوحُ وَطَوْرًا يَفُوحُ كَمَا يَفْعَلُ الْفَاقِدُ الْوَاجِدُ
وَسَكْبُ الْغَمَامِ وَنَدْبُ الْحَمَامِ إِذَا مَا شَكَا غُصْنُهُ الْمَائِدُ
وَنُورُ الصَّبَاحِ وَنَوْرُ الْأَقَاحِ وَقَدْ هَزَّهُ الْبَارِقُ الرَّاعِدُ
وَوَافَى الرَّبِيعُ بِمَعْنًى بَدِيعٍ يُتَرْجِمُهُ وَرْدُهُ الْوَارِدُ
وَكُلٌّ لِأَجْلِكَ مُسْتَنْبِطٌ لِمَا فِيهِ نَفْعُكَ يَا جَاحِدُ
وَكُلٌّ لِآلَائِهِ ذَاكِرٌ مُقِرٌّ لَهُ شَاكِرٌ حَامِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

اشارة النسيم

١١٨ فَأَوَّلُ مَا سَمِعْتُ هَمْهَمَةُ النَّسِيمِ. يَتَرَنَّمُ بِصَوْتِهِ الرَّخِيمِ. يَقُولُ بِلِسَانِ حَالِهِ. مُفْصِحًا عَنْ سَقَمِهِ وَانْتِحَالِهِ: أَنَا لَيِّنُ الْأَعْطَافِ. هَيِّنُ الْإِنْعِطَافِ. سَرِيعُ الْائْتِلَافِ. يَعْتَرِفُ بِلُطْفِي ذَوُو الْأَلْطَافِ. وَلَوْلَا وُجُودِي فِي الْجَوِّ لَجَافَ. وَلَا تَظُنَّ أَنَّ اخْتِلَافَ أَهْوَائِي. سَبَبُ إِغْوَائِي. بَلْ أَخْتَلِفُ فِي الْفُصُولِ الْأَرْبَعِ. لِمَا هُوَ أَصْلَحُ لَكَ وَأَنْفَعُ. فَأَهُبُّ فِي الرَّبِيعِ شَمَالًا فَأَلْقَحُ الْأَشْجَارَ. وَأَعْدِلُ فَصْلَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَأَهُبُّ فِي الصَّيْفِ صَبًا فَأُنْمِي الثِّمَارَ. وَأُصَفِّي الْأَشْجَارَ. وَأَهُبُّ فِي الْخَرِيفِ جَنُوبًا فَتَأْخُذُ كُلُّ ثَمَرَةٍ حَدَّ طِيبِهَا. وَتَسْتَوْفِي حَقَّ تَرْكِيبِهَا. وَأَهُبُّ فِي الشِّتَاءِ دَبُورًا لِيَخِفَّ عَنْ كُلِّ شَجَرَةٍ حَمْلُهَا. وَيَجِفَّ وَرَقُهَا وَيَبْقَى أَصْلُهَا. فَأَنَا الَّذِي تَنْمُو بِي الثِّمَارُ. وَتَزْهُو بِيَ الْأَزْهَارُ.

وَتَسَلْسَلُ بِيَ ٱلْأَنْهَارُ . وَتُلَقِّحُ ٱلْأَشْجَارُ

اشارة الورد

١١٩ ثُمَّ سَمِعْتُ إِشَارَةَ ٱلشَّحَارِيرِ بِأَفْنَانِهَا . وَٱلْأَزَاهِيرِ فِي تَلَوُّنِ أَلْوَانِهَا . إِذْ قَامَ ٱلْوَرْدُ يُخْبِرُ عَنْ طِيبِ وُرُودِهِ . وَيُعَرِّفُ بِعَرْفِهِ عَنْ شُهُودِهِ . وَيَقُولُ أَنَا ٱلضَّيْفُ ٱلْوَارِدُ بَيْنَ ٱلشِّتَاءِ وَٱلصَّيْفِ . أَزُورُ زِيَارَةَ ٱلطَّيْفِ . فَٱغْتَنِمُوا وَقْتِي فَٱلْوَقْتُ سَيْفٌ . . . فَأَنَا ٱلزَّائِرُ وَأَنْتَ ٱلْمَزُورُ . وَٱلطَّمَعُ فِي بَقَاءِي زُورٌ . ثُمَّ مِنْ عَلَامَةِ ٱلدَّهْرِ ٱلْمَكْدُورِ . وَٱلْعَيْشِ ٱلْمَمْرُورِ . أَنَّنِي حَيْثُ مَا نَبَتُّ دَائِرُ ٱلْأَشْوَاكِ تُزَاحِمُنِي . وَتُجَاوِرُنِي . فَأَنَا بَيْنَ ٱلْأَدْغَالِ مَطْرُوحٌ . وَبِنِبَالِ شَوْكِي مَجْرُوحٌ . وَهٰذَا دَمِي عَلَى مَا عِنْدِي يَلُوحُ . فَهٰذَا حَالِي وَأَنَا أَشْرَفُ ٱلْوُرَّادِ . وَأَلْطَفُ ٱلْأَوْرَادِ . فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي سَلِمَ مِنَ ٱلْأَنْكَادِ . وَمَنْ صَبَرَ عَلَى مَرَارَةِ ٱلدُّنْيَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلْمُرَادَ . فَبَيْنَمَا أَنَا أَرْفُلُ فِي حُلَلِ ٱلنَّضَارَةِ . إِذِ ٱقْتَطَفَتْنِي أَيْدِي ٱلنَّظَارَةِ . فَأَسْلَمَتْنِي مِنْ بَيْنِ ٱلْأَزَاهِيرِ . إِلَى ضِيقِ ٱلْقَوَارِيرِ . فَيُذَابُ جَسَدِي . وَتُحْرَقُ كَبِدِي . وَيُمَزَّقُ جِلْدِي . وَيَقْطُرُ دَمْعِي ٱلنَّدِي . فَلَا يُقَامُ بِأَوَدِي :

فَإِنْ غِبْتُ جِسْمًا كُنْتُ بِٱلرُّوحِ حَاضِرًا ... فَقُرْبِي سَوَاءٌ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَٱلْبُعْدُ

وَبِٱللهِ مَنْ أَضْحَى مِنَ ٱلنَّاسِ قَائِلًا ... كَأَنَّكَ مَاءُ ٱلْوَرْدِ إِذْ ذَهَبَ ٱلْوَرْدُ

اشارة المرسين

١٢٠ فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْمُرْسِينَ كَلَامَ ٱلْوَرْدِ . قَالَ قَدْ بَاحَ ٱلنَّسِيمُ بِسِرِّهِ . وَنَشَرَ ٱلسَّحَابُ عُقُودَ دُرِّهِ . وَتَضَوَّعَ ٱلْبَهَارُ بِذُخْرِهِ . وَتَبَهْرَجَ ٱلرَّبِيعُ

١٢٠ ـــــــ

وأوثق بالعزيمة شرطي . ولا أزال واقفاً على قدم . وكذلك وظيفة من خدم . لا أجلس بين جلاسي . ولا أرفع إلى النديم راسي . ولا أمنع الطالب طيب أنفاسي . ولست لعهد من وصلني بناسي . ولا على من قطعني قاسي . وكاسي بصفوه لي كاسي . بُني على قضب الزمرد أساسي . وجُعل من اللجين والعسجد لباسي . أتمم تقصيري فأطرق إطراق الخجل . وأفكر في مصيري فأحدق لهجوم الأجل . فإطراقي اعتراف بتقصيري . وإطلاقي نظر إلى ما فيه مصيري :

قمت من ذل على قدمي مطرقاً بالرأس من زللي
لم يكن في القادمين غداً نافعي علمي ولا عملي
مقلتي إنسانها أبداً قط لا يرتد من وجلي
عجلاً في خيفة وكذا خلق الإنسان من عجل

اشارة البان

١٢٢ فلما نظر الأشجار إلى طرب البان بينهم . وتمايله دونهم . لاموه على كثرة تمايله . وعنفوه على إعجابه بشمايله . فتمايل هنالك البان . وقال : قد ظهر عذري وبان . فمن ذا يلومني على تمايل أغصاني . واهتزاز أركاني . وأنا الذي بسطت لي الأرض مطارفها . وأظهرت لي الرياض زخارفها . وأهدت لي نسمات الأسحار لطائفها وظرائفها . فإذا رأيت ساعة نشور أموات النبات قد اقتربت . ورأيت الأرض قد اهتزت وربت . وحان ورود وردي . فأنظر إلى الورد وقد ورد .

وَإِلَى ٱلْبَرْدِ وَقَدْ شَرَدَ. وَإِلَى ٱلزَّهْرِ وَقَدِ ٱتَّقَدَ. وَإِلَى ٱلْحَبِّ وَقَدِ ٱنْعَقَدَ. وَإِلَى ٱلْغُصْنِ ٱلْيَابِسِ وَقَدْ كُسِيَ بَعْدَ مَا ٱنْجَرَدَ. وَإِلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْمَشَارِبِ وَقَدِ ٱتَّحَدَ. فَأَعْلَمُ أَنَّ صَانِعَهَا وَاحِدٌ أَحَدٌ. وَصَاحِبَهَا صَمَدٌ. وَمُوجِدَهَا بِٱلْقُدْرَةِ قَدِ ٱنْفَرَدَ. فَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى أَحَدٍ. وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَحَدٌ. وَلَا يُشَارِكُهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ. فَهُنَالِكَ تَمَايَلَتْ قُدُودِي. طَرَبًا بِطِيبِ شُهُودِي. وَتَبَلْبَلَتْ بَلَابِلُ سُعُودِي. عَلَى تَحْرِيكِ عُودِي. ثُمَّ تُدْرِكُنِي عِنَايَةُ مَعْبُودِي. فَأُفَكِّرُ فِي عَدَمِ وُجُودِي. وَفَوَاتِ مَقْصُودِي. فَأَنْعَطِفُ عَلَى ٱلْوَرْدِ فَأُخْبِرُهُ بِوُرُودِي. وَأَخْلَعُ عَلَيْهِ مِنْ بُرُودِي. وَأَسْتَخْبِرُهُ أَيْنَ مَقْصَدِي وَوُرُودِي. فَقَالَ لِي: وُجُودُكَ كَوُجُودِي. وَرُكُوعُكَ كَسُجُودِي. أَنْتَ بِخُضْرَةِ قُدُودِكَ. وَأَنَا بِحُمْرَةِ خُدُودِي. فَهَلُمَّ نَجْعَلْ فِي ٱلنَّارِ وُقُودَكَ وَوُقُودِي. قَبْلَ نَارِ خُلُودِكَ وَخُلُودِي. فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا صَحَّ ٱلِٱئْتِلَافُ. وَرَضِيتَ لِنَفْسِكَ بِٱلتَّلَافِ. فَلَيْسَ لِلْخِلَافِ خِلَافٌ. فَنُقْتَطَفُ عَلَى حُكْمِ ٱلْوِفَاقِ. وَنُخْتَطَفُ مِنْ بَيْنِ ٱلرِّفَاقِ. فَتُصْعَدُ أَنْفَاسُنَا بِٱلِٱحْتِرَاقِ. وَتُقَطَّرُ دُمُوعُنَا بِلَا إِشْفَاقٍ. فَإِذَا فَنِينَا عَلَى صُوَرِ أَشْبَاحِنَا. بَقِينَا بِمَعَانِي أَرْوَاحِنَا. فَشَتَّانَ بَيْنَ غُدْوِنَا وَرَوَاحِنَا

اشارة البنفسج

١٢٣ فَتَنَفَّسَ ٱلْبَنَفْسَجُ تَنَفُّسَ ٱلصُّعَدَاءِ. وَتَأَوَّهَ تَأَوُّهَ ٱلْبُعَدَاءِ. وَقَالَ: طُوبَى لِمَنْ عَاشَ عَيْشَ ٱلسُّعَدَاءِ. وَمَاتَ مَوْتَ ٱلشُّهَدَاءِ. إِلَى كَمْ أَذُوبُ بِٱلذُّبُولِ كَمَدًا. وَأَكْتَسِي بِٱلنُّحُولِ أَثْوَابًا جُدُدًا. أَفَنَتْنِي

الْأَيَّامُ فَمَا أَطَالَتْ لِي أَمَدًا . وَغَيَّرَتْنِي الْأَحْكَامُ فَمَا أَبْقَتْ لِي جِلْدًا وَلَا جَلَدًا . فَمَا أَقْصَرَ مَا قَضَيْتُ عَيْشًا رَغَدًا . وَمَا أَطْوَلَ مَا بَقِيتُ يَابِسًا مُجَرَّدًا . وَجُمْلَةُ خُصُولِي . أَنَّنِي أُوَخَّذُ أَيَّامَ حُصُولِي . فَأُقْطَعُ مِنْ أُصُولِي . وَأُمْنَعُ مِنْ وُصُولِي . وَكَمْ مِمَّنْ يَتَقَوَّى عَلَى ضَعْفِي . وَيَعْسِفُ بِي مَعَ تَرَفِّي وَلُطْفِي وَظَرْفِي . فَيَتَنَعَّمُ بِي مَنْ حَضَرَنِي . وَيَسْتَخْلِينِي مَنْ نَظَرَنِي . ثُمَّ لَا أَلْبَثُ إِلَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . حَتَّى أُسَامَ بِأَبْخَسِ سَوْمٍ . وَيُعَادَ عَلَيَّ بَعْدَ الثَّنَاءِ بِاللَّوْمِ . فَأُمْسِي مِمَّا لَقِيتُ مَمْعُوكًا . وَبِأَيْدِي الْحَوَادِثِ مَعْرُوكًا . فَإِذَا أَصْبَحْتُ يَابِسًا . وَمِنَ النَّضَارَةِ آيِسًا . أَخَذَنِي أَهْلُ الْمَعَانِي . مَنْ هُوَ لِلْحِكَمِ يُعَانِي . فَتَفْتَشُّ بِي الْأَوْرَامُ الْفَاشِيَةُ . وَتُلَيِّنُ الْآلَامُ الْقَاسِيَةُ . وَتُلَطِّفُ بِيَ الطَّبَائِعُ الْعَاتِيَةُ . وَتُدْفَعُ بِدَوَائِيَ الْأَدْوَاءُ الْعَادِيَةُ . فَالنَّاسُ مُمْتَعُونَ بِيَابِسِي وَرَطْبِي . جَاهِلُونَ بِعَظْمِ خَطْبِي . غَافِلُونَ عَمَّا أُودِعَ بِي مِنْ حِكَمِ رَبِّي . وَإِنِّي لِمَنْ يَتَدَبَّرُنِي عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ . وَتَذْكِرَةٌ لِمَنِ ادَّكَرَ . وَفِي مُزْدَجَرٌ لِمَنِ ازْدَجَرَ :

وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْبَنَفْسَجِ إِذْ غَدَا يَحْكِي بِأَوْرَاقٍ عَلَى أَغْصَانِهِ
جَيْشًا طَوَارِفُهُ الزَّبَرْجَدُ رُصِّعَتْ أَحْجَارُ يَاقُوتٍ عَلَى خُرْصَانِهِ
فَكَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهُ بِجَلَادَةٍ شِيلَتْ رُؤُوسُهُمُ عَلَى عِيدَانِهِ

اشارة لحزام

١٢٤ فَلَمَّا رَأَى الْحِزَامُ . مَا يُكَابِدُهُ الزَّهْرُ مِنَ الْقَيْدِ وَالِالْتِزَامِ . فِيمَا مَا يُضَامُ . وَيُنْثَرُ بَعْدَ النِّظَامِ . وَبِالثَّمَنِ الْبَخْسِ يُسَامُ . قَالَ : مَا

لِي وَالزِّحَامَ . لَا أُعَاشِرُ اللِّئَامَ . وَلَا أَسْمَعُ قَوْلَ اللَّوَّامِ . وَأَلْزِمُ مِنْ بَيْنِ الْأَزْهَارِ . أَنْ لَا أُجَاوِرَ الْأَنْهَارَ . وَلَا أَقِفَ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ . أُرَافِقُ الْوَحْشَ فِي الْقِفَارِ . وَأَسْكُنُ الْبَرَارِيَّ وَالْقِفَارَ . أُحِبُّ الْخَلَوَاتِ . وَأَسْتَوْطِنُ الْفَلَوَاتِ . فَلَا أُزَاحِمُ فِي الْمَحَافِلِ . وَلَا تَقْطِفُنِي أَيْدِي الْأَسَافِلِ . وَلَا أَحْمِلُ إِلَى اللَّاعِبِ وَالْهَازِلِ . لَكِنَّنِي بَعِيدٌ عَنِ الْمَنَازِلِ . تَجِدُنِي فِي أَرْضٍ نَجْدٍ نَازِلْ . رَضِيتُ بِالْبَرِّ الْفَسِيحِ . وَقَنِعْتُ بِمُجَاوَرَةِ الْغَارِ وَالشِّيحِ . تَعْبَقُ بِنَشْرِيَ الرِّيحُ . فَتَحْمِلُنِي إِلَى ذَوِي التَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ . لَا يَنْشَفِنِي إِلَّا مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ . وَشَوْقٌ صَرِيحٌ . وَهُوَ عَلَى زُهْدِ الْمَسِيحِ . وَصَبْرِ الذَّبِيحِ . فَأَنَا رَفِيقُ السِّيَاحِ فِي الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ . فَلَا أَحْضُرُ عَلَى مُنْكَرٍ . وَلَا أَجْلِسُ عِنْدَ مَنْ يَشْرَبُ وَيَسْكَرُ . فَأَنَا الْحُرُّ الَّذِي لَا يُبَاعُ فِي الْأَسْوَاقِ . وَلَا يُنَادَى عَلَيَّ بِالنِّفَاقِ فِي سُوقِ النِّفَاقِ . وَلَا يَنْظُرُنِي إِلَّا مَنْ شَمَّرَ عَنْ سَاقٍ . وَرَكِبَ جَوَادَ الْعَزِيمَةِ وَسَاقَ . فَلَوْ رَأَيْتَنِي فِي الْبَوَادِي . وَالنَّسِيمُ يَهِيمُ بِي فِي كُلِّ وَادٍ . أَعْطَرُ الْبَادِي . بِعِطْرِيَ الْبَادِي . وَأَرُوحُ النَّادِي . بِنَشْرِيَ النَّادِي . إِنْ عَرَّضَ بِذِكْرِي الْحَادِي . حَنَّ إِلَيَّ كُلُّ رَائِحٍ وَغَادِي

اشارة الشقيق

١٢٥ فَتَنَفَّسَ الشَّقِيقُ بَيْنَ نُدَمَائِهِ . وَهُوَ مُضَرَّجٌ بِدِمَائِهِ . وَاسْتَوَى عَلَى سَاقِهِ وَوَثَبَ . وَقَالَ : يَا لِلَّهِ الْعَجَبُ . مَا بَالُ لَوْنِي بَاهِي . وَحُسْنِي زَاهِي . وَقَدْرِي بَيْنَ الرَّيَاحِينِ وَاهِي . فَلَا أَحَدٌ بِي يُبَاهِي . وَلَا نَاظِرٌ

إِلَيَّ شَاهِي . فَلَيْتَ شِعْرِي مَا ٱلَّذِي أَسْقَطَ جَاهِي . أَزَلَلٌ فِي تَوْبَتِي ٱلْقَانِي . وَأَنَا مَدْحُوضٌ عِنْدَ مَنْ يَلْقَانِي . فَلَا أَنَا فِي ٱلْحَضْرَةِ حَاضِرٌ . وَلَا يُشَارُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَاظِرِ . وَلَا أُصَافَحُ بِٱلْمَنَاخِرِ . وَمَا بَرِحْتُ فِي عَدَدِ ٱلرَّيَاحِينِ آخِرَ . فَأَنَا طَرِيدٌ عَنْ صَحْبِي . بَعِيدٌ عَنْ قُرْبِي . وَمَا أَظُنُّ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ سَوَادِ قَلْبِي . فَلَمَّا رَأَيْتُ بَاطِنِي مَحْشُوًّا بِٱلذُّنُوبِ . وَقَلْبِي مُسْوَدًّا بِٱلْعُيُوبِ . عَلِمْتُ أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى ٱلصُّوَرِ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى ٱلْقُلُوبِ . فَكَانَ إِعْجَابِي بِأَثْوَابِي سَبَبًا لِحِجَابِي عَنْ ثَوَابِي . فَكُنْتُ كَٱلرَّجُلِ ٱلْمُنَافِقِ ٱلَّذِي حَسُنَتْ سِيرَتُهُ . وَقَبُحَتْ سَرِيرَتُهُ . وَرَاقَ فِي ٱلْمَنْظَرِ سِيمَتُهُ . وَقَلَّ فِي ٱلْمَخْبَرِ قِيمَتُهُ . وَلَوْ صَلَحَ قَلْبِي لَصَلَحَ أَمْرِي . وَلَوْ شَاءَ رَبِّي لَطَابَ بَيْنَ ٱلْخَلَائِقِ ذِكْرِي . وَفَاحَ بَيْنَ ٱلْأَزَاهِيرِ نَشْرِي . لٰكِنِ ٱلطِّيبُ لَا يَفُوحُ إِلَّا مِمَّنْ يَطِيبُ . وَعَلَامَاتُ ٱلْقَبُولِ لَا تَلُوحُ إِلَّا عَلَى مَنْ رَضِيَ عَنْهُ ٱلْحَبِيبُ :

أَنَا قَلْبِي قَدْ سَوَّدَتْهُ ذُنُوبِي وَقَضَى لِي مُعَذِّبِي بِشَقَاءِي
مَنْ رَآنِي يَظُنُّ خَيْرًا وَلٰكِنْ خَالِقِي عَالِمٌ بِأَنِّي مُرَاءِي
قَدْ تَحَسَّنْتُ مَنْظَرًا وَلِبَاسًا وَرَزَايَا مَحْشُوَّةٌ بِحَشَاءِي
وَاحَيَاءِي إِذَا سُئِلْتُ وَمَا لِي مِنْ جَوَابٍ وَاخَجْلَتِي وَاحَيَاءِي
لَوْ كَشَفْتَ ٱلسِّتْرَ عَنْ سُوءِ حَالِي لَرَأَيْتَ ٱلسُّرُورَ لِلْأَعْدَاءِ

اشارة السحاب

١٢٦ فَلَمَّا حَسُنَ ٱلْعِتَابُ . وَطَابَ فَصْلُ ٱلْخِطَابِ . دَمَعَ ٱلسَّحَابُ .

فَانْبَسَطَ وَسَاحَ فِي فَسِيحِ الرِّحَابِ. وَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ أَيُنْكَرُ فَضْلِي عَلَيْكُمْ. وَأَنَا الْبَاعِثُ طَلِّي وَوَبْلِي إِلَيْكُمْ. وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا أَطْفَالُ جُودِي. وَنَسْلُ وُجُودِي. كَمْ مَلَأْتُ الْبَرَّ بُرًّا بِبِرِّي. وَالْبَحْرَ دُرًّا بِدَرِّي. فَلَمْ يَزَلْ ثَدْيُ دَرِّي عَلَيْهِ دَرَّارًا. وَمَزِيدُ بِرِّي إِلَيْهِ مِدْرَارًا. فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ الرَّضَاعِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْفِطَامُ. أَقْطَعُ ثَدْيِي عَنْهُ فَيُصْبِحُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا حُطَامْ. فَكَأَنَّ بَعْثَهُ فِي انْسِكَابِ عَبَرَاتِي. وَنُشُورَهُ فِي بَعْثِ قَطَرَاتِي. فَالْكُلُّ فِي الْحَقِيقَةِ أَطْفَالِي. وَلَوِ اعْتَرَفُوا بِحَقِّي لَكَانُوا مِنَ الْجُوِّ أَطْفَالِي

اشارة الهزار

١٢٧ (قَالَ): فَبَيْنَمَا أَنَا مُصْغٍ لِمُنَادَمَةِ أَزْهَارِهَا. عَلَى حَافَاتِ أَنْهَارِهَا. إِذْ صَاحَتْ فَصَاحَةُ أَطْيَارِهَا مِنْ أَوْكَارِهَا. فَأَوَّلُ مَا صَوَّتَ الْهَزَارُ. وَنَادَى عَلَى نَفْسِهِ بِخَلْعِ الْعِذَارِ. وَبَاحَ بِمَا يُكَاتِمُهُ مِنَ الْأَسْرَارِ. وَقَالَ بِلِسَانِ حَالِهِ: أَنَا الْهَائِمُ اللَّهْفَانُ. الصَّادِي الظَّمْآنُ. إِذَا رَأَيْتُ فَصْلَ الرَّبِيعِ قَدْ حَانَ. وَمَنْظَرَهُ الْبَدِيعَ قَدْ آنَ. تَجِدُنِي فِي الرِّيَاضِ فَرْحَانَ. وَفِي الْغِيَاضِ أُرَدِّدُ الْأَلْحَانَ. أُغَنِّي وَأَطْرَبُ فَأَنَا بِنَغْمَتِي طَرْبَانُ. وَمِنْ نَشْوَتِي سَكْرَانُ. فَإِذَا زَمْزَمَ النَّسِيمُ وَصَفَّقَتْ أَوْرَاقُ الْأَغْصَانِ. أَرْقُصُ عَلَى الْعِيدَانِ. فَكَأَنَّمَا الزَّهْرُ وَالنَّهْرُ لِي عِيدَانْ. وَأَنْتَ تَحْسَبُنِي فِي ذَلِكَ عَابِثًا. لَا وَاللهِ وَلَسْتُ بِالْيَمِينِ حَانِثًا. وَإِنَّمَا أَنُوحُ حَرَبًا لَا طَرَبًا. وَأَبُوحُ تَرَحًا لَا فَرَحًا. لِأَنِّي مَا وَجَدْتُ رَوْضَةً

إِلَّا تَبَلْبَلْتُ عَلَى بَلْبَالِهَا . وَلَا نُزْهَةً إِلَّا نُحْتُ عَلَى أُضْحِيَلَالِهَا . وَلَا خُضْرَةً إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى زَوَالِهَا . لِأَنِّي مَا رَأَيْتُ صَفْوَةً إِلَّا تَكَدَّرَتْ . وَلَا عِيشَةً حُلْوَةً إِلَّا تَمَرَّرَتْ . فَقَرَأْتُ فِي مِثَالِ الْعِرْفَانِ . كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . فَكَيْفَ لَا أَنُوحُ . عَلَى حَالٍ يَحُولُ . وَوَقْتٍ يَدُولُ . وَعَيْشٍ يَزُولُ . وَوَصْلٍ عَنْ قَرِيبٍ مَفْصُولٍ . وَهٰذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ شَرْحِ حَالِي تُغْنِي عَنِ الْفُصُولِ :

حَدِيثُ ذَاكَ الْحِمَى رَوْحِي وَرَيْحَانِي ... فَلَا تَلُمْنِي إِذَا كَرَّرْتُ أَلْحَانِي
رَوْضٌ بِهِ الرَّاحُ وَالرَّيْحَانُ قَدْ جُمِعَا ... وَحَضْرَةٌ مَا لَهَا فِي حُسْنِهَا ثَانِي
مِنْ أَبْيَضٍ يَقَقٍ أَوْ أَصْفَرٍ فَقِعٍ ... أَوْ أَخْضَرٍ رَقَقٍ أَوْ أَحْمَرٍ قَانِي
وَالْأُنْسُ دَانٍ وَشَمْلُ الْوَصْلِ مُجْتَمِعٌ ... هٰذَا هُوَ الْعَيْشُ إِلَّا أَنَّهُ فَانِي

اشارة الباز

١٢٨ فَنَادَى الْبَازُ . وَهُوَ فِي مَيْدَانِ الْبِرَازِ . وَيْحَكَ لَقَدْ صَغَّرَ جِرْمُكَ . وَكَبَّرَ جُرْمُكَ . وَقَدْ أَقْلَقْتَ بِتَغْرِيدِكَ الطَّيْرَ . وَإِطْلَاقُ لِسَانِكَ يَجْلُبُ إِلَيْكَ الضَّيْرَ . وَمَا يُفْضِي بِكَ إِلَى خَيْرٍ . أَوَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَا يُهْلِكُ الْإِنْسَانَ إِلَّا عَثَرَاتُ اللِّسَانِ . فَلَوْلَا لَقْلَقَةُ لِسَانِكَ . مَا أُخِذْتَ مِنْ بَيْنِ أَقْرَانِكَ . وَحُبِسْتَ فِي ضَيِّقِ الْأَقْفَاصِ . وَسُدَّ عَلَيْكَ بَابُ الْخَلَاصِ . وَهَلْ ذٰلِكَ إِلَّا مَا جَنَاهُ عَلَيْكَ لِسَانُكَ . فَافْتَضَحَ بِهِ بَيَانُكَ . فَلَوِ اهْتَدَيْتَ بِسَمْتِي . وَاقْتَدَيْتَ بِصَمْتِي . لَبَرِئْتَ مِنَ الْمَلَامَةِ . وَعَلِمْتَ أَنَّ الصَّمْتَ رَفِيقُ السَّلَامَةِ . أَلَمْ تَرَنِي لَزِمْتُ الصُّمُوتَ . وَأَلِفْتُ

ٱلسُّكُوتَ. فَكَانَ ٱلصَّمْتُ جَمَالِي. وَلُزُومُ ٱلْأَدَبِ كَمَالِي. أَفْتَنَصْتُ مِنَ ٱلْبَرِّيَّةِ جَبْرًا. وَجُلِبْتُ إِلَى بِلَادِ ٱلْغُرْبَةِ قَهْرًا. فَلَا بِٱلسَّرِيرَةِ بُحْتُ. وَلَا عَلَى ٱلْأَطْلَالِ نُحْتُ. بَلْ أُدِّبْتُ حِينَ غُرِّبْتُ. وَقُرِّبْتُ حِينَ جُرِّبْتُ. وَٱمْتُحِنْتُ حِينَ ٱمْتُحِنْتُ. وَعِنْدَ ٱلِٱمْتِحَانِ. يُكْرَمُ ٱلْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ. فَلَمَّا رَأَى مُؤَدِّبِي تَخْلِيطَ ٱلْوَقْتِ. خَافَ عَلَيَّ مِنَ ٱلْفَلْتَةِ. فَكَمَّمَ بَصَرِي بِكُمَّةٍ: لَا تَمْتَدَّنَّ عَيْنَاكَ. وَعَقَدَ لِسَانِي بِعُقْدَةٍ: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ. وَقَيَّدَنِي بِقَيْدٍ: لَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا. فَأَنَا فِي وِثَاقِي لَا أَتَأَلَّمُ. وَمِمَّا أَلَاقِي لَا أَتَكَلَّمُ. فَأَمَّا كُمِمْتُ وَأُدِّبْتُ. وَجُرِّبْتُ وَهُذِّبْتُ. ٱسْتَصْلَحَنِي مُؤَدِّبِي لِإِرْسَالِي إِلَى ٱلصَّيْدِ. وَزَالَ عَنِّي ذٰلِكَ ٱلْقَيْدُ. فَأُطْلِقْتُ وَأُرْسِلْتُ. فَمَا رُفِعَتِ ٱلْكُمَّةُ عَنْ عَيْنِي. حَتَّى أَصْلَحْتُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنِي. فَوَجَدْتُ ٱلْمُلُوكَ خُدَّامِي. وَأَكُفَّهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِي:

أَمْسَكْتُ عَنْ فَضْلِ ٱلْكَلَامِ لِسَانِي ... وَكَفَفْتُ عَنْ نَظَرِ ٱلدُّنَا إِنْسَانِي
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ قُرْبَ مَنِيَّتِي ... لِزَخَارِفِ ٱللَّذَّاتِ قَدْ أَنْسَانِي
أُدِّبْتُ آدَابَ ٱلْمُلُوكِ وَعُلِّمَتْ ... رُوحِي هُنَاكَ صَنَائِعَ ٱلْإِحْسَانِ
أُرْسِلْتُ مِنْ كَفِّ ٱلْمُلُوكِ مُجَرَّدًا ... وَجَعَلْتُ مَا أَبْغِيهِ نُصْبَ عِيَانِي
حَتَّى ظَفِرْتُ وَنِلْتُ مَا أَمَّلْتُهُ ... ثُمَّ ٱسْتَجَبْتُ إِلَيْهِ حِينَ دَعَانِي
هٰذَا لَعَمْرِي رَسْمُ كُلِّ مُكَلَّفٍ ... بِوَظَائِفِ ٱلتَّسْلِيمِ لِلْإِيمَانِ

لشارة الحمام

١٢٩ (قَالَ): فَبَيْنَمَا أَنَا مُسْتَغْرِقٌ فِي لَذَّةِ كَلَامِهِ. مُعْتَبِرٌ بِحِكَمِهِ

وَأَحْكَامِهِ. إِذْ رَأَيْتُ أَمَامَهُ حَمَامَةً. قَدْ جَعَلَتْ طَوْقَ الْعُبُودِيَّةِ فِي عُنُقِهَا عَلَامَةً. فَقُلْتُ لَهَا: حَدِّثِينِي عَنْ ذَوْقِكِ وَشَوْقِكِ. وَأَوْضِحِي لِي مَا الْحِكْمَةُ فِي تَطْوِيسِ طَوْقِكِ. فَقَالَتْ: أَنَا الْمُطَوَّقَةُ بِطَوْقِ الْأَمَانَةِ. الْمُقَلَّدَةُ بِتَقْلِيدِ الصِّيَانَةِ. نُدِبْتُ لِحَمْلِ الرَّسَائِلِ. وَتَبْلِيغِ الْوَسَائِلِ لِلسَّائِلِ. وَلَكِنِّي أُخْبِرُكَ عَنِ الْقِصَّةِ الصَّحِيحَةِ. فَإِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. مَا كُلُّ طَائِرٍ أَمِينٌ. وَلَا كُلُّ حَالِفٍ يَصْدُقُ فِي الْيَمِينِ. وَلَا كُلُّ سَالِكٍ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَإِنَّمَا الْمَخْصُوصُ بِحَمْلِ الْأَمَانَةِ جِنْسِي. فَيُشْتَرَى بِالتَّحْرِيجِ. وَيُعْرَفُ الطَّرِيقُ بِالتَّدْرِيجِ. فَأَقُولُ: حَمِّلُونِي فَأَحْمِلُ كُتُبَ الْأَسْرَارِ. وَلَطَائِفَ الرَّسَائِلِ وَالْأَخْبَارِ. فَأَطِيرُ وَعَقْلِي مُسْتَطِيرٌ. خَائِفًا مِنْ جَارِحٍ جَارِحٍ. حَاذِرًا مِنْ سَائِحٍ سَابِحٍ. جَازِعًا مِنْ صَائِدٍ ذَابِحٍ. فَأُهَاجِرُ. وَأُكَابِدُ الظَّمَأَ فِي الْهَوَاجِرِ. وَأَطْوِي عَلَى الطَّوَى فِي الْمَحَاجِرِ. فَلَوْ رَأَيْتُ حَبَّةَ قَمْحٍ مَعَ شِدَّةِ جُوعِي رَجَعْتُ عَنْهَا. فَأَرْتَفِعُ خَشْيَةً مِنْ كَمِينِ فَخٍّ مَدْفُونٍ. أَوْ شَرَكٍ يُعِيقُنِي عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فَأَنْقَلِبُ بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ. فَإِذَا وَصَلْتُ. وَفِي مَأْمَنِي حَصَلْتُ. أَدَّيْتُ مَا حُمِّلْتُ. وَعَمِلْتُ مَا عُلِّمْتُ. فَهُنَالِكَ طُوِّقْتُ. وَبِالْبِشَارَةِ خُلِقْتُ. وَأَنْقَلِبُ إِلَى شُكْرِ اللهِ عَلَى مَا وُفِّقْتُ.

أَيَا رَبِّي وَصَلْتُمْ أَوْ هَجَرْتُمْ فَعَبْدُكُمْ عَلَى حِفْظِ الْأَمَانَهْ
مُقِيمٌ لَا يُزَحْزِحُهُ عَذُولٌ وَلَا يَثْنِي مُعَنِّفُهُ عِنَانَهْ
حَمَلْتُ لِأَجْلِكُمْ مَا لَيْسَ تَقْوَى الْـ جِبَالُ الشُّمُّ تَحْمِلُهُ رِزَانَهْ

١٣٠ ـــــــ

أَوْقَاتِهِمْ . لَا فِي أَقْوَاتِهِمْ . مُكْتَسِبٌ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ . لَا مِنْ أَرْزَاقِهِمْ . مُنْتَهِبٌ مِنْ حَالِهِمْ . لَا مِنْ مَالِهِمْ . مُقْتَبِسٌ مِنْ بِرِّهِمْ لَا مِنْ بُرِّهِمْ . رَاغِبٌ فِي حُبِّهِمْ . لَا فِي حَبِّهِمْ . مُقْتَدِيًا بِقَوْلِهِ : إِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ . وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ . قَالَ فَقُلْتُ : لِلهِ دَرُّكَ لَقَدْ عِشْتَ سَعِيدًا . وَسِرْتَ سَيْرًا حَمِيدًا . وَوُفِّقْتَ أَمْرًا رَشِيدًا . وَقُلْتَ قَوْلًا سَدِيدًا . فَلَا أَطْلُبُ عَلَى مَوْعِظَتِكَ مَزِيدًا

اشارة البوم

١٣١ (قَالَ) : فَنَادَانِي الْبُومُ . وَهُوَ مُنْفَرِدٌ فِي الْخَرَابِ مَهْمُومٌ . أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّادِقُ . وَالْخِلُّ الْمُرَافِقُ . لَا تَكُنْ بِمَقَالَةِ الْخُطَّافِ وَاثِقًا . وَلَا لِفِعْلِهِ مُوَافِقًا . فَإِنَّهُ إِنْ سَلِمَ مِنْ شُبَهِ زَادِهِمْ . فَمَا سَلِمَ مِنْ نَزْهِ فَرَحِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ . وَتَكْثِيرِ سَوَادِهِمْ . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ . وَلَوْ صَحِبَهُمْ سَاعَةً كَانَ مَسْؤُولًا عَنْهُمْ . وَقَدْ فَهِمْتَ أَنَّ مُبْتَدَأَ التَّفْرِيطِ مِنْ آفَاتِ التَّخْلِيطِ . وَالْخُلْطَةَ غَلْطَةٌ . وَأَوَّلُ السَّيْلِ نُقْطَةٌ . وَاعْلَمْ أَنَّ السَّلَامَةَ فِي الْعُزْلَةِ . فَمَنْ وَلِيَهَا فَلَا يَخَافُ عُزْلَةً . فَهَلَّا اسْتَسَنَّ بِسُنَّتِي . وَتَأَسَّى بِوَحْدَتِي . وَاعْتَزَلَ الْمَنَازِلَ وَالنَّازِلَ . وَزَهِدَ فِي الْمَآكِلِ وَالْآكِلِ . أَلَا تَرَانِي لَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ . وَلَا أُجَالِسُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ . وَلَا أُسَاكِنُهُمْ فِي مَسَاكِنِهِمْ . وَلَا أُزَاحِمُهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ . بَلِ اخْتَرْتُ الدَّائِرَ مِنَ الْجُدْرَانِ . وَرَضِيتُ بِالْخَرَابِ عَنِ الْعُمْرَانِ . فَسَلِمْتُ مِنَ الْأَنْكَادِ . وَأَمِنْتُ شَرَّ الْحُسَّادِ . وَلَمْ أَزَلْ عَنِ الْأَحْبَابِ وَحِيدًا .

١٣٢ ـــــــ

فَلِذٰلِكَ زَاحَمْتُهُمْ فِي كَلَامِهِمْ . وَشَارَكْتُهُمْ فِي طَعَامِهِمْ . فَأَتَشَبَّهُ بِهِمْ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ . وَأَتَخَلَّقُ بِهِمْ وَأُخَاطِبُهُمْ وَلَا أَرْغَبُ عَنْهُمْ . فَعَلَتْ قِيمَتِي . إِذْ عَلَتْ هِمَّتِي . فَأَحْلُونِي مَحَلَّ النَّدِيمِ . وَأَلَّفَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَأَذْكُرُ كَمَا يَذْكُرُونَ . وَأَشْكُرُ كَمَا يَشْكُرُونَ :

إِخْتَبِرْ حَالِي تَجِدْنِي مِنْ أَصَحِّ النَّاسِ مُخْبَرْ
أَنَا قَدْ أَحْيَيْتُ قَوْمًا شَرُفُوا مَعْنًى وَمَنْظَرْ
كَبُرُوا قَدْرًا وَذِكْرًا فَهُمُ أَزْكَى وَأَطْهَرْ

(قَالَ) فَلَمَّا سَامَ نَفْسَهُ بِهٰذَا السَّوْمِ . وَجَاسَ فِي صَدْرِ مَجَالِسِ الْقَوْمِ . قُلْتُ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ . أَلْبَهَائِمُ فِي الْيَقْظَةِ وَأَنَا فِي النَّوْمِ . فَمَالِي لَا أُزَاحِمُ عَلَى أَبْوَابِ ذِي الْمَرَاحِمِ . لَعَلَّهُ يُوهَبُ مَرْحُومٌ لِرَاحِمٍ . وَيُقَالُ : مَرْحَبًا بِالْقَادِمِ . هَا قَدْ وَهَبْنَا الْجِنَايَةَ لِلنَّادِمِ

اشارة الديك

١٣٣ (قَالَ) فَقُلْتُ : تَاللهِ لَقَدْ فَازَ أَهْلُ الْخَلَوَاتِ . وَامْتَازَ أَهْلُ الصَّلَوَاتِ . وَمُنِعَ مِنَ الْجِوَارِ أَهْلُ الْغَفَلَاتِ . فَعِنْدَ ذٰلِكَ نَادَى الدِّيكُ . كَمْ أُنَادِيكَ . وَأَنْتَ فِي تَعَامِيكَ وَتَعَاشِيكَ . جَعَلَتِ الْأَذَانَ لِي وَظِيفَةً . أُوقِظُ بِهِ مَنْ كَانَ نَائِمًا كَالْجِيفَةِ . وَأُبَشِّرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً . وَفِي إِشَارَةٍ لَطِيفَةٍ . أُصَفِّقُ بِجَنَاحَيَّ بِشْرًا لِلْقِيَامِ . وَأُعْلِنُ بِالصِّيَاحِ تَنْبِيهًا لِلنِّيَامِ . فَتَصْفِيقُ الْجَنَاحِ . بُشْرَى بِالنَّجَاحِ . وَتَرْدِيدُ الصِّيَاحِ . دُعَاءٌ لِلْفَلَاحِ . لَا أُخِلُّ بِوَظِيفَتِي لَيْلًا وَلَا نَهَارًا . وَلَا أَغْفُلُ عَنْ

١٣٤ ـــــــ

عالمي الماء والهواء. فأنا في البر سائح. وفي البحر سابح. وفي الهواء سارح. وقد جعلت البحر مركز عزي. ومعدن كنزي. فأغوص في صفاء تلاليه. فأجتلي جواهر لآليه. وأطلع فيه على حكمه ومعانيه. ولا يعرف ذلك إلا من يعانيه. فمن وقف على ساحله. لم يظفر إلا بزبده وأجاجه. ومن لم يحذر من دواخله ولجاجه. غرق في متلاطم لججه وأمواجه. فالسعيد من ركب قارب قرباته. ورفع قلوع تضرعاته. متعرضا لنسمات نفحاته. مادا لبان رجائه بجذباته. ثم قطع كثائف ظلماته. فوصل إلى مجمع بحري ذاته وصفاته. فهنالك يقع على عين حياته. فيرد من عذبه وفراته:

يا طالبا للمعالي مهر المعالي غالي
قدم فأول نقد معجل الآجال
ما استعذب الموت إلا من ذاق ذوق الرجال
حماه دون الوصال حماة حد النصال
كذا القصور العوالي حفت بسمر العوالي
والشهد دون جناه لدغ كحد النبال
قد طاف حول حماه ذوو الجدود العوالي
وصابروا في هواه على مر النكال
صاموا وبالذكر قاموا في مظلمات الليالي
إن كنت بطال فاترك منازل الأبطال

اشارة النحل

١٣٥ (قال): فنادت النحلة: يا لها من نحلة. ما صح في روايتها رحلة. فالعارف من ظهر معناه. وقبل دعواه. وعلم صفاء سيرته من نجواه. ومن محا حقيقة دعواه. ثبتت حقيقة معناه. فلا تقل قولا يبطله فعلك. ولا تربح فرعا ينقضه أصلك. ألا ترانى لما طاب مطعمى وصفا مشربى. كيف رفعت رتبتى. وعلا منصبى. وكمل أدبى. لولا أنى أكلت الحلال. ولزمت أشرف الخلال. حتى صرت كالخلال. أسلك سبل ربى ذللا. وأشكر من نعمه فصولا وجملا. أبتغى المباح. الذى ليس على أكله من جناح. فأجعل فى الجبال بيوتى. ومن مباح الأشجار قوتى. أبتنى بيوتا يعجز كل صانع عن تأسيسها. ويتحير أفاليدس فى حل شكل تسديسها. ثم أسقط على الزهر والثمر. فلا آكل ثمرة. ولا أهشم زهرة. بل أتناول منها شيئا على هيئة الطل. فأتغذى به قانعة وإن قل. ثم أعود إلى عشى. وقد صفا كدر عيشى. فأشتغل فى وكرى بفكرى وذكرى. وأخلص لمولاى شكرى. ولا أفتر عن الذكر. ولا أغفل عن الشكر. قد أنتج علمى وعملى. شمعى وعسلى. فالشمع ثمرة العلم المنقول. والعسل ثمرة العمل المقبول. فالشمع للضياء. والعسل للشفاء. فإذا أتانى قاصد يستضىء بضيائى. وإن أتانى عليل يستشفى بشفائى. فلا أذيقه حلاوة نفعى. حتى أجرعه مرارة لسعى. ولا أنيله شهدى. إلا بعد مكابدة جهدى. فإن اقتنصه

مِنِّي قَهْرًا. أُحَامِي عَنْهُ جَهْرًا. وَأُدَافِعُ عَنْهُ بِرُوحِي. وَأَقُولُ يَا رُوحُ رُوحِي. ثُمَّ أَقُولُ لِمَنْ جَنَانِي. وَاسْتَخْرَجَنِي مِنْ جِنَانِي. أَنْتَ يَا جَانِي. عَلَيَّ جَانِي. فَإِنْ كُنْتَ لِلرُّمُوزِ تُعَانِي. فَقَدْ رُمِزَتْ لَكَ فِي مَعَانِي. إِنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَى وِصَالِي. حَتَّى تَصْبِرَ عَلَى حَدِّ نِصَالِي:

إِصْبِرْ عَلَى مُرِّ هَجْرِي إِنْ رُمْتَ مِنِّي وِصَالَا
وَاتْرُكْ لِأَجْلِ هَوَايَ مَنْ صَدَّ جَهْلًا وَصَالَا
وَمُتْ إِذَا شِئْتَ تَحْيَا وَاسْتَعْجِلِ الْآجَالَا
إِنْ كُنْتَ مَعْنًى تَمَنَّى فَقَدْ ضَرَبْتُ مِثَالَا
فَإِنْ فَهِمْتَ رُمُوزِي إِقْدَمْ وَإِلَّا فَلَا لَا

اشارة الشمع

١٣٦ (قَالَ): فَسَمِعَ النَّحْلُ اسْتِغَاثَةَ شَمْعِهِ. فَأَصْغَى إِلَيْهِ بِسَمْعِهِ. فَإِذَا هُوَ يَحْتَرِقُ بِالنَّارِ. وَيَبْكِي بِأَدْمُعٍ غِزَارٍ. وَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّحْلُ أَمَا يَكْفِينِي. أَنْ رُمِيتُ مِنْكَ بِبَيْنِي. وَفَرَّقَ الدَّهْرُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنِي. فَأَنْتَ فِي الْوُجُودِ أَبِي. وَفِي الْإِيجَادِ سَبَبِي. فَأَفْرَدْتُ عَنْكَ بِتَحْرِيقِي. أَنَا وَالْعَسَلُ شَقِيقِي. وَهُوَ أَخِي وَرَفِيقِي. فَبَيْنَمَا نَحْنُ مُجْتَمِعَانِ. وَفِي قَرَارِنَا مُلْتَئِمَانِ. إِذْ فَرَّقَتْ بَيْنَنَا يَدُ النَّارِ وَرَمَتْنَا بِبُعْدِ الدَّارِ. وَشَطَّ مَا بَيْنَنَا الْمَزَارُ. فَأُفْرِدْتُ عَنْهُ وَأُفْرِدَ عَنِّي. وَبِنْتُ مِنْهُ وَبَانَ مِنِّي. ثُمَّ سُلِّطَتْ عَلَيَّ النَّارُ. وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْأَوْزَارِ. فَكَبِدِي تَحْتَرِقُ. وَجَسَدِي تَحْتَ رِقٍّ. وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ يَسْتَضِيئُونَ بِنُورِ إِشْرَاقِي. فَأَنَا فِي إِشْرَاقٍ وَإِحْرَاقٍ،

ودمع مهراق. قائم في الخدمة على ساق. أحمل ضرري وضيري. وأحرق نفسي لأشرق على غيري. فأنا معذب بشري. وغيري متمتع بخيري. فكيف ألام على اصفراري. ودموعي الجواري. ثم تقصدني الأوباش من الفراش. يريدون إطفائي. وإذهاب أضوائي. فأحرقه مكافأة لفعله. ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله. فلو ملئت الأرض فراشا لكنت منهم بأمان. ولو ملئت أوباشا لما أطفوا نور الإيمان. يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم ويأبى الرحمان. وهذا رمز لمن تمعناه بيان:

قد أتى يا نور عيني منك نور أي نور
فهداي وضلالي بك يا كل سروري
لم يطق كل عذول فيك يرميني بزوري
وكذا كل هواء لم يطق إطفاء نوري

اشارة الغراب

١٣٧ (قال): فبينما أنا في نشوة هذا العتاب. ولذة هذا الشراب. إذ سمعت صوت غراب. ينعق بتفريق الأتراب. وينوح نوح المصاب. ويبوح ما يجده من أليم العذاب. وقد لبس من الحداد جلباب. ورضي من بين العباد بتسويد الثياب. فقلت: أيها النادب لقد كدرت ما كان صافيا. ومررت ما كان حلوا شافيا. فمالك لم تزل في البكور ساعيا. وعلى الربوع ناعيا. وإلى البين داعيا. إن رأيت شملا

مُجتمعاً أنذرتَ بشتاتِهِ . وإنْ شاهدتَ قصراً عالياً بشّرتَ بدُروسِ عرصاتِهِ . فأنتَ لدى الخليطِ المعاشرِ أشأمُ من قاشرٍ . وعندَ اللبيبِ الحاذرِ . ألأمُ من جاذرٍ . فنادانِي بلسانِ زجرِهِ القصيحِ . وأشارَ بعنوانِ حالِهِ الصريحِ . ويحكَ أنتَ لا تُفرّقُ بينَ الحسنِ والقبيحِ . وقدْ تساوى لديكَ العدوُّ والنصيحُ . لا بالكنايةِ تفهمُ ولا بالتصريحِ . كأنَّ المواعظَ في أذنيكَ ريحٌ . وكلامَ المواعظِ في سمعِ هواكَ كالنسيحِ . أما تذكرُ رحيلكَ من هذا القبيحِ القسيحِ . إلى ظلمةِ القبرِ وضيقِ الضريحِ . أما بلغكَ ما جرى على أبيكَ آدمَ وهو ينادي على نفسهِ ويصيحُ . أما تعتبرُ بنوحِ نوحٍ . وهو يبكي وينوحُ . على دارٍ ليسَ بها أحدٌ مستريحُ . أما تقتدي بصبرِ الذبيحِ . أما يكفيكَ ما تمَّ على داودَ حتى بكى بقلبهِ القريحِ . أما تهتدي بزهدِ المسيحِ . أيُّ جمعٍ لمْ يتفرّقْ . أيُّ شملٍ لمْ يتمزّقْ . أيُّ صفوٍ لمْ يتكدّرْ . أيُّ حلوٍ لمْ يتمرّرْ . أيُّ أملٍ . لمْ يقطعهُ الأجلُ . أيُّ تدبيرٍ . لمْ يُبطلهُ التقديرُ . أيُّ بشيرٍ . لمْ يعقبهُ نذيرٌ . أيُّ يسيرٍ . ما عادَ عسيرٌ . أيُّ حالٍ . ما حالَ . أيُّ مُقيمٍ ما زالَ . أيُّ مالٍ . عنْ صاحبهِ ما مالَ . أينَ ذوو العمرِ الطويلِ . أينَ ذوو المالِ الجزيلِ . أينَ ذوو الوجهِ الجميلِ . أما قرضهمُ الموتُ جيلاً بعدَ جيلٍ . أما سوّى في الثرى بينَ العبدِ الذليلِ . والمولى الجليلِ . أما هتفَ بالمتمتعِ بدنياهُ قلْ : متاعُ الدنيا قليلٌ . فكيفَ تلومني على نواحي . وتستشمُ بصياحي . في مساءي وصباحي . ولوْ علمتَ أيها

اللاحي . بما فيه صلاحك وصلاحي لا تشحت بوشاحي . ووافقني في سواد جناحي . وأجبتني بالنواح من سائر النواحي . لكن ألهاك لهوك . وحجبك عجبك وزهوك . وها أنا أعرف النازل . بخراب المنازل . وأحذر الآكل . غصة المآكل . وأبشر الراحل . بقرب المراحل . وصديقك من صدقك . لا من صدقك . ومن عذلك . لا من عذرك . ومن بصرك . لا من نصرك . ومن وعظك . فقد أيقظك . ومن أنذرك . فقد حذرك . ولقد أنذرتك بسوادي . وحذرتك بترددي . وأسمعتك نداءي في النادي . ولكن لا حياة لمن تنادي :

أنوح على ذهاب العمر مني ... وحقي أن أنوح وأن أنادي
وأندب كلما عاينت ركبا ... حدا بهم لوشك البين حادي
يعنفني الجهول إذا رآني ... وقد ألبست أثواب الحداد
فقلت له اتعظ بلسان حالي ... فإني قد نصحتك باجتهادي
وها أنا كالخطيب وليس بدعا ... على الخطباء أثواب السواد
ألم ترني إذا عاينت ربعا ... أنادي بالنوى في كل وادي
أنوح على الطلول فلم يجبني ... بساحتها سوى خرس الجماد
وأكثر في نواحيها نواحي ... من البين المفتت للفؤاد
تيقظ يا ثقيل السمع وافهم ... إشارة ما تشير به الغوادي
فما من شاهد في الكون إلا ... عليه من شهود الغيب بادي
فكم من رائح فيها وغاد ... ينادي من دنو أو بعاد

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا وَلٰكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ أُنَادِي

اشارة الهدهد

١٣٨ - (قَالَ) فَلَمَّا كَدَّرَ عَلَيَّ ٱلْغُرَابُ وَقْتِي. وَحَذَّرَنِي مَقْتِي. إِنْصَرَفْتُ مِنْ حَضْرَتِي. إِلَى خَلْوَةِ فِكْرَتِي. فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ مِنْ سَمَاءِ فِطْرَتِي. أَيُّهَا ٱلسَّامِعُ مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ. ٱلْمُتَأَسِّفُ عَلَى فَوَاتِ ٱلْخَيْرِ. تَٱللّٰهِ لَوْ صَغَتِ ٱلضَّمَائِرُ. لَنَفَذَتِ ٱلْبَصَائِرُ. وَٱهْتَدَى ٱلسَّائِرُ. وَمَا ضَلَّ ٱلْحَائِرُ. وَلَوْ طَابَتِ ٱلْخَوَاطِرُ. لَبَانَتِ ٱلْأَمَائِرُ. وَلَوْ شُرِحَتِ ٱلسَّرَائِرُ لَظَهَرَتِ ٱلْبَشَائِرُ. وَلَوِ ٱنْشَرَحَتِ ٱلصُّدُورُ. لَظَهَرَ لَكَ ٱلنُّورُ. وَلَوِ ٱرْتَفَعَتِ ٱلسُّتُورُ. لَٱنْكَشَفَ ٱلْمَسْتُورُ. وَلَوْ طَهُرَتِ ٱلْقُلُوبُ. لَظَهَرَتْ سَرَائِرُ ٱلْغُيُوبِ. وَلَوْ خَلَعَتْ ثِيَابَ ٱلْإِعْجَابِ. لَرُفِعَ لَكَ ٱلْحِجَابُ. وَلَوْ غِبْتَ عَنْ عَالَمِ ٱلْعَيْبِ. لَشَاهَدْتَ عَالَمَ ٱلْغَيْبِ. وَلَوْ قَطَعْتَ ٱلْعَلَائِقَ. لَٱنْكَشَفَتْ لَكَ ٱلْحَقَائِقُ. وَلَوْ خَالَفْتَ ٱلْعَادَةَ. لَمَا ٱنْقَطَعَتْ عَنْكَ ٱلْمَادَّةُ. وَلَوْ تَجَرَّدْتَ عَنِ ٱلْإِرَادَةِ. لَوَصَلْتَ إِلَى رُتْبَةِ ٱلسِّيَادَةِ. وَلَوْ مِلْتَ عَنْ هَوَاكَ لَمَالَ بِكَ إِلَيْهِ. وَلَوْ فَارَقْتَ أَبَاكَ لَجَمَعَكَ عَلَيْهِ. وَلَوْ بَعُدَ عَنْكَ لَوَجَدْتَ ٱلزُّلْفَى لَدَيْهِ. وَلٰكِنَّكَ مَسْجُونٌ فِي سِجْنِ طَبْعِكَ. مُقَيَّدٌ بِقَيْدِ مَأْلُوفِكَ. مُتَشَاغِلٌ بِشَوَاغِلِ نَفْسِكَ. مُتَعَلِّقٌ بِحِبَالِ خَيَالِ حِسِّكَ. قَدْ أَزْمَنَتْكَ بُرُودَةُ عَزْمِكَ وَأَحْرَقَتْكَ حَرَارَةُ حِرْصِكَ. وَأَثْقَلَتْكَ تُخَمَةُ بَطَرِكَ. وَٱسْتَعْمَتْكَ عُفُونَةُ رُعُونَتِكَ. وَبَرْسَمَتْكَ وَسَاوِسُ شَهْوَتِكَ. فَأَنْتَ بَارِدُ ٱلْهِمَّةِ. مُقْعَدُ ٱلْعَزْمَةِ. جَامِدُ ٱلْفِكْرَةِ. فَاسِدُ ٱلْفِطْرَةِ. كَثِيرُ

١٤٢ ـــــــ

أتغير عن عادتي. ولا أقطع عنهم مادتي. أطرد فأعود. وأضرب ولست بالجحود. وأنا حافظ للود باق على العهود. أقوم إذا كان الأنام رقود. وأصوم والخوان ممدود. وليس لي مال معدود. ولا سماط ممدود. ولا رباط معهود. ولا مقام محمود. إن أعطيت شكرت. وإن منعت صبرت. لا أرى في الآفاق شاكيا. ولا على ما فات باكيا. إن مرضت فلا أعاد. وإن مت فلا أحمل على أعواد. وإن غبت فلا يقال ليته عاد. وإن فقدت فلا تبكيني الأولاد. وإن سافرت فلا أستصحب الزاد. لا مال لي يورث. ولا عقار فيحرث. إن فقدت فلا يبكى علي. وإن وجدت فلا ينظر إلي. وأنا مع ذلك أحوم حول حماهم. وأدوم على وفاهم. عاكف على مزابلهم. قانع بطلهم دون وابلهم. فإن أعجبك خلالي فتمسك بأذيالي. وتعلق بحبالي. وإن أردت وفاقي. فتخلق بأخلاقي:

وتعلم حفظ المودة مني ... وتمسك إلى العلى بحبالي
أنا كلب حقير قدر ولكن ... لي قلب خال من الإدغال
أحفظ الجار في الجوار ودأبي ... أن أحامي عليهم في الليالي
وتراني في كل عسر ويسر ... صابرا شاكرا على كل حال
لا يبالي علي إن مت جوعا ... أو سقتني الأيام مر النكال
لا يراني الإله أشكو لخلق ... إذ على الله في الأمور اتكالي.
أحمل الضيم فيه صونا لعرضي ... وفرارا من مر ذل السؤال

فَخِلَالِي عَلَى خَسَاسَةِ قَدْرِي فِي ٱلْمَعَالِي يَفُقْنَ كُلَّ خِلَالِ

اشارة الجمل

١٤٠ فَقَالَ ٱلْجَمَلُ: أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلسُّلُوكِ. إِلَى مَنَازِلِ ٱلْمُلُوكِ. إِنْ كُنْتَ تَعَلَّمْتَ مِنَ ٱلْكَلْبِ زُهْدًا وَفَقْرًا. فَتَعَلَّمْ مِنِّي جَلَدًا وَصَبْرًا. فَإِنَّ مَنْ تَوَسَّدَ ٱلْفَقْرَ. وَجَبَ عَلَيْهِ مُعَانَقَةُ ٱلصَّبْرِ. فَإِنَّ ٱلْفَقِيرَ ٱلصَّابِرَ. مَعْدُودٌ مِنَ ٱلْأَكَابِرِ. هَا أَنَا أَحْمِلُ ٱلْأَحْمَالَ ٱلثِّقَالَ. وَأَقْطَعُ ٱلْمَرَاحِلَ ٱلطِّوَالَ. وَأُكَابِدُ ٱلْأَهْوَالَ. وَأَصْبِرُ عَلَى مُرِّ ٱلنَّكَالِ. وَلَا يَعْتَرِينِي فِي ذٰلِكَ مَلَالٌ. وَلَا أُصُولُ صَوْلَةَ ٱلْأَرْذَالِ. بَلْ أَنْقَادُ لِلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ. وَلَوْ شِئْتُ لَٱسْتَصْعَبْتُ عَلَى ٱلْأَمِيرِ ٱلْكَبِيرِ. فَأَنَا ٱلذَّلُولُ. ٱلَّذِي لِلْأَثْقَالِ حَمُولٌ. وَفِي ٱلْأَحْمَالِ ذَمُولٌ. وَلَسْتُ بِٱلْخَائِنِ وَلَا بِٱلْمَلُولِ. وَلَا بِٱلصَّائِلِ عَنِ ٱلْمَصُولِ. وَلَا بِٱلْمَائِلِ عَنِ ٱلْقَفُولِ. أَقْطَعُ فِي ٱلْوُحُولِ. مَا تَعْجِزُ عَنْهُ ٱلصَّنَادِيدُ ٱلْفُحُولُ. وَأَصَابِرُ فِي ظَمَإِ ٱلْهَوَاجِرِ وَفِي ٱلْحَاجِرِ لَا أَحُولُ. فَإِذَا قَضَيْتُ حَقَّ صَاحِبِي. وَبَلَغْتُ مَأْرَبِي. أَلْقَيْتُ حَبْلِي عَلَى غَارِبِي. وَذَهَبْتُ فِي ٱلْبَوَادِي. أَكْتَسِبُ مِنَ ٱلْمُبَاحِ زَادِي. وَإِنْ سَمِعْتُ صَوْتَ ٱلْحَادِي. سَلَّمْتُ إِلَيْهِ قِيَادِي. وَأَوْصَلْتُ فِيهِ سُهَادِي. وَمَدَدْتُ عُنُقِي لِبُلُوغِ مُرَادِي. فَإِنْ ضَلَلْتُ فَٱلدَّلِيلُ هَادِي. وَإِنْ زَلَلْتُ أَخَذَ بِيَدِي مَنْ إِلَيْهِ ٱنْقِيَادِي. فَأَنَا ٱلْمُسَخَّرُ لَكُمْ بِإِشَارَةِ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ. فَلَا أَزَالُ بَيْنَ رِحْلَةٍ وَمُقَامٍ. حَتَّى أَصِلَ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْمَقَامِ

اشارة الفرس

١٤١ فَقَالَ ٱلْفَرَسُ أَيُّهَا ٱلْفَقِيرُ ٱلصَّابِرُ. ٱلطَّالِبُ سُبُلَ ٱلْمَآثِرِ. تَعَلَّمْ مِنِّي حُسْنَ ٱلْأَدَبِ. وَصِدْقَ ٱلطَّلَبِ. لِبُلُوغِ ٱلْأَرَبِ. هَا أَنَا أَحْمِلُ مُبَاهِلِيَّ. عَلَى كَاهِلِي. فَأَجْتَهِدُ فِي ٱلسَّيْرِ. وَأَنْطَلِقُ بِهِ كَٱلطَّيْرِ. أَهْجُمُ هُجُومَ ٱللَّيْلِ. وَأَقْتَحِمُ ٱقْتِحَامَ ٱلسَّيْلِ. فَإِنْ كَانَ طَالِبًا أَدْرَكَ بِي طَلَبَهُ. وَبَلَغَ بِي أَرَبَهُ. وَإِنْ كَانَ مَطْلُوبًا قَطَعْتُ عَنْ طَالِبِهِ سَبَبَهُ. وَجَعَلْتُ أَسْبَابَ ٱلرَّدَى عَنْهُ مُحْجَبَةً. فَلَا يُدْرِكُنِي إِلَّا ٱلْغُبَارُ. وَلَا يَسْمَعُ عَنِّي إِلَّا ٱلْأَخْبَارُ. فَإِنْ كَانَ ٱلْجَمَلُ هُوَ ٱلصَّابِرَ ٱلْمُجَرَّبَ. فَأَنَا ٱلشَّاكِرُ ٱلْمُقَرَّبُ. وَإِنْ كَانَ هُوَ ٱلْمُقْتَصِدَ ٱللَّاحِقَ. فَأَنَا ٱلْمُجْتَهِدُ ٱلسَّابِقُ. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ ٱللِّقَا. وَأَوَانُ ٱلْمُلْتَقَى. أَقْدَمْتُ إِقْدَامَ ٱلْوَالِهِ. وَسَبَقْتُ ضَرْبَ نِبَالِهِ. وَذَاكَ مُتَخَلِّفٌ لِثِقَلِ أَحْمَالِهِ. مُعَاقٌ لِتَفْتِيشِ مَا فِي رِحَالِهِ. وَرَأَيْتُ ثَمَّ حُقُوقًا لَا يَسْتَوْفِيهَا إِلَّا كُلُّ مُوَفٍّ. وَطَرِيقًا لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا كُلُّ مُخِفٍّ. فَلِذَلِكَ شَمَّرْتُ عَنْ سَاقٍ. وَتَضَمَّرْتُ لِيَوْمِ ٱلسِّبَاقِ. وَقُلْتُ لِمَنْ أَسْكَرَهُ ٱلطَّيْشُ فَمَا أَفَاقَ. وَغَرَّهُ ٱلْعَيْشُ ٱلَّذِي قَدْ رَاقَ: مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ ٱللهِ بَاقٍ. فَيَا مَنْ هُوَ عَنِ ٱلْمُرَادِ مَرْدُودٌ. وَفِي ٱلطِّرَادِ مَطْرُودٌ. هَلَّا نَظَرْتَ إِلَى ٱلْوُجُودِ. وَفَهِمْتَ ٱلْمَقْصُودَ. وَأَقَمْتَ عَلَى نَفْسِكَ ٱلْحُدُودَ. وَأَوْثَقْتَ جَوَارِحَكَ بِٱلْقُيُودِ. وَذَكَرْتَ ٱلْأَجَلَ ٱلْمَحْدُودَ. وَٱلنَّفَسَ ٱلْمَعْدُودَ. وَخَشِيتَ ٱلْيَوْمَ ٱلْمَوْعُودَ. هَا أَنَا لَمَّا أَوْثَقَ سَانِسِي قَيْدِي. أَمِنَ قَائِدِي كَيْدِي. فَكَمْ أَكَلَ سَائِقِي مِنْ صَيْدِي.

١٤٦ ـــــــ

نَسْلِي . وَحَصَلَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَصْلِ وَصْلِي . فَأَنْظُرُ فِي يَوْمِ مِيلَادِي . فَلَا أَرَى لِي أَبًا وَلَا أُمًّا . وَلَا خَالًا وَلَا عَمًّا . فَتَكْتَنِفُنِي أَيْدِي ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ . بِٱلتَّرْبِيَةِ فِي ٱلصَّبَاحِ وَٱلْمَسَاءِ . وَأُحْمَى عَنْ تَخَالِيطِ ٱلْأَغْذِيَةِ حَائِدًا . وَلَا أُطْعَمُ إِلَّا غِذَاءً وَاحِدًا . فَإِذَا تَمَّ حَوْلِي . وَبَدَتْ قُوَّتِي وَحَوْلِي . بَادَرْتُ إِلَى شُكْرِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيَّ . وَمُكَافَأَةِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ . فَأَشْرَعُ فِي عَمَلِ مَا يَصْلُحُ لِلْإِنْسَانِ . قِيَامًا بِمَأْمُورِ : هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ . فَأَبْتَدِرُ مِنْ غَيْرِ دَعْوَى . وَلَا إِظْهَارِ شَكْوَى . فَأَنْسُجُ بِإِلْهَامِ ٱلتَّقْدِيرِ . مَا يَعْجِزُ عَنْهُ أَهْلُ ٱلتَّدْبِيرِ . فَأَسْبِلُ مِنْ لُعَابِي . مَا أُشْكَرُ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَهَابِي . وَأَسْتَخْرِجُ مِنْ صَنْعَةِ صَانِعِي مَلَابِسَ . تُزَيِّنُ ٱللَّابِسَ . فَٱلْمُلُوكُ تَفْتَخِرُ بِخَزِّي . وَٱلسَّلَاطِينُ تَتَنَافَسُ فِي أَرْدِيَةِ قَزِّي . فَأَنَا أَجْمَلُ ٱلْمَطَارِفِ . وَأَرْهَجُ ٱلزَّخَارِفِ . فَإِذَا كَافَيْتُ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ . وَأَدَّيْتُ شُكْرَ مَا وَجَبَ لَهُ عَلَيَّ . جَعَلْتُ بَيْتِيَ ٱلْمَنْسُوجَ قَبْرِي . وَفِي طَيِّهِ نَشْرِي . فَأَضِيقُ عَلَيَّ حَبْسِي . وَأُهْلِكُ نَفْسِي بِنَفْسِي . وَأَمْضِي إِلَى رَمْسِي . كَمُضِيِّ أَمْسِي . فَأَنَا ٱلَّذِي أَجُودُ بِخَيْرِي . وَأُبَالِغُ فِي نَفْعِ غَيْرِي . وَأَنَا ٱلْمُعَذَّبَةُ بِضَيْرِي . ثُمَّ مِنْ نَكَدِ هٰذِهِ ٱلدَّارِ . ٱلْمَجْبُولَةِ عَلَى ٱلْأَكْدَارِ . أَنَّنِي ٱبْتُلِيتُ بِحَرِيقِ ٱلنَّارِ . وَحَسَدِ ٱلْجَارِ . وَقَدِ ٱعْتَدَى عَلَيَّ ظُلْمًا وَجَارَ . وَهُوَ هٰذِهِ ٱلْعَنْكَبُوتُ . ٱلْمَخْصُوصَةُ بِأَوْهَنِ ٱلْبُيُوتِ . تُجَاوِرُنِي وَتُجَاوِزُنِي . وَتَقُولُ : لِي نَسْجٌ وَلَكِ نَسِيجٌ . وَأَمْرِي وَأَمْرُكِ مَرِيجٌ . فَقُلْتُ لَهَا : وَيْحَكِ أَنْتِ تَنْسِجِينَ شَبَكَةَ ٱلذُّبَابِ . وَمَجْمَعُ

١٤٨ ـــــــ

ثُمَّ قُلْ يَا نَفْسِ هٰذَا بَيْتُ مَثْوَاكِ فَمُوتِي

اشارة النملة

١٤٤ فَقَالَتِ ٱلنَّمْلَةُ: إِذَا مَا رَمَاكَ ٱلدَّهْرُ بِرَمْيِ فَنَمْ لَهُ. وَتَعَلَّمْ مِنِّي قُوَّةَ ٱلِاسْتِعْدَادِ. وَتَحْصِيلَ ٱلزَّادِ. لِيَوْمِ ٱلْمَعَادِ. وَٱنْظُرْ إِلَى غُرَّةِ عَزْمِي. وَصِحَّةِ حَزْمِي. وَتَأَمَّلْ كَيْفَ شَدَّتْ يَدُ ٱلْقُدْرَةِ لِلْخِدْمَةِ وَسَطِي. فَأَوَّلُ مَا فَتَحَتْ عَيْنِي مِنَ ٱلْعَدَمِ. رَأَيْتُنِي وَاقِفَةً عَلَى ٱلْقَدَمِ. لِأَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْخَدَمِ. ثُمَّ كُلِّفْتُ بِجَمْعِ ٱلْمُؤْنَةِ. بِتَيْسِيرِ ٱلْمَعُونَةِ. ثُمَّ أُعْطِيتُ قُوَّةَ ٱلشَّمِّ مِنْ بُعْدِ ٱلْفَرَاسِخِ. مَا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْعَالِمُ ٱلرَّاسِخُ. فَأَدَّبَرُ مَا أَذْخَرُهُ مِنَ ٱلْحَبِّ لِقُوتِي. فِي بُيُوتِي. فَيُلْهِمُنِي فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَى. أَنْ أَقْسِمَ ٱلْحَبَّةَ نِصْفَيْنِ بِٱلسَّوَى. فَإِنْ كَانَتِ ٱلْحَبَّةُ كَزْبَرَةً. فَلَهَا حِكْمَةٌ مُدَبَّرَةٌ. وَهُوَ أَنْ أَفْلِقَهَا أَرْبَعَ فِلَقٍ فَإِنَّهَا إِذَا ٱنْفَلَقَتْ نِصْفَيْنِ نَبَتَتْ. وَإِنْ قُطِعَتْ أَرْبَعًا ٱنْقَطَعَتْ. وَإِنْ خِفْتُ عَلَيْهَا فِي ٱلشِّتَاءِ عُفُونَةَ ٱلْأَرْضِ أَنْ تَضُرَّهَا. أَخْرَجْتُهَا فِي يَوْمٍ شَامِسٍ فَتُجَفِّفُهُ ٱلشَّمْسُ بِحَرِّهَا. فَلَا يَزَالُ ذٰلِكَ دَأْبِي. وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ أَرْدَى بِي. وَتَعْتَقِدُهُ فِيَّ نَقْصًا. وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى ٱلدُّنْيَا وَحِرْصًا. كَلَّا كَلَّا لَوْ عَلِمْتَ حَقِيقَةَ أَمْرِي. لَأَقَمْتَ فِي ذٰلِكَ عُذْرِي. وَلَارْتَفَعَ عِنْدَكَ قَدْرِي. فَكُلُّ نَمْلَةٍ تَجْتَهِدُ فِي سَيْرِهَا. وَتَحْصِيلِ خَيْرِهَا. لِنَفْعِ غَيْرِهَا. مُتَعَرِّضَةً لِلْهَلَاكِ. وَمَصَايِدِ ٱلْأَشْرَاكِ. فَإِمَّا أَنْ تَهْلِكَ عَطَشًا أَوْ جُوعًا. أَوْ تَقَعَ فِي مَفَازَةٍ فَلَا تَجِدُ رُجُوعًا. تَخْتَطِفُهَا ذُبَابَةٌ. أَوْ تَطَأُهَا دَابَّةٌ. فَتُلْقِي مَا فِي أَيْدِيهَا بَيْنَ

أَيديهِنَّ . فتقسمهُ بالسَّويَّةِ عليهنَّ من غيرِ خُصوصٍ . ولا حظٍّ منقوصٍ

اشارة العنقاء

١٤٥ (قالَ الشَّيخُ) : لكُمُ البشارةُ . يا أهلَ الإشارةِ . إنْ فهمتُمْ رمزَ هذهِ العبارةِ . فأنصتوا بضربِ هذهِ الأمثالِ المستعارةِ . (قيلَ) اجتمعَ الطُّيورُ وقالوا : لابدَّ لنا من ملكٍ نعترفُ لهُ ونُعرفُ بهِ . فهلُمُّوا ننطلقُ في طلبهِ . ونستمسكُ بسببهِ . ونعيشُ في ظلِّهِ . ونعتصمُ بحبلِهِ . وقدْ بلغنا أنَّ بجزائرِ البحرِ ملكاً يقالُ لهُ عنقاءُ مُغربٍ . قدْ نفذَ حكمُهُ في المشرقِ والمغربِ . فهلُمُّوا بنا إليهِ . متوكلينَ عليهِ . فقيلَ لهمْ إنَّ البحرَ عميقٌ والطَّريقَ مضيقٌ . والسَّبيلَ سحيقٌ . وبينَ أيديكمْ جبالٌ شاهقةٌ . وبحارٌ مُغرقةٌ . ونيرانٌ محرقةٌ . ولا سبيلَ لكمْ إلى الاتِّصالِ . ولوْ تقطَّعتِ الأوصالُ . فدونَ وصالِهِ حدُّ النِّصالِ . فأقمنَ في أوكارِكنَّ . فإنَّ العجزَ من شانِكنَّ . والملكُ غنيٌّ عنكنَّ . وإنَّ اللهَ لغنيٌّ عنِ العالمينَ . قالوا : صدقتَ ولكنْ منادي الطَّلبِ ينادي : ففرُّوا إلى اللهِ . فطاروا بأجنحةِ : ويتفكَّرونَ في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ . صابرينَ على ظمإِ الهواجرِ . بإشارةِ : ومنْ يخرجْ من بيتهِ مهاجراً . فسلكنَ سبيلاً عدلاً . إنْ أخذنَ ذاتَ اليمينِ أرمتهنَّ برودةُ الرَّجاءِ . وإنْ عدلنَ ذاتَ الشِّمالِ أحرقتهنَّ حرارةُ الخوفِ . فهمْ بينَ سباقٍ . ولحاقٍ ومحاقٍ . وتلاشٍ واحتراقٍ . وتغاشٍ واستغراقٍ . وبعدٍ وافتراقٍ . حتَّى وصلَ كلٌّ منهمْ إلى جزيرةِ الملكِ وقدْ سقطَ ريشُهُ . وتكدَّرَ عيشُهُ .

وَتَضَاعَفَ نُحُولُهُ. وَتَزَايَدَ ذُبُولُهُ. فَوَصَلُوا إِلَيْهِ خِمَاصًا. بَعْدَ مَا كُنَّ بِطَانًا. وَجِئْنَهُ فُرَادَى بَعْدَ أَنْ فَارَقْنَ أَوْطَانًا. فَلَمَّا أَنْ وَصَلُوا إِلَى جَزِيرَةِ ٱلْمَلِكِ وَجَدُوا فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ. ثُمَّ قَالُوا: نَحْنُ لَا نُرِيدُ إِلَّا ٱلْمَلِكَ ٱلَّذِي خَرَجْنَا مِنْ أَجْلِهِ عَلَى ٱلْمَحَاجِرِ. وَقَطَعْنَا إِلَيْهِ كُلَّ حَاجِرٍ. وَصَبَرْنَا عَلَى ظَمَإِ ٱلْهَوَاجِرِ. ثُمَّ لَا نَشْتَغِلُ بِٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَفَاخِرِ. فَوَا ٱلَّذِي لَا إِلَاهَ إِلَّا هُوَ. لَا نُرِيدُ إِلَّا هُوَ. ثُمَّ قَالَ لَهُمُ ٱلْمَلِكُ: وَيْحَكُمْ لِأَيِّ شَيْءٍ جِئْتُمْ. وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَتَيْتُمْ. قَالُوا: أَتَيْنَاكَ بِذِلَّةِ ٱلْعَبِيدِ. وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ. فَقَالَ لَهُمْ: ٱرْجِعُوا مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ. فَأَنَا ٱلْمَلِكُ شِئْتُمْ أَوْ أَبَيْتُمْ. وَإِنَّ ٱللهَ لَغَنِيٌّ عَنْكُمْ. قَالُوا: سَيِّدِي أَنْتَ ٱلْغَنِيُّ وَنَحْنُ ٱلْفُقَرَاءُ. وَأَنْتَ ٱلْعَزِيزُ وَنَحْنُ ٱلْأَذِلَّاءُ. وَأَنْتَ ٱلْقَوِيُّ وَنَحْنُ ٱلضُّعَفَاءُ. فَبِأَيِّ قُوَّةٍ نَرْجِعُ وَقَدْ ذَهَبَ قُوَانَا. وَنَحِلَ عَرَانَا. وَٱضْمَحَلَّ وُجُودُنَا مِمَّا ٱعْتَرَانَا. فَقَالَ لَهُمُ ٱلْمَلِكُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي إِذَا صَحَّ ٱفْتِقَادُكُمْ. وَثَبَتَ ٱنْكِسَارُكُمْ. فَعَلَيَّ ٱنْجِبَارُكُمْ. إِنْطَلِقُوا فَدَاوُوا ٱلْعَلِيلَ. فِي ظِلِّيَ ٱلظَّلِيلِ. وَقِيلُوا فِي خَيْرِ مَقِيلٍ. فَحَصَلُوا حَيْثُ وَصَلُوا. فَلَمَّا حَضَرُوا نَظَرُوا. فَإِذَا ٱلْحُجُبُ قَدْ رُفِعَتْ. وَٱلْأَحْبَابُ قَدْ جُمِعَتْ. وَشَاهَدُوا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ:

يَا قَلْبُ بُشْرَاكَ أَيَّامُ ٱلرِّضَا رَجَعَتْ ... وَهٰذِهِ ٱلدَّارُ لِلْأَحْبَابِ قَدْ جَمَعَتْ
أَمَا تَرَى نَفَحَاتِ ٱلْحَيِّ قَدْ عَبَقَتْ ... أَنْفَاسُهَا وَبُرُوقَ ٱلْقُرْبِ قَدْ لَمَعَتْ
فَعِشْ هَنِيًّا بِوَصْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِلٍ ... مَعْ مَنْ تُحِبُّ وَحُجْبُ ٱلْهَجْرِ قَدْ رُفِعَتْ
وَٱنْظُرْ جَمَالَ ٱلَّذِي مِنْ أَجْلِ رُؤْيَتِهِ ... قُلُوبُ عُبَّادِهِ فِي حُبِّهِ ٱنْصَدَعَتْ

الباب السابع
في الذكاء والأدب

مدح مختلف العلوم

١٤٦ قد مدح أبو عثمان الجاحظ أنواع العلوم وذمها بأعيانها معربا عن قدرته على الكلام وبعد شأوه في البلاغة. وحين سئل عن الأثر فقال: هو أخبار الماضين. وأنباء الغابرين. وقصص المرسلين. وآداب الدنيا والدين. ومعرفة الفرض والنافلة والشريعة والسنة. والمصلحة والمفسدة والنار والجنة. إلى صاحبه تشد الرحال. وحوله يعتكف الرجال. ويسير به ذكره في البلدان. ويبقى اسمه على ممر الزمان. قيل: فالفقه. قال: فيه علم الحلال والحرام. وبه تعرف الشرائع وتقام الحدود والأحكام. وهو عصمة في الدنيا وزينة في الآخرة. يخطب لصاحبه فضل الأعمال. ويخلع عليه ثوب الجمال. ويلبسه الغنى ويبلغه مرتبة القضاء. قيل: فالكلام. قال: عيار كل صناعة. وزمام كل عبارة. وقسطاس يعرف به الفضل والرجحان. وميزان يعلم به الزيادة والنقصان. وكير يميز به الخاص والعام. والخالص والمشوب. ويعرف به الإبريز والستوق. وينظر به الصفو والكدر. وسلم يرتقى به إلى معرفة الصغير والكبير. ويوصل به إلى الحقير والخطير. وأداة للتفصيل والتحصيل. وإدراك الدقيق والجليل. وآلة

لإظهار الغامض المشتبه. وأداة لكشف الخفي الملتبس. وبه تعرف ربوبية الرب وحجة الرسل. ويحترز به من شبهات المقالات. وفساد التأويلات. وبه تدفع مضلات الأهواء والنحل. وتبطل تأويلات الأديان والملل. وينزه عن غباوة التقليد وغمة التردد. قيل: فالفلسفة. قال: أداة الضمائر وآلة الخواطر. ونتائج العقل وأدلة لمعرفة الأجناس والعناصر. وعلم الأعراض والجواهر. وعلل الأشخاص والصور. واختلاف الأخلاق والطبائع والسجايا والغرائز. قيل: فالنجوم. قال: معرفة الأهلة ومقادير الأظلة. وسموت البلدان. وإقدام الزوال في كل وقت وزمان. وعلم ساعات الليل والنهار في الزيادة والنقصان. وأمارات الغيوث والأمطار. وأوقات سلامة الزرع والثمار. قيل: فالطب. قال: سانس الأبدان. والمنبه على طبائع الحيوان. وبه يكون حفظ الصحة. ومرمة العلة. والوقوف على المنافع والمضار. والإبانة عن خبايا الأسرار. وعلم يضطر إليه الخاص والعام. ويفتقر إليه الناس والأنعام. ولا يستغني عنه الصغير والكبير. ويحتاج إليه الحقير والخطير. قيل: فالنحو. قال: يبسط من العي اللسان. ويجري من الحصر البيان. وبه يسلم من هجنة اللحن وتحريف القول. وهو آلة لصواب المنطق وتسديد كلام العرب. قيل: فالحساب. قال: علم طبيعي لا خلاف عليه. واضطراري لا مطعن فيه. ثابت الدلالة صائب المقالة. واضح البرهان شديد البنيان.

سَالِمٌ مِنَ ٱلْمُنَاقَضَةِ خَالٍ مِنَ ٱلْمُعَارَضَةِ. حَاكِمٌ يَقْطَعُ ٱلْخِلَافَ. مُؤَدٍّ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ وَٱلِٱنْتِصَافِ. وَبِهِ حِفْظُ ٱلْأَعْمَالِ. وَنِظَامُ ٱلْأَمْوَالِ. وَقِوَامُ أُمُورِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلتُّجَّارِ. وَثَبَاتُ قَوَانِينِ ٱلْبِلَادِ وَٱلْأَمْصَارِ. قِيلَ: فَٱلْعَرُوضُ. قَالَ: مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ وَعِيَارُ ٱلنَّظْمِ. وَرَائِضُ ٱلطَّبْعِ وَسَانِسُ ٱلْفَهْمِ. وَبِهِ يُعْرَفُ ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلْمَرِيضِ. وَفَلَكُ عَلَيْهِ مَدَارُ ٱلْقَرِيضِ. قِيلَ: فَٱلْخَطُّ. قَالَ: لِسَانُ ٱلْيَدِ وَلَهْجَةُ ٱلضَّمِيرِ. وَوَحْيُ ٱلْفِكْرِ وَنَاقِلُ ٱلْخَبَرِ. وَحَافِظُ ٱلْأَثَرِ. وَعُمْدَةُ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا. وَلِقَاحُ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى. فَهٰذَا آخِرُ مَا حُكِيَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ فِي مَدْحِ ٱلْعُلُومِ (طرائف اللطائف)

ابو تمام والمتنبي وابو عبادة البحتري

١٤٧ قَالَ ٱبْنُ ٱلْأَثِيرِ: لَقَدْ وَقَفْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى كُلِّ دِيوَانٍ وَمَجْمُوعٍ. وَأَنْفَدْتُ شَطْرًا مِنَ ٱلْعُمْرِ فِي ٱلْمَحْفُوظِ مِنْهُ وَٱلْمَسْمُوعِ. فَأَلْفَيْتُهُ بَحْرًا لَا يُوقَفُ عَلَى سَاحِلِهِ. وَكَيْفَ يَنْتَهِي إِحْصَاءُ قَوْلٍ لَمْ تُحْصَ أَسْمَاءُ قَائِلِهِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ ٱقْتَصَرْتُ مِنْهُ عَلَى مَا تَكْثُرُ فَوَائِدُهُ. وَتَتَشَعَّبُ مَقَاصِدُهُ. وَلَمْ أَكُنْ مِمَّنْ أَخَذَ بِٱلتَّقْلِيدِ وَٱلتَّسْلِيمِ. فِي ٱتِّبَاعِ مَنْ قَصَرَ نَظَرَهُ عَلَى ٱلشِّعْرِ ٱلْقَدِيمِ. إِذِ ٱلْمُرَادُ مِنَ ٱلشِّعْرِ إِنَّمَا هُوَ إِيدَاعُ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ. فِي ٱللَّفْظِ ٱلْجَزْلِ ٱللَّطِيفِ. فَمَتَى وَجَدْتُ ذٰلِكَ فَكُلُّ مَكَانٍ خَيَّمْتُ فَهُوَ بَابِلُ. وَقَدِ ٱكْتَفَيْتُ مِنْ هٰذَا بِشِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ وَأَبِي عِبَادَةَ ٱلْوَلِيدِ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي. وَهٰؤُلَاءِ ٱلثَّلَاثَةُ هُمْ لَاتُ ٱلشِّعْرِ وَعُزَّاهُ وَمَنَاتُهُ. ٱلَّذِينَ ظَهَرَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ حَسَنَاتُهُ وَمُسْتَحْسَنَاتُهُ. وَقَدْ حَوَتْ أَشْعَارُهُمْ

غَرَابَةَ ٱلْمُحْدَثِينَ وَفَصَاحَةَ ٱلْقُدَمَاءِ. وَجَمَعَتْ بَيْنَ ٱلْأَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ وَحِكْمَةِ ٱلْحُكَمَاءِ. أَمَّا أَبُو تَمَّامٍ فَإِنَّهُ رَبُّ مَعَانٍ. وَصَيْقَلُ أَلْبَابٍ وَأَذْهَانٍ. قَدْ شُهِدَ لَهُ بِكُلِّ مَعْنًى مُبْتَكَرٍ. لَمْ يَمْشِ فِيهِ عَلَى أَثَرٍ. فَهُوَ غَيْرُ مُدَافَعٍ عَنْ مَقَامِ ٱلْإِغْرَابِ. ٱلَّذِي بَرَزَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَضْرَابِ. وَلَقَدْ مَارَسْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كُلَّ أَوَّلٍ وَآخِرٍ. وَلَمْ أَقُلْ مَا أَقُولُهُ إِلَّا بِتَبْصِيرٍ. فَمَنْ حَفِظَ شِعْرَ ٱلرَّجُلِ وَكَشَفَ عَنْ غَامِضِهِ. وَرَاضَ فِكْرَهُ بِرَائِضِهِ. أَطَاعَتْهُ أَعِنَّةُ ٱلْكَلَامِ. وَكَانَ قَوْلُهُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ مَا قَالَتْهُ حَذَامِ. فَخُذْ مِنِّي فِي ذٰلِكَ قَوْلَ حَكِيمٍ. وَتَعَلَّمْ فَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ. وَأَمَّا أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَإِنَّهُ أَحْسَنَ فِي سَبْكِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى. وَأَرَادَ أَنْ يَشْعُرَ فَغَنَّى. وَلَقَدْ حَازَ طَرَفَيِ ٱلرِّقَّةِ وَٱلْجَزَالَةِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. فَبَيْنَا يَكُونُ فِي شَظَفٍ نَجْدٍ حَتَّى يَتَشَبَّثَ بِرِيفِ ٱلْعِرَاقِ. وَسُئِلَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي عَنْهُ وَعَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَعَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: أَنَا وَأَبُو تَمَّامٍ حَكِيمَانِ. وَٱلشَّاعِرُ ٱلْبُحْتُرِيُّ. وَلَعَمْرِي إِنَّهُ أَنْصَفَ فِي حُكْمِهِ. وَأَعْرَبَ فِي قَوْلِهِ هٰذَا عَنْ مَتَانَةِ عِلْمِهِ. فَإِنَّ أَبَا عِبَادَةَ أَتَى فِي شِعْرِهِ بِٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْدُودِ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ ٱلصَّمَّاءِ. فِي ٱللَّفْظِ ٱلْمَصُوغِ مِنْ سَلَاسَةِ ٱلْمَاءِ. فَأَدْرَكَ بِذٰلِكَ بُعْدَ ٱلْمَرَامِ. مَعَ قُرْبِهِ إِلَى ٱلْأَفْهَامِ. وَمَا أَقُولُ إِلَّا أَنَّهُ أَتَى فِي مَعَانِيهِ بِأَخْلَاطِ ٱلْغَالِيَةِ. وَرَقِيَ فِي دِيبَاجَةِ لَفْظِهِ إِلَى ٱلدَّرَجَةِ ٱلْعَالِيَةِ. وَأَمَّا أَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ أَبِي تَمَّامٍ فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَاهُ. وَلَمْ يُعْطِهِ ٱلشِّعْرُ مِنْ قِيَادِهِ مَا أَعْطَاهُ. وَلٰكِنَّهُ حَظِيَ فِي شِعْرِهِ بِٱلْحِكَمِ وَٱلْأَمْثَالِ. وَٱخْتَصَّ

بالإبداع في وصف مواقف القتال. وأنا أقول قولًا لست فيه متأثمًا. ولا منه متلثمًا. وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها. وأشجع من أبطالها. وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها. حتى تظن الفريقين قد تقابلا. والسلاحين قد تواصلا. وطريقه في ذلك تضل بسالكه. وتقوم بعذر تاركه. ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أداه إليه عيانه. ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين فيه عن السنن المتوسط. فإما مفرط في وصفه وإما مفرط. وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذره. فإن سعادة الرجل كانت أكثر من شعره. وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء. ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء. ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة:

لا تطلبن كريمًا بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدًا ختموا
ولا تبالِ بشعرٍ بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى. وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى. وجدته أقسامًا خمسة. خمس منها في الغاية التي انفرد بها. وخمس من جيد الشعر الذي يشاركه فيه غيره. وخمس منه من متوسط الشعر. وخمس دون ذلك. وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها. وعدمها خير من وجودها. ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها. فإنها هي التي ألبسته لباس

ٱلْمَلَام . وَجَعَلَتْ عِرْضَهُ شَارَةً لِسِهَامِ ٱلْأَقْوَامِ . وَلِسَائِلٍ هُنَا أَنْ يَسْأَلَ وَيَقُولَ : لِمَ عَدَلْتَ إِلَى شِعْرِ هٰؤُلَاءِ ٱلثَّلَاثَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ . فَأَقُولُ : إِنِّي لَمْ أَعْدِلْ إِلَيْهِمِ ٱتِّفَاقًا وَإِنَّمَا عَدَلْتُ نَظَرًا وَٱجْتِهَادًا . وَذٰلِكَ أَنِّي وَقَفْتُ عَلَى أَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ دِيوَانُ شَاعِرٍ مُفْلِقٍ يَثْبُتُ شِعْرُهُ عَلَى ٱلْمَحَكِّ إِلَّا وَعَرَضْتُهُ عَلَى نَظَرِي . فَلَمْ أَجِدْ أَجْمَعَ مِنْ دِيوَانِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ لِلْمَعَانِي ٱلدَّقِيقَةِ وَلَا أَكْثَرَ ٱسْتِخْرَاجًا مِنْهُمَا لِلطِّيفِ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلْمَقَاصِدِ . وَلَمْ أَجِدْ أَحْسَنَ تَهْذِيبًا لِلْأَلْفَاظِ مِنْ أَبِي عِبَادَةَ وَلَا أَنْفَسَ دِيبَاجَةً وَلَا أَبْهَجَ سَبْكًا . فَٱخْتَرْتُ دَوَاوِينَهُمْ لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى مَحَاسِنِ ٱلطَّرَفَيْنِ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ . وَلَمَّا حَفِظْتُهَا أَلْقَيْتُ مَا سِوَاهَا مَعَ مَا بَقِيَ عَلَى خَاطِرِي مِنْ غَيْرِهَا (المثل السائر لابن الاثير)

وصف القلم

١٤٨ قَالُوا : ٱلْقَلَمُ أَحَدُ ٱللِّسَانَيْنِ وَهُوَ ٱلْمُخَاطِبُ لِلْغُيُوبِ . بِسَرَائِرِ ٱلْقُلُوبِ . عَلَى لُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ مَعَانٍ مَعْقُولَةٍ . بِحُرُوفٍ مَعْلُولَةٍ . مُتَبَايِنَاتِ ٱلصُّوَرِ مُخْتَلِفَاتِ ٱلْجِهَاتِ . لِقَاحُهَا ٱلتَّفْكِيرُ وَنِتَاجُهَا ٱلتَّدْبِيرُ . تَخْرُسُ مُنْفَرِدَاتٍ . وَتَنْطِقُ مُزْدَوِجَاتٍ . بِلَا أَصْوَاتٍ مَسْمُوعَةٍ وَلَا أَلْسُنٍ مَحْدُودَةٍ وَلَا حَرَكَاتٍ ظَاهِرَةٍ . خَلَا قَلَمٍ حَرَفَ بَارِيهِ . قِطَّتُهُ لِيَتَعَلَّقَ ٱلْمِدَادُ فِيهِ وَأَرْهَفَ جَانِبَيْهِ لِيَرُدَّ مَا ٱنْتَشَرَ عَنْهُ إِلَيْهِ وَشَقَّ رَأْسَهُ لِيَحْتَبِسَ ٱلْمِدَادُ عَلَيْهِ . فَهُنَالِكَ ٱسْتَمَدَّ ٱلْقَلَمُ بِشَقِّهِ وَنَثَرَ فِي ٱلْقِرْطَاسِ بِخَطِّهِ حُرُوفًا أَحْكَمَهَا ٱلتَّفَكُّرُ وَأَوْلَى ٱلْأَسْمَاعَ بِهَا ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي سَدَادُهُ ٱلْعَقْلُ وَأَلْحَمَهُ

١٥٨ ـــــــ

١٥١ قصيدة ابن البوّاب في وصف صناعة الخطّ

يَا مَنْ يُرِيدُ إِجَادَةَ ٱلتَّحْرِيرِ ... وَيَرُومُ حُسْنَ ٱلْخَطِّ وَٱلتَّصْوِيرِ
إِنْ كَانَ عَزْمُكَ فِي ٱلْكِتَابَةِ صَادِقًا ... فَٱرْغَبْ إِلَى مَوْلَاكَ فِي ٱلتَّيْسِيرِ
أَعْدِدْ مِنَ ٱلْأَقْلَامِ كُلَّ مُثَقَّفٍ ... صُلْبٍ يَصُوغُ صِيَاغَةَ ٱلتَّحْبِيرِ
وَإِذَا عَمَدتَ لِبَرْيِهِ فَتَوَخَّهُ ... عِنْدَ ٱلْقِيَاسِ بِأَوْسَطِ ٱلتَّقْدِيرِ
أَنْظُرْ إِلَى طَرَفَيْهِ فَٱجْعَلْ بَرْيَهُ ... مِنْ جَانِبِ ٱلتَّدْقِيقِ وَٱلتَّحْصِيرِ
وَٱجْعَلْ لِخِلْقَتِهِ قَوَامًا عَادِلًا ... يَخْلُو عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلتَّقْصِيرِ
وَٱلشَّقُّ وَسْطَهُ لِيَبْقَى بَرْيُهُ ... مِنْ جَانِبَيْهِ مُشَاكِلَ ٱلتَّقْدِيرِ
حَتَّى إِذَا أَتْقَنْتَ ذٰلِكَ كُلَّهُ ... إِتْقَانَ طَبٍّ بِٱلْمُرَادِ خَبِيرِ
فَٱصْرِفْ لِرَأْيِ ٱلْقَطِّ عَزْمَكَ كُلَّهُ ... فَٱلْقَطُّ فِيهِ جُمْلَةُ ٱلتَّدْبِيرِ
لَا تَطْمَعَنْ فِي أَنْ أَبُوحَ بِسِرِّهِ ... إِنِّي أَضَنُّ بِسِرِّهِ ٱلْمَسْتُورِ
لٰكِنَّ جُمْلَةَ مَا أَقُولُ بِأَنَّهُ ... مَا بَيْنَ تَحْرِيفٍ إِلَى تَدْوِيرِ
وَأَلِقْ دَوَاتَكَ بِٱلدُّخَانِ مُدَبَّرًا ... بِٱلْخَلِّ أَوْ بِٱلْحِصْرِمِ ٱلْمَعْصُورِ
وَأَضِفْ إِلَيْهِ مُغْرَةً قَدْ صُولَتْ ... مَعَ أَصْفَرِ ٱلزِّرْنِيخِ وَٱلْكَافُورِ
حَتَّى إِذَا مَا خُمِّرَتْ فَٱعْمِدْ إِلَى ٱلْـ ... ـوَرَقِ ٱلنَّقِيِّ ٱلنَّاعِمِ ٱلْمَخْبُورِ
فَٱكْبِسْهُ بَعْدَ ٱلْقَطْعِ بِٱلْمِعْصَارِ كَيْ ... يَنْأَى عَنِ ٱلتَّشْعِيثِ وَٱلتَّغْبِيرِ
ثُمَّ ٱجْعَلِ ٱلتَّمْثِيلَ دَأْبَكَ صَابِرًا ... مَا أَدْرَكَ ٱلْمَأْمُولَ مِثْلُ صَبُورِ
إِبْدَأْ بِهِ فِي ٱللَّوْحِ مُنْتَضِيًا لَهُ ... عَزْمًا تُجَرِّدُهُ عَنِ ٱلتَّشْمِيرِ
لَا تَخْجَلَنَّ مِنَ ٱلرَّدِيِّ تَخُطُّهُ ... فِي أَوَّلِ ٱلتَّمْثِيلِ وَٱلتَّسْطِيرِ

فَٱلْأَمْرُ يَصْعُبُ ثُمَّ يَرْجِعُ هَيِّنًا وَلَرُبَّ سَهْلٍ جَاءَ بَعْدَ عَسِيرِ
حَتَّى إِذَا أَدْرَكْتَ مَا أَمَّلْتَهُ أَصْبَحْتَ رَبَّ مَسَرَّةٍ وَحُبُورِ
فَٱشْكُرْ إِلٰهَكَ وَٱتَّبِعْ رِضْوَانَهُ إِنَّ ٱلْإِلٰهَ يُحِبُّ كُلَّ شَكُورِ
وَٱرْغَبْ لِكَفَّكَ أَنْ تَخُطَّ بَنَانُهَا خَيْرًا تُخَلِّفُهُ بِدَارِ غُرُورِ
فَجَمِيعُ فِعْلِ ٱلْمَرْءِ يَلْقَاهُ غَدًا عِنْدَ ٱلْتِقَاءِ كِتَابِهِ ٱلْمَنْشُورِ

في الادب وتربية الصغار

١٥٢ كَتَبَ أَبُو ٱلْفَضْلِ هِبَةُ ٱللهِ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ مُدَرِّسِ ٱبْنِهِ :

أَبَا عَلِيٍّ هُوَ ٱلدَّهْرُ ٱلْخَؤُونُ وَمَا يَحْظَى بِجِدْوَاهُ إِلَّا ٱلْجَاهِلُ ٱلْغُمُرُ
إِنِّي لَأَشْكُرُ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ حَتَّى أُرَى وَبِهِ أَسْمُو وَأَفْتَخِرُ
وَلَوْ أَرَدْتُ مُكَافَاةً عَلَى مِنَنٍ أَسْدَيْتَهَا لَتَقَضَّى دُونَهَا ٱلْعُمُرُ
عَهِدْتُ فَضْلَكَ لَا يَحْتَاجُ تَذْكِرَةً وَحُسْنَ رَأْيِكَ مَا فِي نَفْعِهِ ضَرَرُ
رَاجِعْ سَدَادَكَ فِيهِ فَهْوَ إِنْ سَمَحَتْ بِهِ ٱللَّيَالِي عَلَى أَحْدَاثِهَا وَزَرُ
وَٱحْفَظْ لَهُ حَقَّ آبَاءٍ وَمَعْرِفَةٍ مَضَتْ بِتَأْكِيدِهَا ٱلْأَيَّامُ وَٱلْعُصُرُ
وَأَوْلِهِ مِنْكَ قِسْطًا مِنْ مُلَاحَظَةٍ فَمَا يُرَى لَكَ فِي إِهْمَالِهِ عُذُرُ
فَإِنَّهُ نَبْعَةٌ طَابَتْ مَنَابِتُهُ صُلْبٌ عَلَى ٱلْعُجْمِ مَا فِي عُودِهِ خَوَرُ
مُغْرًى بِمَا زَادَ فِي قَدْرٍ وَمَنْزِلَةٍ وَمَا تَبَدَّى لَهُ فِي خَدِّهِ شَعَرُ
دَلَائِلُ مُخْبِرَاتٌ عَنْ نَجَابَتِهِ كَٱلنَّارِ تُخْبِرُ عَنْ ضَوْضَائِهَا ٱلشَّرَرُ
مِنْ مَعْشَرٍ حَلَّتِ ٱلْعَلْيَاءُ بَيْنَهُمُ يُعَدُّ شُكْرُهُمُ فَخْرًا إِذَا شَكَرُوا

١٥٣ قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ فِي تَرْبِيَةِ ٱلْوَلَدِ : أَحْسِنْ آدَابَهُمْ . وَٱجْعَلِ

الخير دابهم . وخف عليهم من إشفاقك وحنانك . أكثر من غلظة جنانك . واكتم عنهم ميلك . وأفض فيهم جودك ونيلك . وأثبهم على حسن الجواب . وسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب . وعلمهم الصبر على الضرائر . والمهلة عند استخفاف الجرائر . وخذهم بحسن السرائر . وحبب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس . وحسن الاصطناع والاحتراس . والاستكثار من أولي المراتب والعلوم . والسياسات والحلوم . والمقام المعلوم . وكره إليهم مجالسة الملهين . ومصاحبة الساهين . جاهد أهواءهم عن عقولهم . وحذر الكذب على مقولهم . ورشحهم إذا آنست منهم رشدًا أو هديًا . وأرضهم من الموازرة والمشاورة ثديًا . لتمرنهم على الاعتياد وتحملهم على الازدياد . ورضهم رياضة الجياد . واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم . وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم . وتدارك الخلق الذميمة كل ما نجمت . واقذعها إذا هجمت . قبل أن يظهر تضعيفها . ويقوى ضعيفها :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

وإذا قدروا على التدبير . وتشوفوا للمحل الكبير . فإياك أن توطنهم في مكانك جهد إمكانك . وفرقهم في بلدانك تفريق عبدانك . واستعملهم في بعوث جهادك . والنيابة عنك في سبيل اجتهادك . وانظر إليهم بأعين الثقات . فإن عين الثقة . تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقة

(للمقري)

الباب الثامن
في السيف والقلم

١٥٤ فاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم: أنا أقتل بلا غرر. وأنت تقتل على خطر. وصريد الأقلام. أشد من صليل الحسام. فقال صاحب السيف: القلم خادم السيف إن تم مراده وإلا فإلى السيف معاده. أما سمعت قول أبي تمام:

السيف أصدق إنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

قال أبو الطيب المتنبي:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ... ألمجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به ... فإننا نحن للأسياف كالخدم

وقال ابن الرومي في تفضيل القلم على السيف:

لعمرك ما السيف سيف الكمي ... بأخوف من قلم الكاتب
له شاهد إن تأملته ... ظهرت على سره الغائب
أداة المنية في جانبيه ... فمن مثله رهبة الراهب
سنان المنية في جانب ... وحد المنية في جانب
ألم تر في صدره كالسنان ... وفي الرد كالمرهف القاضب

١٥٥ قال الصولي أنشدني طلحة بن عبيد الله في القلم:

وَإِذَا أَمَرَّ عَلَى ٱلْمَهَارِقِ كَفَّهُ ... بِأَنَامِلٍ يَحْمِلْنَ شَخْتًا مُرْهَفَا
مُتَقَاصِرًا مُتَطَاوِلًا وَمُفَصَّلًا ... وَمُوَصَّلًا وَمُشَتَّتًا وَمُؤَلَّفَا
تَرَكَ ٱلْعُدَاةَ رَوَاجِفًا أَحْشَاؤُهَا ... وَقِلَاعَهَا قُلَعًا هُنَالِكَ رُجَّفَا
كَٱلْحَيَّةِ ٱلرَّقْشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ ... يَسْتَنْزِلُ ٱلْأَرْوَى إِلَيْهِ تَلَطُّفَا
يَرْمِي بِهِ قَلَمًا يُجِحُّ لُعَابُهُ ... فَيَعُودُ سَيْفًا صَارِمًا وَمُثَقَّفَا

وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا مَحْمُودُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ:

أَخْرَسُ يُنْبِيكَ بِإِطْرَاقِهِ ... عَنْ كُلِّ مَا شِئْتَ مِنَ ٱلْأَمْرِ
يَذْرِي عَلَى قِرْطَاسِهِ دَمْعَةً ... يُبْدِي بِهَا ٱلسِّرَّ وَمَا يَدْرِي
يُرَى أَسِيرًا فِي دَوَاةٍ وَقَدْ ... أَطْلَقَ أَقْوَامًا مِنَ ٱلْأَسْرِ
أَخْرَقُ لَوْ لَمْ تَبْرِهِ لَمْ يَكُنْ ... يَرْشُقُ أَقْوَامًا وَلَمْ يُبْرِي
كَٱلْبَحْرِ إِذْ يَجْرِي وَكَٱللَّيْلِ إِذْ ... يَغْشَى وَكَٱلصَّارِمِ إِذْ يَفْرِي

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ جَرَّارٍ:

أَهْيَفُ مَمْشُوقٌ بِتَحْرِيكِهِ ... يَحُلُّ عَقْدَ ٱلسِّرِّ إِعْلَانُ
لَهُ لِسَانٌ مُرْهَفٌ حَدُّهُ ... مِنْ رِيقَةِ ٱلْكُرْسُفِ رَيَّانُ
تَرَى بَسِيطَ ٱلْفِكْرِ فِي نَظْمِهِ ... شَخْصًا لَهُ حَدٌّ وَجُثْمَانُ
كَأَنَّمَا يَسْحَبُ فِي إِثْرِهِ ... ذَيْلًا مِنَ ٱلْحِكْمَةِ سَحْبَانُ
لَوْلَاهُ مَا قَامَ مَنَارُ ٱلْهُدَى ... وَلَا سَمَا لِلْمُلْكِ دِيوَانُ

فصلٌ في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

١٥٦ إِعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَ كِلَاهُمَا آلَةٌ لِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ

بها على أمره. إلا أن الحاجة إلى السيف في أول الدولة ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم إذ القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني. والسيف شريك في المعونة. وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها ويقل أهلها بما نالهم من الهرم. فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها. كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها. فتكون للسيف مزية في الحالتين على القلم. ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأسنى إقطاعا. وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف. لأنه قد تمهد أمره ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام. والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة إلى تصريفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع غمودها. إلا إذا نابت نائبة أو دعت إلى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة إليها. فيكون أرباب الأقلام في هذه الحالة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة. وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر إليه تردادا. وفي خلواته نجيا. لأنه حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في أعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله. ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن ناظر السلطان حذرين على أنفسهم من بوادره. وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم

لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا الْفُرْسِ: أَخْوَفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا سَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ. سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَالسَّلَامُ (مقدمة ابن خلدون)

١٥٧ قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ:

إِنْ يَخْدُمِ الْقَلَمَ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ ... لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الْأُمَمُ
فَالْمَوْتُ وَالْمَوْتُ لَا شَيْءٌ يُقَابِلُهُ ... مَا زَالَ يَتْبَعُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
بِذَا قَضَى اللهُ لِلْأَقْلَامِ مُذْ بُرِيَتْ ... أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

١٥٨ قَالَ حَبِيبٌ فِي قَلَمِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزَّيَّاتِ وَأَحْسَنَ:

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِسِنَانِهِ ... تُصَابُ مِنَ الْمَرْءِ الْكُلَى وَالْمَفَاصِلُ
لَهُ الْجَلَوَاتُ اللَّاءُ لَوْلَا نَجِيُّهَا ... لَمَا احْتَفَلَتْ لِلْمُلْكِ تِلْكَ الْمَحَافِلُ
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ ... وَأَرْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ
لَهُ دِيَمَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقْعَهَا ... بِآثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ
فَصِيحٌ إِنِ اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ ... وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ
إِذَا امْتَطَى الْخَمْسَ اللِّطَافَ وَأُفْرِغَتْ ... عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهْيَ حَوَافِلُ
أَطَاعَتْهُ أَطْرَافُ الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ ... لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضَ الْخِيَامِ الْمَحَافِلُ
إِذَا اسْتَعْذَرَ الذِّهْنَ الذَّكِيُّ وَأَقْبَلَتْ ... أَعَالِيهِ فِي الْقِرْطَاسِ وَهْيَ أَسَافِلُ
وَقَدْ رَفَدَتْهُ الْخِنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ ... ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلُ
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهْوَ مُرْهَفٌ ... ضَنًى وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهْوَ نَاحِلُ

١٥٩ قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ:

إِذَا ٱفْتَخَرَ ٱلْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ وَعَدُّوهُ مِمَّا يُكْسِبُ ٱلْمَجْدَ وَٱلْكَرَمْ
كَفَى قَلَمُ ٱلْكُتَّابِ فَخْرًا وَرِفْعَةً مَدَى ٱلدَّهْرِ أَنَّ ٱللهَ أَقْسَمَ بِٱلْقَلَمْ

لِأَبِي ٱلْفَرَجِ بْنِ ٱلدَّهَّانِ

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا ٱلْأَقْلَامَ مِنْ قَصَبٍ ثُمَّ ٱسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ ٱلْمُنَيَّاتِ
نَالُوا بِهَا مِنْ أَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا مَا لَا يُنَالُ بِحَدِّ ٱلْمَشْرَفِيَّاتِ

في شرف الكتّاب

١٦٠ ٱلْكُتَّابُ عِمَادُ ٱلْمُلْكِ وَأَرْكَانُهُ. وَعُيُونُهُ ٱلْمُبْصِرَةُ وَأَعْوَانُهُ. وَبَهَاءُ ٱلدُّوَلِ وَنِظَامُهَا. وَرُؤُوسُ ٱلرِّئَاسَةِ وَقَوَامُهَا. مَلَابِسُهُمْ فَاخِرَةٌ. وَمَحَاسِنُهُمْ بَاهِرَةٌ. وَشَمَائِلُهُمْ لَطِيفَةٌ. وَنُفُوسُهُمْ شَرِيفَةٌ. مَدَارُ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ عَلَيْهِمْ. وَمَرْجِعُ ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلتَّدْبِيرِ إِلَيْهِمْ. بِهِمْ تُحَلَّى ٱلْعَوَاطِلُ. وَتَبْتَسِمُ ثُغُورُ ٱلْمَعَاقِلِ. مَجَالِسُهُمْ بِٱلْفَضَائِلِ مَعْمُورَةٌ. وَبِنَدَاهُمْ أَنْدِيَةُ ٱلْقَصَادِ مَغْمُورَةٌ. يَهْدُونَ إِلَى ٱلْأَسْمَاعِ أَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ. وَيُنْزِهُونَ ٱلْأَحْدَاقَ فِي حَدَائِقِ ٱلتَّوْشِيحِ وَٱلتَّوْشِيعِ. هُمْ أَهْلُ ٱلْبَرَاعَةِ وَٱللَّسَنِ. وَشِيمَتُهُمْ لَفُّ ٱلْقَبِيحِ وَنَشْرُ ٱلْحَسَنِ. يَمِيلُونَ إِلَى ٱلْقَوْلِ بِمُوجِبِ ٱلْمَدْحِ. وَلَا يَمِلُّونَ مِنْ مُرَاجَعَةِ ٱلرَّاغِبِينَ فِي ٱلْمَنْحِ. دَأْبُهُمُ ٱسْتِخْدَامُ ٱلنَّاسِ بِٱلْمَعْرُوفِ. وَعَدَمُ ٱلتَّوَرِّيَةِ عَنِ ٱلْعَانِي وَٱلْمَلْهُوفِ. يُجِلُّونَ ٱلْكَبِيرَ. وَيُبَجِّلُونَ ٱلصَّغِيرَ. وَلَا يُخِلُّونَ بِمُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ. لَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ رُجُوعٌ وَٱلْتِفَاتٌ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَقَدْ حَازُوا جَمِيعَ جَمِيلِ ٱلصِّفَاتِ:

كَتَبَتْ فَلَوْلَا أَنَّ هٰذَا مُحَلَّلٌ وَذَاكَ حَرَامٌ قِسْتُ خَطَّكَ بِٱلسِّحْرِ

فَإِنْ كَانَ زَهْرًا فَهُوَ صُنْعُ سَحَابَةٍ وَإِنْ كَانَ دُرًّا فَهُوَ مِنْ لُجَّةِ ٱلْبَحْرِ

بِأَيْدِيهِمْ أَقْلَامٌ . تَخْتَلِسُ بِلُطْفِهَا ٱلْأَحْلَامَ . صَافِيَةُ ٱلْجَوَاهِرِ . زَاهِيَةُ ٱلْأَزَاهِرِ . لَيِّنَةُ ٱلْأَعْطَافِ . نَاعِمَةُ ٱلْأَطْرَافِ . تَبْكِي وَهِيَ مُبْتَسِمَةٌ . وَتَسْكُتُ وَهِيَ بِمَا يُطْرِبُ ٱلسَّمْعَ مُتَكَلِّمَةٌ . قَدِ ٱعْتَدَلَتْ قُدُودُهَا . وَأَشْرَقَتْ فِي سَمَاءِ ٱلْبَرَاعَةِ سُعُودُهَا . أَسِنَّتُهَا مُرْهَفَةٌ . وَمَطَارِفُهَا مُفَوَّفَةٌ . تَجْتَهِدُ فِي خِدْمَةِ ٱلْبَارِي . وَتُبْدِي مِنْ دُرَرِهَا مَا يَفْضَحُ ٱلدَّرَارِي . تَمِيسُ فِي وَشْيِ أَبْرَادِهَا . وَتَشْرَحُ ٱلصُّدُورَ بِعُذُوبَةِ إِيرَادِهَا . نَشَأَتْ عَلَى شُطُوطِ ٱلْأَنْهَارِ . وَتَعَلَّمَتِ ٱللَّحْنَ مِنْ إِعْرَابِ ٱلْأَطْيَارِ . طَوِيلَةُ ٱلْأَنَابِيبِ . تَسْلُبُ ٱلْقُلُوبَ بِحُسْنِ ٱلْأَسَالِيبِ . تُدْهِشُ ٱلنَّاظِرَ وَتُخْجِلُ ٱلْعَامِلَ . وَلَا تَرْضَى بِٱمْتِطَاءِ غَيْرِ ٱلْأَنَامِلِ . ٱلشَّجَاعَةُ كَامِنَةٌ فِي مُهْجَتِهَا . وَٱلْفَصَاحَةُ جَارِيَةٌ عَلَى لَهْجَتِهَا . تَبْهَرُ بِٱلنَّضَارَةِ نَوَاظِرَ ٱلْبَهَارِ . وَتُطَرِّزُ بِٱللَّيْلِ أَرْدِيَةَ ٱلنَّهَارِ . إِنْ قَالَتْ لَمْ تَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلٍ . وَإِنْ صَالَتْ رَجَعَتِ ٱلسُّيُوفُ مُسْتَتِرَةً بِأَذْيَالِ ٱلْحَمَائِلِ . سَجَدَتْ لِلطِّرْسِ فَرُفِعَتْ إِلَى أَعْلَى ٱلرُّتَبِ . وَحَلَتْ وَسَبَقَتْ فَسُمِّيَتْ بِٱلْقَصَبِ (لكمال الدين الحلبي)

١٦١ إِعْتَمَدَ ٱبْنُ وَهْبٍ بِقَلَمٍ صُلْبٍ فَصَرَّ ٱلْقَلَمُ فِي يَدِهِ فَأَنْشَدَ :

إِذَا مَا ٱلْتَقَيْنَا وَٱنْتَضَيْنَا صَوَارِمًا يَكَادُ يُصِمُّ ٱلسَّامِعِينَ صَرِيرُهَا

تَسَاقَطَ فِي ٱلْقِرْطَاسِ مِنْهَا بَدَائِعٌ كَمِثْلِ ٱللَّآلِي نَظْمُهَا وَنَثِيرُهَا

تُقَوِّدُ أَبْيَاتَ ٱلْبَيَانِ بِفِطْنَةٍ وَيَكْشِفُ عَنْ وَجْهِ ٱلْبَلَاغَةِ نُورُهَا

تَظَلُّ ٱلْمَنَايَا وَٱلْعَطَايَا شَوَارِعًا تَدُورُ بِمَا شَاءَتْ وَتَمْضِي أُمُورُهَا

الباب التاسع
في اللطائف

وزير المأمون والشاعر

١٦٢ كَانَ أَبُو عَبَّادٍ الرَّازِيُّ وَزِيرُ الْمَأْمُونِ شَدِيدَ الْحِدَّةِ سَرِيعَ الْغَضَبِ . رُبَّمَا اغْتَاظَ مِنْ بَعْضِ مَنْ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَرَمَاهُ بِدَوَاتِهِ أَوْ شَتَمَهُ فَأَفْحَشَ . فَدَخَلَ إِلَيْهِ الْغَالِبِيُّ الشَّاعِرُ وَأَنْشَدَهُ :

لَمَّا أَنَخْنَا بِالْوَزِيرِ رِكَابَنَا مُسْتَعْصِمِينَ بِجُودِهِ أَعْطَانَا
ثَبَتَتْ رَحَا مُلْكِ الْإِمَامِ بِثَابِتٍ وَأَفَاضَ فِينَا الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَا
يَقْرِي الْوُفُودَ طَلَاقَةً وَسَمَاحَةً وَالنَّاكِثِينَ مُهَنَّدًا وَسِنَانَا
مَنْ لَمْ يَزَلْ لِلنَّاسِ غَيْثًا مُمْرِعًا مُتَخَرِّقًا فِي جُودِهِ مِعْوَانَا

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ فِي جُودِهِ وَقَفَ وَأَرْتَجَ عَلَيْهِ . وَصَارَ يُكَرِّرُ فِي جُودِهِ مِرَارًا . حَتَّى ضَجِرَ أَبُو عَبَّادٍ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ السَّوْدَاءُ فَقَالَ : يَا شَيْخُ قُلْ : قَرَّنَّا أَوْ صَفَعْنَا وَخَلَّصْنَا . فَضَحِكَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ بِالْمَجْلِسِ وَذَهَبَ غَيْظُهُ هُوَ أَيْضًا فَضَحِكَ مَعَ النَّاسِ . وَأَتَمَّ الْغَالِبِيُّ قَافِيَتَهُ بِقَوْلِهِ مِعْوَانَا . ثُمَّ وَصَلَهُ الْوَزِيرُ (لابن الطقطقي)

١٦٣ قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ فِي ظُلْمِ الدُّنْيَا :

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا بِتَقْدِيمِ جَاهِلٍ وَتَأْخِيرِ ذِي لُبٍّ فَأَبْدَتْ لِيَ الْعُذْرَا
بَنُو الْجَهْلِ أَبْنَائِي وَأَمَّا أُلُو النُّهَى فَإِنَّهُمُ أَبْنَاءُ ضَرَّتِيَ الْأُخْرَى

قَالَ آخَرُ فِي ٱلشُّكْرِ :

لَقَدْ أَضْحَتْ خِلَالُ أَبِي حُصَيْنٍ حُصُونًا فِي ٱلْمُلِمَّاتِ ٱلصِّعَابِ
كَسَانِي طَلَّ وَابِلِهِ وَآوَى غَرَائِبَ مَنْطِقِي بَعْدَ ٱغْتِرَابِ
وَكُنْتُ كَرَوْضَةٍ سُقِيَتْ سَحَابًا فَأَنْبَتَتْ بِٱلنَّسِيمِ عَلَى ٱلسَّحَابِ

قَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

إِذَا كُنْتَ مِنْ كُلِّ ٱلطِّبَاعِ مُرَكَّبًا فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ ٱلْقُلُوبِ حَبِيبُ

قَالَ آخَرُ فِي قِلَّةِ ٱلْمُرُوءَةِ :

مَرَرْتُ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَهْيَ تَبْكِي فَقُلْتُ لَهَا لِمَا تَبْكِي ٱلْفَتَاةُ
فَقَالَتْ كَيْفَ لَا أَبْكِي وَأَهْلِي جَمِيعًا دُونَ خَلْقِ ٱللهِ مَاتُوا

قَالَ ٱلْبَهَاءُ زُهَيْرٌ فِي ٱلْمَوَدَّةِ :

حَفِظْتُ لَكُمْ ذَاكَ ٱلْوِدَادَ وَصُنْتُهُ فَمَا هُوَ مَخْتُومٌ لَكُمْ بِخِتَامِ
فَلَا تُنْكِرُوا طِيبَ ٱلنَّسِيمِ إِذَا سَرَى إِلَيْكُمْ فَذَاكَ ٱلطِّيبُ فِيهِ سَلَامِي

مروان بن ابي حفصة وجعفر البرمكي

١٦٤ دَخَلَ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ عَلَى جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى فَأَنْشَدَهُ :

أَبَرَّ فَمَا تَرْجُو ٱلْجِيَادُ لِحَاقَهُ أَبُو ٱلْفَضْلِ سَبَّاقُ ٱلْأَضَامِيمِ جَعْفَرُ
وَزِيرٌ إِذَا نَابَ ٱلْخِلَافَةَ حَادِثٌ أَشَارَ بِمَا عَنْهُ ٱلْخِلَافَةُ تَصْدُرُ

فَقَالَ جَعْفَرٌ : أَنْشِدْنِي مَرْثِيَتَكَ فِي مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ فَأَنْشَدَهُ :

أَقَمْنَا بِٱلْيَمَامَةِ أَوْ نَسِينَا مُقَامًا لَا نُرِيدُ بِهِ زَوَالَا
وَقُلْنَا أَيْنَ نَذْهَبُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ ٱلنَّوَالُ فَلَا نَوَالَا

وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِمَعْنٍ إِلَى أَنْ زَارَ حُفْرَتَهُ عِيَالَا

حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْقَصِيدَةِ وَجَعْفَرٌ يُرْسِلُ دُمُوعَهُ عَلَى خَدَّيْهِ. فَقَالَ: هَلْ أَثَابَكَ عَلَى هٰذِهِ الْمَرْثِيَةِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَوُلْدِهِ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَلَوْ كَانَ مَعْنٌ حَيًّا ثُمَّ سَمِعَهَا مِنْكَ كَمْ كَانَ يُثِيبُكَ عَلَيْهَا. قَالَ: أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ. قَالَ: فَإِنَّا كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَرْضَى لَكَ بِذٰلِكَ وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ عَنْ مَعْنٍ رَحِمَهُ اللهُ بِالضِّعْفِ مِمَّا ظَنَنْتَهُ وَزِدْنَاكَ مِثْلَ ذٰلِكَ. فَاقْبِضْ مِنَ الْخَازِنِ أَلْفًا وَسِتَّمِائَةِ دِينَارٍ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ. فَقَالَ مَرْوَانُ يَذْكُرُ جَعْفَرًا وَمَا سَمَحَ بِهِ عَنْ مَعْنٍ:

نَفَحْتَ مُكَافِئًا عَنْ جُودِ مَعْنٍ لَنَا فِيمَا تَجُودُ بِهِ سِجَالَا
فَعَجَّلْتَ الْعَطِيَّةَ يَا ابْنَ يَحْيَى لِنَادِيهِ وَلَمْ تُرِدِ الْمِطَالَا
فَكَافَأَ عَنْ صَدَى مَعْنٍ جَوَادٌ بِأَجْوَدِ رَاحَةٍ بَذَلَتْ نَوَالَا
بَنَى لَكَ خَالِدٌ وَأَبُوكَ يَحْيَى بِنَاءً فِي الْمَكَارِمِ لَنْ يُنَالَا
كَأَنَّ الْبَرْمَكِيَّ لِكُلِّ مَالٍ تَجُودُ بِهِ يَدَاهُ يُفَادُ مَالَا

الصِّلات والصَّلاة

١٦٥ وَمِمَّا يُسْتَحْسَنُ مِنْ تَجْنِيسِ الصِّلَاتِ وَالصَّلَاةِ حِكَايَةُ أَحْمَدَ بْنِ الْمُدَبِّرِ. وَكَانَ إِذَا مَدَحَهُ شَاعِرٌ وَلَمْ يَرْضَ شِعْرَهُ قَالَ لِغُلَامِهِ: امْضِ بِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَا تُفَارِقْهُ حَتَّى يُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ ثُمَّ خَلِّهِ. فَتَحَامَاهُ الشُّعَرَاءُ إِلَّا الْأَفْرَادَ الْمُجِيدُونَ. فَجَاءَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الْبَصْرِيُّ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي النَّشِيدِ. فَقَالَ: أَعَرَفْتَ الشَّرْطَ. قَالَ: نَعَمْ وَأَنْشَدَ:

أَرَدْنَا فِي أَبِي حَسَنٍ مَدِيحًا ... كَمَا بِالْمَدْحِ تُنْجَعُ الْوُلَاةُ
فَقُلْنَا أَكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُرًّا ... وَمَنْ كَفَّاهُ دِجْلَةُ وَالْفُرَاتُ
فَقَالُوا يُقْبَلُ الْمَدَحَاتِ لَكِنْ ... جَوَائِزُهُ عَلَى الْمَدْحِ الصَّلَاةُ
فَقُلْتُ لَهُمْ وَمَا تُغْنِي صَلَاتِي ... عِيَالِي إِنَّمَا تُغْنِي الزَّكَاةُ
فَأَمَّا إِذْ أَبَى إِلَّا صَلَاتِي ... وَعَاقَتْنِي الْهُمُومُ الشَّاغِلَاتُ
فَيَأْمُرُ لِي بِكَسْرِ الصَّادِ مِنْهَا ... لَعَلِّي أَنْ تُنَشِّطَنِي الصِّلَاتُ
فَتَصْلُحُ لِي عَلَى هٰذَا حَيَاتِي ... وَيَصْلُحُ لِي عَلَى هٰذَا الْمَمَاتُ

فَضَحِكَ وَاسْتَظْرَفَهُ وَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ دِينَارٍ (للشريشي)

١٦٦ حَدَّثَ الصُّولِيُّ قَالَ: وُلِدَ لِلْهَادِي وَلَدٌ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ وَلِيَ الْخِلَافَةَ فَدَخَلَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فَأَنْشَدَهُ:

أَكْثَرَ مُوسَى غَيْظَ حُسَّادِهِ ... وَزَيَّنَ الْأَرْضَ بِأَوْلَادِهِ
وَجَاءَنَا مِنْ صُلْبِهِ سَيِّدٌ ... أَصْيَدُ فِي تَقْطِيعِ أَجْدَادِهِ
فَاكْتَسَتِ الْأَرْضُ بِهِ بَهْجَةً ... وَاسْتَبْشَرَ الْمُلْكُ بِمِيلَادِهِ
وَابْتَسَمَ الْمِنْبَرُ عَنْ فَرْحَةٍ ... عَلَتْ بِهَا ذِرْوَةُ أَعْوَادِهِ
كَأَنَّنِي بَعْدَ قَلِيلٍ بِهِ ... بَيْنَ مَوَالِيهِ وَقُوَّادِهِ
فِي مَحْفِلٍ تَخْفُقُ رَايَاتُهُ ... قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ بِأَجْنَادِهِ

فَأَمَرَ لَهُ مُوسَى بِأَلْفِ دِينَارٍ وَكَانَ سَاخِطًا عَلَيْهِ فَرَضِيَ عَنْهُ (الاغاني)

معن بن زائدة والثلاث جوار

١٦٧ كَانَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ فِي بَعْضِ صُيُودِهِ فَعَطِشَ فَلَمْ يَجِدْ مَعَ

غِلْمَانِهِ مَاءً. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلِكَ وَإِذَا بِثَلَاثِ جَوَارٍ قَدْ أَقْبَلْنَ حَامِلَاتٍ ثَلَاثَ قِرَبٍ فَسَقَيْنَهُ. فَطَلَبَ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ مَعَ غِلْمَانِهِ فَلَمْ يَجِدْهُ. فَدَفَعَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَشَرَةَ أَسْهُمٍ مِنْ كِنَانَتِهِ نُصُولُهَا مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَلٰكِنَّ لَمْ تَكُنْ هٰذِهِ الشَّمَائِلُ إِلَّا لِمَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ. فَلْتَقُلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُنَّ شَيْئًا مِنَ الْأَبْيَاتِ. فَقَالَتِ الْأُولَى:

يُرَكِّبُ فِي السِّهَامِ نُصُولَ تِبْرٍ ... وَيَرْمِي لِلْعِدَى كَرَمًا وَجُودَا
فَلِلْمَرْضَى عِلَاجٌ مِنْ جِرَاحٍ ... وَأَكْفَانٌ لِمَنْ سَكَنَ اللُّحُودَا

وَقَالَتِ الثَّانِيَةُ:

وَمُحَارِبٍ مِنْ فَرْطِ جُودِ بَنَانِهِ ... عَمَّتْ مَكَارِمُهُ الْأَقَارِبَ وَالْعِدَى
صِيغَتْ نُصُولُ سِهَامِهِ مِنْ عَنْجَدٍ ... كَيْ لَا يُفَوِّتَهُ التَّقَارُبُ وَالنَّدَى

وَقَالَتِ الثَّالِثَةُ:

وَمِنْ جُودِهِ يَرْمِي الْعُدَاةَ بِأَسْهُمٍ ... مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ صِيغَتْ نُصُولُهَا
لِيُنْفِقَهَا الْمَجْرُوحُ عِنْدَ دَوَائِهِ ... وَيَشْتَرِيَ الْأَكْفَانَ مِنْهَا قَتِيلُهَا

الحسين بن الضحاك عند المتوكل

١٦٨ حَدَّثَ الصُّولِيُّ قَالَ: كَانَ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الضَّحَّاكِ ابْنٌ يُسَمَّى مُحَمَّدًا لَهُ أَرْزَاقٌ فَمَاتَ فَقُطِعَتْ أَرْزَاقُهُ. فَقَالَ يُخَاطِبُ الْمُتَوَكِّلَ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَ أَرْزَاقَ ابْنِهِ الْمُتَوَفَّى لِزَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ:

إِنِّي أَتَيْتُكَ شَافِعًا بِوَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَا
وَشَبِيهُكَ الْمُعْتَزُّ أَوْ جَهُ شَافِعٍ فِي الْعَالَمِينَا

يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ الْأَوَّلِينَ وَيَا أَبَا الْمُتَأَخِّرِينَا
إِنَّ ابْنَ عَبْدِكَ مَاتَ وَالْأَيَّامُ تَحْتَرِمُ الْقَرِينَا
وَمَضَى وَخَلَّفَ صِبْيَةً بِعِرَاصِهِ مُتَلَدِّدِينَا
وَبُهَيْرَةً عَبْرَى خِلَافَ أَقَارِبٍ مُسْتَعْبِرِينَا
أَصْبَحْنَ فِي رَيْبِ الْحَوَادِثِ يُحْسِنُونَ بِكَ الظُّنُونَا
قَطَعَ الْوُلَاةُ جِرَايَةً كَانُوا بِهَا مُسْتَمْسِكِينَا
فَامْنُنْ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا قَطَعُوهُ غَيْرَ مُرَاقِبِينَا
أَعْطَاكَ أَفْضَلَ مَا تُؤَمِّلُ أَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلِينَا

(قَالَ): فَأَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ لَهُ بِمَا سَأَلَ فَقَالَ يَشْكُرُهُ:

يَا خَيْرَ مُسْتَخْلَفٍ مِنْ آلِ عَبَّاسِ إِسْلَمْ وَلَيْسَ عَلَى الْأَيَّامِ مِنْ بَاسِ
أَحْيَيْتَ مِنْ أَمَلِي نِضْوًا تَعَاوَرَهُ تَعَاقُبُ الْيَأْسِ حَتَّى مَاتَ بِالْيَاسِ

الباهلي والرشيد

١٦٩ قَدِمَ عَلَى الرَّشِيدِ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَاهِلَةَ وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ حِبَرَةٌ وَرِدَاءٌ يَمَانٍ قَدْ شَدَّهُ عَلَى وَسَطِهِ ثُمَّ تَنَاهُ عَلَى عَاتِقِهِ. وَعِمَامَةٌ قَدْ عَصَبَهَا عَلَى فُؤَادِهِ. وَأَرْخَى لَهَا عَذَبَةً مِنْ خَلْفِهِ فَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ. فَقَالَ: سَعِيدٌ يَا أَعْرَابِيُّ خُذْ فِي شَرَفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَانْدَفَعَ فِي شِعْرِهِ. فَقَالَ الرَّشِيدُ: يَا أَعْرَابِيُّ أَسْمَعُكَ مُسْتَحْسِنًا وَأُنْكِرُكَ مُتَّهِمًا. فَقُلْ لَنَا بَيْتَيْنِ فِي هَذَيْنِ يَعْنِي مُحَمَّدًا الْأَمِينَ وَعَبْدَ اللهِ الْمَأْمُونَ ابْنَيْهِ وَهُمَا حِفَافَاهُ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَمَلْتَنِي عَلَى الْوَعْرِ الْقَرْدَدِ. وَأَرْجَعْتَنِي

عَلَى ٱلسَّهْلِ ٱلْحَدْرِ رَوْعَةُ ٱلْخِلَافَةِ وَبَهْرُ ٱلدَّرَجَةِ وَنُفُورُ ٱلْقَوَافِي عَلَى ٱلْبَدِيهَةِ. فَأَرْوِدْنِي تَتَأَلَّفْ لِي نَوَافِرُهَا وَيَسْكُنْ رَوْعِي. قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ وَجَعَلْتُ ٱعْتِذَارَكَ بَدَلًا مِنِ ٱمْتِحَانِكَ. قَالَ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ نَفَّسْتَ ٱلْخِنَاقَ. وَسَهَّلْتَ مَيْدَانَ ٱلسِّبَاقِ. فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

بَنَيْتَ لِعَبْدِ ٱللهِ ثُمَّ مُحَمَّدٍ ذُرَى قُبَّةِ ٱلْإِسْلَامِ فَٱخْضَرَّ عُودُهَا
هُمَا طُنُبَاهَا بَارَكَ ٱللهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَمُودُهَا

فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ: بَارَكَ ٱللهُ فِيكَ فَسَلْ وَلَا تَكُنْ مَسْأَلَتُكَ دُونَ إِحْسَانِكَ. قَالَ: ٱلْهُنَيْدَةَ. فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَسَبْعِ خِلَعٍ (لابن عبد ربه)

١٧٠ قَالَ ٱلْبُسْتِيُّ يَعْتَذِرُ:

أَسَأْتُ إِلَى نَفْسِي وَطَأْمَنْتُ مِنْ قَدْرِي فَحَكِّمْ غِنَى أَخْلَاقِكَ ٱلْغُرِّ فِي فَقْرِي
فَمَا ٱلْعَقْلُ إِلَّا خَاتَمٌ أَنْتَ فَصُّهُ وَعَفْوُكَ نَقْشُ ٱلْفَصِّ فَٱخْتِمْ بِهِ عُذْرِي

١٧١ وَقَالَ أَيْضًا فِي رِسَالَةٍ أَتَتْهُ مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ:

مَا إِنْ سَمِعْتُ بِنَوَّارٍ لَهُ ثَمَرٌ فِي ٱلْوَقْتِ يَمْتِعُ سَمْعَ ٱلْمَرْءِ وَٱلْبَصَرَا
حَتَّى أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ مُبْتَسِمًا عَنْ كُلِّ لَفْظٍ وَمَعْنًى أَشْبَهَ ٱلدُّرَرَا
فَكَانَ لَفْظُكَ فِي آلَائِهِ زَهَرًا وَكَانَ مَعْنَاكَ فِي أَثْنَائِهِ ثَمَرَا
تَسَابَقَا فَأَصَابَا ٱلْقَصْدَ فِي طَلَقٍ لِلّٰهِ مِنْ ثَمَرٍ قَدْ سَابَقَ ٱلزَّهَرَا

١٧٢ وَقَالَ وَهُوَ مِنْ أَجْمَلِ مَا قِيلَ فِي بَابِ ٱلشُّكْرِ:

أَقُولُ وَخَيْرُ ٱلْقَوْلِ مَا لَا يَشُوبُهُ رِيَاءٌ وَخَيْرُ ٱلنَّاسِ مَنْ هُوَ صَادِقُ
تُرَكِّبُ مِنْ شُكْرِي وَبِرِّكَ صُورَةٌ فَبِرُّكَ بِي حَيٌّ وَشُكْرِي نَاطِقُ

١٧٣ وقال يعتذر إلى ابن أبي محمد الموصلي وقد حُجب عن بابه :

قد جئتُ معتذراً والعفو من شيمك ... فاهدِ لعذري مقيلاً في ذرى كرمك
وإن أردتَ جعلتُ الخدَّ واسطةً ... حتى يكون شفيعاً لي إلى قدمك

علي بن الخليل ويزيد بن المزيد

١٧٤ ولد ليزيد بن مزيد ابنٌ فأتاه علي بن الخليل فقال : اسمع أيها الأمير تهنئةً بالفارس الوارد . فتبسم وقال : هات . فأنشده :

يزيدُ يا ابنَ الصيدِ من وائلٍ ... أهلِ الرئاساتِ وأهلِ المعالْ
يا خيرَ من أنجبَه والدٌ ... ليهنِك الفارسُ ليثُ النزالْ
جاءتْ به غرّاءَ ميمونةً ... والسعدُ يبدو في طلوعِ الهلالْ
عليه من معنٍ ومن وائلٍ ... سيما تباشيرٍ وسيما جلالْ
والله يُبقيه لنا سيّداً ... مُدافعاً عنّا صروفَ الليالْ
حتى نراه قد علا منبراً ... وفاضَ في سؤّالِه بالنوالْ
وسدَّ ثغراً فكفى شرَّه ... وقارعَ الأبطالَ تحتَ العوالْ
كما كفانا ذاكَ آباؤُه ... فيحتذي أفعالَهم عن مثالْ

فأمر له عن كل بيت بألف دينار (الاغاني)

١٧٥ قال علي بن ظافر : خرج المعتصم بن صمادح صاحب المرية يوماً على بعض منتزهاته . فحلّ بروضةٍ قد سفرت عن وجهها البهيج . وتنفست عن مسكها الأريج . وماست معاطف أغصانها . وتكللت بلآلىء الطلّ أجيادُ قضبانها . فتشوّق إلى الوزير أبي طالب بن غانم

أَحَدِ وُزَرَاءِ دَوْلَتِهِ. وَسُيُوفِ صَوْلَتِهِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ بَدِيهًا فِي وَرِيقَةٍ كُرْنُبٍ بِعُودٍ مِنْ شَجَرَةٍ:

أَقْبِلْ أَبَا طَالِبٍ إِلَيْنَا وَاسْقُطْ سُقُوطَ النَّدَى عَلَيْنَا
فَنَحْنُ عِقْدٌ بِغَيْرِ وَسْطَى مَا لَمْ تَكُنْ حَاضِرًا لَدَيْنَا

١٧٦ أَخْبَرَ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ الْحَسَنِ بْنِ بَادِيسَ بِالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمَيْدَانِ وَقَدْ رُمِيَ بِالنُّشَّابِ فَصَنَعْتُ فِيهِ بَدِيهًا:

يَا مَلِكًا قَدْ خُلِقَتْ كَفُّهُ لَمْ تَدْرِ إِلَّا الْجُودَ وَالْبَاسَا
إِنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ مَعْ بُعْدِهَا قَدْ حَسَدَتْ فِي قُرْبِكَ النَّاسَا
كَمَا تَمَنَّى الْبَدْرُ لَوْ أَنَّهُ أَضْحَى لِنُشَّابِكَ تُرْجَاسَا

١٧٧ سَخِطَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ عَلَى ابْنِ سَيَّابَةَ فَاسْتَرْضَاهُ فَامْتَنَعَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سَيَّابَةَ بِهٰذِهِ الْأَبْيَاتِ:

إِنْ كَانَ جُرْمِي قَدْ أَحَاطَ بِحُرْمَتِي فَأَحِطْ بِجُرْمِي عَفْوَكَ الْمَأْمُولَا
فَكَمِ ارْتَجَيْتُكَ فِي الَّتِي لَا يُرْتَجَى فِي مِثْلِهَا أَحَدٌ فَنِلْتُ السُّولَا
وَضَلَلْتُ عَنْكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي مَذْهَبًا وَوَجَدْتُ حِلْمَكَ لِي عَلَيْكَ دَلِيلَا
هَبْنِي أَسَأْتُ وَمَا أَسَأْتُ أُقِرُّ كَيْ يَزْدَادَ عَفْوُكَ بَعْدَ طَوْلِكَ طُولَا
فَالْعَفْوُ أَجْمَلُ وَالتَّفَضُّلُ بِامْرِئٍ لَمْ يَعْدَمِ الرَّاجُونَ مِنْهُ جَمِيلَا

فَلَمَّا قَرَأَهَا الْفَضْلُ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَرَضِيَ عَنْهُ (بدائع البدائه للازدي)

١٧٨ وُشِيَ بِابْنِ سَيِّدٍ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ فَجَافَاهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

وَلَا غَرْوَ أَنْ تَعْفُو وَأَنْتَ ابْنُ مَنْ غَدَا يُعَوِّدُ عَفْوًا عَنْ كِبَارِ الْجَرَائِمِ

لَكُمْ آلَ عَمَّارٍ بُيُوتٌ رَفِيعَةٌ تُشَيَّدُ مِنْ كَسْبِ الثَّنَا بِدَعَائِمِ
إِذَا نَحْنُ أَذْنَبْنَا رَجَوْنَا ثَوَابَكُمْ وَلَمْ نَقْتَنِعْ بِالْعَفْوِ دُونَ الْمَكَارِمِ
وَإِنَّكَ فَرْعٌ مِنْ أُصُولٍ كَرِيمَةٍ وَلَا تَلِدُ الْأَزْهَارَ غَيْرُ الْكَمَائِمِ
وَإِنِّي مَظْلُومٌ لِزُورِ سَمِعْتَهُ وَقَدْ جِئْتُ أَرْجُو الْعَفْوَ فِي زِيِّ ظَالِمِ

فَعَفَا عَنْهُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَوَصَلَهُ (الذخيرة لابن بسّام)

كَتَبَ ابْنُ خَرُوفٍ لِبَعْضِ الرُّؤَسَاءِ:

يَا مَنْ حَوَى كُلَّ مَجْدٍ بِجَدِّهِ وَبِجِدِّهْ
أَتَاكَ نَجْلُ خَرُوفٍ فَامْنُنْ عَلَيْهِ بِجَدِّهْ

١٧٩ كَتَبَ آخَرُ إِلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ:

تَبَسَّمَ الثَّغْرُ عَنْ أَوْصَافِكُمْ فَسَرَى مِنْ طِيبِ عَرْفِكُمْ رِيحٌ فَأَحْيَانَا
فَمِنْ هُنَاكَ عَشِقْنَاكُمْ وَلَمْ نَرَكُمْ وَالْأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا

١٨٠ لِأَبِي الْوَلِيدِ مِمَّا يُكْتَبُ عَلَى قَوْسٍ:

إِنِّي إِذَا رُفِعَتْ سَمَاءُ عَجَاجَتِي وَالْحَرْبُ تَقْعُدُ بِالرَّدَى وَتَقُومُ
وَتَمُرُّ وَالْأَبْطَالُ فِي جَنَبَاتِهَا وَالْمَوْتُ مِنْ فَوْقِ النُّفُوسِ يَحُومُ
مَرَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُتُوفُ كَأَنَّمَا نَحْنُ الْأَهِلَّةُ وَالسِّهَامُ نُجُومُ

١٨١. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ زَرْقُونَ:

يَا مَعْدِنَ الْفَضْلِ وَطَوْدَ الْحِجَى لَا زِلْتَ مِنْ بَحْرِ الْعُلَى تَغْتَرِفْ
عَبْدُكَ بِالْبَابِ فَقُلْ مُنْعِمًا يَدْخُلُ أَوْ يَصْبِرُ أَوْ يَنْصَرِفْ

١٨٢ كَتَبَ ابْنُ هُذَيْلٍ الْغَزَارِيُّ لِلْغَنِيِّ بِاللهِ سُلْطَانِ ابْنِ الْخَطِيبِ:

لَيْسَ يَا مَوْلَايَ لِي مِنْ جَابِرٍ إِذْ غَدَا قَلْبِي مِنَ ٱلْبَلْوَى جُذَاذَا
غَيْرُ صَكٍّ أَحْمَرٍ تَكْتُبُ لِي فِيهِ يُمْنَاكَ ٱعْتِنَاءً صَحَّ هٰذَا

١٨٣ سَلَّمَ عَلَى ٱلْمُتَنَبِّي بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَلَمْ يَرُدَّ. فَقَالَ مُعْتَذِرًا:

إِذْ كُنْتُ حِينَ لَقِيتَنِي مُتَوَجِّعًا لِتَغَيُّبِكْ
فَشُغِلْتُ عَنْ رَدِّ ٱلسَّلَا مِ وَكَانَ شُغْلِي عَنْكَ بِكْ

١٨٤ سَأَلَ ٱلْحَجَّاجُ ٱبْنَ ٱلْقِرِّيَّةِ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَوَّلِ مَنْ نَطَقَ بِٱلشِّعْرِ. فَقَالَ: آدَمُ وَهُوَ حِينَ قَتَلَ قَابِيلُ أَخَاهُ هَابِيلَ فَأَنْشَدَ:

تَغَيَّرَتِ ٱلْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجْهُ ٱلْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْمٍ وَلَوْنٍ وَلَمْ يَرَ فِي ٱلدُّنَى شَيْءٌ مَلِيحُ
بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا ٱلتَّبَاكِي وَجَفْنِي بَعْدَ أَحْبَابِي قَرِيحُ

فَأَجَابَهُ إِبْلِيسُ عَلَى قَوْلِهِ:

تَنُوحُ عَلَى ٱلْبِلَادِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَبِٱلْفِرْدَوْسِ ضَاقَ بِكَ ٱلْفَسِيحُ
وَكُنْتَ بِهِ وَعِرْسَكَ فِي نَعِيمٍ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَقَلْبُكَ مُسْتَرِيحُ
فَمَا زَالَتْ مُكَايَدَتِي وَمَكْرِي إِلَى أَنْ فَاتَكَ ٱلثَّمَنُ ٱلرَّبِيحُ

١٨٥ لِلْأَمِيرِ أَبِي ٱلْفَتْحِ بْنِ أَبِي ٱلْفَتْحِ ٱلْمَعَرِّيِّ فِي ٱلْمُرْقِصِ:

أَبَا صَالِحٍ أَشْكُو إِلَيْكَ نَوَائِبًا عَرَتْنِي كَمَا يَشْكُو ٱلنَّبَاتُ إِلَى ٱلْقَطْرِ
لِتَنْظُرَ نَحْوِي نَظْرَةً لَوْ نَظَرْتَهَا إِلَى ٱلصَّخْرِ فَجَّرْتَ ٱلْعُيُونَ مِنَ ٱلصَّخْرِ
وَفِي ٱلدَّارِ خَلْفِي صِبْيَةٌ قَدْ تَرَكْتُهُمْ يُطِلُّونَ إِطْلَالَ ٱلْفِرَاخِ إِلَى ٱلْوَكْرِ
جَنَيْتُ عَلَى رُوحِي بِرُوحِي جِنَايَةً فَأَثْقَلَتْ ظَهْرِي بِٱلَّذِي خَفَّ مِنْ ظَهْرِي

١٨٦ لِتَاجِ الدِّينِ بْنِ أَبِي الْحَوَارِيِّ فِي الْمَرْقِصِ:

وَوَاللهِ مَا أَخَّرْتُ عَنْكَ مَدَائِحِي ... لِأَمْرٍ سِوَى أَنِّي عَجَزْتُ عَنِ الشُّكْرِ
وَقَدْ رُضْتُ فِكْرِي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ... فَمَا سَاغَ أَنْ أُهْدِي إِلَى مِثْلِكُمْ شِعْرِي
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ دُرًّا فَتِلْكَ نَقِيصَةٌ ... وَإِنْ كَانَ دُرًّا كَيْفَ يُهْدَى إِلَى الْبَحْرِ

١٨٧ كَتَبَ ابْنُ وَضَّاحٍ الْمُرْسِيُّ لِرَئِيسٍ قَطَعَ عَنْهُ إِحْسَانَهُ فَقَطَعَ مَدْحَهُ:

هَلْ كُنْتُ إِلَّا طَائِرًا بِثَنَائِكُمْ ... فِي دَوْحِ مَجْدِكُمُ أَقُومُ وَأَقْعُدُ
إِنْ تَسْلُبُونِي رِيشَكُمْ وَتُقَلِّصُوا ... عَنِّي ظِلَالَكُمُ فَكَيْفَ أُغَرِّدُ

١٨٨ كَتَبَ الْحَمْدَانِيُّ إِلَى الْقَاضِي أَبِي حَصِينٍ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الرَّقَّةِ:

يَا طُولَ شَوْقِي إِنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا ... لَا فَرَّقَ اللهُ فِيمَا بَيْنَنَا أَبَدَا
يَا مَنْ أُصَافِيهِ فِي قُرْبٍ وَفِي بُعْدٍ ... وَمَنْ أُخَالِصُهُ إِنْ غَابَ أَوْ شَهِدَا
رَاعَ الْفِرَاقُ فُؤَادًا كُنْتَ تُؤْنِسُهُ ... وَزَادَ بَيْنَ الْجُفُونِ الدَّمْعَ وَالسَّهَدَا
لَا يُبْعِدِ اللهُ شَخْصًا لَا أَرَى أُنْسًا ... وَلَا تَطِيبُ لِيَ الدُّنْيَا إِذَا بَعُدَا
أَضْحَى وَأَضْحَيْتُ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ ... أَعُدُّهُ وَالِدًا إِذْ عَدَّنِي وَلَدَا
مَا زَالَ يَنْظِمُ فِي الشِّعْرِ مُجْتَهِدًا ... فَضْلًا وَأَنْظِمُ فِيهِ الشِّعْرَ مُجْتَهِدَا
حَتَّى اعْتَرَفْتُ وَعَزَّتْنِي فَضَائِلُهُ ... وَفَاتَ سَبْقًا وَحَازَ الْفَضْلَ مُنْفَرِدَا
إِنْ قَصَّرَ الْجُهْدُ عَنْ إِدْرَاكِ غَايَتِهِ ... فَأَعْذَرُ النَّاسِ مَنْ أَعْطَاكَ مَا وَجَدَا
لَا يَطْرُقِ النَّازِلُ الْمَحْذُورُ سَاحَتَهُ ... وَلَا تَمُدَّ إِلَيْهِ الْحَادِثَاتُ يَدَا
أَبْقَى لَنَا اللهُ مَوْلَانَا وَلَا بَرِحَتْ ... أَيَامُنَا أَبَدًا فِي ظِلِّهِ جُدُدَا

الباب العاشر
في المديح

بلعاء بن قيس وبنو هاشم

١٨٩ قَالَ بَلْعَاءُ بْنُ قَيْسٍ: ٱلْعَرَبُ كَٱلْبَدَنِ وَقُرَيْشٌ رُوحُهَا. وَقُرَيْشٌ رُوحٌ وَبَنُو هَاشِمٍ سِرُّهَا وَلُبُّهَا. وَمَوْضِعُ غَايَةِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا مِنْهَا. وَهَاشِمٌ مِلْحُ ٱلْأَرْضِ وَزِينَةُ ٱلدُّنْيَا. وَحَيُّ ٱلْعَالَمِ وَٱلسَّنَامُ ٱلْأَضْخَمُ. وَٱلْكَاهِلُ ٱلْأَعْظَمُ. وَلُبَابُ كُلِّ جَوْهَرٍ كَرِيمٍ وَسِرُّ كُلِّ عُنْصُرٍ شَرِيفٍ. وَٱلطِّينَةُ ٱلْبَيْضَاءُ وَٱلْمَغْرِسُ ٱلْمُبَارَكُ وَٱلنِّصَابُ ٱلْوَثِيقُ وَمَعْدِنُ ٱلْفَهْمِ وَيَنْبُوعُ ٱلْعِلْمِ. وَثَهْلَانُ ذُو ٱلْهِضَابِ فِي ٱلْحِلْمِ وَٱلسَّيْفِ. أَلْحُسَامُ فِي ٱلْعَزْمِ مَعَ ٱلْأَنَاةِ وَٱلْحَزْمِ وَٱلصَّفْحِ عَنِ ٱلْجُرْمِ وَٱلْقَصْدِ بَعْدَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَٱلصَّفْحِ بَعْدَ ٱلْمَقْدُرَةِ. وَهُمُ ٱلْأَنْفُ ٱلْمُقَدَّمُ. وَٱلسَّنَامُ ٱلْأَكْرَمُ. وَكَٱلْمَاءِ ٱلَّذِي لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ. وَكَٱلشَّمْسِ ٱلَّتِي لَا تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانٍ. وَكَٱلذَّهَبِ لَا يُعْرَفُ بِٱلنُّقْصَانِ. وَكَٱلنَّجْمِ لِلْحَيْرَانِ وَٱلْبَارِدِ لِلظَّمْآنِ (للقيرواني)

مديح المأمون

١٩٠ قَالَ ٱبْنُ أَبِي طَاهِرٍ: دَخَلَ ٱلْمَأْمُونُ بَغْدَادَ فَتَلَقَّاهُ وُجُوهُ أَهْلِهَا. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَارَكَ ٱللهُ لَكَ فِي مَقْدَمِكَ. وَزَادَ فِي نِعْمَتِكَ وَشُكْرِكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ. تَقَدَّمْتَ مَنْ قَبْلَكَ. وَأَتْعَبْتَ مَنْ بَعْدَكَ. وَآيَسْتَ أَنْ يُعَايَنَ مِثْلُكَ. أَمَّا فِيمَا مَضَى فَلَا نَعْرِفُهُ. وَأَمَّا

فِيما بَقِيَ فَلا تَرْجُوهُ . فَنَحْنُ جَمِيعًا نَدْعُو لَكَ وَنُثْنِي عَلَيْكَ . خَصْبَ لَنَا جَنابُكَ وَعَذْبَ ثَوابُكَ . وَحَسُنَتْ نَظْرَتُكَ . وَكَرُمَتْ مَقْدُرَتُكَ . جَبَرْتَ الْفَقِيرَ . وَفَكَكْتَ الْأَسِيرَ . وَالْخَيْرُ بِفِنائِكَ . وَالشَّرُّ بِساحَةِ أَعْدائِكَ . وَالنَّصْرُ مَنُوطٌ بِلِوائِكَ . وَالْخِذْلانُ مَعَ أَلْوِيَةِ حُسّادِكَ . وَالْبِرُّ فِعْلُكَ . قَدْ طَحْطَحَ عَدُوَّكَ غَضَبُكَ . وَهَزَمَ مَقانِبَهُمْ مَشْهَدُكَ . وَسارَ فِي النّاسِ عَدْلُكَ . وَشَسَعَ بِالنَّصْرِ ذِكْرُكَ . وَسَكَّنَ قَوارِعَ الْأَعْداءِ ظَفَرُكَ . أَلذَّهَبُ عَطاؤُكَ . وَالدَّواةُ رَمْزُكَ . وَالْأَوْراقُ لَحْظُكَ وَأَطْرافُكَ (لابن عبد ربّه)

مدح مقامات الحريري

١٩١ إِنِّي لَمْ أَرَ فِي كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ . وَلا فِي تَصانِيفِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ . كِتابًا أَحْسَنَ تَأْلِيفًا . وَأَعْجَبَ تَصْنِيفًا . وَأَغْرَبَ تَرْصِيفًا . وَأَشْمَلَ لِلْعَجائِبِ الْعَرَبِيَّةِ . وَأَجْمَعَ لِلْغَرائِبِ الْأَدَبِيَّةِ . وَأَكْثَرَ تَضَمُّنًا لِأَمْثالِ الْعَرَبِ . وَنُكَتِ الْأَدَبِ . مِنَ الْمَقاماتِ الَّتِي أَنْشَأَهَا الْإِمامُ جَمالُ الْعَصْرِ . وَكَمالُ الدَّهْرِ . أَبُو مُحَمَّدٍ الْقاسِمُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَرِيرِيُّ الْبَصْرِيُّ بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعَهُ . وَطَيَّبَ مَهْجَعَهُ . إِنْشاءً فاخِرًا . وَكِتابًا باهِرًا . وَتَصْنِيفًا عَجِيبًا مُعْجِزًا . وَتَأْلِيفًا عَزِيزًا مُعْوِزًا . نَعَمْ كِتابٌ بَدِيعٌ . لَهُ قَدْرٌ رَفِيعٌ . قَدْ تَمَّتْ حَسَناتُهُ . وَدَلَّتْ عَلَى الْإِعْجازِ آياتُهُ . هٰذا وَلَمّا خَرَجَ مَقْبُولَ النِّظامِ . مُتَداوَلًا فِيما بَيْنَ الْأَنامِ . أَكَبَّ أَبْناءُ زَمانِنا عَلَى تَحْصِيلِهِ . وَواظَبُوا عَلَى تَفَهُّمِ جُمَلِهِ وَتَفْصِيلِهِ . غَيْرَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ رُبَّما

خَبَطُوا فِيهِ خَبْطَ عَشْوَاءَ . إِذَا وَقَعُوا مِنْهُ فِي مَعْضِلَةٍ عَمْيَاءَ . وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ . بَلْ يَتَرَدَّدُونَ فِي تِيهٍ بِلَا دَلِيلٍ ... (للطرزي)

١٩٢ قَالَ الْبُرَعِيُّ فِي إِبْرَهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَكَمِيِّ :

إِلَى صَارِمِ الدِّينِ الْفَتَى ابْنِ مُحَمَّدٍ ... رَمَتْ بِي مَقَادِيرٌ جَرَتْ وَخُطُوبُ

وَحَطَّتْ بِيَ الْآمَالُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ ... لَدَى خَيْرِ مَنْ يَلْوِي إِلَيْهِ أَدِيبُ

فَوَافَيْتُ أَعْلَى النَّاسِ نَفْسًا وَمَنْصِبًا ... وَأَخْصَبَ رَبْعًا وَالزَّمَانُ جَدِيبُ

هُوَ الْكَوْثَرُ الْفَيَّاضُ فِي آلِ فَارِحٍ ... بِهِ الْعَيْشُ يَحْلُو وَالزَّمَانُ يَطِيبُ

غَمَامٌ يَعُمُّ الْخَلْقَ ظِلًّا فَنَائِلًا ... لِكُلٍّ مِنَ الرَّاجِينَ فِيهِ نَصِيبُ

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ جِئْتُكَ زَائِرًا ... وَشَأْنِي وُقِيتَ الشَّائِنِينَ عَجِيبُ

أُؤَمِّلُ مِنْكَ الْبِرَّ وَالْبِرُّ وَاسِعٌ ... وَأَرْجُو نَدَاكَ الْجَمَّ وَهْوَ قَرِيبُ

فَقُمْ بِي وَعَامِلْنِي بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ ... فَإِنَّ رَجَائِي فِيكَ لَيْسَ يَخِيبُ

وَصُنْ مَاءَ وَجْهِي عَنْ زَمَانٍ مُعَانِدٍ ... وَصِلْ حَبْلَ أُنْسِي فَالْغَرِيبُ غَرِيبُ

وَدُمْتَ مَنَارَ الدِّينِ مَا لَاحَ بَارِقٌ ... وَمَا اهْتَزَّ غُصْنٌ فِي الْأَرَاكِ رَطِيبُ

وَلَا زِلْتَ مَأْمُولِي وَعَوْنِي وَنُصْرَتِي ... عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ

١٩٣ حَدَّثَ إِبْرَهِيمُ بْنُ الْمُدَبِّرِ قَالَ : مَرِضَ الْمُتَوَكِّلُ مَرْضَةً خِيفَ عَلَيْهِ مِنْهَا . ثُمَّ عُوفِيَ وَأُذِنَ لِلنَّاسِ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ فَدَخَلُوا عَلَى طَبَقَاتِهِمْ كَافَّةً . وَدَخَلْتُ مَعَهُمْ فَلَمَّا رَآنِي اسْتَدْنَانِي حَتَّى قُمْتُ وَرَاءَ الْفَتْحِ وَنَظَرَ إِلَيَّ مُسْتَنْطِقًا فَأَنْشَدْتُهُ :

يَوْمٌ أَتَانَا بِالسُّرُورْ ... فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الْكَبِيرْ

أَخْلَصْتُ فِيهِ شُكْرَهُ وَوَفَيْتُ فِيهِ بِالنُّذُورْ
لَمَّا اعْتَلَتْ تَصَدَّعَتْ شُعَبُ الْقُلُوبِ مِنَ الصُّدُورْ
مِنْ بَيْنِ مُلْتَهِبِ الْفُؤَا دِ وَبَيْنِ مُكْتَئِبِ الضَّمِيرْ
يَا عُدَّتِي لِلدِّينِ وَالـ ـدُّنْيَا وَلِلْخَطْبِ الْخَطِيرْ
كَانَتْ جُفُونِي تَرَّةَ الْـ آمَاقِ بِالدَّمْعِ الْغَزِيرْ
لَوْ لَمْ أَمُتْ جَزَعًا لَعَمْـ ـرُكَ إِنَّنِي عَيْنُ الصَّبُورْ
يَوْمِي هُنَالِكَ كَالسِّنِيـ ـنَ وَسَاعَتِي مِثْلُ الشُّهُورْ
يَا جَعْفَرُ الْمُتَوَكِّلُ الْـ عَالِي عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرْ
أَلْيَوْمَ عَادَ الدِّينُ غَضَّ الْـ عُودِ ذَا وَرَقٍ نَضِيرْ
وَالْيَوْمَ أَصْبَحَتِ الْخِلَا فَةُ وَهْيَ أَرْسَى مِنْ ثَبِيرْ
قَدْ حَالَفَتْكَ وَعَاقَدَتْـ ـكَ عَلَى مُطَاوَلَةِ الدُّهُورْ

فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ لِلْفَتْحِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ يَنْطِقُ عَنْ نِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَوُدٍّ مَحْضٍ وَمَا قَضَيْنَا حَقَّهُ. فَتَقَدَّمْ بِأَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ السَّاعَةَ خَمْسُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

١٩٤ مَدَحَ مُطِيعُ بْنُ إِيَاسٍ مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِسَيِّدِ الْعَرَبِ ذِي الْغُرِّ الْوَاضِحَاتِ وَالنُّجُبِ
فَتَى يَزِيدٍ وَكَهْلُهَا وَأَخِي الْـ جُودِ حَوَى عَانِيَهُ مِنْ كَثَبِ
جَاءَ الَّذِي تُفْرَجُ الْهُمُومُ بِهِ حِينَ يُلَزُّ الْوَضِينُ بِالْحَقَبِ
شَهْمٌ إِذَا الْحَرْبُ شَبَّ دَائِرُهَا أَعَادَهُ عَوْدَةً عَلَى الْقُطُبِ
يُطْفِئُ نِيرَانَهَا وَيُوقِدُهَا إِذَا خَبَتْ نَارُهَا بِلَا حَطَبِ

١٨٤ ـــــــ

يَا سَائِلِي مَا الَّذِي حَصَّلْتَ عِنْدَهُمُ ... دَعِ السُّؤَالَ وَقُمْ فَانْظُرْ إِلَى حَالِي
أَفَادَنِي الْمَلِكُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ ... عِزًّا وَأَلْبَسَنِي سِرْبَالَ إِقْبَالِ
وَاشْتَقَّ مِنْ حَقِّهِ بَحْرًا طَغَى وَطَمَا ... حَبَابُهُ فَوْقَ أَفْكَارِي وَآمَالِي
فَإِنْ أَكُنْ سَاكِتًا عَنْ شُكْرِ أَنْعُمِهِ ... فَإِنَّ ذَاكَ لِعَجْزِي لَا لِإِغْفَالِي

١٩٦ وَقَالَ فِي أَبِي نَصْرٍ:

أَبَا نَصْرٍ نُصِرْتَ عَلَى الْأَعَادِي ... وَصِرْتَ لِكُلِّ ذِي فَضْلٍ إِمَامَا
بِرَأْيٍ يَهْزِمُ الْجَيْشَ اللُّهَامَا ... وَعَزْمٍ يُخْجِلُ السَّيْفَ الْحُسَامَا

١٩٧ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ يَمْدَحُ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ:

إِنْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ حَسَنٌ ... فَهُوَ فِي دُورِ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكْ
مَا يُبَالُونَ إِذَا مَا أَفْضَلُوا ... مَا بَقِيَ مِنْ مَالِهِمْ أَوْ مَا هَلَكْ
عُقِلَتْ أَلْسُنُهُمْ عَنْ قَوْلِ لَا ... فَهْيَ لَا تَعْرِفُ إِلَّا هُوَ لَكْ
مِنْهُمُ مُوسَى جَوَادٌ مَاجِدٌ ... لَا يَرَى مَا لَمْ يَهَبْ مِمَّا مَلَكْ
زَيَّنُوا الْأَرْضَ كَمَا قَدْ زُيِّنَتْ ... بِنُجُومِ اللَّيْلِ آفَاقُ الْفَلَكْ

١٩٨ قَالَ خَالِدُ بْنُ جَعْفَرٍ يَمْدَحُ أَبَا عَمْرٍو أُحَيْحَةَ بْنَ الْجُلَاحِ:

إِذَا مَا أَرَدْتَ الْعِزَّ مِنْ آلِ يَثْرِبٍ ... فَنَادِ أَبَا عَمْرٍو أُحَيْحَةَ يَسْمَعُ
بَنَى فِي الْعُلَى وَالْفَخْرِ وَالْمَجْدِ مَنْزِلًا ... لَهُ فَوْقَ أَكْنَافِ السِّمَاكَيْنِ مَوْضِعُ
وَإِنْ هَزَّ فِي يَوْمِ الْكَرِيهَةِ سَيْفَهُ ... رَأَيْتَ شُعَاعَ الْمَوْتِ فِي السَّيْفِ يَلْمَعُ
وَإِنْ وَهَبَتْ كَفَّاهُ وَالْغَيْثُ هَاطِلٌ ... يَدُومُ عَطَاهُ وَالسَّحَائِبُ تُقْلِعُ
وَيَأْمَنُ فِي أَبْيَاتِهِ كُلُّ خَائِفٍ ... وَيَشْبَعُ مِنْ نُعْمَاهُ مَنْ لَيْسَ يَشْبَعُ

١٨٦ ـــــــ

٢٠٣ قال النابغة يمدح غسان حين ارتحل من عندهم راجعاً:

لا يُبعِدِ اللهُ جيرانًا تركتهمُ مثلَ المصابيحِ تجلو ليلةَ الظُّلَمِ
هُمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ لهمْ فضلٌ على الناسِ في الأدواءِ والنِّعَمِ
أحلامُ عادٍ وأجسادٌ مطهرةٌ من المعقةِ والآفاتِ والآثَمِ

٢٠٤ دخل شاعرٌ على الملكِ الواثقِ وقال له:

إني رأيتُكَ سيدي في مجلسٍ قعدَ الملوكُ بحافتيهِ وقاموا
فكأنكَ الدهرُ الصؤولُ عليهمِ وكأنهمْ من حولكَ الأيامُ

فقال: أحسنتَ كم أملتَ اطلبْ ما تشاءُ. قال: يا مولايَ يدُكَ بالعطيةِ أوسعُ من لساني بالمسألةِ. فوهبهُ ألفَ دينارٍ وخلعَ عليهِ

٢٠٥ قال ابنُ نباتةَ في الملكِ المؤيدِ صاحبِ حماةَ:

لنا ملكٌ قد قاسمتنا هباتهُ فنثرُ العطا منهُ ونظمُ الثنا منّا
يُذكِّرُنا أخبارَ معنٍ بجودهِ ونُنشي لهُ لفظاً فينشي لنا معنى

٢٠٦ وأحسنُ ما سُمعَ في القسمِ على المدحِ قولُ الشاعرِ:

حلفتُ بمنْ سوّى السماءَ وشادَها ومنْ مرجَ البحرينِ يلتقيانِ
ومنْ قامَ في المعقولِ من غيرِ رؤيةٍ بأثبتَ من إدراكِ كلِّ عيانِ
لما خُلقتْ كفاكَ إلا لأربعٍ عقائلَ لم تُعقلْ لهنَّ ثوانِي
لتقبيلِ أفواهٍ وإعطاءِ نائلٍ وتقليبِ هندِيٍّ وحبسِ عِنانِ

٢٠٧ قال شرفُ الدينِ القيروانيُّ:

جاورْ عليًّا ولا تحفلْ بحادثةٍ إذا ادّرعتَ فلا تسألْ عنِ الأسلِ

سَلْ عَنْهُ وَانْطِقْ بِهِ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدْ مِلْءَ الْمَسَامِعِ وَالْأَفْوَاهِ وَالْمُقَلِ

٢٠٨ قَالَتِ الْخَنْسَاءُ فِي أَخِيهَا وَقَدْ أَرَادَتْ مُسَاوَاتَهُ بِأَبِيهِ مَعَ مُرَاعَاةِ حَقِّ الْوَالِدِ بِزِيَادَةِ مَدْحٍ لَا يَنْقُصُ بِهِ حَقُّ الْوَلَدِ:

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةَ الْفَخْرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّا عَلَى وَكْرِ
بَرَقَتْ صَفِيحَةُ وَجْهِ وَالِدِهِ وَمَضَى عَلَى غُلَوَائِهِ يَجْرِي
أَوْلَى فَأَوْلَى أَنْ يُسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السِّنِّ وَالْكِبْرِ

٢٠٩ قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى فِي بَنِي سِنَانٍ:

قَوْمٌ أُبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَالَ يَمْدَحُ هَرِمَ بْنَ سِنَانٍ:

وَأَبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تَقُبُّ فَوَاضِلُهْ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ الْمَالَ نَائِلُهْ

٢١٠ قَالَ أَعْشَى قَيْسٍ يَمْدَحُ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْذِرِ أَخَا النُّعْمَانِ:

أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ مِنَ النَّا سِ إِذَا مَا كَبَتْ وُجُوهُ الرِّجَالِ
فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصُنِ الْمَجْـ ـدِ غَزِيرُ اللَّهَى عَظِيمُ الْجَمَالِ
فَإِذَا مَنْ عَصَاكَ أَصْبَحَ مَحْزُو نًا وَكَعْبُ الَّذِي يُطِيعُكَ عَالِ

٢١١ قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ:

لَوْ كَانَتِ الرِّيحُ حَقًّا تَحْمِلُ الْخَبَرَا حَمَّلْتُ رِيحَ الصَّبَا أَنْفَاسَنَا سَحَرَا
إِلَى الشُّجَاعِ الَّذِي مَا سَلَّ صَارِمَهُ إِلَّا وَدَمُ الْعِدَى فَوْقَ الصَّعِيدِ جَرَى
لَيْثٌ يُلَاقِي رِجَالَ الْحَرْبِ مُقْتَدِرًا وَطَعْنُهُ فِي حَشَاهَا وَافَقَ الْقَدَرَا
يَا حَامِيًا عَبْسَ قَدْ بَنَتَا عَلَى وَجَلٍ مِنْ فَارِسٍ لَا يَخَافُ الْبُؤْسَ وَالضَّرَرَا
لَقَدْ رَجَوْنَاكَ عِنْدَ الْخَطْبِ تُدْرِكُنَا وَمِنْ دِمَاهُمْ تُرَوِّي الصَّارِمَ الذَّكَرَا

٢١٢ قَالَ عَلِيُّ بْنُ جَبَلَةَ يَمْدَحُ أَبَا دُلَفَ وَكَانَ قَتَلَ قَرْقُورَ فِي الْحَرْبِ:

إِمْتَدِحْ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا عَصَرَ الْآفَاقَ فِي عُصُرِهْ
أَلْمَنَايَا فِي مَنَاقِبِهِ وَالْعَطَايَا فِي ذُرَا حُجُرِهْ
مَلِكٌ تَنْدَى أَنَامِلُهُ كَانْبِلَاجِ النَّوْءِ عَنْ مَطَرِهْ
مُسْتَهِلٌّ عَنْ مَوَاهِبِهِ كَابْتِسَامِ الرَّوْضِ عَنْ زَهَرِهْ
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ بَيْنَ بَادِيهِ وَمُحْتَضَرِهْ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ
يَا دَوَاءَ الْأَرْضِ إِنْ فَسَدَتْ وَمُدِيلَ الْيُسْرِ مِنْ عُسُرِهْ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ
وَزُحُوفٍ فِي صَوَاهِلِهِ كَصُيَاحِ الْحَشْرِ فِي أَثَرِهْ
قُدَّتَهُ وَالْمَوْتُ مُكْتَمِنٌ فِي مَذَاكِيهِ وَمُسْتَجَرِهْ
زُرْتَهُ وَالْخَيْلُ عَابِسَةٌ تَحْمِلُ الْبُؤْسَ عَلَى عُقُرِهْ
خَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَاتِهَا كَخُرُوجِ الطَّيْرِ مِنْ وَكَرِهْ

وَلِقُرْقُورٍ أَدَرْتَ رَحًا لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكَرِهْ
قَدْ تَأَنَّيْتَ لِلْبَقَاءِ لَهُ فَأَبَى الْمَحْتُومُ مِنْ قَدَرِهْ

فَلَمَّا أَنْشَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي جَبَلَةَ هٰذِهِ الْقَصِيدَةَ اسْتَحْسَنَهَا أَبُو دُلَفَ وَسُرَّ بِهَا وَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ

٢١٣ أَخْبَرَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَخْفَشُ قَالَ: بَيْنَا أَبُو دُلَفَ يَسِيرُ مَعَ أَخِيهِ مَعْقِلٍ وَهُمَا إِذْ ذَاكَ بِالْعِرَاقِ إِذْ مَرَّ بِامْرَأَتَيْنِ تَتَمَاشَيَانِ. فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا لِصَاحِبَتِهَا: هٰذَا أَبُو دُلَفَ. قَالَتْ: وَمَنْ أَبُو دُلَفَ. قَالَتِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّاعِرُ: (إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفِ). (قَالَ): فَاسْتَعْبَرَ أَبُو دُلَفَ حَتَّى جَرَى دَمْعُهُ. قَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: مَالَكَ يَا أَخِي تَبْكِي. قَالَ: لِأَنِّي لَمْ أَقْضِ حَقَّ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ (الاغاني)

٢١٤ قَالَ آخَرُ فِي الْمَدْحِ:

أَهْلٌ بِأَنْ يُسْعَى إِلَيْهِ وَيُرْتَجَى وَيُزَارَ مِنْ أَقْصَى الْبِلَادِ عَلَى الرَّجَا
فَلَقَدْ غَدَا بِالْمَكْرُمَاتِ مُقَلَّدًا وَمُوَشَّحًا وَمُخَتَّمًا وَمُتَوَّجَا

٢١٥ قَالَ الْمُتَنَبِّي يَمْدَحُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ:

ضَاقَ الزَّمَانُ وَوَجْهُ الْأَرْضِ عَنْ مَلِكٍ مِلْءُ الزَّمَانِ وَمِلْءُ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
وَنَحْنُ فِي جَذَلٍ وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ وَالْبَرُّ فِي شُغُلٍ وَالْبَحْرُ فِي خَجَلِ

٢١٦ وَقَالَ أَيْضًا:

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ أَخْلَاقًا وَأَوْفَرَهُمْ عَقْلًا وَأَسْبَقَهُمْ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ
أَصْبَحْتَ أَفْضَلَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ بِالرَّأْيِ وَالْعَقْلِ لَا بِالْبَطْشِ وَالْجَلَدِ

لَئِنْ ضَعُفَتْ وَأَضْنَاكَ السَّقَامُ فَلَمْ ... يَضْعُفْ قُوَى عَقْلِكَ الصَّافِي وَلَمْ يَمِدِ
لَوْ كَانَ أَفْضَلُ مَا فِي الْخَلْقِ بَطْشُهُمُ ... دُونَ الْعُقُولِ لَكَانَ الْفَضْلُ لِلْأَسَدِ

٢١٧ قَالَ عُمَارَةُ الْيَمَنِيُّ : (ابن خلكان)

يَا لِسَانَ الزَّمَانِ لَفْظًا وَمَعْنَى ... وَرَبِيعَ الْأَنَامِ كَفًّا وَمَغْنَى
تَعْتَلِي كَوْكَبًا وَتَشْرُقُ شَمْسًا ... وَتُحَامِي لَيْثًا وَتَنْهَلُّ مُزْنَا

٢١٨ قَالَ آخَرُ :

إِذَا حَلَلْتَ بِأَرْضٍ وَهْيَ مُجْدِبَةٌ ... قَلِيلَةُ الْغَيْثِ لَمْ يَخْطُرْ بِهَا السَّارِي
فَلَيْسَ تَرْحَلُ إِلَّا وَهْيَ مُعْشِبَةٌ ... كَأَنَّمَا أَنْتَ فِيهَا رَحْمَةُ الْبَارِي

٢١٩ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْبَبَّغَاءُ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ :

نَدَاكَ إِذَا ضَنَّ الْغَمَامُ غَمَامُ ... وَعَزْمُكَ إِنْ فَلَّ الْحُسَامُ حُسَامُ
فَهٰذَا يُنِيلُ الرِّزْقَ وَهْوَ مُمَنَّعٌ ... وَذَاكَ يَرُدُّ الْجَيْشَ وَهْوَ لُهَامُ
وَمَنْ طَلَبَ الْأَعْدَاءَ بِالْمَالِ وَالظُّبَى ... وَبِالسَّعْدِ لَمْ يَبْعُدْ عَلَيْهِ مَرَامُ

٢٢٠ قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ فِي نَجْلِ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ :

فَتًى جَمَعَ الْعَلْيَاءَ عِلْمًا وَعِفَّةً ... وَجُودًا وَبَأْسًا لَا يُفِيقُ فُوَاقَا
كَمَا جَمَعَ التُّفَّاحُ شَكْلًا وَبَهْجَةً ... وَرَائِحَةً مَحْبُوبَةً وَمَذَاقَا

٢٢١ قَالَ عَمَّارُ بْنُ الْحَسَنِ يَمْدَحُ عَبْدَ اللهِ بْنَ لَهِيعَةَ :

إِذَا سَارَ عَبْدُ اللهِ مِنْ مَرْوَ لَيْلَةً ... فَقَدْ سَارَ مِنْهَا نُورُهَا وَجَمَالُهَا
إِذَا ذُكِرَ الْأَحْبَارُ مِنْ كُلِّ بَلْدَةٍ ... فَهُمْ أَنْجُمٌ فِيهَا وَأَنْتَ هِلَالُهَا

٢٢٢ أَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ هَانِئٍ فِي جَعْفَرِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ غَلْبُونَ :

لَوْ خَلَّدَ الدَّهْرُ ذَا عِزٍّ لِعِزَّتِهِ ... كُنْتَ الْأَحَقَّ بِتَعْمِيرٍ وَتَخْلِيدِ
تَبْلَى الْكِرَامُ وَآثَارُ الْكِرَامِ وَمَا ... تَزْدَادُ فِي كُلِّ عَصْرٍ غَيْرَ تَجْدِيدِ

٢٢٣ لِأَبِي الشِّيصِ الْخُزَاعِيِّ :

عَشِقَ الْمَكَارِمَ فَهْوَ مُشْتَغِلٌ بِهَا ... وَالْمَكْرُمَاتُ قَلِيلَةُ الْعُشَّاقِ
وَأَقَامَ سُوقًا لِلثَّنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ ... سُوقُ الثَّنَاءِ تُعَدُّ فِي الْأَسْوَاقِ
بَثَّ الصَّنَائِعَ فِي الْبِلَادِ فَأَصْبَحَتْ ... تُجْبَى إِلَيْهِ مَحَامِدُ الْآفَاقِ

٢٢٤ قَالَ أَبُو حَوْتَةَ :

قَوْمٌ إِذَا افْتَحَمُوا الْمَحَاجَ رَأَيْتَهُمْ ... أُسْدًا وَخِلْتَ وُجُوهَهُمْ أَقْمَارَا
لَا يَعْدِلُونَ بِرِفْدِهِمْ عَنْ سَائِلٍ ... عَدَلَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمِ أَوْ جَارَا
وَإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمُ لِلْمَّةٍ ... بَذَلُوا النُّفُوسَ وَفَارَقُوا الْأَعْمَارَا
وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أَخْمَدَ نَارُهَا ... قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ نَارَا

٢٢٥ قَالَ الْعَرَنْدَسُ يَمْدَحُ قَوْمًا :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارٌ ذَوُو كَرَمٍ ... سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ
فِيهِمْ وَمِنْهُمْ يُعَدُّ الْمَجْدُ مُتْلِدًا ... وَلَا يُعَدُّ نَثَا خِزْيٍ وَلَا عَارِ
لَا يَنْطِقُونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ إِنْ نَطَقُوا ... وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارَوْا بِإِكْثَارِ
مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتَ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

٢٢٦ قَالَ الْحَزِينُ اللَّيْثِيُّ فِي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ :

هٰذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا ... إِلَى مَكَارِمِ هٰذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

الباب الحادي عشر
في الفخر والحماسة

٢٢٧ قال أبو بكر الأرجاني في باب الفخر:

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع ... في العصر أو أنا أفقه الشعراء
شعري إذا ما قلت دونه الورى ... بالطبع لا بتكلف الإلقاء
كالصوت في قلل الجبال إذا علا ... للسمع هاج تجاوب الأصداء

٢٢٨ قال القاضي الرشيد أبو الحسين الغساني الأسواني:

جلت لدي الرزايا بل جلت همتي ... وهل يضر جلاء الصارم الذكر
غيري يغيره عن حسن شيمته ... صرف الزمان وما يأتي من الغير
لو كانت النار للياقوت محرقة ... لكان يشتبه الياقوت بالحجر
فلا تغرنك أطماري وقيمتها ... فإنما هي أصداف على درر
ولا تظن خفاء النجم عن صغر ... فالذنب من ذاك محمول على البصر

٢٢٩ قال عنترة يتهدد هوازن وجشم وكانا قد أغارا على ديار عبس:

سكت فغرّ أعدائي السكوت ... وظنوني لأهلي قد نسيت
وكيف أنام عن سادات قوم ... أنا في فضل نعمتهم ربيت
وإن دارت بهم خيل الأعادي ... ونادوني أجبت متى دعيت
بسيف حده موج المنايا ... ورمح صدره الحتف المميت
خلقت من الحديد أشد قلبا ... وقد بلي الحديد وما بليت

وَإِنِّي قَدْ شَرِبْتُ دَمَ ٱلْأَعَادِي ... بِأَقْحَافِ ٱلرُّؤُوسِ وَمَا رَوِيتُ
وَفِي ٱلْحَرْبِ ٱلْعَوَانِ وُلِدتُّ طِفْلًا ... وَمِنْ لَبَنِ ٱلْمَغَامِرِ قَدْ سُقِيتُ
فَمَا لِلرُّمْحِ فِي جِسْمِي نَصِيبٌ ... وَلَا لِلسَّيْفِ فِي أَعْضَايَ قُوتُ
وَلِي بَيْتٌ عَلَا فَلَكَ ٱلثُّرَيَّا ... تَخُرُّ لِعِظْمِ هَيْبَتِهِ ٱلْبُيُوتُ

٢٣٠ وَقَالَ أَيْضًا يَفْتَخِرُ:

أَعَادِي صَرْفَ دَهْرٍ لَا يُعَادَى ... وَأَحْتَمِلُ ٱلْقَطِيعَةَ وَٱلْبِعَادَا
وَأُظْهِرُ نُصْحَ قَوْمٍ ضَيَّعُونِي ... وَإِنْ خَانَتْ قُلُوبُهُمُ ٱلْوِدَادَا
أُعَلِّلُ بِٱلْمُنَى قَلْبًا عَلِيلًا ... وَبِٱلصَّبْرِ ٱلْجَمِيلِ وَإِنْ تَمَادَى
تُعَيِّرُنِي ٱلْعِدَى بِسَوَادِ جِلْدِي ... وَبِيضُ خِصَالِيَ تَمْحُو ٱلسَّوَادَا
وَرَدْتُ ٱلْحَرْبَ وَٱلْأَبْطَالُ حَوْلِي ... تَهُزُّ أَكُفُّهَا ٱلسُّمْرَ ٱلصِّعَادَا
وَخُضْتُ بِمُهْجَتِي بَحْرَ ٱلْمَنَايَا ... وَنَارُ ٱلْحَرْبِ تَتَّقِدُ ٱتِّقَادَا
وَعُدْتُ مُخَضَّبًا بِدَمِ ٱلْأَعَادِي ... وَكَرْبُ ٱلرَّكْضِ قَدْ خَضَبَ ٱلْجَوَادَا
وَسَيْفِي مُرْهَفُ ٱلْحَدَّيْنِ مَاضٍ ... تَقُدُّ شِفَارُهُ ٱلصَّخْرَ ٱلْجَمَادَا
وَرُمْحِي مَا طَعَنْتُ بِهِ طَعِينًا ... فَعَادَ بِعَيْنِهِ نَظَرَ ٱلرَّشَادَا
وَلَوْلَا صَارِمِي وَسِنَانُ رُمْحِي ... لَمَا رَفَعَتْ بَنُو عَبْسٍ عِمَادَا

٢٣١ قَالَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ:

لَيْسَ ٱلْجَمَالُ بِمِئْزَرٍ ... فَٱعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدَا
إِنَّ ٱلْجَمَالَ مَعَادِنٌ ... وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْدَا
أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَا ... بِغَةً وَعَدَّاءً عَلَنْدَا

نَهْدًا وَذَا شُطَبٍ يَقُدُّ ٱلْبَيْضَ وَٱلْأَبْدَانَ قَدَّا
وَعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذَا كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا
قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلْحَدِيـ دَ تَمَرَّوا حُلَقًا وَقِدَّا
كُلُّ ٱمْرِئٍ يَجْرِي إِلَى يَوْمِ ٱلْهِيَاجِ بِمَا ٱسْتَعَدَّا
نَازَلْتُ كَبْشَهُمُ وَلَمْ أَرَ مِنْ نِزَالِ ٱلْكَبْشِ بُدَّا
هُمْ يَنْذُرُونَ دَمِي وَأَنْـ ذُرُ إِنْ لَقِيتُ بِأَنْ أَشُدَّا
كَمْ مِنْ أَخٍ لِي صَالِحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدَا
مَا إِنْ جَزِعْتُ وَلَا هَلِعْـ تُ وَلَا يَرُدُّ بُكَايَ زَنْدَا
أَلْبَسْتُهُ أَثْوَابَهُ وَخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدَا
أُغْنِي غَنَاءَ ٱلذَّاهِبِيـ نَ أُعِدُّ لِلْأَعْدَاءِ عَدَّا
ذَهَبَ ٱلَّذِينَ أُحِبُّهُمْ وَبَقِيتُ مِثْلَ ٱلسَّيْفِ فَرْدَا

٢٣٢ قَالَ عَنْتَرُ وَقَدْ خَرَجَ إِلَى دِيَارِ بَنِي زَبِيدٍ فِي طَلَبِ رَأْسِ ٱبْنِ مُحَارِبٍ:

أَطْوِي فَيَافِي ٱلْفَلَا وَٱللَّيْلُ مُعْتَكِرُ وَأَقْطَعُ ٱلْبِيدَ وَٱلرَّمْضَاءُ تَسْتَعِرُ
وَلَا أَرَى مُؤْنِسًا غَيْرَ ٱلْحُسَامِ وَإِنْ قَلَّ ٱلْأَعَادِي غَدَاةَ ٱلرَّوْعِ أَوْ كَثُرُوا
فَحَاذِرِي يَا سِبَاعَ ٱلْبَرِّ مِنْ رَجُلٍ إِذَا ٱنْتَضَى سَيْفَهُ لَا يَنْفَعُ ٱلْحَذَرُ
وَرَافِقِينِي تَرَي هَامًا مُفَلَّقَةً وَٱلطَّيْرَ عَاكِفَةً تُمْسِي وَتَبْتَكِرُ
مَا خَالِدٌ بَعْدَ مَا قَدْ سِرْتُ طَالِبَهُ بِخَالِدٍ لَا وَلَا ٱلْجَيْدَاءُ تَفْتَخِرُ
وَلَا دِيَارُهُمُ بِٱلْأَهْلِ آنِسَةٌ يَأْوِي ٱلْغُرَابُ بِهَا وَٱلذِّئْبُ وَٱلنَّمِرُ

٢٣٣ وَقَالَ بَعْضُ بَنِي أَسَدٍ:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْنِي فَمَا أَبْطَرُ الْغِنَى ... وَأُعْرِضُ مَيْسُورِي عَلَى مُبْتَغِي قَرْضِي
وَأُعْسِرُ أَحْيَانًا فَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي ... وَأُدْرِكُ مَيْسُورَ الْغِنَى وَمَعِي عِرْضِي
وَمَا نَالَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ وَأَسْفَرَتْ ... أَخُو ثِقَةٍ مِنِّي بِقَرْضٍ وَلَا فَرْضِ
وَأَبْذُلُ مَعْرُوفِي وَتَصْفُو خَلِيقَتِي ... إِذَا كَدُرَتْ أَخْلَاقُ كُلِّ فَتًى مَحْضِ
وَأَسْتَنْقِذُ الْمَوْلَى مِنَ الْأَمْرِ بَعْدَ مَا ... يَزِلُّ كَمَا زَلَّ الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ
وَأَمْنَحُهُ مَالِي وَوُدِّي وَنُصْرَتِي ... وَإِنْ كَانَ مَحْنِيَّ الضُّلُوعِ عَلَى بُغْضِي
وَيَغْمُرُهُ حِلْمِي وَلَوْ شِئْتُ نَالَهُ ... قَوَارِعُ تَبْرِي الْعَظْمَ عَنْ كَلِمٍ مَضِّ
وَأَقْضِي عَلَى نَفْسِي إِذَا الْأَمْرُ نَابَنِي ... وَفِي النَّاسِ مَنْ يُقْضَى عَلَيْهِ وَلَا يَقْضِي
وَلَسْتُ بِذِي وَجْهَيْنِ فِيمَنْ عَرَفْتُهُ ... وَلَا الْبُخْلُ فَاعْلَمْ مِنْ سَمَائِي وَلَا أَرْضِي
وَإِنِّي لَسَهْلٌ مَا تُغَيِّرُ شِيمَتِي ... صُرُوفُ لَيَالِي الدَّهْرِ بِالْفَتْلِ وَالنَّقْضِ

٢٣٤ وَلِعَنْتَرَةَ فِي يَوْمِ الْمَصَانِعِ:

إِذَا كَشَفَ الزَّمَانُ لَكَ الْقِنَاعَا ... وَمَدَّ إِلَيْكَ صَرْفُ الدَّهْرِ بَاعَا
فَلَا تَخْشَ الْمَنِيَّةَ وَالْتَقِيهَا ... وَدَافِعْ مَا اسْتَطَعْتَ لَهَا دِفَاعَا
وَلَا تَخْتَرْ فِرَاشًا مِنْ حَرِيرٍ ... وَلَا تَبْكِ الْمَنَازِلَ وَالْبِقَاعَا
وَحَوْلَكَ نِسْوَةٌ يَنْدُبْنَ حُزْنًا ... وَيَهْتِكْنَ الْبَرَاقِعَ وَالْقِنَاعَا
يَقُولُ لَكَ الطَّبِيبُ دَوَاكَ عِنْدِي ... إِذَا مَا جَسَّ كَفُّكَ وَالذِّرَاعَا
وَلَوْ عَرَفَ الطَّبِيبُ دَوَاءَ دَاءٍ ... يَرُدُّ الْمَوْتَ مَا قَاسَى النِّزَاعَا
وَفِي يَوْمِ الْمَصَانِعِ قَدْ تَرَكْنَا ... لَنَا بِفِعَالِنَا خَبَرًا مُشَاعَا
أَقَمْنَا بِالذَّوَابِلِ سُوقَ حَرْبٍ ... وَصَيَّرْنَا النُّفُوسَ لَهَا مَتَاعَا

حِصَانِي كَانَ دَلَّالَ الْمَنَايَا فَخَاضَ غُبَارَهَا وَشَرَى وَبَاعَا
وَسَيْفِي كَانَ فِي الْهَيْجَا طَبِيبًا يُدَاوِي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصُّدَاعَا
أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي خُبِّرْتَ عَنْهُ وَقَدْ عَايَنْتَنِي فَدَعِ السَّمَاعَا
وَلَوْ أَرْسَلْتُ رُمْحِي مَعْ جَبَانٍ لَكَانَ بِهَيْبَتِي يَلْقَى السِّبَاعَا
مَلَأْتُ الْأَرْضَ خَوْفًا مِنْ حُسَامِي وَخَصْمِي لَمْ يَجِدْ فِيهَا اتِّسَاعَا
إِذَا الْأَبْطَالُ فَرَّتْ خَوْفَ بَأْسِي تَرَى الْأَقْطَارَ بَاعًا أَوْ ذِرَاعَا

٢٣٥ وَقَالَ مُضَرِّسُ بْنُ رِبْعِيٍّ:

إِنَّا لَنَصْفَحُ عَنْ مَجَاهِلِ قَوْمِنَا وَنُقِيمُ سَالِفَةَ الْعَدُوِّ الْأَصْيَدِ
وَمَتَى نَخَفْ يَوْمًا فَسَادَ عَشِيرَةٍ نُصْلِحْ وَإِنْ نَرَ صَالِحًا لَا نُفْسِدِ
وَإِذَا تَنَوْا صُعُدًا فَلَيْسَ عَلَيْهِمِ مِنَّا الْخَبَالُ وَلَا نُفُوسُ الْحُسَّدِ
وَنُعِينُ فَاعِلَنَا عَلَى مَا نَابَهُ حَتَّى نُيَسِّرَهُ لِفِعْلِ السَّيِّدِ
وَنُجِيبُ دَاعِيَةَ الصَّبَاحِ بِثَائِبٍ عَجِلِ الرُّكُوبِ لِدَعْوَةِ الْمُسْتَنْجِدِ
فَنَفُلُّ شَوْكَتَهَا وَنَفْثَأُ حَمِيَّهَا حَتَّى تَبُوخَ وَحَمِيُّنَا لَمْ يَبْرُدِ
وَنَحُلُّ فِي دَارِ الْحِفَاظِ بُيُوتُنَا رُتُعَ الْجَمَائِلِ فِي الدَّرِينِ الْأَسْوَدِ

٢٣٦ وَقَالَ عَنْتَرَةُ الْعَبْسِيُّ:

وَاجْهَدِي فِي عَدَاوَتِي وَعِنَادِي أَنْتِ وَاللهِ لَمْ تُلِمِّي بِبَالِي
إِنَّ لِي هِمَّةً أَشَدَّ مِنَ الصَّخْـ ـرِ وَأَقْوَى مِنْ رَاسِيَاتِ الْجِبَالِ
وَحُسَامًا إِذَا ضَرَبْتُ بِهِ الدَّهْـ ـرَ تَخَلَّتْ عَنْهُ الْقُرُونُ الْخَوَالِي
وَسِنَانًا إِذَا تَعَسَّفْتُ فِي اللَّيْـ ـلِ هَدَانِي وَرَدَّنِي عَنْ ضَلَالِي

١٩٨ ـــــــ

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا نَذِلُّ لِجَانِفٍ ... عَلَيْنَا وَلَا نَرْضَى حُكُومَةَ حَائِفِ
مَلَكْنَا الْعَوَالِي بِالْمَعَالِي فَجَارُنَا ... عَزِيزٌ وَمَنْ نَكْفُلْ بِهِ غَيْرُ خَائِفِ
وَرِثْنَا عَنِ الْآبَاءِ عِنْدَ اخْتِرَامِهَا ... صَفَائِحَ تُغْنِي عَنْ رُسُومِ الصَّحَائِفِ
تُؤَمِّرُنَا أَسْيَافُنَا وَرِمَاحُنَا ... إِذَا لَمْ يُؤَمِّرْنَا لِوَاءُ الْخَلَائِفِ
بَنَيْنَا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ كَعْبَةً ... أَطَافَ بِهَا قَسْرًا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْشُنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَلِنْ ... فَمَا نَقَدُنَا إِنْ قَارَضُونَا بِزَائِفِ
وَسَوْفَ نُجَازِي بِاللَّطَائِفِ أَهْلَهَا ... وَنَسْقِي زُعَافَ السُّمِّ أَهْلَ الْكَتَائِفِ

٢٣٩ قَالَ الْقُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ يَفْتَخِرُ بِقَوْمِهِ:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ ... طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا
لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا
كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِخَشْيَتِهِ ... سِوَاهُمُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانَا
فَلَيْتَ لِي بِهِمِ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا ... شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

٢٤٠ وَلِلَّهِ عَنْتَرُ حَيْثُ يَقُولُ:

أَنَا فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ ... غَيْرُ مَجْهُولِ الْمَكَانِ
وَحُسَامِي مَعْ قَنَاتِي ... لِفِعَالِي شَاهِدَانِ
إِنَّنِي أَطْعَنُ خَصْمِي ... وَهُوَ يَقْظَانُ الْجَنَانِ
أَسْقِهِ كَأْسَ الْمَنَايَا ... وَفِرَاهَا مِنْهُ دَانِ

خُلِقَ ٱلرُّمْحُ لِكَفِّي وَٱلْحُسَامُ ٱلْهُنْدُوَانِي
وَمَعِي فِي ٱلْمَهْدِ كَانَا فَوْقَ صَدْرِي يُؤْنِسَانِي
وَإِذَا مَا ٱلْأَرْضُ صَارَتْ وَرْدَةً مِثْلَ ٱلدِّهَانِ
وَٱلدِّمَا تَجْرِي عَلَيْهَا لَوْنُهَا أَحْمَرُ قَانِي
فَٱسْقِيَانِي وَٱسْمِعَانِي نَغْمَةً كَيْ تُطْرِبَانِي
أَطْيَبُ ٱلْأَصْوَاتِ عِنْدِي حُسْنُ صَوْتِ ٱلْهُنْدُوَانِي
وَصَرِيرُ ٱلرُّمْحِ جَهْرًا فِي ٱلْوَغَى يَوْمَ ٱلطِّعَانِ
وَصُيَاحُ ٱلْقَوْمِ فِيهِ وَهْوَ لِلْأَبْطَالِ دَانِ

٢٤١ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي هَمْدَانَ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلْخَيْلَ تَقْرَعُ بِٱلْقَنَا فَوَارِسُهَا حُمْرُ ٱلْعُيُونِ دَوَامِ
وَأَقْبَلَ رَهْجٌ فِي ٱلسَّمَاءِ كَأَنَّهُ غَمَامَةُ دَجْنٍ أَوْ عِرَاضُ قَتَامِ
وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ قَدْ أَتَتْنَا عِصَابَةٌ ذَوُو نَجَدَاتٍ فِي ٱللِّقَاءِ كِرَامِ
وَنَادَيْتُ فِيهِمْ دَعْوَةً فَأَجَابَنِي فَوَارِسُ مِنْ هَمْدَانَ غَيْرُ لِئَامِ
فَوَارِسُ مِنْ هَمْدَانَ لَيْسُوا بِعُزَّلٍ غَدَاةَ ٱلْوَغَى مِنْ شَائِكٍ وَسَنَامِ
يَقُودُهُمُ حَامِي ٱلْحَقِيقَةِ مِنْهُمُ سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ وَٱلْكَرِيمُ يُحَامِي
جَزَى ٱللهُ هَمْدَانَ ٱلْجِنَانَ فَإِنَّهُمْ سِهَامُ ٱلْأَعَادِي عِنْدَ كُلِّ حِمَامِ
مَتَى تَأْتِهِمْ فِي دَارِهِمْ تَسْتَضِيفُهُمْ تَبِتْ نَاعِمًا فِي غِبْطَةٍ وَطَعَامِ
وَقَوْمٌ يُحِبُّونَ ٱلْإِمَامَ وَهَدْيَهُ سِرَاعٌ إِلَى ٱلْهَيْجَا بِكُلِّ حُسَامِ
فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ٱدْخُلُوا بِسَلَامِ

٢٤٢ ومن المعجب في هذا الباب قول مجير الدين بن تميم :

لو كنت تشهدني وقد حمي الوغى ... في موقف ما الموت فيه بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدي ... تجري دماً من تحت ظل القسطل

٢٤٣ قال بدر الدين بن فضل الله يتهدد تيمور لنك على لسان الظاهر برقوق

السيف والرمح والنشاب قد علمت ... منا الحروب فسل منها تلبيكا
إذا التقينا تجد هذا مشاهدة ... في الحرب فاثبت فأمر الله آتيكا
بخدمة الحرمين الله شرفنا ... فضلا وملكنا الأمصار تمليكا
وبالجميل وحلو النصر عودنا ... خذ التواريخ واقرأها فتثبيكا
ومن يكن ربه الفتاح ناصره ... فمن يخاف وهذا القول يكفيكا

٢٤٤ قصيدة ابن سناء الملك في الفخر

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى ... وغيري يهوى أن يعيش مخلدا
ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا ... ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
ولو مد نحوي حادث الدهر كفه ... لحدثت نفسي أن أمد له يدا
توقد عزمي يترك الماء جمرة ... وحيلة حلمي تترك السيف مبردا
وفرط احتقاري للأنام لأنني ... أرى كل عار من حلى سؤددي سدى
ويأبى إبائي أن يراني قاعدا ... وإني أرى كل البرية مقعدا
وأظمأ إن أبدى لي الماء منة ... ولو كان لي نهر المجرة موردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلل ... رأيت الهدى أن لا أميل إلى الهدى
وقدما بغيري أصبح الدهر أشيبا ... وبي وبفضلي أصبح الدهر أمردا

وَإِنَّكَ عَبْدِي يَا زَمَانُ وَإِنَّنِي ... عَلَى الرَّغْمِ مِنِّي أَنْ أَرَى لَكَ سَيِّدَا
وَمَا أَنَا رَاضٍ أَنَّنِي وَاطِئُ الثَّرَى ... وَلِي هِمَّةٌ لَا تَرْتَضِي الْأُفْقَ مَقْعَدَا
وَلَوْ عَلِمَتْ زُهْرُ النُّجُومِ مَكَانَتِي ... لَخَرَّتْ جَمِيعًا نَحْوَ وَجْهِي سُجَّدَا
أَرَى الْخَلْقَ دُونِي إِذْ أَرَانِي فَوْقَهُمْ ... ذَكَاءً وَعِلْمًا وَاعْتِلَاءً وَسُؤْدَدَا
وَبَذْلُ نَوَالِي زَادَ حَتَّى لَقَدْ غَدَا ... مِنَ الْغَيْظِ مِنْهُ سَاكِنُ الْبَحْرِ مُزْبِدَا
وَلِي قَلَمٌ فِي أُنْمُلِي إِنْ هَزَزْتُهُ ... فَمَا ضَرَّنِي أَنْ لَا أَهُزَّ الْمُهَنَّدَا
إِذَا صَالَ فَوْقَ الطِّرْسِ وَقْعُ صَرِيرِهِ ... فَإِنَّ صَلِيلَ الْمَشْرَفِيِّ لَهُ صَدَى

٢٤٥ لِأَبِي الطَّمْحَانِ الْقَيْنِيِّ:

وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمُ هُمُ ... إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهْ
نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ ... بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهْ
أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجِزْعَ ثَاقِبُهْ
وَمَا زَالَ مِنْهُمْ حَيْثُ كَانُوا مُسَوَّدٌ ... تَسِيرُ الْمَنَايَا حَيْثُ سَارَتْ كَتَائِبُهْ

٢٤٦ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ:

وَلَقَدْ تُقَلِّدُنَا الْعَشِيرَةُ أَمْرَهَا ... وَتَسُودُ يَوْمَ النَّائِبَاتِ وَنَعْتَلِي
وَتَزُورُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ رِكَابُنَا ... وَمَتَى تُحَكِّمْ فِي الْبَرِيَّةِ نَعْدِلِ
وَنُحَاوِلُ الْأَمْرَ الْمُهِمَّ خِطَابُهُ ... فِيهِمْ وَنَفْصِلُ كُلَّ أَمْرٍ مُعْضِلِ

٢٤٧ قَالَ أَبُو الْجَرَّاحِ الْبَكْرِيُّ:

إِنَّا لَنَبْنِي عَلَى مَا شَيَّدَتْهُ لَنَا ... آبَاؤُنَا الْغُرُّ مِنْ مَجْدٍ وَمِنْ كَرَمِ
لَا يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْنًا فِي مَنَازِلِنَا ... إِلَّا إِلَى ضَاحِكٍ مِنَّا وَمُبْتَسِمِ

إِنِّي إِذَا كَانَ قَوْمِي فِي الْوَرَى عَلَمًا فَإِنَّنِي عَلَمٌ فِي ذَلِكَ الْعَلَمِ

٢٤٨ قَالَ الْأَدِيبُ أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ بَقِيٍّ مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ :

هُوَ الشِّعْرُ أَجْرَى فِي مَيَادِينِ سَبْقِهِ وَأَفْرَجَ مِنْ أَبْوَابِهِ كُلَّ مُبْهَمِ
وَسَلْ أَهْلَهُ عَنِّي هَلِ امْتَرَتْ مِنْهُمُ بِطَبْعِي وَهَلْ غَادَرْتُ مِنْ مُتَرَدَّمِ
سَلَكْتُ أَسَالِيبَ الْبَدِيعِ فَأَصْبَحَتْ بِأَقْوَالِيَ الرُّكْبَانُ فِي الْبِيدِ تَرْتَمِي
وَرُبَّمَا غَنَّى بِهِ كُلُّ سَاجِعٍ يُرَدِّدُهُ فِي شَجْوِهِ وَالتَّرَنُّمِ
وَضَيَّعَنِي قَوْمِي لِأَنِّي لِسَانُهُمْ إِذَا أُقْحِمَ الْأَقْوَامُ عِنْدَ التَّكَلُّمِ
وَطَالَبَنِي دَهْرِي لِأَنِّيَ زِنْتُهُ وَأَنِّيَ فِيهِ غُرَّةٌ فَوْقَ أَدْهَمِ

٢٤٩ مِنْ شِعْرِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ قَوْلُهُ :

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيَّنُوا سُنَنًا لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلٰهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدَعُ
لَوْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ عِنْدَ الرِّقَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَازَ سَبْقُهُمُ أَوْ وَارَثُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالنَّدَى مَنَعُوا
لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمُ وَإِنْ أُصِيبُوا فَلَا ضَوْرٌ وَلَا هَلَعُ
وَلَا يَضِنُّونَ عَنْ جَارٍ بِفَضْلِهِمِ وَلَا يَمَسُّهُمُ فِي مَطْمَعٍ طَمَعُ
كَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمِ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ سَمَعُ

٢٠٤ ـــــــ

الباب الثاني عشر
في الهجو

٢٥٤ كَانَ الرَّشِيدُ أَحْمَدُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَدِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ صِفَاتٌ وَأَخْلَاقٌ تَقْتَضِي أَنْ تُجَوِّدَ مَعَانِيَ الْهِجَاءِ فِيهِ . مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ كَانَ أَسْوَدَ وَلَا يَزَالُ يَدَّعِي الذَّكَاءَ وَأَنَّ خَاطِرَهُ مِنْ نَارٍ. فَقَالَ فِيهِ ابْنُ قَادُوسٍ :

إِنْ قُلْتَ مِنْ نَارٍ خُلِقْتُ وَفُقْتُ كُلَّ النَّاسِ فَهْمَا
قُلْنَا صَدَقْتَ فَمَا الَّذِي أَطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحْمَا

٢٥٥ قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي بَخِيلٍ :

يَرَاعَةٌ غَرَّنِي مِنْهَا وَمِيضُ سَنًا حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهَا الْكَفَّ مُقْتَبِسَا
فَصَادَفَتْ حَجَرًا لَوْ كُنْتَ تَضْرِبُهُ مِنْ لُؤْمِهِ بِعَصَا مُوسَى لَمَا انْبَجَسَا

٢٥٦ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ فِي آخَرَ :

أَبُو نُوحٍ دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا فَغَدَّانِي بِرَائِحَةِ الطَّعَامِ
وَقَدَّمَ بَيْنَنَا لَحْمًا سَمِينًا أَكَلْنَاهُ عَلَى طَبَقِ الْكَلَامِ
فَلَمَّا أَنْ رَفَعْتُ يَدِي سَقَانِي كُؤُوسًا خَمْرُهَا رِيحُ الْمُدَامِ
فَكَانَ كَمَنْ سَقَى الظَّمْآنَ آلًا وَكُنْتُ كَمَنْ تَغَدَّى فِي الْمَنَامِ

وَقَالَ أَيْضًا فِي غَيْرِهِ :

رَأَيْتُ أَبَا زُرَارَةَ قَالَ يَوْمًا لِحَاجِبِهِ وَفِي يَدِهِ الْحُسَامُ
لَئِنْ وُضِعَ الْخِوَانُ وَلَاحَ شَخْصٌ لَأَخْتَطِفَنَّ رَأْسَكَ وَالسَّلَامُ

٢٠٦ ـــــــ

أَلرُّوحُ يَشكُو لِجُثمانِ ٱلعَلِيلِ عَلَى عِلَّاتِهِ فَإِذَا مَا طَبَّهُ رَحَلَا

٢٦٣ مِن شِعرِ ٱبنِ ٱلمُبَارَكِ قَولُهُ فِي هَجوِ قَاضٍ:

قَد يَفتَحُ ٱلمَرءُ حَانُوتًا لِمَتجَرِهِ وَقَد فَتَحتَ لَكَ ٱلحَانُوتَ بِٱلدِّينِ
بَينَ ٱلأَسَاطِينِ حَانُوتٌ بِلَا غَلَقٍ تَبتَاعُ بِٱلدِّينِ أَموَالَ ٱلمَسَاكِينِ
صَيَّرتَ دِينَكَ شَاهِينًا تَصِيدُ بِهِ وَلَيسَ يُفلِحُ أَصحَابُ ٱلشَّوَاهِينِ

٢٦٤ مِن شِعرِ أَبِي ٱلعَبَّاسِ يَهجُو بَنِي ٱلزُّبَيرِ:

بَنِي أَسَدٍ لَا تَذكُرُوا ٱلفَخرَ إِنَّكُم مَتَى تَذكُرُوهُ تَكذِبُوا وَتُحَمَّقُوا
مَتَى تُسأَلُوا فَضلًا تَضِنُّوا وَتَبخَلُوا وَنِيرَانُكُم بِٱلشَّرِّ فِيهَا تَحَرَّقُ
إِذَا ٱستَبَقَت يَومًا قُرَيشٌ خَرَجتُم بَنِي أَسَدٍ سَكتًا وَذُو ٱلمَجدِ يَسبِقُ
تَجِيئُونَ خَلفَ ٱلقَومِ سُودًا وُجُوهُكُم إِذَا مَا قُرَيشٌ لِلأَضَامِيمِ أَصفَقُوا
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ لِلَّؤمِ طَابَعًا يَلُوحُ عَلَيكُم رَسمُهُ لَيسَ يُخلَقُ

٢٦٥ قَالَ أَبُو ٱلعَبَّاسِ ٱلكُورَانِيُّ يَذُمُّ أَهلَ مَدِينَةِ فَاسٍ:

مَشَى ٱللُّؤمُ فِي ٱلدُّنيَا طَرِيدًا مُشَرَّدًا يَجُوبُ بِلَادَ ٱللهِ شَرقًا وَمَغرِبَا
فَلَمَّا أَتَى فَاسًا تَلَقَّاهُ أَهلُهَا وَقَالُوا لَهُ أَهلًا وَسَهلًا وَمَرحَبَا

٢٦٦ قَالَ عَلِيُّ بنُ ٱلمُفَرِّجِ ٱلمُنَجِّمُ لَمَّا ٱحتَرَقَت دَارُ ٱبنِ صُورَةَ بِمِصرَ:

أَقُولُ وَقَد عَايَنتُ دَارَ ٱبنِ صُورَةٍ وَلِلنَّارِ فِيهَا مَارِجٌ يَتَضَرَّمُ
كَذَا كُلُّ مَالٍ أَصلُهُ مِن مَهَاوِشٍ فَعَمَّا قَلِيلٍ فِي نَهَارٍ يُغرَمُ
وَمَا هُوَ إِلَّا كَافِرٌ طَالَ عُمرُهُ فَجَاءَتهُ لَمَّا ٱستَبطَأَتهُ جَهَنَّمُ

٢٦٧ قَالَ ٱلأَدِيبُ أَبُو بَكرٍ يَحيَى بنُ بَقِيٍّ لَمَّا ٱنصَرَفَ عَنِ ٱلمَغرِبِ

وقد ذم عند أهلها مثواه . وصفرت من نائلهم يداه :

أقمت فيكم على الإقتار والعدم ... لو كنت حرًّا أبي النفس لم أقم
وظلت أبكي لكم عذرًا لعلكم ... تستيقظون وقد نمتم عن الكرم
فلا حديقتكم يجنى بها ثمر ... ولا سماؤكم تنهل بالديم
أوغلت في المغرب الأقصى وأعجزني ... نيل الرغائب حتى أبت بالندم

٢٦٨ قال أحمد الشاهيني يهجو أبا البقاء الصالحي الساحر :

أبا البقاء لحاك الله من رجل ... فيك الطبيعة قد قدت من الحجر
كم يدعي بعلوم النجم معرفة ... وليس تفرق بين النجم والقمر

٢٦٩ هجا بعض المغاربة قبائل البربر فقال :

رأيت آدم في نومي فقلت له ... أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال إذا ... حواء طالقة إن كان ما زعموا

الباب الثالث عشر
في الألغاز

٢٧٠ لغز في خاتم للصفدي :

ومستدير يروق العين بهجته ... كأنه ملك نجم الدجى فيه
حروفه أربع قد ركبت فإذا ... ما قلت أول حرف تم باقيه

٢٧١ قال بعضهم ملغزًا في قلم :

وَطَائِرٍ فِي وَكْرِهِ نَائِمٍ يَطِيرُ فِي الْأَرْضِ بِأَسْرَارِهِ
حَيَاتُهُ فِي قِطَعِ أَوْدَاجِهِ وَعَيْشُهُ فِي قَطِّ مِنْقَارِهِ
يُكْرَعُ مِنْ مُسْتَنْقَعِ الْقَارِ كَيْ يَأْخُذَ بِالْمِنْقَارِ مِنْ قَارِهِ

٢٧٢ قَالَ ابْنُ بُصَافَةَ مُلْغِزًا فِي الْبَيْضَةِ:

وَمَوْلُودَةٍ لَا رُوحَ فِيهَا وَإِنَّهَا لَتَقْبَلُ نَفْخَ الرُّوحِ بَعْدَ وِلَادِهَا
وَتَسْمُو عَلَى الْأَقْرَانِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى وَلَكِنْ سُمُوًّا لَمْ يَكُنْ بِمُرَادِهَا
أَرَادَ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ بَيْضَةَ الدَّجَاجَةِ وَفِي الثَّانِي بَيْضَةَ الْحَرْبِ

٢٧٣ أَنْشَدَ الْإِمَامَ ابْنَ الْحَلَاوِيِّ رَجُلٌ لُغْزًا فِي شَبَابَةٍ فَقَالَ:

وَنَاطِقَةٍ خَرْسَاءَ بَادٍ شُحُوبُهَا تَكَنَّفَهَا عَشْرٌ وَعَنْهُنَّ تُخْبِرُ
يَلَذُّ إِلَى الْأَسْمَاعِ رَجْعُ حَدِيثِهَا إِذَا سُدَّ مِنْهَا مَنْخِرٌ جَاشَ مَنْخِرُ

٢٧٤ كَانَ ابْنُ شَبِيبٍ مُقَدَّمًا فِي حَلِّ الْأَلْغَازِ لَا يَكَادُ يَتَوَقَّفُ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ. فَتَفَاوَضَ أَبُو غَالِبِ بْنُ الْحَصِينِ وَأَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ فِي أَمْرِ ابْنِ شَبِيبٍ هٰذَا وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ حَلِّ اللُّغْزِ. فَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ: تَعَالَ حَتَّى نَعْمَلَ لُغْزًا مُحَالًا وَنَسْأَلَهُ عَنْهُ. فَنَظَمَ أَبُو الْمَنْصُورِ:

وَمَا شَيْءٌ لَهُ فِي الرَّأْسِ رِجْلٌ وَمَوْضِعُ وَجْهِهِ مِنْهُ قَفَاهُ
إِذَا غَمَّضْتَ عَيْنَكَ أَبْصَرَتْهُ وَإِنْ فَتَّحْتَ عَيْنَكَ لَا تَرَاهُ

وَنَظَمَ أَيْضًا:

وَجَارٍ هُوَ تَيَّارٌ ضَعِيفُ الْعَقْلِ ضَوَّارُ
بِلَا لَحْمٍ وَلَا رِيشٍ وَهُوَ فِي الرَّمْزِ طَيَّارُ

بِطَبْعٍ بَارِدٍ جِدًّا وَلَكِنْ كُلُّهُ نَارُ

وَأَنْفَذَا اللُّغْزَيْنِ إِلَيْهِ. فَكَتَبَ عَلَى الْأَوَّلِ: هُوَ طَيْفُ الْخَيَالِ. وَكَتَبَ عَلَى الثَّانِي: هُوَ الزِّئْبَقُ. فَجَاءَا إِلَيْهِ وَقَالَا: هَبِ اللُّغْزَ الْأَوَّلَ هُوَ طَيْفُ الْخَيَالِ وَالْبَيْتَ الثَّانِي يُسَاعِدُكَ عَلَيْهِ فَكَيْفَ تَعْمَلُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ. فَقَالَ: لِأَنَّ الْمَنَامَ يُفَسَّرُ بِالْعَكْسِ لِأَنَّ مَنْ بَكَى يُفَسَّرُ لَهُ بِالضَّحِكِ. وَمَنْ مَاتَ يُفَسَّرُ لَهُ بِطُولِ الْحَيَاةِ. وَقَوْلُهُ فِي الثَّانِي هُوَ طَيَّارٌ أَنَّ أَرْبَابَ صَنْعَةِ الْكِيمِيَاءِ يَرْمُزُونَ لِلزِّئْبَقِ بِالطَّيَّارِ وَالْفَرَّارِ وَالْآبِقِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُنَاسِبُ صِفَتَهُ. وَأَمَّا بَرْدُهُ فَظَاهِرٌ. وَلِإِفْرَاطِ بَرْدِهِ ثَقُلَ جِسْمُهُ وَجِرْمُهُ. وَكُلُّهُ نَارٌ لِسُرْعَةِ حَرَكَتِهِ وَتَشَكُّلِهِ فِي افْتِرَاقِهِ وَالْتِئَامِهِ. فَأُعْجِبَا مِنْ ذَكَائِهِ وَتَوَقُّدِ عَقْلِهِ (لابن حجّة الحموي)

٢٧٥ قَالَ الصَّفَدِيُّ فِي الْمُدَامِ:

وَمَا شَيْءٌ حَشَاهُ فِيهِ دَاءٌ وَأَوَّلُهُ وَآخِرُهُ سَوَاءُ
إِذَا مَا زَالَ آخِرُهُ فَجَمْعٌ يَكُونُ الْحَدُّ فِيهِ وَالْمِضَاءُ
وَإِنْ أَهْمَلْتَ أَوَّلَهُ فَفِعْلٌ لَهُ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ اعْتِنَاءُ

٢٧٦ لِابْنِ الْمُعْتَزِّ فِي شَمْعَةٍ:

صَفْرَاءُ مِنْ غَيْرِ عِلَلْ مَرْكُوزَةٌ مِثْلَ الْأَسَلْ
كَأَنَّهَا عُمْرُ الْفَتَى وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلْ

٢٧٧ لِلْحِلِّيِّ فِي دُودِ الْقَزِّ:

وَمَا حَيَوَانٌ عَكْسُهُ مِثْلُ طَرْدِهِ لَهُ جَسَدٌ سَبْطٌ وَلَيْسَ لَهُ قَلْبُ

ضَعِيفٌ وَكَمْ أَغْنَتْ مُجَاجَةُ رَتْعِهِ فَقِيرًا بِهِ أَمْسَى وَمَرْبَعُهُ خَصْبُ
يُرَى مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ طَوْرًا وَتَارَةً مِنَ الطَّيْرِ لَكِنْ دُونَهُ تُسْبَلُ الْحُجْبُ
شَقِيٌّ لِنَفْعِ الْغَيْرِ يَسْجُنُ نَفْسَهُ وَلَيْسَ لَهُ فِي السِّجْنِ أَكْلٌ وَلَا شُرْبُ

٢٧٨ لِبَعْضِهِمْ فِي الْبَحْرِ:

وَحَمَّالِ أَثْقَالِ الْبَرِيَّةِ قَادِرٍ وَيَعْجِزُ إِنْ حَمَّلْتَهُ نِصْفَ دِرْهَمِ
يَسِيرُ بِأَيْدِي النَّاسِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَيَسْرِي بِلَا رِجْلٍ لَهُ سَيْرَ أَرْقَمِ

٢٧٩ لِآخَرَ فِي الْفِكْرِ:

وَمَا شَيْءٌ يَجُوبُ الْأَرْضَ سَبْقًا وَيُبْصِرُ مَا أَرَادَ بِغَيْرِ عَيْنِ
يُشَاهِدُ مَا يُرِيدُ بِلَا لُغُوبٍ وَلَا يَبْرَحُ بِلَا كَدَرٍ وَمَيْنِ

٢٨٠ لِلْمُتَنَبِّي فِي الْحُمَّى:

وَزَائِرَةٍ كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفَسِي وَعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ

٢٨١ وَمِنْ لَطَائِفِ مَا وَقَعَ فِي بَابِ الْأَلْغَازِ أَنَّ شَيْخَ الشُّيُوخِ بِحَمَاةَ كَتَبَ إِلَى وَالِدِهِ مُلْغِزًا فِي بَابٍ بِقَوْلِهِ:

مَا وَاقِفٌ بِالْمَخْرَجِ يَذْهَبُ طَوْرًا وَيَجِي
لَسْتُ أَخَافُ شَرَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ بِمُرْتَجِ

فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَالِدُهُ فِي الْجَوَابِ: ذَهَابٌ وَمَجِيءٌ وَخَوْفٌ وَشَرٌّ هٰذَا بَابُ خُصُومَةٍ. وَالسَّلَامُ

٢٨٢ قَالَ ٱلْقَاضِي مُحْيِي ٱلدِّينِ بْنُ عَبْدِ ٱلظَّاهِرِ مُلْغِزًا فِي بَابٍ أَيْضًا:

أَيُّ شَيْءٍ تَرَاهُ فِي ٱلدُّورِ وَٱلْكُتْـ ـبِ مَجَازًا هٰذَا وَذَاكَ مُحَقَّقْ
هُوَ زَوْجٌ وَتَارَةً هُوَ فَرْدٌ وَهُوَ فِي أَكْثَرِ ٱلْأَحَايِينِ يُطْرَقْ
وَطَلِيقٌ فِي نَشْأَتَيْهِ وَلٰكِنْ بِحَدِيدٍ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ يُوثَقْ
وَهُوَ فِي ٱلْقَلْبِ يَسْتَوِي وَتَرَاهُ بَانَ تَصْحِيفُهُ لِمَنْ يَتَرَمَّقْ
فَأَجِبْنِي عَنْـهُ بَقِيتَ مُطَاعًا لَسْتَ فِي حَلْبَةِ ٱلْفَضَائِلِ تُسْبَقْ

٢٨٣ قَالَ صَاحِبُ دَوَاوِينِ ٱلْإِنْشَاءِ بِدِمَشْقَ ٱلْمَحْرُوسَةِ مُلْغِزًا فِي فَاخِتَةٍ:

وَمَا طَائِرٌ يَهْوَى ٱلرِّيَاضَ تَنَزُّهًا وَيَسْرَحُ فِي أَفْنَانِهَا وَيُغَرِّدُ
وَفِيهِ أَخٌ إِنْ تِهْتَ عَنْـهُ فَأُخْتُهُ تَدُلُّ عَلَى مَا قَدْ عَنَيْتُ وَتُرْشِدُ

هٰذَا ٱللُّغْزُ وَرَدَ إِلَى ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ وَحَلَّهُ زَيْنُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْعَجَمِيِّ بِقَوْلِهِ:

أَيَا مَنْ لَهُ مَجْدٌ أَثِيلٌ وَسُؤْدَدُ غَدَا دُونَ مَرْقَاهُ سِمَاكٌ وَفَرْقَدُ
تُفِيدُ يَسَارَ ٱلْمُقْتِرِينَ يَمِينُـهُ وَيُسْرَاهُ مِنْ يُمْنَى ٱلْغَمَامَةِ أَجْوَدُ
سُؤَالُكَ عَنْ أُنْثَى طَرُوبٍ وَلَمْ تَزَلْ عَلَى عُودِهَا فِي ٱلرَّوْضِ تَشْدُو وَتُنْشَدُ
وَتَجْذُبُنِي بِٱلطَّوْقِ عِنْدَ نَشِيدِهَا لِنَحْوِ ٱلتَّصَابِي لَا أُطِيـقُ أُفَنَّدُ
وَمُذْبَانَ مِنْهَا ٱلطَّرْفُ أُمْسَتْ بِعَكْسِهَا تُخَافُ ٱلرَّدَى مِمَّنْ لَهَا يَـتَرَصَّدُ
وَإِنْ سُلِبَتْ ثَانِي ٱلْأَخِيرِ فَإِنَّهُ عَلَى ٱلْعَكْسِ خَافٍ بَلْ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
فَأَوَّلُهَا مَعْ مَا يَلِيـهِ وَطَرْفُهَا لَنَا فَاهَ بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي فِيهِ يُقْصَدُ
بَقِيتَ بَقَاءَ ٱلدَّهْرِ عِزُّكَ بَاذِخٌ وَفِي مَفْرِقِ ٱلْجَوْزَا لِوَاؤُكَ يُعْقَدُ
فَخُذْهُ مُبِينًا مُغْضِيًا عَنْ إِسَاءَتِي فَإِنَّكَ لِلْإِحْسَانِ أَهْـلٌ وَمَقْصَدُ

٢٨٤ وقال ملغزًا في دُرَّة :

أيُّ شيءٍ مِنَ الجَمادَاتِ يُلْفَى ... وتَرَاهُ مِنْ بَعْدِ ذَا حَيَوَانَا
وتَرَى ذٰلِكَ الجَمادَ عَزِيزًا ... غَالِيًا مِنْهُ رصَّعُوا تِيجَانَا
وتَرَى الرُّوحَ مِنْهُ فِي حَيَوَانٍ ... ذِي جَنَاحٍ وَيَأْلَفُ الطَّيرَانَا
وَإِذَا مَا شَدَا عَلَى العُودِ يَوْمًا ... فَوقَ دُفٍّ يُحَرِّكُ الأَغْصَانَا
أَوْ بَدَا فِي مُقَصَّصٍ فَابْنُ بُرْدٍ ... عِنْدَ أَسْجَاعِهِ يَصِيرُ مُهَانَا
كُلُّهُ طَائِرٌ وَفِي ثُلْثِهِ لَكَ ... ذُو أَرْبَعٍ مَعَ العَكْسِ بَانَا
كُلُّهُ عَاطِلٌ بِهِ تَتَحَلَّى ... كُلُّ خَوْدٍ وَتَسْتَقِلُّ الجُمَانَا
وَتَرَاهُ عِنْدَ المُلُوكِ عَظِيمًا ... وَبِتَصْحِيفِهِ حَقِيرًا مُهَانَا
عَكْسُهُ فِي تَصْحِيفِهِ زِدْ بِنَقْصٍ ... فَالمُعَمَّى هُنَا فَكُنْ يَقْظَانَا
وَإِذَا لَمْ تَدْرِ التَّصَاحِيفَ ذَرْهُ ... لِلَّذِي فِيهِ فَهْوَ يَدْرِي البَيَانَا
وَبِتَحْرِيفِهِ تُؤَدِّبُ مَنْ شِئْـ ... ـتَ إِذَا كَانَ يَجْهَلُ العِرْفَانَا
ثُلْثَاهُ دُرٌّ نَفِيسٌ وَفِي فِيـ ... ـهِ إِذَا جَاءَ يَصْحَبُ المَرْجَانَا
لٰكِنِ الثُّلْثُ عِنْدَهُ نِصْفُ وَحْشٍ ... ذَبَّ عَنَّا تَصْحِيفُهُ مَا اعْتَرَانَا
وَهْوَ فِي البَرِّ نَافِرٌ وَإِذَا مَا ... حَضَّرُوهُ قَدْ يَأْلَفُ الإِنْسَانَا
فَافْتَرِسْهُ بِالحَلِّ إِنْ كُنْتَ لَيْثًا ... فَهْوَ لُغْزٌ عَنْ فَضْلِهِ قَدْ أَبَانَا

٢٨٥ قال الحموي في القفص :

أيُّ مَغْنًى أَعْوَادُهُ بَيْتُ شَدْوٍ ... مُرْقِصٌ مُطْرِبٌ وَبِالقَلْبِ صَفَّقْ
وَلِمَجْمُوعِهِ النَّبَاتِيِّ حُسْنٌ ... فُزْتَ مِنْ بَعْضِهِ بِسَجْعِ المُطَوَّقْ

الباب الرابع عشر
في الوصف

٢٨٦ (قال أعرابيٌّ يصف قوماً): هم لُيوثُ غاباتٍ. وغُيوثُ جَدَباتٍ. ما في عُهودِهم خَوَرٌ. ولا في صُفوفِهم كَدَرٌ. ولا في خُدودِهم صَعَرٌ. ولا في عُيونِهم خَزَرٌ. ولا في صُدورِهم وَغَرٌ. ولا في حَديثِهم زَوَرٌ. ولا في قَولِهم خَلَفٌ

وصف مصر

٢٨٧ رُوِيَ أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ كَتَبَ إلى عَمرِو بنِ العاصِ وهو أميرُ مِصرَ: أن صِفْ لي مِصرَ. فكَتَبَ إليه: أصلَحَ اللهُ الأميرَ. مِصرُ تُربةٌ غَبراءُ. وشَجَرةٌ خَضراءُ. طولُها شَهرٌ. وعَرضُها عَشرٌ. يَكنُفُها جَبلٌ أغبَرُ. ورَملٌ أعفَرُ. يَخُطُّ وَسطَها نَهرٌ مَيمونُ الغَدَواتِ. مُبارَكُ الرَّوحاتِ. يَجري بالزِّيادةِ والنُّقصانِ. كَجَري الشَّمسِ والقَمرِ له أوانٌ. تَظهَرُ به عُيونُ الأرضِ وَيَنابيعُها. حتّى إذا أصلَحَ عَجاجُه. وتَعظَّمَت أمواجُه. لم يَكُن وُصولُ بَعضِ أهلِ القُرى إلى بَعضٍ إلّا في خِفافِ القَوارِبِ. وصِغارِ المَراكِبِ. فإذا تَكامَلَت تِلكَ كذلكَ نَكَصَ على عَقِبِه كأوَّلِ ما بَدأَ في شِدَّتِه وطَمِّا في حِدَّتِه. فعِندَ ذلكَ يَظهَرُ أهلُ مِلَةٍ مَحفوظةٍ يُخرِجونَ مِن كُلِّ مَحلَّةٍ أدِلَّةً. يَخرُثونَ بُطونَ أوديَتِه ورَوابيه. يَبذُرونَ الحَبَّ. يَرجونَ الثِّمارَ مِنَ الرَّبِّ لِغَيرِهِم ما سَعَوا مِن كَسبِهِم.

وَيُنَالُ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ حَدِّهِمْ. حَتَّى إِذَا أَشْرَقَ وَأَشْرَفَ سَقَاهُ مِنْ فَوْقِهِ ٱلنَّدَى. وَغَذَاهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلثَّرَى. فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَدِرُّ حِلَابُهُ. وَيُغَنِّي ذُبَابُهُ. فَبَيْنَمَا هِيَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ. إِذَا هِيَ عَنْبَرَةٌ سَوْدَاءُ. فَإِذَا هِيَ زَبَرْجَدَةٌ خَضْرَاءُ. فَتَعَالَى ٱللهُ ٱلْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ. فَلَمَّا وَقَفَ عُمَرُ عَلَى كَلَامِهِ قَالَ: لِلّٰهِ دَرُّكَ يَا ٱبْنَ ٱلْعَاصِ لَقَدْ وَصَفْتَ لِي مِصْرَ حَتَّى كَأَنِّي شَاهَدْتُهَا

وصف دابّة

٢٨٨ قِيلَ ٱشْتَرَى رَجُلٌ دَابَّةً مِنْ دَمِيرَةَ. فَوَجَدَ بِهَا عُيُوبًا كَثِيرَةً. فَحَضَرَ إِلَى ٱلْقَاضِي يَشْتَكِي حَالَهُ. وَمَا أَصَابَهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَنَالَهُ. فَقَالَ لَهُ ٱلْقَاضِي: مَا قِصَّتُكَ وَشَكْوَاكَ. وَمَا ٱلَّذِي مِنَ ٱلْهَمِّ وَٱلْغَمِّ دَهَاكَ. فَقَالَ: أَيُّهَا ٱلْقَاضِي. إِنِّي بِحُكْمِكَ رَاضِي. إِشْتَرَيْتُ مِنْ هٰذَا ٱلْغَرِيمِ دَابَّةً ٱشْتَرَطَ لِي فِيهَا ٱلصِّحَّةَ وَٱلسَّلَامَةَ. فَوَجَدْتُ بِهَا عُيُوبًا أَعْقَبَتْنِي نَدَامَةً. وَقَدْ سَأَلْتُهُ رَدَّهَا فَأَبَى. وَقَالَ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ إِيَّايَ: لَا أَهْلًا بِكَ وَلَا مَرْحَبًا. فَقَالَ ٱلْقَاضِي: أَبِنْ مَا بِهَا مِنَ ٱلْعُيُوبِ. وَإِلَّا جَعَلْتُكَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْخَشَبَةِ مَصْلُوبٌ. فَقَالَ: كُلُّهَا عُيُوبٌ وَذُنُوبٌ. وَهِيَ أَيُّهَا ٱلْقَاضِي أَنْحَسُ مَرْكُوبٍ. وَأَخَسُّ مَصْحُوبٍ. إِنْ رَكِبْتَهَا رَفَسَتْ. وَإِنْ نَخَسْتَهَا شَمَسَتْ. وَإِنْ هَمَزْتَهَا قَمَصَتْ. وَإِنْ لَكَزْتَهَا رَقَصَتْ. وَإِنْ سُقْتَهَا رَقَدَتْ. وَإِنْ نَزَلْتَ عَنْهَا شَرَدَتْ. تَقْطَعُ فِي يَدَيْهَا. وَتَصُكُّ بِرِجْلَيْهَا. حَدْبَاءُ جَرْبَاءُ كَبَّاءُ. لَا تَقُومُ حَتَّى تُحْمَلَ عَلَى ٱلْخَشَبِ. وَلَا تَنَامُ حَتَّى تُكَبَّلَ بِٱلسَّلَبِ. إِنْ قَرُبَتْ مِنَ ٱلْجِرَارِ كَسَرَتْهَا.

٢١٦ ـــــــ

وَبَعِيدِ الْحِدْثَانِ. أَضْلَلْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ. بِالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالْوَسْوَاسِ. وَكَانَ مِنْ جِنْسِ بَنِي آدَمَ كَذَا وَكَذَا أَلْفَ عَالِمٍ خُدَّامِي وَمَعِي. وَجُنْدِي وَتَبَعِي. مِنْهُمْ رُؤُوسُ الزُّهَّادِ. وَعُلَمَاءُ الْعُبَّادِ. وَعَلَى مَحَبَّتِي مَضَوْا. وَبِاتِّبَاعِ أَوَامِرِي قَضَوْا. فَأَنَا فِتْنَةُ الْعَالَمِ. وَأَعْدَى أَعْدَاءِ بَنِي آدَمَ. الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ. وَإِبْلِيسُ الذَّمِيمُ. اسْمُ ذَاتِي. وَوَصْفُ صِفَاتِي. أَنَا رَأْسُ الْعَفَارِيتِ الْمُتَمَرِّدِينَ. وَمَحَلُّ غَضَبِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. خُلِقْتُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ. وَطُبِعْتُ عَلَى إِلْقَاءِ الْبَوَارِ وَالدَّمَارِ. رُجُومُ النُّجُومِ إِنَّمَا أُعِدَّتْ لِأَجْلِي. وَعُتَاةُ الْغُوَاةِ لَا تَصِلُ رُؤُوسُهَا إِلَى مَوَاطِئِ رِجْلِي. الشَّيَاطِينُ تَسْتَمِدُّ مِنْ زَوَاخِرِ مَكْرِي. وَالزِّنْدِيقُ يَقْتَبِسُ مِنْ ضَمَائِرِ فِكْرِي. لَمْ تَمُرَّ قَضِيَّةٌ مِنَ الزَّمَانِ الْغَابِرِ إِلَّا وَلِي شِرْكَةٌ فِيهَا. وَلَا حَدَثَتْ مِحْنَةٌ لِنَبِيٍّ وَلَا وَلِيٍّ إِلَّا وَأَنَا مُتَعَاطِيهَا. جَدِّي إِبْلِيسُ. نَهَضَ لِجَدِّي التَّعِيسِ. وَإِلَى نَحْوِ آدَمَ هَوَى. فَعَصَى رَبَّهُ فَغَوَى. وَأَنَا قَضَيْتُ بِالتَّسْوِيلِ. حَتَّى قَتَلَ قَايِنُ هَابِيلَ. أَنَا سَوَّلْتُ لِأَوْلَادِ يَعْقُوبَ. وَحَاوَلْتُ فِي قَضِيَّةِ أَيُّوبَ. وَأَنَا كُنْتُ الْعَوْنَ. لِهَامَانَ وَفِرْعَوْنَ. وَجَرَأْتُ عَلَى قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ. وَتَوَصَّلْتُ بِتَزْيِينِ الْوَسْوَاسِ. لِقَاتِلِي الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ. وَدَعَوْتُ إِلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ قَوْمَ مُوسَى. وَسَاعَدْتُ فِي التَّفْرِيقِ وَالْإِضْلَالِ بَيْنَ أُمَّةِ عِيسَى. وَكَمْ أَغْوَيْتُ مِنْ بُلْدَانٍ. بِمَا زَخْرَفْتُ مِنْ أَوْثَانٍ. وَقَدْ بَانَنِي عَنْ جَمْعٍ مِنَ مُسْتَرِقِي السَّمْعِ وَطَنٌ عَلَى أُذُنِي وَوَعَاهُ خَاطِرِي. وَوَقَرَ فِي ذِهْنِي.

وَأَنَا أُشَارِفُ ٱلتُّخُومَ . وَأُسَارِقُ ٱلنُّجُومَ . وَأُسَابِقُ ٱلرُّجُومَ . بِي تَكْثُرُ ٱلْبِدَعُ . بَيْنَ ٱلْجَمَاعَاتِ وَٱلْجُمَعِ . وَيَظْهَرُ مِنَ ٱلْفِتَنِ . مَا بَطَنَ . وَيَغْلِبُ مِنَ ٱلتَّتَارِ . وَأَهْلِ ٱلْبَوَارِ وَٱلْخَسَارِ . أَنْوَاعُ ٱلشُّرُورِ وَٱلْجِدَالِ . إِلَى حِينَ يَظْهَرُ ٱلدَّجَّالُ . وَتَسْتَمِرُّ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْأُمُورُ . إِلَى يَوْمِ ٱلْبَعْثِ وَٱلنُّشُورِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ وَٱلتَّفْصِيلِ . أَنَا شَيْخُ ٱلتَّكْفِيرِ وَٱلتَّضْلِيلِ . وَتِلْكَ صَنْعَتِي مِنَ ٱلِٱبْتِدَاءِ . وَحِرْفَتِي إِلَى ٱلِٱنْتِهَاءِ . أَسْهُمُ مَرَامِي ٱلْمَشْؤُومَةُ نَافِذَةٌ فِي ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ . وَسُيُوفُ مَنَاشِرِي ٱلْمَسْمُومَةُ قَاطِعَةٌ فِي ٱلْأَعَاجِمِ وَٱلْأَعَارِبِ . كَمْ لِي فِي ٱلْأَطْرَافِ وَٱلْآفَاقِ وَٱلْأَكْنَافِ مِنْ قَاضٍ وَنَائِبٍ . وَمَانِعٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَحَاجِبٍ . وَكَمْ لِي مِنْ جَابٍ . مَنُوطٍ بِتَفْرِيقِ قُلُوبِهِمْ وَجَمْعِ سُوَيْدَائِهَا إِلَى بَابِي . وَكَمْ لِي فِي ٱلزَّوَايَا . مِنْ خَبَايَا . وَفِي أَضْحَابِ ٱلرِّوَايَاتِ . مِنْ دِرَايَاتٍ . وَفَقِيهٍ فِي ٱلنَّادِي . فَاقَ ٱلْحَاضِرَ وَٱلْبَادِي . يُعَلِّمُ لِي فِي ٱلشَّيْطَنَةِ أَوْلَادِي . وَفِي ٱلْبَيْلَسَةِ حَفَدَتِي وَأَجْنَادِي . وَبِٱلْجُمْلَةِ غَالِبُ ٱلطَّوَائِفِ . وَأَرْبَابِ ٱلْوَظَائِفِ . عَلَى بَابِ خِدْمَتِي وَاقِفٌ . وَعَلَى طَاعَةِ مَرَاسِيمِي لَيْلًا وَنَهَارًا عَاكِفٌ . مُنَايَ مُنَاهُمْ . وَرِضَايَ رِضَاهُمْ . وَإِنْ خَالَفَ بَعْضَ سِرِّي نَجْوَاهُمْ . إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ (ابن عربشاه)

٢٩٠ وَصَفَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ رَجُلًا فَقَالَ : إِنَّهُ بَسِيطُ ٱلْكَفِّ . رَحْبُ ٱلصَّدْرِ . مُوَطَّأُ ٱلْأَكْنَافِ . سَهْلُ ٱلْخُلُقِ . كَرِيمُ ٱلطِّبَاعِ . غَيْثٌ مَغُوثٌ . وَبَحْرٌ زَخُورٌ . وَضَحُوكُ ٱلسِّنِّ . بَشِيرُ ٱلْوَجْهِ . بَادِي ٱلْقَبُولِ .

غَيْرُ عَبُوسٍ . يَسْتَقْبِلُكَ بِطَلَاقَةٍ . وَيُحَيِّيكَ بِبِشْرٍ . وَيَسْتَدْرِكُكَ بِكَرَمِ غَيْثٍ وَجَمِيلِ بِشْرٍ . تُبْهِجُكَ طَلَاقَتُهُ . وَيُرْضِيكَ بُشْرُهُ . ضَحَّاكٌ عَلَى مَائِدَتِهِ . عَبْدُ إِضْيَافِهِ . غَيْرُ مُلَاحِظٍ لِأَكِيلِهِ . بَطِينٌ مِنَ الْعَقْلِ . خَمِيصٌ مِنَ الْجَهْلِ . رَاجِحُ الْحِلْمِ . ثَاقِبُ الرَّأْيِ . طَيِّبُ الْخُلُقِ . مُحَصَّنُ الضَّرِيبَةِ . مُعْطٍ غَيْرُ سَأَّالٍ . كَاسٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ . عَارٍ مِنْ كُلِّ مَلْأَمَةٍ . إِنْ سُئِلَ بَذَلَ . وَإِنْ قَالَ فَعَلَ (للقيرواني)

٢٩١ قَالَ مُجِيرُ الدِّينِ بْنُ تَمِيمٍ فِي وَصْفِ نَاعُورَةٍ :

وَنَاعُورَةٍ قَدْ أُلْبِسَتْ لِحَيَائِهَا مِنَ الشَّمْسِ ثَوْبًا فَوْقَ أَثْوَابِهَا الْخُضْرِ
كَطَاوُوسِ بُسْتَانٍ تَدُورُ وَتَنْجَلِي وَتَنْفُضُ عَنْ أَرْيَاشِهَا بَلَلَ الْقَطْرِ

٢٩٢ قَالَ نُورُ الدِّينِ بْنُ سَعْدٍ الْأَنْدَلُسِيُّ فِي دُولَابِ النَّاعُورَةِ :

لِلّٰهِ دُولَابٌ يَفِيضُ بِسَلْسَلٍ فِي رَوْضَةٍ قَدْ أَيْنَعَتْ أَفْنَانَا
قَدْ طَارَحَتْهُ بِهَا الْحَمَائِمُ نَجْوَهَا فَيُجِيبُهَا وَيُرَجِّعُ الْأَلْحَانَا
فَكَأَنَّهُ دَنِفٌ يَدُورُ بِمَعْهَدٍ يَبْكِي وَيَسْأَلُ فِيهِ عَمَّنْ بَانَا
ضَاقَتْ مَجَارِي جَفْنِهِ عَنْ دَمْعِهِ فَتَفَتَّحَتْ أَضْلَاعُهُ أَجْفَانَا

٢٩٣ قَالَ ابْنُ النَّدِيمِ :

وَرَوْضَةٍ وَجَنَاتُ الْوَرْدِ قَدْ خَجِلَتْ فِيهَا ضُحًى وَعُيُونُ النَّرْجِسِ انْفَتَحَتْ
تَشَاجَرَ الطَّيْرُ فِي أَفْنَانِهَا سَحَرًا وَمَالَتِ الْقُضْبُ لِلتَّعْنِيقِ وَاصْطَلَحَتْ
وَالْقَطْرُ قَدْ رَشَّ ثَوْبَ الدَّوْحِ حِينَ رَأَى جَامِرَ الزَّهْرِ فِي أَذْيَالِهِ نَفَحَتْ

٢٩٤ قَالَ عَلِيُّ بْنُ رُسْتَمَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ السَّاعَاتِيِّ :

٢٢٠ ـــــــ

أَوَ مَا تَرَى ٱلْغَيْمَ ٱلرَّقِيقَ وَمَا بَدَا ... لِلْعَيْنِ مِنْ أَشْكَالِهِ وَطُرُوزِهِ
وَٱلسُّحْبُ تَعْقِدُ فِي ٱلسَّمَاءِ مَآتِمًا ... وَٱلْأَرْضُ فِي عُرْسِ ٱلزَّمَانِ وَعِيدِهِ
وَٱلْغَيْمُ يَحْكِي ٱلْمَاءَ فِي جَرَيَانِهِ ... وَٱلْمَاءُ يَحْكِي ٱلْغَيْمَ فِي تَجْعِيدِهِ
فَٱبْكُرْ إِلَى رَوْضِ ٱلصَّرَاةِ وَظِلِّهَا ... فَٱلْعَيْشُ بَيْنَ بَسِيطِهِ وَمَدِيدِهِ

٢٩٧ قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ بْنُ بَزَّارٍ فِي مَدِينَةِ وَادِي آشَ :

وَادِي ٱلْأَشَاتِ يَهِيجُ وَجْدِي كُلَّمَا ... أُذْكِرْتُ مَا أَفْضَتْ بِكَ ٱلنَّعْمَاءُ
لِلّٰهِ ظِلُّكَ وَٱلْهَجِيرُ مُسَلَّطٌ ... قَدْ بَرَّدَتْ لَفَحَاتِهِ ٱلْأَنْدَاءُ
وَٱلشَّمْسُ تَرْغَبُ أَنْ تَفُوزَ بِلَحْظَةٍ ... مِنْهُ فَتَطْرِفُ طَرْفَهَا ٱلْأَفْيَاءُ
وَٱلنَّهْرُ يَبْسِمُ بِٱلْحَبَابِ كَأَنَّهُ ... سَلْخٌ نَضَتْهُ حَيَّةٌ رَقْطَاءُ
فَلِذَاكَ تَحْذَرُهُ ٱلْغُصُونُ فَمَيْلُهَا ... أَبَدًا عَلَى جَنَبَاتِهِ إِيمَاءُ

٢٩٨ قَالَ مُجِيرُ ٱلدِّينِ بْنُ تَمِيمٍ :

مُذْ قِيلَ لِلْأَغْصَانِ إِنَّ ٱلْوَرْدَ قَدْ ... وَافَى إِلَى ٱلْأَزْهَارِ وَهُوَ أَمِيرُ
بَسَمَتْ ثُغُورُ ٱلْأُقْحُوَانِ مَسَرَّةً ... لِقُدُومِهِ وَتَلَوَّنَ ٱلْمَنْثُورُ

٢٩٩ قَالَ ٱلصَّابِئُ فِي شَمْعَةٍ

وَلَيْلَةٍ مِنْ مُحَاقِ ٱلشَّهْرِ مُدْجِنَةٍ ... لَا ٱلنَّجْمُ يَهْدِي ٱلسُّرَى فِيهَا وَلَا ٱلْقَمَرُ
كَلَّفْتُ نَفْسِي بِهَا ٱلْإِدْلَاجَ مُمْتَطِيًا ... عَزْمًا هُوَ ٱلصَّارِمُ ٱلصَّمْصَامَةُ ٱلذَّكَرُ
إِلَى حَبِيبٍ لَهُ فِي ٱلنَّفْسِ مَنْزِلَةٌ ... مَا حَلَّهَا قَبْلَهُ سَمْعٌ وَلَا بَصَرُ
وَلَا دَلِيلٌ سِوَى هَيْفَاءَ مُخْطَفَةٍ ... تَهْدِي ٱلرِّكَابَ وَجُنْحُ ٱللَّيْلِ مُعْتَكِرُ
غُصْنٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلْإِبْرِيزِ أَثْمَرَ فِي ... أَعْلَاهُ يَاقُوتَةٌ صَفْرَاءُ تَسْتَعِرُ

تَأْتِيكَ لَيْلًا كَمَا يَأْتِي الْمُرِيبُ فَإِنْ لَاحَ الصَّبَاحُ طَوَتْهَا دُونَهَا الْجُدُرُ

٣٠٠ قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيُّ فِي الشَّمْعَةِ أَيْضًا:

وَصَفْرَاءَ لَوْنَ التِّبْرِ مِثْلِي جَلِيدَةٍ عَلَى نُوَبِ الْأَيَّامِ وَالْعَيْشَةِ الضَّنْكِ
تُرِيكَ ابْتِسَامًا دَائِمًا وَتَجَلُّدًا وَصَبْرًا عَلَى مَا نَابَهَا وَهْيَ فِي الْهُلْكِ
وَلَوْ نَطَقَتْ يَوْمًا لَقَالَتْ أَظُنُّكُمْ تَخَالُونَ أَنِّي مِنْ حِذَارِ الرَّدَى أَبْكِي
فَلَا تَحْسَبُوا دَمْعِي لِوَجْدٍ وَجِدْتُهُ فَقَدْ تَدْمَعُ الْأَحْدَاقُ مِنْ كَثْرَةِ الضَّحْكِ

٣٠١ كَتَبَ الصَّابِئُ فِي وَصْفِ الْبَبَّغَاءِ إِلَى ابْنِ نَصْرٍ الْمَعْرُوفِ بِالْبَبَّغَاءِ:

أَلِفَتْهَا صَبِيحَةً مَلِيحَهْ نَاطِقَةً بِاللُّغَةِ الْفَصِيحَهْ
عُدَّتْ مِنَ الْأَطْيَارِ وَاللِّسَانُ يُوهِمُنِي بِأَنَّهَا إِنْسَانُ
تُنْهِي إِلَى صَاحِبِهَا الْأَخْبَارَا وَتَكْشِفُ الْأَسْرَارَ وَالْأَسْتَارَا
بَكْمَاءُ إِلَّا أَنَّهَا سَمِيعَهْ تُعِيدُ مَا تَسْمَعُهُ طَبِيعَهْ
زَارَتْكَ مِنْ بِلَادِهَا الْبَعِيدَهْ وَاسْتَوْطَنَتْ عِنْدَكَ كَالْقَعِيدَهْ
ضَيْفٌ قِرَاهُ الْجَوْزُ وَالْأُرْزُ وَالضَّيْفُ فِي إِتْيَانِهِ يُعَزُّ
تَرَاهُ فِي مِنْقَارِهَا الْخَلُوقِي كَلُؤْلُؤٍ يُلْقَطُ بِالْعَقِيقِ
تَمِيسُ فِي حُلَّتِهَا الْخَضْرَاءِ مِثْلَ الْفَتَاةِ الْغَادَةِ الْعَذْرَاءِ
خَرِيدَةٌ خُدُورُهَا الْأَقْفَاصُ لَيْسَ لَهَا مِنْ حَبْسِهَا خَلَاصُ
تَحْبِسُهَا وَمَا لَهَا مِنْ ذَنْبِ وَإِنَّمَا ذَاكَ لِفَرْطِ الْحُبِّ
تِلْكَ الَّتِي قَلْبِي بِهَا مَشْغُوفُ كَنَيْتُ عَنْهَا وَاسْمُهَا مَعْرُوفُ
يُشْرِكُكَ فِيهَا شَاعِرُ الزَّمَانِ الْكَاتِبُ الْمَعْرُوفُ بِالْبَيَانِ

ذٰلِكَ عَبْدُ ٱلْوَاحِدِ بْنُ نَصْرٍ تَقِيهِ نَفْسِي حَادِثَاتِ ٱلدَّهْرِ

٣٠٢ قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَصِفُ بَغْدَادَ بَعْدَ أَنْ حَاصَرَهَا طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ وَخَرَّبَ بِنَاءَهَا :

بَكَيْتُ دَمًا عَلَى بَغْدَادَ لَمَّا فَقَدتُ نَضَارَةَ ٱلْعَيْشِ ٱلْأَنِيقِ
تَبَدَّلْنَا هُمُومًا مِنْ سُرُورٍ وَمِنْ سَعَةٍ تَبَدَّلْنَا بِضِيقِ
أَصَابَتْنَا مِنَ ٱلْحُسَّادِ عَيْنٌ فَأَفْنَتْ أَهْلَهَا بِٱلْمَنْجَنِيقِ
وَقَوْمٍ أَحْرَقُوا بِٱلنَّارِ قَسْرًا وَنَائِحَةٍ تَنُوحُ عَلَى غَرِيقِ
وَصَائِحَةٍ تُنَادِي وَاصَبَاحَا وَبَاكِيَةٍ لِفُقْدَانِ ٱلشَّقِيقِ
تَفِرُّ مِنَ ٱلْحَرِيقِ إِلَى ٱلْتِهَابٍ وَوَالِدُهَا يَفِرُّ إِلَى ٱلْحَرِيقِ
حَيَارَى هٰكَذَا وَمُفَكِّرَاتٌ عَلَيْهِنَّ ٱلْقَلَائِدُ فِي ٱلْحُلُوقِ
يُنَادِينَ ٱلشَّفِيقَ وَلَا شَفِيقٌ وَقَدْ فُقِدَ ٱلشَّفِيقُ مِنَ ٱلشَّفِيقِ
وَمُغْتَرِبٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ مُلْقًى بِلَا رَأْسٍ بِقَارِعَةِ ٱلطَّرِيقِ
تَوَسَّطَ مِنْ قَتَالِهِمِ جَمِيعًا فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَيِّ ٱلْفَرِيقِ
فَمَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيهِ وَقَدْ فَرَّ ٱلصَّدِيقُ مِنَ ٱلصَّدِيقِ
وَمَهْمَا أَنْسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى فَإِنِّي ذَاكِرٌ دَارَ ٱلرَّفِيقِ

وَصَفَ صَفِيُّ ٱلدِّينِ ٱلْحِلِّيُّ حَدِيقَةً قَالَ :

وَأَطْلَقَ ٱلطَّيْرُ فِيهَا سَجْعَ مَنْطِقِهِ مَا بَيْنَ مُخْتَلِفٍ فِيهَا وَمُتَّفِقِ
وَٱلظِّلُّ يَسْرِقُ بَيْنَ ٱلدَّوْحِ خُطْوَتَهُ وَلِلْمِيَاهِ دَبِيبٌ غَيْرُ مُسْتَرَقِ
وَقَدْ بَدَا ٱلْوَرْدُ مُفْتَرًّا مَبَاسِمُهُ وَٱلنَّرْجِسُ ٱلْغَضُّ فِيهَا شَاخِصُ ٱلْحَدَقِ

٢٢٤ ـــــــ

وَبُلْبُلُ الدَّوْحِ فَصِيحٌ عَلَى الْأَيْكَةِ وَالشُّخْرُورُ تُمْتَامُ
وَنَسْمَةُ الرِّيحِ وَفِي ضَعْفِهَا لَهَا بِنَا مَرٌّ وَإِلْمَامُ

٣٠٧ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو سَهْلٍ فِي وَصْفِ فَرَسٍ:

أَطَرْفٌ فَاتَ طَرْفِي أَمْ شِهَابُ هَفَا كَالْبَرْقِ ضَرَّمَهُ الْتِهَابُ
أَعَارَ الصُّبْحُ صُفْحَتَهُ نِقَابًا فَقَرَّبَهُ وَصَحَّ لَنَا النِّقَابُ
إِذَا مَا انْقَضَّ كَلَّ النَّجْمُ عَنْهُ وَضَلَّتْ عَنْ مَسَالِكِهِ السَّحَابُ
سَلِ الْأَرْوَاحَ عَنْ أَدْنَى مَدَاهُ فَعِنْدَ الرِّيحِ قَدْ يُلْقَى الْجَوَابُ

٣٠٨ قصيدة الشيخ عبد الغني النابلسي في وصف الشام

إِنْ سَامَكَ الْخَطْبُ الْمَهُولُ فَأَقْلَقَا فَانْزِلْ بِأَرْضِ الشَّامِ وَاسْكُنْ حِلَّقَا
تَجِدِ الْمَرَامَ بِهَا وَكُلَّ مُنَاكَ بَلْ وَتَرَى بِهَا عِزًّا وَتَفْصُحُ مَنْطِقَا
بَلَدٌ سَمَتْ بَيْنَ الْبِلَادِ مَحَاسِنًا وَنَمَتْ بَهَاءً وَاسْتَزَادَتْ رَوْنَقَا
زَادَ السُّرُورُ بِهَا لِكُلِّ مُعَرِّجٍ لَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التُّقَى
إِنْ تَعْشَقُوا وَطَنًا فَدِيَ أَوْلَى لَكُمْ دُونَ الْبِلَادِ بِأَنْ تُحَبَّ وَتُعْشَقَا
خَيْرُ الْأَنَامِ أَنَاسُهَا يَرْعَوْنَ أَنْوَاعَ الْوِدَادِ وَيَحْفَظُونَ الْمُوثِقَا
هِيَ جَنَّةٌ لِلطَّائِعِينَ مُعَدَّةٌ يَتَمَتَّعُونَ وَلَا يَرَوْنَ بِهَا شَقَا
طَابَتْ هَوَاءً لِلنُّفُوسِ وَمَاؤُهَا عَذْبٌ زُلَالٌ سَائِغٌ لِمَنِ اسْتَقَى
جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا عَنِ التَّعْدَادِ فَلْتَأْتِ بِمَا يُخْتَارُ مِنْهُ وَيُنْتَقَى
يَا حُسْنَ وَادِيهَا وَطِيبَ شَمِيمِهِ قَدْ فَاحَ عَرْفُ الزَّهْرِ فِيهِ وَعَبَّقَا
وَتَرَاسَلَتْ أَطْيَارُهُ بَيْنَ الرُّبَى سَحَرًا فَهَيَّجَتِ الْفُؤَادَ الشَّيِّقَا

٢٢٦ ـــــــ

قَدْ أَتْقَنَتْ صُنَّاعُهُ بُنْيَانَهُ فَأَتَى ٱلْمُزَخْرِفُ زَانَهُ وَتَأَنَّقَا
وَتَرَى دُرُوسَ ٱلْعِلْمِ فِيهِ دَائِمًا فِي كُلِّ فَنٍّ مَنْ تَدَاوَلَهُ رَقَى
وَثَلَاثُ هَاتِيكَ ٱلْمَآذِنِ تَجْلِي مِثْلَ ٱلْعَرَائِسِ قَدْ لَبِسْنَ ٱلْيَلْمَقَا
مِنْ فَوْقِهَا أَهْلُ ٱلْأَذَانِ تَرَسَّلُوا بِتَرَنُّمٍ يُشْجِي ٱلْفُؤَادَ ٱلشَّيِّقَا
وَٱلْعَشَرَةُ ٱلْأَبْوَابُ لَمَّا أَنْ زَهَتْ فُتِحَتْ عَلَى ٱلْمُشْتَاقِ بَابًا مُغْلَقَا
يَا حَبَّذَاكَ ٱلصَّحْنُ أَشْرَقَ وَٱنْجَلَى فَغَدَا بِهِ مَاءُ ٱلنَّسِيمِ مُرَقْرِقَا
فِيهِ ٱلصِّحَابُ رَوَائِحًا وَغَوَادِيًا مَا بَيْنَهُ وَتَجَمُّعًا وَتَفَرُّقَا
مِنْ حَوْلِهِ ٱلْأَسْوَاقُ تُشْرِقُ فِي ٱلدُّجَى مِثْلَ ٱلنَّهَارِ بِمَا بِهَا قَدْ عُلِّقَا
فِيهَا تَرَى مَا تَشْتَهِي وَتَلَذُّهُ وَبُيُوتُ فَهْوَاتٍ شَذَاهَا عَبَّقَا
هِيَ شَامُنَا أَعْلَى ٱلْإِلٰهُ مَنَارَهَا وَبِهَا أَدَامَ ٱللّٰهُ عَيْشًا رَيِّقَا
لَمْ تَرْضَ عَيْنِي غَيْرَهَا مِنْ مَنْظَرٍ وَلِذَا تَرَى قَلْبِي بِهَا مُتَعَلِّقَا

وسقف الجامع كلهُ من خارج الواح رصاص . واعظم ما فيهِ قبَّة الرصاص المتَّصلة بالمحراب وهي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة وقد استقلَّ بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب الى الصحن . والقبَّة قد اغصَّت الهواء فاذا استقبلتها رأيت مرأى هائلاً . ومن اي جهة استقبلت البلد ترى القبَّة في الهواء كانها معلَّقة في الجوّ . وعدد شمَّاساتها الزجاجيَّة المذهبة الملوَّنة اربع وسبعون . فاذا قابلتها الشمس واتَّصل شعاعها بها انعكس الشعاع الى كل لونٍ منها واتَّصل بذلك بالجدار القبلي . ويتَّصل بالابصار منها اشعَّة ملوَّنة هائلة لا تبلغ العبارة تصوّرها . ومحرابهُ من اعجب المحاريب الاسلاميَّة حسنًا وغرابة صنعة يتقد ذهبًا كلهُ . قد قامت في وسطهِ محاريب صغار متَّصلة بجدارهِ تحفّها سوريات مفتولات فتل الاسورة . فانها مخروطة بعضها احمر كانها مرجان لم يُرَ شيء اجمل منها . ولهُ اربعة ابواب وباب جَيرون اعظمها ولهُ وللغربي دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة . فبقيت على حالها

ثم ذكر ابن جُبَير في الصحن عجائب من الابنية والقباب والمياه المدبرة فيهِ ما يطول وصفهُ واختصارهُ انهُ قال : هذا الصحن من اجمل المناظر واحسنها . وللجامع اربع سقايات في كل جهة

لِلّٰهِ أَيَّامٌ تَقَضَّتْ لِي بِهَا ... مَا زِلْتُ نَحْوَ ظِلَالِهَا مُتَشَوِّقَا
هِيَ مَنْشَإِي لَا حَاجِرٌ وَطُوَيْلِعٌ ... وَمَحَلُّ أُنْسِي لَا الْغُوَيْرُ وَلَا النَّقَا
وَطَنِي وَأَوَّلُ مَا وَطِئْتُ بِهَا الثَّرَى ... لَا زَالَ يَنْشِي عَنْ حِمَاهَا مُطْلِقَا
لُذْ يَا فُؤَادُ بِمَا بِهَا مِنْ مَعْشَرٍ ... إِنْ سَامَكَ الْخَطْبُ الْمُهُولُ فَأَفْلَقَا

سقاية وأعظمها سقاية باب جيرون . وذكر ان حول باب جيرون من الابنية الغريبة ما يطول وصفهُ . وذكر باب جيرون فقال : يخرج من دهليز الى بلاط طويل عريض لهُ خمسة ابواب مقوّسة لها ستة اعمدة في جهة اليسار منهُ مشهد كبير كان فيهِ راس الحسين قبل ان ينقل الى القاهرة بازائهِ مسجد صغير لعُمر بن عبد العزيز . وقد انتظمت امام البلاط ادراج يُنحدَر عليها الى الدهليز وهي كالخندق العظيم تتصل الى باب عظيم الارتفاع يتميز الطرف دونهُ سموًّا . قد حفَّتهُ اعمدة كالجذوع طولًا وكالاطواد ضخامة ويجانبي الدهليز اعمدة قامت عليها شوارع مستديرة فيها حوانيت العطَّارين وغيرهم . وعليها شوارع مستطيلة فيها الحُجَر والبيوت للكراء مشرفة على الدهاليز . وفوقها سطح يبيت فيهِ سكان الحجر والبيوت وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليهِ قبة تُقِلّها اعمدة من الرخام . وفي وسط الحوض انبوب صُفر يزعج الماء بقوَّة فيرتفع في الهواء ازيد من القامة . وحولهُ انابيب صغار ترمي الماء علوًّا فتخرج منها كقضبان اللجين فكأنها اغصان تلك الدوحة المائية . ومنظرها ابدع من ان يوصف . وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي امامهُ شبه غُرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيهِ طيقان من صُفر وقد فتحت ابوابًا صغارًا على عدد ساعات النهار ودُبّرت تدابير هندسية . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين من صفر قائمين على طاستين من صفر مثقوبتين فتبصر البازيين يمدّان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيَّلهُ الاوهام سحرًا . فعند وقوعها يسمع لها دويٌّ فيعودان من الانقاب الى داخل الجدار الى الغرفة وينغلق باب تلك الساعة بلوح اصفر . فلا يزال كذلك حتى تنقضي الساعات فتنغلق الابواب كلها . ثم تعود الى حالها الأوَّل ولها بالليل تدبير آخر . وذلك ان في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثني عشرة دائرة من النحاس مخرَّمة في كل دائرة زجاجة وخلف الزجاجة مصباح يدور بهِ الماء على ترتيب مقدار الساعة . فاذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح وافاض على الدائرة شعاعًا فلاحت دائرة محمرَّة ثم ينتقل الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل . وقد وكل بها من يدبّر شأنها فيعيد فتح الابواب ويسرح الصنج الى موضعهِ وهي التي تُسمَّى الميقانة . ثم ذكر في دمشق عجائب ليس من غرضنا اثباتها (للشريشي)

الباب الخامس عشر
في الحكايات

هارون بن عبد الله والفيل

٣٠٩ قال القزويني: كان هارون بن عبد الله مولى الأزد شجاعاً شاعراً. ولما حارب الهند المسلمين بالفيل لم يقف قدام الفيل شيء. وقد ربطوا في خرطومه سيفاً هذاماً طويلاً ثقيلاً يضرب به يميناً وشمالاً لا يرفعه فوق رأس القيالين على ظهره ويضرب به. فوثب هارون وثبة أعجلته بها عن الضرب ولزق بصدر الفيل وتعلق بأنيابه. فجال به القيال جولة كاد يخطمه من شدة ما جال به. وكان هارون شديد الخلق رابط الجاش. فأعتمد في تلك الحالة على نابيه وأصلهما مجوف فانقلعتا من أصلهما. وأدبر الفيل وبقي النابان في يد هارون. وكان ذلك سبب هزيمة الهند وغنم المسلمون. فقال هارون في ذلك:

مشيت إليه رادعاً متمهلا ... وقد وصلوا خرطومه بحسام
فقلت لنفسي إنه الفيل ضاربا ... بأبيض من ماء الحديد هذام
فإن تنكأي منه فعذرك واضح ... لدى كل منخوب الفؤاد عبام
ولما رأيت السيف في رأس هضبة ... كما لاح برق من خلال غمام
فعانقته حتى لزقت بصدره ... فلما هوى لازمت أي لزام
وعذت بنابيه وأدبر هاربا ... وذلك من عادات كل محامي

الوفاء والفضل والمعروف عند بعض الكرماء

٣١٠ حُكِيَ أَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ جَالِسًا فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَعِنْدَهُ أَكَابِرُ الصَّحَابَةِ. وَأَهْلُ الرَّأْيِ وَالْإِهَابَةِ. وَهُوَ فِي الْقَضَايَا. يَحْكُمُ بَيْنَ الرَّعَايَا. إِذْ أَقْبَلَ شَابٌّ مِنْ أَحْسَنِ الشَّبَابِ. نَظِيفُ الْأَثْوَابِ. يَكْتَنِفُهُ شَابَّانِ مِنْ أَحْسَنِ الشَّبَابِ أَيْضًا. وَقَدْ جَذَبَاهُ وَسَحَبَاهُ. وَأَوْقَفَاهُ بَيْنَ يَدَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَبَّاهُ. فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ. نَظَرَ إِلَيْهِمَا وَإِلَيْهِ. فَقَالَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْنُ أَخَوَانِ شَقِيقَانِ. جَدِيرَانِ بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ حَقِيقَانِ. كَانَ لَنَا أَبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ. حَسَنُ التَّدْبِيرِ. مُعَظَّمٌ فِي قَبَائِلِهِ. مُنَزَّهٌ عَنْ رَذَائِلِهِ. مَعْرُوفٌ بِفَضَائِلِهِ. رَبَّانَا صِغَارًا. وَأَوْلَانَا مِنَنًا غِزَارًا. كَمَا قِيلَ فِي الْمَعْنَى:

لَنَا وَالِدٌ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ مِثْلُهُ أَبٌ آخِرٌ أَغْنَاهُمُ بِالْمَنَاقِبِ

فَخَرَجَ الْيَوْمَ إِلَى حَدِيقَةٍ لَهُ يَتَنَزَّهُ فِي أَشْجَارِهَا. وَيَقْتَطِفُ يَانِعَ أَثْمَارِهَا. فَقَتَلَهُ هٰذَا الشَّابُّ. وَعَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ. فَنَسْأَلُكَ الْقِصَاصَ عَمَّا جَنَاهُ. وَالْحُكْمَ فِيهِ بِمَا أَمَرَكَ اللهُ. قَالَ الرَّاوِي: فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى الشَّابِّ. وَقَالَ لَهُ: قَدْ سَمِعْتَ فَمَا الْجَوَابُ. وَالْغُلَامُ مَعَ ذٰلِكَ ثَابِتُ الْجَنَانِ. خَالٍ عَنِ الِاسْتِيحَاشِ. قَدْ خَلَعَ ثِيَابَ الْهَلَعِ. وَنَزَعَ لِبَاسَ الْجَزَعِ. فَتَبَسَّمَ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ. وَتَكَلَّمَ بِأَفْصَحِ لِسَانٍ. وَحَيَّا بِكَلِمَاتٍ حِسَانٍ. ثُمَّ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَاللهِ لَقَدْ وَعَيَا. فِي مَا أَدَّعَيَا. وَصَدَقَا. فِي مَا نَطَقَا. وَأَخْبَرَا بِمَا جَرَى. وَعَبَّرَا عَمَّا طَرَا. وَسَأُنْهِي

قِصَّتِي بَيْنَ يَدَيْكَ . وَالْأَمْرُ فِيهَا إِلَيْكَ . إِعْلَمْ أَنِّي عَرِيمٌ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرْبَاءِ نَبَتُّ فِي مَنَازِلِ الْبَادِيَةِ . وَصَبَحَتْ عَلَيَّ أُسُودُ السِّنِينَ الْعَادِيَةِ . فَأَقْبَلْتُ إِلَى ظَاهِرِ هٰذَا الْبَلَدِ . بِالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ . فَأَفْضَتْ بِي بَعْضُ طَرَائِقِهَا . إِلَى الْمَسِيرِ بَيْنَ حَدَائِقِهَا . بِنِيَاقٍ إِلَيَّ حَبِيبَاتٍ . عَلَيَّ عَزِيزَاتٍ . بَيْنَهُنَّ فَحْلٌ كَرِيمُ الْأَصْلِ . كَثِيرُ النَّسْلِ . مَلِيحُ الشَّكْلِ . حَسَنُ النِّتَاجِ . يَمْشِي بَيْنَهُنَّ كَأَنَّهُ مَلِكٌ عَلَيْهِ تَاجٌ . فَدَنَتِ النُّوقُ إِلَى حَدِيقَةٍ قَدْ ظَهَرَ مِنَ الْحَائِطِ شَجَرُهَا . فَتَنَاوَلَتْهَا بِمِشْفَرِهَا . فَطَرَدْتُهَا عَنْ تِلْكَ الْحَدِيقَةِ فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ ظَهَرَ . وَتَسَوَّرَ الْحَائِطَ وَزَفَرَ . وَفِي يَدِهِ الْيُمْنَى حَجَرٌ . يَتَمَادَى كَاللَّيْثِ إِذَا خَطَرَ . فَضَرَبَ الْفَحْلَ بِذٰلِكَ الْحَجَرِ فَأَصَابَ مَقْتَلَهُ وَأَبَادَهُ . فَلَمَّا رَأَيْتُ الْفَحْلَ سَقَطَ لِجَنْبِهِ وَانْقَلَبَ . تَوَقَّدَتْ فِيَّ جَمَرَاتُ الْغَضَبِ . فَتَنَاوَلْتُ ذٰلِكَ الْحَجَرَ بِعَيْنِهِ فَضَرَبْتُهُ بِهِ . فَكَانَ سَبَبَ حَيْنِهِ وَلَقِيَ سُوءَ مُنْقَلَبِهِ . وَالْمَرْءُ مَقْتُولٌ بِمَا قَتَلَ بِهِ . بَعْدَ أَنْ صَاحَ صَيْحَةً عَظِيمَةً . وَصَرَخَ صَرْخَةً أَلِيمَةً . فَأَسْرَعْتُ هَارِبًا مِنْ مَكَانِي . فَلَمْ أَكُنْ بِأَسْرَعَ مِنْ هٰذَيْنِ الشَّابَّيْنِ فَأَمْسَكَانِي . وَأَحْضَرَانِي كَمَا تَرَانِي . قَالَ عُمَرُ : قَدِ اعْتَرَفْتَ . بِمَا اقْتَرَفْتَ . وَتَعَذَّرَ الْخَلَاصُ . وَوَجَبَ الْقِصَاصُ . وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . فَقَالَ الشَّابُّ : سَمْعًا وَطَوْعًا لِمَا حَكَمَ الْإِمَامُ . وَرَضِيتُ بِمَا اقْتَضَتْهُ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ . وَلٰكِنْ لِي أَخٌ صَغِيرٌ . كَانَ لَهُ أَبٌ خَبِيرٌ . خَصَّهُ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِمَالٍ جَزِيلٍ . وَذَهَبٍ جَلِيلٍ . وَأَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيَّ . وَسَلَّمَ أَمْرَهُ إِلَيَّ . وَأَشْهَدَ اللهَ

عَلَيَّ . وَقَالَ : هٰذَا لِأَخِيكَ عِنْدَكَ . فَاحْفَظْهُ جَهْدَكَ . فَاتَّخَذْتُ لِذٰلِكَ مَدْفِنًا . وَوَضَعْتُهُ فِيهِ وَلَا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا أَنَا . فَإِنْ حَكَمْتَ الْآنَ بِقَتْلِي ذَهَبَ الذَّهَبُ . وَكُنْتَ أَنْتَ السَّبَبَ . وَطَالَبَكَ الصَّغِيرُ بِحَقِّهِ . يَوْمَ يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ . وَإِنْ أَنْظَرْتَنِي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . أَقَمْتُ مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ الْغُلَامِ . وَعُدْتُ وَافِيًا بِالذِّمَامِ . وَلِي مَنْ يَضْمَنُنِي عَلَى هٰذَا الْكَلَامِ . فَأَطْرَقَ عُمَرُ سَاعَةً ثُمَّ نَظَرَ . إِلَى مَنْ حَضَرَ . وَقَالَ : مَنْ يَقُومُ عَلَى ضَمَانِهِ . وَالْعَوْدِ إِلَى مَكَانِهِ . قَالَ : فَنَظَرَ الْغُلَامُ إِلَى وُجُوهِ أَهْلِ الْمَجْلِسِ النَّاظِرِينَ . وَأَشَارَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ دُونَ الْحَاضِرِينَ . وَقَالَ : هٰذَا يَكْفُلُنِي . وَهُوَ الَّذِي يَضْمَنُنِي . فَقَالَ عُمَرُ : أَتَضْمَنُهُ يَا أَبَا ذَرٍّ عَلَى هٰذَا الْكَلَامِ . قَالَ : نَعَمْ أَضْمَنُهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . فَرَضِيَ الشَّابَّانِ بِضَمَانِ أَبِي ذَرٍّ . وَأَنْظَرَاهُ ذٰلِكَ الْقَدْرَ . فَلَمَّا انْقَضَتْ مُدَّةُ الْإِمْهَالِ . وَكَادَ وَقْتُهَا يَزُولُ أَوْ زَالَ . حَضَرَ الشَّابَّانِ إِلَى مَجْلِسِ عُمَرَ . وَالصَّحَابَةُ حَوْلَهُ كَالنُّجُومِ حَوْلَ الْقَمَرِ . وَأَبُو ذَرٍّ قَدْ حَضَرَ . وَالْخَصْمُ يُنْتَظَرُ . فَقَالَا : أَيْنَ الْغَرِيمُ يَا أَبَا ذَرٍّ . وَكَيْفَ يَرْجِعُ مَنْ قَدْ فَرَّ . فَلَا نَبْرَحُ مِنْ مَكَانِنَا . حَتَّى تَفِيَ بِضَمَانِنَا . فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : وَحَقِّ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ . إِنِ انْقَضَى تَمَامُ الْأَيَّامِ . وَلَمْ يَحْضُرِ الْغُلَامُ . وَفَيْتُ بِالضَّمَانِ . وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانِ . فَقَالَ عُمَرُ : وَاللهِ إِنْ تَأَخَّرَ الْغُلَامُ . لَأُمْضِيَنَّ فِي أَبِي ذَرٍّ مَا اقْتَضَتْهُ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ . فَهَمَلَتْ عَبَرَاتُ الْحَاضِرِينَ . وَارْفَضَّتْ زَفَرَاتُ النَّاظِرِينَ . وَعَظُمَ الضَّجِيجُ . وَتَزَايَدَ

ٱلنَّشِيجُ . فَعَرَضَ كِبَارُ ٱلصَّحَابَةِ عَلَى ٱلشَّابَّيْنِ أَخْذَ ٱلدِّيَةِ . وَٱغْتَنَمَ ٱلْأَثْنَيْنِ . فَأَصَرَّا عَلَى عَدَمِ ٱلْقَبُولِ . وَأَبَيَا إِلَّا ٱلْأَخْذَ بِثَارِ ٱلْمَقْتُولِ . فَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ يَمُوجُونَ تَلَهُّفًا لِمَا مَرَّ . وَيَصِيحُونَ تَأَسُّفًا عَلَى أَبِي ذَرٍّ . إِذْ أَقْبَلَ ٱلْغُلَامُ . وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْإِمَامِ . وَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَتَمَّ سَلَامٍ . وَوَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ مُشْرِقًا . وَيَتَكَلَّلُ عَرَقًا . وَقَالَ : قَدْ أَسْلَمْتُ ٱلصَّبِيَّ إِلَى أَخْوَالِي . وَعَرَّفْتُهُمْ خَفِيَّ أَحْوَالِي . وَأَطْلَعْتُهُمْ عَلَى مَكَانِ مَالِهِ وَأَمْوَالِي . ثُمَّ ٱقْتَحَمْتُ هَاجِرَاتِ ٱلْحَرِّ . وَوَفَيْتُ وَفَاءَ ٱلْحُرِّ ٱلْأَغَرِّ . فَعَجِبَ ٱلنَّاسُ مِنْ صِدْقِهِ وَوَفَائِهِ . وَإِقْدَامِهِ عَلَى ٱلْمَوْتِ وَٱجْتِرَائِهِ . فَقَالَ : مَنْ غَدَرَ . لَمْ يَعْفُ عَنْهُ مَنْ قَدَرَ . وَمَنْ وَفَى . رَحِمَهُ ٱلطَّالِبُ وَعَفَا . وَتَحَقَّقْتُ أَنَّ ٱلْمَوْتَ إِذَا حَضَرَ لَمْ يُنْجِ مِنْهُ ٱحْتِرَاسٌ . وَبَادَرْتُ كَيْ لَا يُقَالَ ذَهَبَ ٱلْوَفَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ ضَمِنْتُ هٰذَا ٱلْغُلَامَ وَلَمْ أَعْرِفْهُ مِنْ أَيِّ قَوْمٍ . وَلَا رَأَيْتُهُ قَبْلَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ . وَلٰكِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ مَنْ حَضَرَ فَقَصَدَنِي . وَقَالَ : هٰذَا يَضْمَنُنِي . فَلَمْ أَسْتَحْسِنْ رَدَّهُ . وَأَبَتِ ٱلْمُرُوءَةُ أَنْ تُخَيِّبَ قَصْدَهُ . إِذْ لَيْسَ فِي إِجَابَةِ ٱلْقَصْدِ مِنْ بَاسٍ . كَيْ لَا يُقَالَ : ذَهَبَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ ٱلشَّابَّانِ عِنْدَ ذٰلِكَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . قَدْ وَهَبْنَا لِهٰذَا ٱلْغُلَامِ دَمَ أَبِينَا . فَلْتُبْدَلْ وَحْشَتُهُ بِإِيْنَاسٍ . كَيْ لَا يُقَالَ : ذَهَبَ ٱلْمَعْرُوفُ مِنَ ٱلنَّاسِ . فَٱسْتَبْشَرَ ٱلْإِمَامُ . بِٱلْعَفْوِ عَنِ ٱلْغُلَامِ . وَعَجِبَ مِنْ صِدْقِهِ وَوَفَائِهِ . وَٱسْتَغْزَرَ مُرُوءَةَ أَبِي ذَرٍّ دُونَ جُلَسَائِهِ . وَٱسْتَحْسَنَ ٱعْتِمَادَ ٱلشَّابَّيْنِ فِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْمَعْرُوفِ

وأثنى عليهما أحسن ثناء وتمثل بهذا البيت:

مَن يصنع الخير لم يعدم جوائزه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

ثم عرض عليهما أمير المؤمنين أن يصرف لهما من بيت المال دية أبيهما. فقالا: يا أمير المؤمنين إنما عفونا عنه ابتغاء لوجه الله. ومن نيته كذا. لا يتبع إحسانه منا ولا أذى. قال الراوي: فاعتددتها من أنفس العجائب. وأثبتها في ديوان الغرائب (للاتليدي)

جحدر والسبع

٣١١ قيل إن جحدر بن ربيعة كان بطلا شجاعا فاتكا شاعرا بليغا. فغزا أهل اليمامة وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف. فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر ويأمره بالتوجه إليه حتى يقتله أو يحمله إليه أسيرا. فوجه العامل إليه فتية من بني حنظلة وجعل لهم الجعائل العظيمة إن هم قتلوا جحدرا أو أتوا به أسيرا. فتوجه الفتية إلى طلبه فلما دنوا من مكانه أرسلوا إليه يقولون إنهم يريدون الانقطاع إليه والمقام بخدمته. فوثق بذلك منهم وسكن إلى قولهم. فبينما هو معهم يوما إذ وثبوا إليه فشدوه وثاقا وقدموا به إلى العامل. فوجه معهم إلى الحجاج. فلما قدموا به عليه مثل بين يديه. قال له: أنت جحدر. قال: نعم أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك على ما بلغني عنك. قال: أصلح الله الأمير. كلب الزمان. وجفوة السلطان. وجراءة الجنان. قال: وما بلغ من أمرك. قال: لو ابتلاني الأمير

وَجَعَلَنِي مَعَ ٱلْفُرْسَانِ لَرَأَى مِنِّي مَا يُعْجِبُهُ . قَالَ ٱلرَّاوِي : فَتَعَجَّبَ ٱلْحَجَّاجُ مِنْ ثَبَاتِ عَقْلِهِ وَمَنْطِقِهِ . ثُمَّ قَالَ : يَا جَحْدَرُ إِنِّي قَاذِفٌ بِكَ فِي حَفَائِرَ بِهَا أَسَدٌ عَظِيمٌ . فَإِنْ قَتَلَكَ كَفَانَا مَؤُنَتَكَ . وَإِنْ قَتَلْتَهُ عَفَوْنَا عَنْكَ . قَالَ : أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ قَرُبَ ٱلْفَرَجُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . فَأَمَرَ بِهِ فَصَفَّدُوهُ بِٱلْحَدِيدِ ثُمَّ كَتَبَ لِعَامِلِهِ أَنْ يَرْتَادَ لَهُ أَسَدًا عَظِيمًا وَيَحْمِلَهُ إِلَيْهِ . فَٱرْتَادَ لَهُ ٱلْعَامِلُ أَسَدًا كَرِيهَ ٱلْمَنْظَرِ كَاشِرًا خَبِيثًا قَدْ أَفْنَى عَامَّةَ ٱلْمَوَاشِي . وَأَمَرَ بِأَنْ يَصِيرَ فِي قَفَصِ حَدِيدٍ وَيُسْحَبَ ٱلْقَفَصُ عَلَى عَجَلٍ . فَلَمَّا قَدِمَ بِهِ عَلَى ٱلْعَجَلِ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ أَمَرَ بِهِ فَأُلْقِيَ فِي ٱلْحَفَائِرِ وَلَمْ يُطْعَمْ شَيْئًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى جَاعَ وَٱسْتَكْلَبَ . ثُمَّ أَمَرَ بِجَحْدَرٍ أَنْ يُنْزِلُوهُ إِلَيْهِ فَأَعْطَوْهُ سَيْفًا وَأَنْزَلُوهُ إِلَيْهِ مُقَيَّدًا وَأَشْرَفَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَيْهِ وَٱلنَّاسُ حَوْلَهُ يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْأَسَدِ مَا هُوَ صَانِعٌ بِجَحْدَرٍ . فَلَمَّا نَظَرَ ٱلْأَسَدُ إِلَى جَحْدَرٍ نَهَضَ وَوَثَبَ وَتَمَطَّى وَزَأَرَ زَئِيرًا دَوَى مِنْهُ ٱلْجِبَالُ وَٱرْتَاعَتْ مِنْهُ أَهْلُ ٱلْأَرْضِ . فَشَدَّ عَلَيْهِ جَحْدَرٌ وَهُوَ يَقُولُ :

لَيْثٌ وَلَيْثٌ فِي مَجَالٍ ضَنْكِ كِلَاهُمَا ذُو قُوَّةٍ وَسَفْكِ
وَصَوْلَةٍ وَبَطْشَةٍ وَفَتْكِ . إِنْ يَكْشِفِ ٱللهُ قِنَاعَ ٱلشَّكِّ
فَأَنْتَ لِي فِي قَبْضَتِي وَمُلْكِي

ثُمَّ دَنَا مِنْهُ وَضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ فَفَلَقَ هَامَتَهُ . فَكَبَّرَ ٱلنَّاسُ وَأُعْجِبَ ٱلْحَجَّاجُ وَقَالَ : لِلهِ دَرُّكَ مَا أَنْجَدَكَ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ مِنَ ٱلْحَفَائِرِ وَفُكَّ وِثَاقُهُ وَقَيْدُهُ . وَقَالَ لَهُ : ٱخْتَرْ إِمَّا أَنْ تُقِيمَ عِنْدَنَا فَنُكْرِمَكَ وَنُقَرِّبَ

مَنْزِلَتَكَ. وَإِمَّا أَنْ تَأْذَنَ لَكَ فَتَلْحَقَ بِبِلَادِكَ وَنَشْرِطَ عَلَيْكَ أَنْ لَا تُحْدِثَ مُنْكَرًا وَلَا تُؤْذِيَ أَحَدًا. قَالَ: بَلْ أَخْتَارُ صُحْبَتَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ. فَجَعَلَهُ مِنْ سُمَّارِهِ وَخَوَاصِّهِ. ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَلَّاهُ عَلَى الْيَمَامَةِ وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ

عصيان ابرهيم بن المهدي على امير المؤمنين المأمون وما جرى له في اختفائه

٣١٢ حَكَى الْوَاقِدِيُّ قَالَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمَهْدِيِّ أَخَا هَارُونَ الرَّشِيدِ لَمَّا آلَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ إِلَى الْمَأْمُونِ ابْنِ أَخِيهِ هَارُونَ الرَّشِيدِ لَمْ يُبَايِعْهُ بَلْ ذَهَبَ إِلَى الرَّيِّ وَادَّعَى فِيهَا الْخِلَافَةَ لِنَفْسِهِ. وَأَقَامَ مَالِكَهَا سَنَةً وَأَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَاثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا وَابْنُ أَخِيهِ الْمَأْمُونُ يَتَوَقَّعُ مِنْهُ الْانْقِيَادَ إِلَى الطَّاعَةِ وَالِانْتِظَامَ فِي سِلْكِ الْجَمَاعَةِ حَتَّى يَئِسَ مِنْ عَوْدِهِ. فَرَكِبَ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَذَهَبَ إِلَى الرَّيِّ وَحَاصَرَ الْمَدِينَةَ وَافْتَتَحَهَا وَدَخَلَهَا. قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ نَفْسِهِ: فَخِفْتُ عَلَى دَمِي وَخَرَجْتُ مُسْرِعًا مِنْ دَارِي عِنْدَ الظُّهْرِ وَأَنَا لَا أَدْرِي إِلَى أَيْنَ أَتَوَجَّهُ. وَكَانَ الْمَأْمُونُ قَدْ جَعَلَ لِمَنْ أَتَاهُ بِي مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ. وَفِيمَا كُنْتُ سَائِرًا فِي الطَّرِيقِ إِذَا أَنَا بِزُقَاقٍ فَمَشَيْتُ فِيهِ فَوَجَدْتُهُ غَيْرَ نَافِذٍ. فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِنْ رَجَعْتُ عَلَى أَثَرِي يُرْتَابُ فِي أَمْرِي وَالشَّارِعُ غَيْرُ نَافِذٍ فَمَا الْحِيلَةُ. ثُمَّ نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ فِي صَدْرِ الشَّارِعِ عَبْدًا أَسْوَدَ قَائِمًا عَلَى بَابِ دَارٍ. فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ عِنْدَكَ مَوْضِعٌ أُقِيمُ بِهِ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ. فَقَالَ: نَعَمْ وَفَتَحَ الْبَابَ. فَدَخَلْتُ إِلَى بَيْتٍ نَظِيفٍ

فِيهِ حَصِيرٌ وَبِسَاطٌ وَوُسُدٌ نَظِيفَةٌ مِنْ جُلُودٍ. ثُمَّ إِنَّ الْأَسْوَدَ أَغْلَقَ عَلَيَّ الْبَابَ وَمَضَى. فَتَوَهَّمْتُ أَنَّهُ سَعَى بِجَعَالَةِ الْمَأْمُونِ لِلَّذِي يَأْتِيهِ بِي وَطَمِعَ بِالرِّبْحِ وَخَرَجَ يَدُلُّ عَلَيَّ فَبَقِيتُ أَتَقَلَّى عَلَى جَمْرِ الْغَضَا. فَبَيْنَمَا كُنْتُ أُفَكِّرُ فِي ذٰلِكَ إِذْ أَقْبَلَ وَمَعَهُ حَمَّالٌ حَامِلٌ كُلَّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ وَقِدْرًا جَدِيدَةً وَجَرَّةً نَظِيفَةً وَكِيزَانًا جُدُدًا فَحَطَّهَا عَنِ الْحَمَّالِ وَقَالَ لَهُ: اِمْضِ بِخَيْرٍ. فَخَرَجَ وَأَقْفَلَ وَرَاءَهُ بَابَ الدَّارِ وَجَاءَ إِلَيَّ وَقَالَ لِي: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا مَوْلَايَ إِنِّي رَجُلٌ حَجَّامٌ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَتَقَذَّرُ مِنِّي لِمَا أَتَوَلَّاهُ مِنْ مَعِيشَتِي. فَشَأْنَكَ أَنْتَ بِمَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ يَدِي. قَالَ إِبْرٰهِيمُ: وَكُنْتُ شَدِيدَ الْجُوعِ وَلِي حَاجَةٌ عَظِيمَةٌ إِلَى الطَّعَامِ فَطَبَخْتُ لِنَفْسِي قِدْرًا لَمْ أَدْرِ فِي عُمْرِي أَنِّي أَكَلْتُ أَلَذَّ مِنْهَا. فَلَمَّا قَضَيْتُ أَرَبِي مِنَ الطَّعَامِ قَالَ لِيَ الْأَسْوَدُ: هَلْ لَكَ يَا مَوْلَايَ فِي شَرَابٍ فَإِنَّهُ يَنْفِي الْهَمَّ وَيَدْفَعُ الْغَمَّ. فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَكْرَهُ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي مُؤَانَسَتِكَ. فَمَضَى وَجَاءَنِي بِقَدَحٍ وَبِدَسْتٍ مَلْآنَ شَرَابًا مُطَيَّبًا وَقَالَ لِي: رَوِّقْ لِنَفْسِكَ مَخَافَةَ أَنْ تَتَقَزَّزَ مِنِّي. فَنَظَرْتُ فِي الدَّسْتِ فَرَأَيْتُ شَرَابًا فِي غَايَةِ الْجَوْدَةِ فَرَوَّقْتُ مِنْهُ. ثُمَّ أَتَانِي بِفَاكِهَةٍ وَأَبْقَالٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَبَعْدَهُ قَالَ لِي: يَا مَوْلَايَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَقْعُدَ فِي نَاحِيَةٍ أَمَامَكَ وَآتِيَ بِشَرَابٍ لِي فَأَشْرَبَهُ سُرُورًا بِكَ. فَقُلْتُ لَهُ: اِفْعَلْ فَشَرِبَ وَشَرِبْتُ. ثُمَّ دَخَلَ إِلَى خِزَانَةٍ لَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهَا عُودًا وَقَالَ لِي: لَيْسَ مِنْ قَدْرِي أَنْ أَسْأَلَكَ فِي الْغِنَاءِ وَلٰكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ

عَبْدَكَ يُغَنِّي فَلَكَ عُلُوُّ الرَّأْيِ. فَقُلْتُ لَهُ: وَمِنْ أَيْنَ لَكَ أَنِّي أُحْسِنُ الْغِنَاءَ. فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللهِ. مَوْلَايَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يَخْفَى أَلَسْتَ أَنْتَ سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمَهْدِيِّ خَلِيفَتَنَا فِي الْأَمْسِ الَّذِي جَعَلَ الْمَأْمُونُ لِمَنْ دَلَّهُ عَلَيْكَ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ. فَلَمَّا سَمِعْتُ ذٰلِكَ عَظُمَ الرَّجُلُ فِي عَيْنِي وَثَبَتَتْ مُرُوءَتُهُ عِنْدِي. فَتَنَاوَلْتُ الْعُودَ وَأَصْلَحْتُهُ وَقَدْ مَرَّ بِخَاطِرِي فِرَاقُ أَهْلِي وَوَلَدِي وَوَطَنِي فَغَنَّيْتُ:

وَعَسَى الَّذِي أَهْدَى لِيُوسُفَ أَهْلَهُ ... وَأَعَزَّهُ فِي السِّجْنِ وَهْوَ أَسِيرُ
أَنْ يَسْتَجِيبَ لَنَا وَيَجْمَعَ شَمْلَنَا ... وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدِيرُ

فَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الطَّرَبُ الْمُفْرِطُ وَطَابَ خَاطِرُهُ وَقَالَ لِي: يَا سَيِّدِي وَمَوْلَايَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُغَنِّيَ مَا سَنَحَ بِخَاطِرِي وَإِنْ كُنْتُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ. فَقُلْتُ: وَهٰذَا مِنْ زِيَادَةِ أَدَبِكَ وَمُرُوءَتِكَ. فَأَخَذَ الْعُودَ وَأَنْشَدَ:

شَكَوْنَا إِلَى أَحْبَابِنَا طُولَ لَيْلِنَا ... فَقَالُوا لَنَا مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا
وَذَاكَ لِأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عُيُونَهُمْ ... سَرِيعًا وَلَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمُ أَعْيُنَا
فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُلَاقُونَ مِثْلَمَا ... نُلَاقِي لَكَانُوا فِي الْمَضَاجِعِ مِثْلَنَا

قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَدَاخَانِي مِنَ الطَّرَبِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَأَذْهَبَ مِنِّي كُلَّ مَا كَانَ بِي مِنَ الْهَلَعِ فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ أَحْسَنْتَ كُلَّ الْإِحْسَانِ وَأَذْهَبْتَ عَنِّي أَلَمَ الْأَحْزَانِ. فَزِدْنِي مِنْ هٰذِهِ النُّزْهَاتِ فَأَنْشَدَ لِلسَّمَوْأَلِ:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْنَا لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

قَالَ إِبْرٰهِيمُ : فَاشْتَدَّ عَلَيَّ الطَّرَبُ وَنِمْتُ وَلَمْ أَسْتَيْقِظْ إِلَّا بَعْدَ الْعِشَاءِ . فَعَاوَدَنِي فِكْرِي فِي نَفَاسَةِ هٰذَا الْحَجَّامِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ . فَقُمْتُ ثُمَّ أَخَذْتُ خَرِيطَةً كَانَتْ صُحْبَتِي فِيهَا دَنَانِيرُ لَهَا قِيمَةٌ . فَرَمَيْتُ بِهَا إِلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَتَصَرَّفَ فِي هٰذَا وَلَكَ عِنْدِي الْمَزِيدُ إِنْ أَمِنْتُ مِنْ خَوْفِي . فَأَبَى أَخْذَهَا وَأَعَادَهَا عَلَيَّ بِعِزَّةٍ وَقَالَ : يَا مَوْلَايَ إِنَّ الصَّعَالِيكَ مِنَّا لَا قَدْرَ لَهُمْ عِنْدَكُمْ . أَأَخْذُ عَلَى مَا وَهَبَنِيهِ الزَّمَانُ . قُرْبُكَ وَحُلُولُكَ فِي مَنْزِلِي غِنًى . وَاللهِ لَئِنْ رَاجَعْتَنِي بِهَا لَأَقْتُلَنَّ نَفْسِي . فَأَعَدْتُ الْخَرِيطَةَ إِلَى كُمِّي وَقَدْ أَثْقَلَنِي حَمْلُهَا وَانْصَرَفْتُ . وَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى بَابِ دَارِهِ قَالَ لِي : يَا سَيِّدِي إِنَّ هٰذَا الْمَكَانَ أَخْفَى لَكَ مِنْ غَيْرِهِ وَلَيْسَ عَلَيَّ فِي مُؤْنَتِكَ ثِقَلٌ فَأَقِمْ عِنْدِي إِلَى أَنْ يُفَرِّجَ اللهُ عَنْكَ . فَقُلْتُ لَهُ : بِشَرْطِ أَنْ تُنْفِقَ مِمَّا فِي هٰذِهِ الْخَرِيطَةِ . فَأَوْهَمَنِي الرِّضَا بِذٰلِكَ الشَّرْطِ . فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ أَيَّامًا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ فِي أَلَذِّ عَيْشٍ وَهُوَ لَمْ يَصْرِفْ مِنَ الْخَرِيطَةِ شَيْئًا . فَتَذَمَّمْتُ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي بَيْتِهِ وَاحْتَشَمْتُ مِنَ التَّثْقِيلِ عَلَيْهِ . فَتَزَيَّيْتُ بِزِيِّ النِّسَاءِ بِالْخُفِّ وَالنِّقَابِ وَوَدَّعْتُهُ وَخَرَجْتُ . فَلَمَّا صِرْتُ فِي الطَّرِيقِ دَاخَلَنِي مِنَ الْخَوْفِ أَمْرٌ شَدِيدٌ وَجِئْتُ لِأَعْبُرَ الْجِسْرَ وَإِذَا بِمَوْضِعِ مُرْشُوشٍ فَنَظَرَنِي جُنْدِيٌّ مِمَّنْ كَانَ يَخْدِمُنِي فَصَاحَ وَقَالَ : هٰذَا حَاجَةُ الْمَأْمُونِ . ثُمَّ تَعَلَّقَ بِي فَمِنْ حَلَاوَةِ الرُّوحِ دَفَعْتُهُ هُوَ وَفَرَسَهُ فَوَقَعَا فِي ذٰلِكَ الْمَزْلَقِ فَصَارَ عِبْرَةً . وَتَبَادَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَاجْتَهَدْتُ

أَنَا فِي ٱلْمَشْيِ حَتَّى قَطَعْتُ ٱلْجِسْرَ فَدَخَلْتُ شَارِعًا فَوَجَدْتُ بَابَ دَارٍ وَٱمْرَأَةً وَاقِفَةً فِي ٱلدِّهْلِيزِ . فَقُلْتُ لَهَا : يَا سَيِّدَةَ ٱلنِّسَاءِ ٱحْقِنِي دَمِي فَإِنِّي رَجُلٌ خَائِفٌ . فَقَالَتْ لِي : عَلَى ٱلرُّحْبِ وَٱلسَّعَةِ . وَأَطْلَعَتْنِي إِلَى غُرْفَةٍ وَفَرَشَتْ لِي فِرَاشًا وَقَدَّمَتْ لِي طَعَامًا وَقَالَتْ : هَدِّئْ رَوْعَكَ فَمَا عَلِمَ بِكَ مَخْلُوقٌ . فَبَيْنَمَا هِيَ كَذٰلِكَ إِذَا بِٱلْبَابِ يُطْرَقُ طَرْقًا عَنِيفًا . فَخَرَجَتْ وَفَتَحَتِ ٱلْبَابَ وَإِذَا بِصَاحِبِي ٱلَّذِي دَفَعْتُهُ عَلَى ٱلْجِسْرِ وَهُوَ مَشْدُوخُ ٱلرَّأْسِ وَدَمُهُ يَسِيلُ عَلَى ثِيَابِهِ وَلَيْسَ مَعَهُ فَرَسٌ . فَقَالَتْ لَهُ : يَا هٰذَا مَا دَهَاكَ . فَقَالَ : إِنِّي ظَفِرْتُ بِٱلْغِنَى وَٱنْفَلَتَ مِنِّي . وَأَخْبَرَهَا بِمَا جَرَى لَهُ . فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَصَائِبَ وَعَصَبَتْ رَأْسَهُ وَفَرَشَتْ لَهُ فَنَامَ عَلَيْلًا . ثُمَّ إِنَّهَا طَلَعَتْ إِلَيَّ وَقَالَتْ : أَظُنُّكَ أَنْتَ صَاحِبَ ٱلْقَضِيَّةِ . فَقُلْتُ لَهَا : نَعَمْ . فَقَالَتْ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ وَلَا تَخَفْ . ثُمَّ جَدَّدَتْ لِيَ ٱلْكَرَامَةَ فَأَقَمْتُ عِنْدَهَا ثَلَاثًا . ثُمَّ قَالَتْ لِي : إِنِّي خَائِفَةٌ عَلَيْكَ مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ (وَعَنَتْ زَوْجَهَا) لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَيْكَ فَيَنَمَّ بِكَ . فَٱلْأَوْلَى بِكَ أَنْ تَنْجُوَ بِنَفْسِكَ فِي خَيْرٍ . فَسَأَلْتُهَا ٱلْمُهْلَةَ إِلَى ٱللَّيْلِ . فَقَالَتْ : لَا بَأْسَ بِذٰلِكَ . فَلَمَّا جَنَّ ٱللَّيْلُ لَبِسْتُ زِيَّ ٱلنِّسَاءِ وَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا وَأَتَيْتُ إِلَى بَيْتِ جَارِيَةٍ لِي . فَلَمَّا رَأَتْنِي بَكَتْ وَتَوَجَّعَتْ وَحَمِدَتِ ٱللهَ عَلَى سَلَامَتِي وَخَرَجَتْ وَهِيَ تُوهِمُنِي أَنَّهَا تُرِيدُ ٱلسُّوقَ لِلِٱهْتِمَامِ بِٱلضِّيَافَةِ وَظَنَنْتُ بِهَا خَيْرًا . فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِإِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ قَدْ أَقْبَلَ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَٱلْجَارِيَةُ مَعَهُ . فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِ فَرَأَيْتُ ٱلْمَوْتَ

عِيَانًا. فَحَمَلُونِي بِالزِّيِّ الَّذِي أَنَا فِيهِ إِلَى الْمَأْمُونِ. فَعَقَدَ مَجْلِسًا عَامًّا وَأَدْخَلَنِي إِلَيْهِ فَلَمَّا مَثُلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ. فَقَالَ: لَا سَلَّمَ اللهُ عَلَيْكَ وَلَا حَيَّاكَ وَلَا رَعَاكَ. فَقُلْتُ لَهُ: مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ وَلِيَّ الثَّارِ مُحَكَّمٌ بِالْقِصَاصِ وَلَكِنَّ الْعَفْوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى. وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ فَوْقَ كُلِّ عَفْوٍ كَمَا جَعَلَ ذَنْبِي فَوْقَ كُلِّ ذَنْبٍ. فَإِنْ تَقْتُلْ فَبِعَدْلِكَ وَإِنْ تَعْفُ فَمِنْ فَضْلِكَ. ثُمَّ أَنْشَدْتُ:

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
فَخُذْ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِحِلْمِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ عِنْدَ فِعْلِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

قَالَ: فَرَفَعَ الْمَأْمُونُ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَيَّ فَبَدَرْتُهُ قَائِلًا:

أَتَيْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلُ
فَإِنْ عَفَوْتَ فَمَنٌّ وَإِنْ قَتَلْتَ فَعَدْلُ

فَرَقَّ لِي الْمَأْمُونُ فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ قَدْ هَشَّ وَاسْتَرْوَحْتُ رَوَائِحَ الرَّحْمَةِ مِنْ شَمَائِلِهِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ وَأَخِيهِ أَبِي إِسْحَاقَ وَجَمِيعِ مَنْ حَضَرَ مِنْ خَاصَّتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَرَوْنَ فِي أَمْرِهِ فَكُلٌّ أَشَارَ بِقَتْلِي إِلَّا أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي الْقِتْلَةِ. فَقَالَ الْمَأْمُونُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ: مَا تَقُولُ يَا أَحْمَدُ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ قَتَلْتَهُ فَقَدْ وَجَدْنَا مِثْلَكَ قَدْ قَتَلَ مِثْلَهُ. وَإِنْ عَفَوْتَ عَنْهُ لَمْ نَجِدْ مِثْلَكَ قَدْ عَفَا عَنْ مِثْلِهِ. فَنَكَّسَ الْمَأْمُونُ رَأْسَهُ مُطْرِقًا إِلَى الْأَرْضِ سَاعَةً. ثُمَّ رَفَعَهُ وَأَنْشَدَ:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

(قال) فكشفت عند ذلك المقنعة عن رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة فرحا وقلت: عفا والله أمير المؤمنين. فقال المأمون: لا بأس عليك يا عماه. فقلت: يا أمير المؤمنين ذنبي أعظم من أن أتفوه معه بعذر. وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكني أقول:

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْمَكَارِمَ حَازَهَا فِي صُلْبِ آدَمَ لِلْإِمَامِ السَّابِعِ
مُلِئَتْ قُلُوبُ النَّاسِ مِنْكَ مَهَابَةً وَتَظَلُّ تَكْلَأُهُمْ بِقَلْبٍ خَاشِعِ
فَعَفَوْتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ عَفْوٌ وَلَمْ يُشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعِ
وَرَحِمْتَ أَطْفَالًا كَأَفْرَاخِ الْقَطَا وَحَنِينَ وَالِدَةٍ بِقَلْبٍ جَازِعِ

فقال المأمون: لا تثريب عليك اليوم. وقد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك بأجمعها. فقبلت الأرض وأنشدت:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَنْتَ دَمِي
نَأَيْتُ مِنْكَ وَقَدْ خَوَّلْتَنِي نِعَمًا هُمَا الْحَيَاتَانِ مِنْ مَوْتٍ وَمِنْ عَدَمِ
فَلَوْ بَذَلْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالَ حَتَّى أُسَلَّ النَّعْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَةٍ رَجَعَتْ إِلَيْكَ لَوْ لَمْ تُعِرْهَا كُنْتَ لَمْ تَلُمِ
فَإِنْ جَحَدْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ إِنِّي إِلَى اللُّؤْمِ أَوْلَى مِنْكَ بِالْكَرَمِ

فقال المأمون: إن من الكلام لدرا وهذا منه. ثم خلع علي وقال لي: يا عم إن أبا إسحاق أخي والعباس أشارا علي بقتلك. فقلت له: إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكنك فعلت بما أنت أهله. فقال

ٱلْمَأْمُونُ : يَا عَمُّ لَقَدْ أَمَتَّ حِقْدِي بِحَيَاةِ عُذْرِكَ . وَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ وَلَمْ أُجَرِّعْكَ مَرَارَةَ امْتِنَانِ ٱلشَّافِعِينَ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَأْمُونَ سَجَدَ وَقَبَّلَ ٱلْأَرْضَ وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ لِي : يَا عَمُّ أَتَدْرِي لِمَاذَا سَجَدْتُ وَقَبَّلْتُ ٱلْأَرْضَ . فَقُلْتُ : نَعَمْ أَظُنُّهُ شُكْرًا لِلّٰهِ تَعَالَى ٱلَّذِي أَظْفَرَكَ بِعَدُوِّ دَوْلَتِكَ . فَقَالَ : مَا أَرَدْتُ هٰذَا وَلٰكِنْ شُكْرًا لِلّٰهِ تَعَالَى ٱلَّذِي أَلْهَمَنِي ٱلْعَفْوَ عَنْكَ فَحَدِّثْنِي ٱلْآنَ حَدِيثَكَ فِي ٱخْتِفَائِكَ . فَشَرَحْتُ لَهُ صُورَةَ أَمْرِي مَعَ ٱلْحَجَّامِ وَٱلْجُنْدِيِّ وَٱمْرَأَتِهِ وَمَا جَرَى لِي مَعَ جَارِيَتِي . فَأَمَرَ ٱلْمَأْمُونُ بِإِحْضَارِ ٱلْجَمِيعِ . فَدَعَا جَارِيَتِي وَكَانَتْ مُنْتَظِرَةً لِلْجَائِزَةِ . فَقَالَ لَهَا : مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا فَعَلْتِ بِسَيِّدِكِ . فَقَالَتِ : ٱلرَّغْبَةُ فِي ٱلْمَالِ . فَقَالَ لَهَا ٱلْمَأْمُونُ : أَلَكِ وَلَدٌ أَوْ زَوْجٌ . فَقَالَتْ : لَا . فَأَمَرَ بِضَرْبِهَا مِائَةَ سَوْطٍ وَخَلَّدَ سِجْنَهَا . ثُمَّ أَحْضَرَ ٱلْجُنْدِيَّ وَٱمْرَأَتَهُ وَٱلْحَجَّامَ . فَسَأَلَ ٱلْجُنْدِيَّ مَا حَمَلَهُ عَلَى مَا فَعَلَ . فَقَالَ : ٱلرَّغْبَةُ فِي ٱلْمَالِ . فَقَالَ لَهُ ٱلْمَأْمُونُ : أَنْتَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ حَجَّامًا لِتَتَعَلَّمَ ٱلْحِجَامَةَ . ثُمَّ طَرَدَهُ مِنَ ٱلْجُنْدِيَّةِ وَأَكْرَمَ زَوْجَتَهُ وَأَمَرَ فَأَدْخَلُوهَا قَصْرَهُ وَقَالَ : هٰذِهِ ٱمْرَأَةٌ عَاقِلَةٌ تَصْلُحُ لِلْمُهِمَّاتِ . ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَى ٱلْحَجَّامِ وَقَالَ لَهُ : لَقَدْ ظَهَرَ مِنْ مُرُوءَتِكَ مَا يُوجِبُ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي إِكْرَامِكَ . فَسَلَّمَ إِلَيْهِ دَارَ ٱلْجُنْدِيِّ بِمَا فِيهَا وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ رِزْقَ ٱلْجُنْدِيِّ وَأَجْرَى لَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ . فَلَمْ يَزَلْ فِي تِلْكَ ٱلنِّعْمَةِ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ ٱللّٰهُ (حديقة الافراح لليمني)

الباب السادس عشر
في الفكاهات

٣١٣ كَتَبَ ٱبْنُ ٱلْخَازِنِ ٱلْكَاتِبُ ٱلدِّينَوَرِيُّ إِلَى ٱلْحَكِيمِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْأَهْوَازِيِّ وَقَدْ فَصَدَهُ وَآلَمَهُ :

رَحِمَ ٱلْإِلٰهُ مُجَدَّلِينَ سَلِيمُهُمْ ... مِنْ سَاعِدَيْكَ مُبَضَّعٌ بِمُبَضَّعِ
فَعَصَائِبٌ تَأْتِيهِمِ بِعَصَائِبٍ ... نُشِرَتْ فَتَطْوِي أَذْرُعًا فِي ٱلْأَذْرُعِ
أَفَصَدْتَهُمْ بِٱللهِ أَمْ أَقْصَدْتَهُمْ ... وَخْزًا بِأَطْرَافِ ٱلرِّمَاحِ ٱلشُّرَّعِ
دَسْتُ ٱلْمَبَاضِعِ أَمْ كِنَانَةُ أَسْهُمٍ ... أَمْ ذُو ٱلْفَقَارِ مَعَ ٱلْبَطِينِ ٱلْأَنْزَعِ
غَرَرًا بِنَفْسِي إِنْ لَقِيتُكَ بَعْدَهَا ... يَا عَنْتَرَ ٱلْعَبْسِيُّ غَيْرَ مُدَرَّعِ

٣١٤ كَتَبَ بَعْضُ ٱلظُّرَفَاءِ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ يَطْلُبُ خَمْرًا :

أَشْكُو إِلَيْكَ بَرَاغِيثًا بُلِيتُ بِهَا ... سُودًا إِذَا ٱنْتَبَهُوا فِي ٱللَّيْلِ لَمْ أَنَمِ
أَصِيدُ هٰذَا فَيَبْقَى ذَا فَيَلْدَغُنِي ... فَيَنْقَضِي ٱللَّيْلُ فِي صَيْدِي وَلَدْغِهِمِ
وَقَدْ تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَيْسَ يُنْقِذُنِي ... سِوَى ٱبْنَةِ ٱلْكَرْمِ يَا ٱبْنَ ٱلْجُودِ وَٱلْكَرَمِ
إِبْعَثْ إِلَيَّ دَمَ ٱلْعُنْقُودِ أَشْرَبُهَا ... لِكَيْ أَنَامَ وَلَا أَشْعُرْ بِسَفْكِ دَمِي

٣١٥ قَالَ ٱبْنُ ٱلذَّرْوِيِّ فِي ٱبْنِ أَبِي حَصِينَةَ ٱلْأَحْدَبِ :

لَا تَظُنَّنَّ حَدْبَةَ ٱلظَّهْرِ عَيْبًا ... فَهْيَ فِي ٱلْحُسْنِ مِنْ صِفَاتِ ٱلْهِلَالِ
وَكَذَاكَ ٱلْقِسِيُّ مُحْدَوْدِبَاتٌ ... وَهْيَ أَنْكَى مِنَ ٱلظُّبَا وَٱلْعَوَالِي
وَإِذَا مَا عَلَا ٱلسَّنَامُ فَفِيهِ ... لِقُرُومِ ٱلْجِمَالِ أَيُّ جَمَالِ

كَوَّنَ اللهُ حَدْبَةً فِيكَ إِنْ شِئْـ ـتَ مِنَ الْفَضْلِ لَا مِنَ الْإِفْضَالِ
فَأَتَتْ رُبْوَةً عَلَى طَوْدِ حِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةً بِبَحْرِ نَوَالِ
مَا رَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ أَنَّهَا حِلْيَةٌ لِكُلِّ الرِّجَالِ

٣١٦ قَالَ ابْنُ دَانِيَالَ فِي أَحْدَبَ يُسَمَّى حَسَّانَ:

قَسَمًا بِحُسْنِ قَوَامِكَ الْفَتَّانِ يَا أَوْحَدَ الْأُمَرَاءِ فِي الْحَدْبَانِ
يَا مُشْبِهَ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْثَنَى مِنْ حَدْبَةٍ فَيَمِيسُ كَالرَّيَّانِ
يَا مُخْجِلًا شَكْلَ الزَّمَانِ بِقَدِّهِ حَاشَاكَ أَنْ تُعْزَى إِلَى نُقْصَانِ
مَا عَابَ قَامَتَكَ الْحُسُودُ جَهَالَةً إِلَّا أَجَبْتَ مَقَالَةً بِبَيَانِ
هَلْ تَحْسُنُ الْحَرَكَاتُ إِلَّا أَنْ يُرَى ذُو حَدْبَةٍ فِي حَلْبَةِ الْمَيْدَانِ
لَوْلَاكَ مَا اشْتَقْنَا قِبَابَ الْمُنْحَنِي مِنْ حَاجِرٍ وَالتَّلِّ مِنْ عُسْفَانِ
وَالْعُودُ أَحْدَبُ وَهُوَ يُلْهِي مُطْرِبًا وَلَقَدْ سَمِعْتَ بِنَغْمَةِ الْعِيدَانِ
وَانْظُرْ سَفِينَ الْبَحْرِ لَوْلَا حَدْبَةٌ فِي ظَهْرِهِ لَمْ يَقْوَ لِلطُّوفَانِ
وَمُدَبِّرُ الْإِكْسِيرِ يُدْعَى أَحْدَبًا فِي عِلْمِهِ وَالْقِسْطُ فِي الْمِيزَانِ
وَإِذَا اكْتَسَى الْإِنْسَانُ قِيلَ تَمَثُّلًا بِالْمَذْحِ قَامَتْ حَدْبَةُ الْإِنْسَانِ
يَفْدِيكَ فِي الْحُدْبَانِ كُلُّ مُكَرْبَسٍ يَمْشِي الْهُوَيْنَا مِشْيَةَ السَّرَطَانِ
مُنْجَمِعَ الْكَتِفَيْنِ أَقْوَسَ قَدْ بَدَا فِي هَيْئَةِ الْمُتَخَوِّفِ الضَّعْفَانِ

الطبيب والخليفة

٣١٧ يُحْكَى أَنَّ فَلَّاحًا حَصَلَ لَهُ شِدَّةٌ مِنْ مَرَضٍ آلَمَهُ وَأَصَابَ قَدَمَهُ فَجَاءَ إِلَى طَبِيبٍ وَشَكَا إِلَيْهِ الْآلَامَ وَقَالَ: أَلَمِي فِي رِجْلِي ضَاعَفَ هَمِّي

وَأَضْعَفَ هَمِّي. فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ: لَا بَأْسَ يَا حَبِيبُ هٰذَا هَيِّنٌ. وَعِلَاجُهُ بَيِّنٌ. أَعْطِنِي دِينَارًا أَصِفْ لَكَ دَوَاءً شَافِيًا. فَأَعْطَاهُ مَا اشْتَهَى وَاسْتَوْصَفَهُ الدَّوَاءَ. فَقَالَ صَمْدُهُ بِحَجَّةِ بَيْضٍ كَثِيرَةِ الْأَبْزَارِ. وَضَعْ عَلَيْهِ عَسَلًا مُسَخَّنًا عَلَى النَّارِ. فَفَعَلَ ذٰلِكَ فَبَرِئَتْ قَدَمُهُ. وَزَالَ بِالْكُلِّيَّةِ أَلَمُهُ. فَفَكَّرَ الْفَلَّاحُ فِي أَمْرِ الطَّبِيبِ. وَقَوْلِهِ الْمُصِيبِ. فَرَأَى الرَّاحَةَ. فِي تَرْكِ الْفَلَاحَةِ. وَالِاشْتِغَالِ بِعِلْمِ الطِّبِّ فَإِنَّهُ أَمْرٌ هَيِّنٌ يَسِيرٌ. وَبِأَدْنَى أَمْرٍ حَقِيرٍ. يُحَصِّلُ الْمَالَ الْكَثِيرَ. فَبَاعَ آلَاتِ الزِّرَاعَةِ. وَعَزَمَ عَلَى تَعَاطِي مَا فِي الطِّبِّ وَالتَّعْبِيرِ مِنَ الصَّنَاعَةِ. وَجَمَعَ كُتُبًا وَدَفَاتِرَ. وَكَرَارِيسَ مُخَرَّمَةً مَنَاثِرَ. وَوَسَّعَ أَكْمَامَهُ. وَوَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً كَغَمَامَةٍ. وَجَمَعَ عَقَاقِيرَ وَأَوْرَاقًا وَبَسَطَ بُسُطَهُ فِي بَعْضِ الْأَسْوَاقِ وَأَشَارَ عَلَى لِسَانِ مُخْبِرٍ: أَنَّ الْمَكَانَ الْفُلَانِيَّ فِيهِ طَبِيبٌ مُعَبِّرٌ وَهُوَ أُسْتَاذُ الزَّمَانِ وَعَلَّامَةُ الْأَوَانِ. وَتَلَامِذَتُهُ فِي الطِّبِّ حُكَمَاءُ الْيُونَانِ. وَفِي التَّعْبِيرِ ابْنُ سِيرِينَ وَكَرْمَانُ. وَتَصَدَّرَ كَأَبِي زَيْدٍ وَسَاسَانَ. عَامِلًا بِمَا قَالَهُ شَيْخُ الْبَيَانِ وَهُوَ:

أَلطِّبُّ أَهْوَنُ عِلْمٍ يُسْتَفَادُ فَطِرْ ... بَيْنَ الْأَنَامِ بِهِ طَيْرَ الزَّنَابِيرِ

وَاجْمَعْ لِذَاكَ كَرَارِيسًا مُنَثَّرَةً ... وَجُمْلَةً مِنْ حَشِيشٍ مِنْ عَقَاقِيرِ

وَضَعْ عَلَى الرَّأْسِ بَقْيَارًا تُدَوِّرُهُ ... كَقُبَّةِ النَّسْرِ فِي وَزْنِ الْقَنَاطِيرِ

وَاجْمَعْ مَعَاجِينَ مِنْ رُبٍّ تُخَالِطُهَا ... وَانْحَقْ سَفُوفًا وَاكْحَالَ الْعَوَاوِيرِ

وَسَمِّ مَا شِئْتَ مِنْ أَسْمَاءٍ مُغْرِبَةٍ ... كَالسِّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالسَّرْحَا وَخُنْفُورِ

وَقُلْ مِنَ الْهِنْدِ جَا هٰذَا وَمِنْ عَدَنٍ ... هٰذَا وَهٰذَا أَتَى مِنْ مُلْكِ تَفْفُورِ

وَذَا مِنَ ٱلْبَحْرِ بَحْرِ ٱلصِّينِ مَعْدِنُهُ ... وَذَا مِنَ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْمَدْعُو بِبَرْبُورِ
فَإِنْ رَأَيْتَ بِٱلِٱسْتِسْقَاءِ ذَا وَرَمٍ ... فَقُلْ تَوَرَّمَ مِنْ لَسْعِ ٱلزَّنَابِيرِ
إِنِ ٱقْشَعَرَّ فَقُلْ بَرْدٌ عَرَاهُ وَإِنْ ... يُحَمَّ قُلْ حَرُّهُ وَهْجُ ٱلتَّنَانِيرِ
وَإِنْ أَتَاكَ مَرِيضٌ لَا تَخَفْ وَأَشِرْ ... بِمَا تَرَى مِنْ دَوَاءٍ دُونَهُ ٱلْبُورِي
فَإِنْ يَعِشْ قُلْ دَوَائِي كَانَ مُنْعِشَهُ ... وَإِنْ يَمُتْ قُلْ أَتَاهُ حُكْمُ مَقْدُورِ
فَإِنْ أَصَبْتَ فَقُلْ عِلْمِي وَمَعْرِفَتِي ... وَفِي ٱلتَّخَالُفِ قُلْ ضِدُّ ٱلْمَقَادِيرِ
وَإِنْ رَأَيْتَ فَقِيهًا فِرَّ مِنْهُ وَلَا ... تَنْطِقْ يُخَطِّئْكَ فِي جَهْلٍ وَتَكْفِيرِ
وَأَنْتَ تَحْتَاجُ فِي هٰذَا وَذَاكَ إِلَى ... ذَوْقٍ وَمَعْرِفَةٍ مَعْ حُسْنِ تَدْبِيرِ

فَٱتَّفَقَ أَنَّ زِمَامَ خَلِيفَةِ ٱلْأَنَامِ. رَأَى فِي ٱلْمَنَامِ. شَيْئًا هَالَهُ. وَغَيَّرَ حَالَهُ. فَحَصَلَ لَهُ فِي رَأْسِهِ صُدَاعٌ. وَفِي فُؤَادِهِ أَوْجَاعٌ. فَسَمِعَ بِهٰذَا ٱلْمُعَبِّرِ ٱلْجَدِيدِ. وَأَنَّهُ أُسْتَاذٌ مُفِيدٌ. فَقَالَ: مَاذَا تَشْكُو. فَقَالَ: فِي فُؤَادِي أَوْجَاعٌ. وَفِي رَأْسِي صُدَاعٌ. فَقَالَ: يَازَيْنَ مَنْ فَاخَرَ. أَعْطِنِي دِينَارًا آخَرَ. أَصِفْ لَكَ أَيْسَرَ دَوَاءٍ. يَحْصُلُ لَكَ مِنْهُ ٱلْعَافِيَةُ وَٱلشِّفَاءُ. فَدَفَعَ إِلَيْهِ ٱلدِّينَارَ. وَطَلَبَ مِنْهُ دَوَاءَ ٱلدُّوَارِ. وَمَا بِفُؤَادِهِ مِنْ أَلَمٍ. أَوْرَثَهُ ٱلْوَهْجَ وَٱلضَّرَمَ. فَقَالَ: يَا أَبَا ٱلْفَيْضِ. صَمِّدْ رِجْلَكَ بِعُجَّةِ بَيْضٍ. مُضَافًا إِلَيْهَا عَسَلٌ مُشْتَارٌ. وَلْيَكُنْ ذٰلِكَ مُسَخَّنًا بِٱلنَّارِ. فَٱسْتَشَاطَ غَضَبًا. وَفَارَ كَٱلنَّارِ شُوَاظًا وَلَهَبًا. وَعَرَفَ أَنَّهُ جَاهِلٌ. وَعَنْ طُرُقِ ٱلْعِلْمِ غَافِلٌ. فَأَدَّبَهُ ٱلتَّادِيبَ ٱلْبَالِغَ. وَرَدَّهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ مُنَادَمَةِ ٱلسَّالِغِ. وَٱسْتَمَرَّ عَلَى كَلَاحَتِهِ. بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَى فَلَاحَتِهِ (فاكهة الخلفاء لابن عربشاه)

الفضل بن يحيى والاعرابي

٣١٨ ومما جاء من أخبار البرامكة ما رواه الأصمعي قال خرج الفضل للصيد والقنص. وبينما هو في موكبه إذ رأى أعرابياً على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره. قال: هذا يقصدني فلا يكلمه أحد غيري. فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب. والخيام تنصب. والعسكر الكثير. والجم الغفير. وسمع الغوغاء والضجة ظن أنه أمير المؤمنين. فنزل وعقل راحلته وتقدم إليه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال: اخفض عليك ما تقول. فقال: السلام عليك أيها الأمير. قال: الآن قاربت اجلس فجلس الأعرابي. فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب. قال: من فضاعة. قال: من أدناها أو من أقصاها. قال: من أقصاها. فقال يا أخا العرب: مثلك من يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق لأي شيء. قال: قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد. قال: من هم. قال: البرامكة. قال الفضل: يا أخا العرب إن البرامكة خلق كثير. وفيهم جليل وخطير. ولكل منهم خاصة وعامة. فهل أفرزت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك. قال: أجل أطولهم باعاً وأسمحهم كفاً. قال: من هو. قال: الفضل ابن يحيى بن خالد. فقال له الفضل: يا أخا العرب إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر. إذا جلس للناس مجلساً عاماً لم يحضر مجلسه

إِلَّا الْعُلَمَاءَ وَالْفُقَهَاءَ وَالْأُدَبَاءَ وَالشُّعَرَاءَ وَالْكُتَّابَ وَالْمُنَاظِرُونَ لِلْعِلْمِ. أَعَالِمٌ أَنْتَ. قَالَ: لَا. قَالَ: أَفَأَدِيبٌ أَنْتَ. قَالَ: لَا. قَالَ: أَفَعَارِفٌ أَنْتَ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهَا. قَالَ: لَا. قَالَ: وَرَدَتْ عَلَى الْفَضْلِ بِكِتَابٍ وَسِيلَةٍ. قَالَ: لَا. فَقَالَ: يَا أَخَا الْعَرَبِ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ. مِثْلُكَ يَقْصِدُ الْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى وَهُوَ مَا عَرَفْتَكَ عَنْهُ مِنَ الْجَلَالَةِ. بِأَيِّ ذَرِيعَةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ تَقَدَّمُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَاللهِ يَا أَمِيرُ مَا قَصَدْتُهُ إِلَّا لِإِحْسَانِهِ الْمَعْرُوفِ. وَكَرَمِهِ الْمَوْصُوفِ. وَبَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ قُلْتُهُمَا فِيهِ. فَقَالَ الْفَضْلُ: يَا أَخَا الْعَرَبِ أَنْشِدْنِي الْبَيْتَيْنِ فَإِنْ كَانَا يَصْلُحَانِ أَنْ تَلْقَاهُ بِهِمَا أَشَرْتُ عَلَيْكَ بِلِقَائِهِ. وَإِنْ كَانَا لَا يَصْلُحَانِ أَنْ تَلْقَاهُ بِهِمَا بَرَرْتُكَ بِشَيْءٍ مِنْ مَالِي وَرَجَعْتَ إِلَى بَادِيَتِكَ وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَسْتَحِقَّ بِشِعْرِكَ شَيْئًا. قَالَ: أَفَتَفْعَلُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أَقُولُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْجُودَ مِنْ عَهْدِ آدَمٍ ... تَحَدَّرَ حَتَّى صَارَ يَمْتَصُّهُ الْفَضْلُ

وَلَوْ أَنَّ أُمًّا مَسَّهَا جُوعُ طِفْلِهَا ... غَذَتْهُ بِاسْمِ الْفَضْلِ لَاغْتَذَّ الطِّفْلُ

قَالَ: أَحْسَنْتَ يَا أَخَا الْعَرَبِ. فَإِنْ قَالَ لَكَ: هَذَانِ الْبَيْتَانِ قَدْ مَدَحَنَا بِهِمَا شَاعِرٌ وَأَخَذَ الْجَائِزَةَ عَلَيْهِمَا فَأَنْشِدْنِي غَيْرَهُمَا. فَمَا تَقُولُ. قَالَ أَقُولُ:

قَدْ كَانَ آدَمُ حِينَ حَانَ وَفَاتُهُ ... أَوْصَاكَ وَهْوَ يَجُودُ بِالْحَوْبَاءِ

بِبَنِيهِ أَنْ تَرْعَاهُمُ فَرَعِيَّتُهُمْ ... وَكَفَيْتَ آدَمَ عَوْلَةَ الْأَبْنَاءِ

قَالَ: أَحْسَنْتَ يَا أَخَا الْعَرَبِ. فَإِنْ قَالَ لَكَ الْفَضْلُ مُمْتَحِنًا. هَذَانِ الْبَيْتَانِ أَخَذْتَهُمَا مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ. فَأَنْشِدْنِي غَيْرَهُمَا. فَمَا تَقُولُ وَقَدْ

رمقتك الأدباء بالأبصار وامتدت الأعناق إليك وتحتاج أن تناضل عن نفسك. قال: إذن أقول:

ملّت جهابذ فضل وزن نائله ... وملّ كتّابه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة ... خلق ولم ير تفع مجد ولا حسب

قال: أحسنت يا أخا العرب. فإن قال لك الفضل هذان البيتان مسروقان. أنشدني غيرهما. فما تقول: قال. إذن أقول:

ولو قيل للمعروف نادِ أخا العلا ... لنادى بأعلى الصوت يا فضل يا فضل
ولو أنفقت جدواك من رمل عالج ... لأصبح من جدواك قد نفد الرمل

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: هذان البيتان مسروقان أيضاً. أنشدني غيرهما فما تقول: قال أقول:

وما الناس إلا اثنان صبٌّ وباذلٌ ... وإني لذاك الصبّ والباذل الفضل
على أنّ لي مثلاً إذا ذكر الورى ... وليس لفضل في سماحته مثل

قال: أحسنت يا أخا العرب. فإن قال لك الفضل: أنشدني غيرهما فما تقول. قال: أقول أيها الأمير:

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالدٍ ... فقامت به التقوى وقام به العدل
وقام به المعروف شرقاً ومغرباً ... ولم يك للمعروف بعدُ ولا قبل

قال: أحسنت. فإن قال لك: قد ضجرنا من الفاضل والمفضول أنشدني بيتين على الكنية لا على الاسم فما تقول. قال: إذن أقول:

ألا يا أبا العباس يا واحد الورى ... ويا ملكاً خدّ الملوك له نعل

إِلَيْكَ تَسِيرُ النَّاسُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فُرَادَى وَأَزْوَاجًا كَأَنَّهُمُ نَحْلُ

قَالَ: أَحْسَنْتَ يَا أَخَا الْعَرَبِ فَإِنْ قَالَ لَكَ الْفَضْلُ. أَنْشِدْنَا غَيْرَ الْاِسْمِ وَالْكُنْيَةِ وَالْقَافِيَةِ. قَالَ: وَاللهِ لَئِنْ زَادَنِي الْفَضْلُ وَامْتَحَنَنِي بَعْدَ هٰذَا لَأَقُولَنَّ أَرْبَعَةَ أَبْيَاتٍ مَا سَبَقَنِي إِلَيْهِنَّ عَرَبِيٌّ وَلَا أَعْجَمِيٌّ. وَلَئِنْ زَادَنِي بَعْدَهَا لَأَجْمَعَنَّ قَوَائِمَ نَاقَتِي هٰذِهِ وَأَجْعَلُهَا فِي فَمِ الْفَضْلِ. وَلَأَرْجِعَنَّ إِلَى قُضَاعَةَ خَاسِرًا وَلَا أُبَالِي. فَنَكَّسَ الْفَضْلُ رَأْسَهُ وَقَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: يَا أَخَا الْعَرَبِ أَسْمِعْنِي الْأَبْيَاتَ الْأَرْبَعَةَ. قَالَ أَقُولُ:

وَلَائِمَةٍ لَامَتْكَ يَا فَضْلُ فِي النَّدَى فَقُلْتُ لَهَا هَلْ يَقْدَحُ اللَّوْمُ فِي الْبَحْرِ

أَتَنْهَيْنَ فَضْلًا عَنْ عَطَايَاهُ لِلْوَرَى فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْهَى السَّحَابَ عَنِ الْقَطْرِ

كَأَنَّ نَوَالَ الْفَضْلِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ تَحَدُّرُ مَاءِ الْمُزْنِ فِي مَهْمَهٍ قَفْرِ

كَأَنَّ وُفُودَ النَّاسِ فِي كُلِّ وُجْهَةٍ إِلَى الْفَضْلِ لَاقَوْا عِنْدَهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

قَالَ فَأَمْسَكَ الْفَضْلُ عَنْ فِيهِ وَسَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ ضَاحِكًا. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ. وَقَالَ: يَا أَخَا الْعَرَبِ أَنَا وَاللهِ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى. سَلْ مَا شِئْتَ. فَقَالَ: سَأَلْتُكَ بِاللهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّكَ لَهُوَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ لَهُ: فَأَقِلْنِي قَالَ: أَقَالَكَ اللهُ اذْكُرْ حَاجَتَكَ. قَالَ عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ. قَالَ الْفَضْلُ: أَزْدَرَيْتَ بِنَا وَبِنَفْسِكَ يَا أَخَا الْعَرَبِ. تُعْطَى عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ وَأَمَرَ بِدَفْعِ الْمَالِ. فَلَمَّا صَارَ الْمَالُ إِلَيْهِ حَسَدَهُ وَزِيرُ الْفَضْلِ وَقَالَ: يَا مَوْلَايَ هٰذَا إِسْرَافٌ. يَأْتِيكَ حِلْفٌ مِنْ أَحْلَافِ الْعَرَبِ بِأَبْيَاتٍ اسْتَرَقَّهَا مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ فَتَجْزِيهِ بِهٰذَا الْمَالِ.

فَقَالَ : اسْتَحَقَّهُ بِحُضُورِهِ إِلَيْنَا مِنْ أَرْضِ قُضَاعَةَ . قَالَ الْوَزِيرُ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا أَخَذْتَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِكَ وَرَكَّبْتَهُ فِي كَبِدِ قَوْسِكَ وَأَوْمَأْتَ بِهِ إِلَى الْأَعْرَابِيِّ . فَإِنْ رَدَّ عَنْ نَفْسِهِ بِبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ . وَإِلَّا فَاسْتَعْطِفْ مَالَكَ وَيَكُونَ لَهُ فِي بَعْضِهِ كِفَايَةٌ . فَأَخَذَ الْفَضْلُ سَهْمًا وَرَكَّبَهُ فِي كَبِدِ قَوْسِهِ وَأَوْمَأَ بِهِ إِلَى الْأَعْرَابِيِّ وَقَالَ لَهُ : رُدَّ سَهْمِي بِبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

لَقَوْسُكَ قَوْسُ الْجُودِ وَالْوَتَرُ النَّدَى وَسَهْمُكَ سَهْمُ الْعِزِّ فَارْمِ بِهِ فَقْرِي

قَالَ فَضَحِكَ الْفَضْلُ وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِذَا مَلَكَتْ كَفِّي مَنَالًا وَلَمْ أُنِلْ فَلَا انْبَسَطَتْ كَفِّي وَلَا انْهَضَتْ رِجْلِي

عَلَى اللهِ إِخْلَافُ الَّذِي قَدْ بَذَلْتُهُ فَلَا مُبْقٍ لِي بُخْلِي وَلَا مُتْلِفِي بَذْلِي

أَرُونِي بَخِيلًا نَالَ مَجْدًا بِبُخْلِهِ وَهَاتُوا كَرِيمًا مَاتَ مِنْ كَثْرَةِ الْبَذْلِ

ثُمَّ قَالَ الْفَضْلُ لِوَزِيرِهِ . أَعْطِ الْأَعْرَابِيَّ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ لِقَصْدِهِ وَشِعْرِهِ وَمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ لِيَكْفِيَنَا شَرَّ قَوَائِمِ نَاقَتِهِ . فَأَخَذَ الْأَعْرَابِيُّ الْمَالَ وَانْصَرَفَ . وَهُوَ يَبْكِي فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ : مِمَّ بُكَاؤُكَ يَا أَعْرَابِيُّ . أَسْتِقْلَالًا لِلْمَالِ الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ . قَالَ : لَا وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى مِثْلِكَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ وَتُوَارِيهِ الْأَرْضُ . وَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

لَعَمْرُكَ مَا الرَّزِيَّةُ فَقْدُ مَالٍ وَلَا فَرَسٌ يَمُوتُ وَلَا بَعِيرُ

وَلَكِنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ حُرٍّ يَمُوتُ لِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيرُ

ثُمَّ انْصَرَفَ الْأَعْرَابِيُّ مَسْرُورًا (اعلام الناس للاتليدي)

الباب السابع عشر
في النوادر

مدينة الزهراء في الاندلس

٣١٩ كان الخليفة عبد الرحمان الناصر كلفاً بعمارة الأندلس وإقامة معالمها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان. فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره المنتشر صيته. واستفرغ جهده في تنميقها وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها. فاستدعى عرفاء المهندسين وحشد بُرعاء البنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية. ثم أخذ في بناء المستنزهات وإنشاء مدينة الزهراء الموصوفة بالقصور الباهرة. وأقامها بطرق البلد على ضفة نهر قرطبة. ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظام. وكان قصر الخليفة متناهياً في الجلالة والفخامة. أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام البتة. وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبهاً بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله. ولو لم يكن فيه إلا السطح المجرد المشرف على الروضة الملاهي بمجلس الذهب والقبة. وعجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما أفرغت في القوالب. وتماثيل

٢٥٤ ـــــــ

ٱلْبَسَاتِينَ وَقَدْ أَتْقَنَهُ إِلَى ٱلْغَايَةِ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ أَمْوَالًا طَائِلَةً . وَوَضَعَ فِي وَسَطِ ٱلْبُحَيْرَةِ قُبَّةً مِنْ زُجَاجٍ مُلَوَّنٍ مَنْقُوشٍ بِٱلذَّهَبِ وَجَلَبَ ٱلْمَاءَ عَلَى رَأْسِ ٱلْقُبَّةِ بِتَدْبِيرٍ أَحْكَمَهُ ٱلْمُهَنْدِسُونَ . فَكَانَ ٱلْمَاءُ يَنْزِلُ مِنْ أَعْلَى ٱلْقُبَّةِ عَلَى جَوَانِبِهَا مُحِيطًا بِهَا وَيَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَكَانَتْ قُبَّةُ ٱلزُّجَاجِ فِي غَلَالَةٍ مِمَّا سُكِبَ خَلْفَ ٱلزُّجَاجِ لَا يَفْتُرُ مِنَ ٱلْجَرْيِ وَتُوقَدُ فِيهَا ٱلشُّمُوعُ فَيُرَى لِذٰلِكَ مَنْظَرٌ بَدِيعٌ . وَتَمَّ بِنَاءُ ٱلزَّهْرَاءِ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً (للمقري)

عجائب مصر منها المقياس والاهرام والنيل

٣٢٠ قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْأَثِيرِ فِي وَصْفِ مِصْرَ : وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْهَا بَلَدًا يَشْهَدُ بِفَضْلِهِ عَلَى ٱلْبِلَادِ . وَوَجَدْتُهُ هُوَ ٱلْمِصْرَ وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ ٱلسَّوَادُ . فَمَا رَآهُ رَاءٍ إِلَّا مَلَأَ عَيْنَهُ وَصَدْرَهُ . وَلَا وَصَفَهُ وَاصِفٌ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُقَدِّرْ قَدْرَهُ . وَبِهِ مِنْ عَجَائِبِ ٱلْآثَارِ مَا لَا يَضْبِطُهَا ٱلْعِيَانُ فَضْلًا عَنِ ٱلْإِخْبَارِ . مِنْ ذٰلِكَ ٱلْهَرَمَانِ ٱللَّذَانِ هَرَمُ ٱلدَّهْرِ وَهُمَا لَا يَهْرَمَانِ . قَدِ ٱخْتُصَّ كُلٌّ مِنْهُمَا بِعِظَمِ ٱلْبِنَاءِ . وَسَعَةِ ٱلْفِنَاءِ . وَبَلَغَ مِنَ ٱلِٱرْتِفَاعِ غَايَةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلطَّيْرُ عَلَى بُعْدِ تَحْلِيقِهِ . وَلَا يُدْرِكُهَا ٱلطَّرْفُ عَلَى مَدَى تَحْدِيقِهِ . فَإِذَا أُضْرِمَ بِرَأْسِهِ قَبَسٌ ظَنَّهُ ٱلْمُتَأَمِّلُ نَجْمًا . وَإِذَا ٱسْتَدَارَ عَلَيْهِ قَوْسُ ٱلسَّمَاءِ كَانَ لَهُ سَهْمًا . وَمِنْ عَجَائِبِ مِصْرَ ٱلْمِقْيَاسُ ٱلَّذِي يُعْتَبَرُ فِيهِ قَدْرُ زِيَادَةِ فَيْضِ ٱلنِّيلِ كُلَّ سَنَةٍ . وَٱبْتِدَاؤُهُ مِنْ شَهْرِ جُونَةَ وَمُعْظَمُ ٱنْتِهَائِهِ أَغْشَتُ وَآخِرُهَا أَوَّلُ شَهْرِ أَكْتُوبَرَ . وَٱلْمِقْيَاسُ عَمُودُ رُخَامٍ سُمِّرَ فِي مَوْضِعٍ يَنْحَصِرُ فِيهِ ٱلْمَاءُ عِنْدَ ٱنْتِهَائِهِ إِلَيْهِ . وَهُوَ مُفَصَّلٌ عَلَى ٱثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ

ذِرَاعًا. وَكُلُّ ذِرَاعٍ مُفَصَّلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ قِسْمًا أَقْسَامًا مُتَسَاوِيَةً تُعْرَفُ بِالْأَصَابِعِ. فَإِذَا اسْتَوَى الْمَاءُ تِسْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فِي الْفَيْضِ فَهِيَ الْغَايَةُ عِنْدَهُمْ فِي طِيبِ الْعَامِ. وَرُبَّمَا كَانَ الْمَاءُ فِيهَا كَثِيرَ الْعُمُومِ الْفَيْضِ. وَالْمُتَوَسِّطُ مَا اسْتَوَى سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَهُوَ أَحْسَنُ مِمَّا زَادَ عَلَيْهِ. وَالَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ السُّلْطَانُ خَرَاجَهُ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَصَاعِدًا. وَعَلَيْهَا تُعْطَى الْبِشَارَةُ لِلَّذِي يَرْقُبُ الزِّيَادَةَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيُعْلِمُ بِهَا مُيَاوَمَةً

وَمِنَ الْمَبَانِي الَّتِي يَبْلَى الزَّمَانُ وَلَا تَبْلَى وَتَدْرُسُ مَعَالِمُهُ وَأَخْبَارُهَا لَا تَدْرُسُ الْأَهْرَامُ الَّتِي بِأَعْمَالِ مِصْرَ. وَهِيَ عَلَى نَحْوِ سَبْعَةِ أَمْيَالٍ فِي الصَّحْرَاءِ الَّتِي يُفْضَى مِنْهَا إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ. وَهِيَ قَدِيمَةُ الْعَهْدِ مُعْجِزَةُ الْبِنَاءِ غَرِيبَةُ الْمَنْظَرِ مُرَبَّعَةُ الشَّكْلِ كَأَنَّهَا الْقِبَابُ الْمَضْرُوبَةُ. قَدْ قَامَتْ فِي جَوِّ السَّمَاءِ لَا سِيَّمَا الِاثْنَانِ مِنْهَا. فِي سَعَةِ الْوَاحِدِ مِنْهُمَا مِنْ رُكْنِهِ إِلَى رُكْنِهِ ثَلَاثُمِائَةِ خُطْوَةٍ وَسِتٌّ وَسِتُّونَ خُطْوَةً مُحَدَّدَةُ الْأَطْرَافِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ. وَرُبَّمَا أَمْكَنَ الصُّعُودُ إِلَيْهَا عَلَى خَطَرٍ وَمَشَقَّةٍ فَتَلْقَى أَطْرَافُهَا الْمُحَدَّدَةُ كَأَوْسَعِ مَا يَكُونُ مِنَ الرِّحَابِ. قَدْ أُقِيمَتْ مِنَ الصُّخُورِ الْعِظَامِ الْمَنْحُوتَةِ وَرُكِّبَتْ تَرْكِيبًا بَدِيعَ الْإِلْصَاقِ يَكَادُ يُعْجِزُ أَهْلَ الْأَرْضِ نَقْضُ بُنْيَانِهَا. أَمَّا الْهَرَمَانِ الْعَظِيمَانِ فَمُحَاذِيَانِ لِلْفُسْطَاطِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جِسْمٌ مِنْ أَعْظَمِ الْحِجَارَةِ مُرَبَّعُ الْقَاعِدَةِ. إِرْتِفَاعُ عَمُودِهِ أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ يُحِيطُ بِهَا أَرْبَعَةُ سُطُوحٍ مُتَسَاوِيَاتُ الْأَضْلَاعِ وَفِي أَعْلَاهُ سَطْحٌ مُرَبَّعٌ رَحْبٌ. وَهُمَا مَعَ هَذَا الْعِظَمِ مِنْ إِحْكَامِ الصَّنْعَةِ وَإِتْقَانِ

الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه لم يتأثر بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل. وهذا البناء ليس بين حجارته ملاط إلا ما يتخيل أنه ثوب أبيض فرش بين حجرين أو ورقة لا يتخلل بينهما الشعرة. وطول الحجر منها خمسة أذرع في سمك ذراعين. قال بعضهم: ما سمعت بشيء عظيم فجئته إلا رأيته دون صفته إلا الهرمين. فإني لما رأيتهما كان رؤيتهما أعظم من صفتهما. وقد اختلفوا في من بنى الأهرام. قال بعضهم:

حسرت عقول ذوي النهى الأهرام ... واستصغرت لعظيمها الأجرام
ملس موئقة البناء شواهق ... قصرت لعال دونهن سهام
لم أدر حين كبا التفكر دونها ... واستوهمت لعجيبها الأوهام
أقبور أملاك الأعاجم هن أم ... طلسم رمل هن أم أعلام

وزعم بعضهم أن الأهرام بمصر قبور ملوك عظام بها آثروا أن يتميزوا على سائر الملوك بعد مماتهم كما تميزوا عنهم في حياتهم. فيبقى ذكرهم على تطاول الدهور. قال أمية بن عبد العزيز:

بعيشك هل أبصرت أحسن منظرا ... على ما رأت عيناك من هرمي مصر
أنافا بأعناء السماء وأشرفا ... على الجو إشراف السماك أو النسر

وقال الفقيه عمارة اليمني الشاعر:

خليلي ما تحت السماء بنية ... تماثل في إتقانها هرمي مصر
تنزه طرفي في بديع بنائها ... ولم يتنزه في المرادبها فكري

وقال سيف الدين بن حبارة :

لله أي غريبة وعجيبة في صنعة الأهرام للألباب
أخفت عن الأسماع قصة أهلها وقصت على الأنباء كل نقاب
فكأنما هي كالخيام مقامة من غير ما عمد ولا أطناب

قال القضاعي : من عجائب مصر النيل. قالوا ليس على وجه الأرض نهر أطول من النيل. لأن مسيره شهر في بلاد الإسلام وشهران في بلاد النوبة وأربعة أشهر في الخراب إلى أن يخرج ببلاد القمر خلف خط الاستواء. وليس في الدنيا نهر يصب من الجنوب إلى الشمال ويمد في شدة الحر عند انتقاص المياه والأنهار كلها ويزيد بترتيب وينقص بترتيب إلا النيل. وجعله الله تعالى سقيا يزرع عليه ويستغنى عن المطر به في زمان القيظ إذا نضب المياه. قال ابن خروف :

ما أعجب النيل ما أبهى شمائله في ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا وإنما هي أرزاق وأرباح

(اخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي)

عنترة والاسد

٣٢١ قال الراوي : وفي يوم من الأيام توغل عنتر في البر بالجمال والغنم. وقصد بها الروابي والأكم. إلى أن حميت عليه الشمس وبعد عن حي عبس. فقصد شجرة من الأشجار. يستظل بها من حر النهار.

وَسُرِحَتِ الْأَغْنَامُ تَرْعَى. فِي ذٰلِكَ الْمَرْعَى. وَإِذَا هُوَ بِأَسَدٍ كَبِيرٍ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي ظَهَرَ يَمْشِي وَيَتَبَخْتَرُ. أَفْطَسُ الْمَنْخَرِ. يَطِيرُ مِنْ عَيْنَيْهِ الشَّرَرُ. يَقْلِبُ الْوَادِيَ إِذَا هَمَرَ. بِأَنْيَابٍ أَحَدَّ مِنَ النَّوَائِبِ. وَمَخَالِبَ أَمَرَّ مِنَ الْمَصَائِبِ. شَدُوقٌ شَدْقَمٌ. عَبُوسٌ أَذْغَمُ. تَسْمَعُ الرَّعْدَ إِذَا هَمْهَمَ وَدَمْدَمَ. يَلْمَعُ الْبَرْقُ مِنْ عَيْنَيْهِ إِذَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَأَعْتَمَ. شَدِيدُ الْحَيْلِ صَعْبُ الْمِرَاسِ. عَرِيضُ الْكَتِفِ كَبِيرُ الرَّاسِ. فَلَمَّا ظَهَرَ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي وَشَمَّتِ الْخَيْلُ رَائِحَتَهُ فَرَّتْ مِنْ هَيْبَتِهِ. وَكَذٰلِكَ النُّوقُ وَالْجِمَالُ. شَرَدَتْ فِي الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ. فَلَمَّا نَظَرَ عَنْتَرُ. إِلَى ذٰلِكَ الْأَمْرِ الْمُنْكَرِ. نَزَلَ إِلَى الْوَادِي حَتَّى يُبْصِرَ. وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ مُشْهَرٌ. وَإِذَا هُوَ بِالْأَسَدِ رَابِطٌ بَاسِطٌ يَدَيْهِ. وَهُوَ يَلْعَبُ بِذَنَبِهِ وَيَضْرِبُ بِهِ جَنْبَيْهِ. وَالشَّرَرُ يَطِيرُ مِنْ عَيْنَيْهِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ زَعَقَ عَنْتَرُ عَلَيْهِ زَعْقَةً دَوَتْ بِهَا الْجِبَالُ. وَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا الْأَشْبَالِ. يَا كَلْبَ الْفَلَا. يَا نَحْسَ وُحُوشِ الْبَيْدَاءِ. فَلَقَدْ أَبْدَيْتَ بَأْسَكَ وَصَوْلَتَكَ. وَافْتَخَرْتَ بِهِمَّتِكَ وَهَمْهَمَتِكَ. فَلَا شَكَّ أَنَّكَ مَلِكُ السِّبَاعِ. وَسُلْطَانُهُمُ الْمُطَاعُ. وَلٰكِنْ عُدْ بِالْخَيْبَةِ وَالْإِذْلَالِ. فَمَا أَنَا كَمَنْ لَاقَيْتَهُ مِنَ الرِّجَالِ. أَنَا مُهْلِكُ الْأَبْطَالِ. أَنَا مُيَتِّمُ الْأَطْفَالِ. فَأَنَا لَا أَرْضَى أَنْ أَقْتُلَكَ بِسِنَانٍ وَلَا بِحُسَامٍ. وَلَا بُدَّ أَنْ أُسْقِيَكَ كَأْسَ الْحِمَامِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَلْقَى السَّيْفَ مِنْ يَدِهِ وَحَمَلَ عَلَى السَّبُعِ وَهُوَ يُنْشِدُ:

يَا أَيُّهَا السَّبُعُ الْهَجُومُ عَلَى الرَّدَى ... هَا قَدْ بَقِيتَ مُعَفَّرًا مَنْهُوبَا
أَتُرِيدُ أَمْوَالِي تَكُونُ مُبَاحَةً ... هَا قَدْ تَرَكْتُكَ بِالدِّمَا مَخْضُوبَا

شَرَّدتَ أَغنَامِي وَلَمْ تَكُ عَالِمًا أَنِّي هِزَبْرٌ لَا أَزَالُ مَهِيبَا
هٰذِي فِعَالِي فِيكَ يَا كَلْبَ الْقَلَا هَلَّا شَهِدتَ مَوَاقِعًا وَحُرُوبَا
لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا تَلْتَقِي مِنِّي وَتُضْحِي لِلْحِمَامِ شَرُوبَا
لَمْ تَأْتِ نَحْوِي تَبْتَغِي صَيْدًا فَقَدْ وَافَاكَ حَتْفُكَ عَاجِلًا مَصْبُوبَا

ثُمَّ هَجَمَ عَلَى الْأَسَدِ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ كَوُقُوعِ الْبَرَدِ. وَنَفَخَ عَلَيْهِ مِثْلَ الثُّعْبَانِ الْأَسْوَدِ. وَوَثَبَ عَلَيْهِ حَتَّى سَاوَاهُ فِي وَثْبَتِهِ. وَصَرَخَ عَلَيْهِ صَرْخَةً أَعْظَمَ مِنْ صَرْخَتِهِ. وَقَبَضَ عَلَى فَمِهِ بِكَفَّيْهِ. وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ فَشَقَّ حَنَكَيْهِ، إِلَى حَدِّ كَتِفَيْهِ. وَصَاحَ صَيْحَةً أَزْعَجَ بِهَا الْوَادِيَ وَجَانِبَيْهِ. وَصَبَرَ عَلَى الْأَسَدِ حَتَّى قَضَى عَلَيْهِ (سيرة عنتر لابن اسمعيل)

ذكر القهوة

٣٢٢ إِعْلَمْ أَنَّ الْقَهْوَةَ هِيَ النَّوْعُ الْمُتَّخَذُ مِنْ قِشْرِ الْبُنِّ أَوْ مِنْهُ مَعَ حَبِّهِ الْمُحَمَّصِ أَيِ الْمُقْلِيِّ. وَصِفَتُهَا أَنْ يُوضَعَ الْقِشْرُ إِمَّا وَحْدَهُ وَهِيَ الْقِشْرِيَّةُ أَوْ مَعَ الْبُنِّ الْمُحَمَّصِ الْمَدْقُوقِ وَهِيَ الْبُنِّيَّةُ فِي مَاءٍ. ثُمَّ يُغْلَى عَلَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ خَاصِّيَّتُهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُ غَايَةَ اعْتِدَالِ اسْتِوَائِهَا بِطَعْمِ مَذَاقِهَا إِلَى الْمَرَارَةِ. ثُمَّ تُشْرَبُ. فَمِنْ قَائِلٍ بِحِلِّهَا يَرَى أَنَّهَا الشَّرَابُ الطَّهُورُ الْمُبَارَكَةُ عَلَى أَرْبَابِهَا. الْمُوجِبَةُ لِلنَّشَاطِ وَالْإِعَانَةِ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَفِعْلِ الْعِبَادَةِ لِطُلَّابِهَا. وَمِنْ قَائِلٍ بِحُرْمَتِهَا مُفْرِطٍ فِي ذَمِّهَا وَالتَّشْنِيعِ عَلَى شُرَّابِهَا. وَكَثُرَ فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ التَّصَانِيفُ وَالْفَتَاوَى. وَبَالَغَ الْقَائِلُ بِحُرْمَتِهَا فَادَّعَى أَنَّهَا مِنَ الْخَمْرِ وَقَاسَهَا بِهِ وَسَاوَى. وَبَعْضُهُمْ نَسَبَ إِلَيْهَا

الإضرار بالعقل والبدن. إلى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية إلى الجدال والفتن. وأما اشتقاق اسم القهوة (كما قال العلامة الفخر أبو بكر بن أبي يزيد في مؤلفه إثارة النخوة بحل القهوة) فمن الإقهاء وهو الاجتواء أي الكراهة. أو من الإقهاء بمعنى الإقعاد من أقهى الرجل عن الشيء أي قعد عنه وكراهة كل شيء والقعود عنه بحسبه. ومنه سميت الخمرة قهوة لأنها تقهي أي تكره الطعام أو تقعد عنه أو تقعد عن النوم. وكان ظهورها وانتشارها على يد جمال الدين بن سعيد المعروف بالذبحاني. وكان متوليا لوظيفة تصحيح الفتاوى بعدن. وسبب إظهاره لها أنه كان عرض له أمر اقتضى له الخروج من عدن إلى بر العجم فأقام به مدة فوجد أهله يستعملون القهوة ولم يعلم لها خاصية. ثم عرض له لما رجع إلى عدن مرض فتذكرها فشربها فنفعته فيه. ووجد فيها من الخواص أنها تذهب النعاس والكسل وتورث البدن خفة ونشاطا. فلما سلك طريق التصوف صار هو وغيره من الصوفية بعدن يستعينون بشربها على ما ذكرناه. ثم تتابع الناس بعدن على شربها للاستعانة بها على مطالعة العلم وغير ذلك من الحرف والصناعات ولم تزل في انتشار. قال بعضهم في وصفها:

يا قهوة تذهب هم الفتى أنت لحاوي العلم نعم المراد
شراب أهل الله فيها الشفا لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشرا فتأتي لنا في نكهة المسك ولون المداد

٢٦٢ ـــــــ

هِنْدِيُّونَ فِي إِفْرَاطِ عِنَايَتِهِمْ بِالْعُلُومِ وَحُبِّهِمْ فِيهَا وَضَبْطِهِمْ لَهَا وَرِوَايَتِهِمْ.
صِينِيُّونَ فِي إِتْقَانِ الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ وَإِحْكَامِ الْمِهَنِ الصُّورِيَّةِ.
تُرْكِيُّونَ فِي مُعَانَاةِ الْحُرُوبِ وَمُعَالَجَاتِ آلَاتِهَا وَالنَّظَرِ فِي مُهِمَّاتِهَا.
بَغْدَادِيُّونَ فِي نَظَافَتِهِمْ وَظَرْفِهِمْ وَرِقَّةِ أَخْلَاقِهِمْ وَنَبَاهَتِهِمْ وَذَكَائِهِمْ
وَحُسْنِ نَظَرِهِمْ وَجُودَةِ قَرَائِحِهِمْ وَلَطَافَةِ أَذْهَانِهِمْ وَحِدَّةِ أَفْكَارِهِمْ
وَنُفُوذِ خَوَاطِرِهِمْ. يُونَانِيُّونَ فِي اسْتِنْبَاطِهِمْ لِلْمِيَاهِ وَمُعَانَاتِهِمْ لِضُرُوبِ
الْقِرَاسَاتِ وَاخْتِيَارِهِمْ لِأَجْنَاسِ الْفَوَاكِهِ وَتَدْبِيرِهِمْ لِتَرْكِيبِ الشَّجَرِ
وَتَحْسِينِهِمْ لِلْبَسَاتِينِ بِأَنْوَاعِ الْخُضَرِ وَصُنُوفِ الزَّهَرِ. فَهُمْ أَحْكَمُ
النَّاسِ لِأَسْبَابِ الْفَلَاحَةِ. وَمِنْهُمُ ابْنُ بَصَّالٍ صَاحِبُ كِتَابِ الْفَلَاحَةِ
الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ التَّجْرِبَةُ بِفَضْلِهِ. وَهُمْ أَصْبَرُ النَّاسِ عَلَى مُطَاوَلَةِ التَّعَبِ
فِي تَجْوِيدِ الْأَعْمَالِ. وَمُقَاسَاةِ النَّصَبِ فِي تَحْسِينِ الصَّنَائِعِ. أَحْذَقُ
النَّاسِ بِالْفُرُوسِيَّةِ وَأَبْصَرُهُمْ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ. وَمِنْ فَضَائِلِهِمُ
اخْتِرَاعُهُمْ لِلْخُطُوطِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِمْ (قَالَ) وَكَانَ خَطُّهُمْ أَوَّلًا مَشْرِقِيًّا.
وَعَدَّ ابْنُ غَالِبٍ فِي فَضَائِلِهِمُ اخْتِرَاعَهُمْ لِلْمُوَشَّحَاتِ الَّتِي اسْتَحْسَنَهَا أَهْلُ
الْمَشْرِقِ وَصَارُوا يَتَنَزَّعُونَ مَنْزَعَهَا. وَأَمَّا نَظْمُهُمْ وَنَثْرُهُمْ فَلَا يَخْفَى عَلَى مَنْ
وَقَفَ عَلَيْهِمَا عُلُوُّ طَبَقَاتِهِمْ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ غَالِبٍ: وَلَمَّا نَفَذَ قَضَاءُ اللهِ تَعَالَى
عَلَى أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِخُرُوجِ أَكْثَرِهِمْ عَنْهَا فِي هٰذِهِ الْفِتْنَةِ الْأَخِيرَةِ
الْمُبِيرَةِ تَفَرَّقُوا بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى مِنْ بَرِّ الْعُدْوَةِ فِي بِلَادِ أَفْرِيقِيَّةَ.
فَأَمَّا أَهْلُ الْبَادِيَةِ فَمَالُوا فِي الْبَوَادِي إِلَى مَا اعْتَادُوهُ وَدَاخَلُوا أَهْلَهَا

وشاركوهم فيها. فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وغير ذلك. وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها. فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات. وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها. وأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة. ولا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي. وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد وقطعوا معاشهم وأجملوا أعمالهم وصيروهم أتباعا لهم ومتصرفين بين أيديهم. ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم ويصير الذكر لهم. ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهلي أو مبطل. ومن حكاياتهم في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أن أبا القاسم عباس بن فرناس حكيم الأندلس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك بها كتاب العروض للخليل. وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال. واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة. ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه. ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنبا. وصنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود (للمقري)

الباب الثامن عشر
في المراسلات

فصل في المراسلات بين الملوك والامراء

كتاب كسرى بن هرمز الى موريقي ملك الروم

لمَّا وثب الفُرس على هرمز ملكهم فسملوا عينيهِ ثم قتلوهُ وملَّكوا عليهم جرامَ المرزُبان. كان لهرمز ابنٌ حدثٌ اسمهُ كسرى وهو المعروف بانوشروان العادل. فتذكَّر كأنهُ سائلٌ وشقَّ سلطانَ الفُرس حتى جاء نصيبين وصار الى الرُّها ومنها الى مَنبج وكتب الى موريقي كتاباً نسختهُ:

٣٢٤ لِلأَبِ ٱلْمُبَارَكِ وَٱلسَّيِّدِ ٱلْمُقَدَّمِ مُورِيقِيَ مَلِكِ ٱلرُّومِ مِنْ كِسْرَى ٱبْنِ هُرْمُزَ ٱلسَّلَامُ. أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُعْلِمُ ٱلْمَلِكَ أَنَّ بَهْرَامَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ عَبِيدِ أَبِي جَهِلُوا قَدْرَهُمْ وَنَسُوا أَنَّهُمْ عَبِيدٌ وَأَنَا مَوْلَاهُمْ. وَكَفَرُوا نِعَمَ آبَائِي لَدَيْهِمْ فَٱعْتَدَوْا عَلَيَّ وَأَرَادُوا قَتْلِي. فَهَمَمْتُ أَنْ أَفْزَعَ إِلَى مِثْلِكَ فَأَعْتَصِمَ بِفَضْلِكَ وَأَكُونَ خَاضِعاً لَكَ. لِأَنَّ ٱلْخُضُوعَ لِلْمَلِكِ مِثْلِكَ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا أَيْسَرُ مِنَ ٱلْوُقُوعِ فِي أَيْدِي ٱلْعَبِيدِ ٱلْمُرْدَةِ. وَلِأَنْ يَكُونَ مَوْتِي عَلَى أَيْدِي ٱلْمُلُوكِ أَفْضَلُ وَأَقَلُّ عَاراً مِنْ أَنْ يَجْرِيَ عَلَى أَيْدِي ٱلْعَبِيدِ. فَفَزِعْتُ إِلَيْكَ ثِقَةً بِفَضْلِكَ وَرَجَاءَ أَنْ تَتَرَأَّفَ عَلَى مِثْلِي وَتُمِدَّنِي بِجُيُوشِكَ لِأَقْوَى بِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ ٱلْعَدُوِّ وَأَصِيرَ لَكَ وَلَدًا سَامِعاً وَمُطِيعاً إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

فلمَّا قرأ موريقي كتاب كسرى بن هرمز عزم على إجابة مسئلتهِ لانهُ لجأَ اليهِ فأنجدهُ بعشرين ألفاً. وسيَّر لهُ من الأموال أربعين قنطاراً ذهباً وكتب اليهِ كتاباً نسختهُ:

٣٢٥ مِنْ مُورِيقِيَ عَبْدِ يَشُوعَ ٱلْمَسِيحِ إِلَى كِسْرَى مَلِكِ ٱلْفُرْسِ وَلَدِي

وَأَخِي السَّلَامُ. أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا عَلَيْكَ. وَكَوْنِهِمْ غَمَطُوا أَنْعُمَ آبَائِكَ وَأَسْلَافِكَ غَمْطًا وَخُرُوجِهِمْ عَلَيْكَ وَدَحْضِهِمْ إِيَّاكَ عَنْ مُلْكِكَ فَتَدَاخَلَنِي مِنْ ذٰلِكَ أَمْرٌ حَرَّكَنِي عَلَى التَّرَأُّفِ بِكَ وَعَلَيْكَ وَإِمْدَادِكَ بِمَا سَأَلْتَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّ الْاِسْتِتَارَ تَحْتَ جَنَاحِ مَلِكٍ عَدُوٌّ وَالْاِسْتِظْلَالَ بِكَنَفِهِ آثَرُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي أَيْدِي الْعَبِيدِ الْمُرَدَةِ وَالْمَوْتَ عَلَى أَيْدِي الْمُلُوكِ أَفْضَلُ مِنَ الْمَوْتِ عَلَى أَيْدِي الْعَبِيدِ فَإِنَّكَ اخْتَرْتَ أَفْضَلَ الْخِصَالِ وَرَغِبْتَ إِلَيْنَا فِي ذٰلِكَ فَقَدْ صَدَّقْنَا قَوْلَكَ وَقَبِلْنَا كَلَامَكَ وَحَقَّقْنَا أَمَلَكَ وَأَتْمَمْنَا بُغْيَتَكَ وَقَضَيْنَا حَاجَتَكَ وَحَمِدْنَا سَعْيَكَ وَشَكَرْنَا حُسْنَ ظَنِّكَ بِنَا. وَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ بِمَا سَأَلْتَ مِنَ الْجُيُوشِ وَالْأَمْوَالِ وَصَيَّرْتُكَ لِي وَلَدًا وَكُنْتُ لَكَ أَبًا. فَاقْبِضِ الْأَمْوَالَ مُبَارَكًا لَكَ فِيهَا وَقُدِ الْجُيُوشَ وَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ وَعَوْنِهِ وَلَا يَعْتَرِكَ الضَّجَرُ وَالْهَلَعُ. بَلْ تَشَمَّرْ لِعَدُوِّكَ وَلَا تُقَصِّرْ فِيمَا يَجِبُ لَكَ إِذَا تَطَأْطَأْتَ مِنْ دَرَجَتِكَ وَانْحَطَطْتَ عَنْ مَرْتَبَتِكَ. فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُظْفِرَكَ اللهُ بِعَدُوِّكَ وَيَرُدَّ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ وَيُعِيدَكَ إِلَى مَرْتَبَتِكَ بِرَجَاءِ اللهِ تَعَالَى (لابي الفرج الملطي)

كتاب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص

٣٢٦ إِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ كُتُبِي إِلَيْكَ فِي إِبْطَائِكَ بِالْخَرَاجِ وَكِتَابِكَ إِلَيَّ بِبَيِّنَاتِ الطُّرُقِ. وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ. وَلَمْ

أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك. ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابي فاحمل الخراج فإنما هو في المسلمين وعندي من تعلم قوم محصورون. والسلام

٣٢٧ (فكتب إليه عمرو بن العاص): أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج. ويزعم أني أعند عن الحق وأنكب عن الطريق. وإني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن يخرق بهم فنصير إلى ما لا غنى بهم عنه. والسلام (لجلال الدين السيوطي)

كتاب عنبسة بن اسحاق الى المأمون وهو عامله على الرقة
يصف خروج الاعراب بناحية سنجار وعبثهم بها

٣٢٨ يا أمير المؤمنين قد قطع سبل المجتازين من المسلمين والمعاهدين نفر من شذاذ الأعراب الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ولا يخافون في الله حدا ولا عقوبة. ولولا ثقتي بسيف أمير المؤمنين وحصده هذه الطائفة وبلوغه في أعداء الله ما يردع قاصيهم ودانيهم لأذنت بالاستنجاد عليهم ولأسعيت الخيل إليهم. وأمير المؤمنين معان في أموره بالتأييد والنصر. (فكتب إليه المأمون):

أسمعت غير كهام السمع والبصر لا يقطع السيف إلا في يد الحدر
سيصبح القوم من سيفي وضاربه مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر

(فوجّه عنبسة بالبيتين الى الاعراب فما بقي منهم اثنان) (لابن عبد ربّه)

في الطلب وحسن التواصل

كتاب ابي العيناء الى عبيد الله بن سليمان

٣٢٩ أَنَا أَعَزَّكَ اللهُ وَوُلْدِي وَعِيَالِي زَرْعٌ مِنْ زَرْعِكَ إِنْ أَسْقَيْتَهُ رَاعَ وَزَكَا. وَإِنْ جَفَوْتَهُ ذَبَلَ وَذَوَى. وَقَدْ مَسَّنِي مِنْكَ جَفَاءٌ بَعْدَ بِرٍّ وَإِغْفَالٌ بَعْدَ تَعَاهُدٍ حَتَّى تَكَلَّمَ عَدُوٌّ وَشَمِتَ حَاسِدٌ. وَلَعِبَتْ بِي ظُنُونُ رِجَالٍ كُنْتُ بِهِمْ لَاعِبًا وَلَهُمْ مُخْرِسًا. وَلِلهِ دَرُّ أَبِي الْأَسْوَدِ فِي قَوْلِهِ:

لَا تُهِينِي بَعْدَ أَنْ أَكْرَمْتَنِي وَشَدِيدٌ عَادَةٌ مُنْتَزَعُهْ

٣٣٠ (فَوَقَّعَ فِي رُقْعَتِهِ): أَنَا أُسْعِدُكَ اللهُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي عَهِدْتَ وَمَيْلِي إِلَيْكَ كَمَا عَلِمْتَ. وَلَيْسَ مَنْ أَنْسِيناهُ أَهْمَلْنَاهُ وَلَا مَنْ أَخَّرْنَاهُ تَرَكْنَاهُ مَعَ اقْتِطَاعِ الشُّغْلِ لَنَا وَاقْتِسَامِ زَمَانِنَا. وَكَانَ مِنْ حَقِّكَ عَلَيْنَا أَنْ تُذَكِّرَنَا بِنَفْسِكَ وَتُعْلِمَنَا أَمْرَكَ. وَقَدْ وَقَّعْتُ لَكَ بِرِزْقِ شَهْرَيْنِ لِتُرِيحَ غِلْمَتَكَ وَتُعَرِّفَنِي مَبْلَغَ اسْتِحْقَاقِكَ لِأُطْلِقَ لَكَ بَاقِيَ أَرْزَاقِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَالسَّلَامُ (للقيرواني)

فصول لابن عبد ربه

٣٣١ لِلْمُفْضِلِ أَنْ يَخُصَّ بِفَضْلِهِ مَنْ شَاءَ وَلِلهِ الْحَمْدُ ثُمَّ لَهُ فِيمَا أَعْطَى وَلَا حُجَّةَ عَلَيْهِ فِيمَا مَنَعَ. كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنِّي وَاجِدٌ أَمْرِي خَالِصَةَ سَرِيرَتِي. أَرَى بِبَقَائِكَ بَقَاءَ سُرُورِي وَبِدَوَامِ النِّعْمَةِ عِنْدَكَ دَوَامَهَا عِنْدِي. لَا أَزَالُ أَبْقَاكَ اللهُ أَسْأَلُ الْكِتَابَ إِلَيْكَ. فَمَرَّةً أَتَوَقَّفُ تَوَقُّفَ الْمُخِفِّ عَنْكَ

مِنَ ٱلْمُؤْنَةِ وَمَرَّةً أَكْتُبُ كِتَابَ ٱلرَّاجِعِ مِنْكَ إِلَى ٱلثِّقَةِ. وَٱلْمُعْتَمِدِ مِنْكَ عَلَى ٱلْمَقِيلِ لَا أَعْدَمَنَا ٱللهُ دَوَامَ عِزِّكَ وَلَا سَلَبَ ٱلدُّنْيَا بَهْجَتَهَا بِكَ وَلَا أَخْلَانَا مِنَ ٱلصُّنْعِ لِلّٰهِ. فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ إِلَّا نِعْمَتَكَ وَلَا نَجِدُ لِلْحَيَاةِ طَعْمًا إِلَّا فِي ظِلِّكَ. وَلَئِنْ كَانَتِ ٱلرَّغْبَةُ إِلَى بَشَرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ خَسَاسَةً وَذُلًّا لَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلرَّغْبَةَ إِلَيْكَ كَرَامَةً وَعِزًّا. لِأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ حُرًّا قَعَدَ بِهِ دَهْرُهُ إِلَّا سَبَقَتْ مَسْأَلَتُهُ بِٱلْعَطِيَّةِ وَصُنْتَ وَجْهَهُ عَنِ ٱلطَّلَبِ وَٱلذِّلَّةِ.

(فَصْلٌ): لَكَ أَصْلَحَكَ ٱللهُ عِنْدِي أَيَادٍ تَشْفَعُ لِي إِلَى مَحَبَّتِكَ وَمَعْرُوفٌ يُوجِبُ عَلَيْكَ ٱلْوُدَّ وَٱلْإِتْمَامَ. وَأَنَا أَسْأَلُ ٱللهَ أَنْ يُنْجِزَنِي مَا لَمْ تَزَلِ ٱلْفِرَاسَةُ تُعِدُنِيهِ فِيكَ. (فَصْلٌ): قَدْ أَجَلَّ ٱللهُ قَدْرَكَ عَنِ ٱلْاِعْتِذَارِ وَأَغْنَانِي فِي ٱلْقَوْلِ وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَقْنَعَ بِمَا فَعَلْتَ وَتَرْضَى بِمَا أَنْعَمْتَ وَصَلْتَ أَوْ قَطَعْتَ (العقد الفريد)

كان الامير عبد الرحمان قد جفا ابنَهُ المنذرَ وابعدهُ لسوء خُلقهِ فكتب الى ابيهِ :

٣٣٢ إِنِّي قَدْ تَوَحَّشْتُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ تَوَحُّشًا مَا عَلَيْهِ مِنْ مَزِيدٍ وَعَدِمْتُ فِيهِ مَنْ كُنْتُ آنَسُ إِلَيْهِ. وَأَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ ٱلْعِزِّ فَقِيدَ ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ عِقَابًا لِذَنْبٍ كَبِيرٍ ٱرْتَكَبْتُهُ وَعَلِمَهُ مَوْلَايَ وَلَمْ أَعْلَمْهُ فَإِنِّي صَابِرٌ عَلَى تَأْدِيبِهِ ضَارِعٌ إِلَيْهِ عَفْوَهُ وَصَفْحَهُ:

وَإِنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَفِعْلَهُ لَكَٱلدَّهْرِ لَا عَارٌ بِمَا فَعَلَ ٱلدَّهْرُ

(فلما وقف الأمير على رُقعتهِ أرجعهُ الى ما اعتادهُ) (للمقري)

في الاشواق

كتاب اسحاق بن ابرهيم الموصلي الى بعض الجلّة يستدعيه

٣٣٣ يَوْمُنَا يَوْمُ لَيْنِ الْحَوَاشِي وَطِيءِ النَّوَاحِي وَسَمَاؤُنَا قَدْ أَقْبَلَتْ وَرَعَدَتْ بِالْخَيْرِ وَبَرَقَتْ. وَأَنْتَ قُطْبُ السُّرُورِ وَنِظَامُ الْأُمُورِ. فَلَا تُفْرِدْنَا فَنَقِلَّ. وَلَا تَفْرُدْ عَنَّا فَنَذِلَّ (للقيرواني)

كتاب ابي العباس الغسّاني كاتب صاحب افريقية لبعض الاصدقاء

٣٣٤ سِرْ إِلَى مَجْلِسٍ يَكَادُ يَسِيرُ شَوْقًا إِلَيْكَ. وَيَطِيرُ بِأَجْنِحَةٍ مِنْ جَوَاهُ حَتَّى يَحُلَّ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَلِلّٰهِ دَرُّ كَمَالِهِ إِنْ طَلَعَتْ بَدْرًا بِأَعْلَاهُ وَجَمَالِهِ إِنْ ظَهَرَتْ غُرَّةً بِمُحَيَّاهُ. فَهُوَ أُفُقٌ قَدْ حَوَى نُجُومًا تَتَشَوَّقُ إِلَى طُلُوعِ بَدْرِهَا. وَقَطْرٌ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى أَنْهَارٍ تَتَشَوَّقُ إِلَى بَحْرِهَا. لِتَسْتَمِدَّ مِنْهُ. فَإِنْ مَنَنْتَ بِالْحُضُورِ. وَإِلَّا فَيَا خَيْبَةَ السُّرُورِ. قَالَ ابْنُ الزَّيْنِ:

قَامَتْ لِغَيْبَتِكَ الدُّنْيَا عَلَى سَاقِ وَالْكَأْسُ أَصْبَحَ غَضْبَانًا عَلَى السَّاقِي
وَالرَّاحُ قَدْ أَقْسَمَتْ أَنْ لَا تَطِيبَ لَنَا حَتَّى تَرَى وَجْهَكَ الزَّاهِي بِإِشْرَاقِ
وَأَعْيُنُ الزَّهْرِ نَحْوَ الْبَابِ نَاظِرَةٌ وَقَدْ صَغَتْ أُذُنُ السُّوسَانِ لِلطَّاقِ
فَاسْمَحْ بِجُودِكَ فَضْلًا بِالْحُضُورِ لَنَا مَا دَامَ شَمْلُ مَسَرَّاتِ الْهَنَا بَاقِ
فَلَوْ دُعِيتُ إِلَى هٰذَا سَعَيْتُ لَهُ يَا حَبَّذَاكَ عَلَى رَأْسِي وَأَحْدَاقِي

كتاب الصاحب ابن عبّاد الى صديق له

٣٣٥ مَجْلِسُنَا يَا سَيِّدِي مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ مُعَوِّلٌ فِي شَوْقِهِ عَلَيْكَ. وَقَدْ أَبَتْ رَاحَتُهُ أَنْ تَصْفُوَ إِلَّا أَنْ تَتَنَاوَلَهَا يُمْنَاكَ. وَأَقْسَمَ غِنَاؤُهُ لَا يَطِيبُ حَتَّى

تعيبه أذناك. ونحن لغيبتك كعقد ذهبت واسطته وشباب قد أخذت جدته. وإذا غابت شمس السماء عنا فلا بد أن تدنو شمس الأرض منا. فإن رأيت أن تحضر لتتصل الواسطة بالعقد. وتحصل بك في جنة الخلد. فكن إلينا أسرع من السهم في ممره. والماء إلى مقره. لئلا يخيب من يومي ما طاب. ويعود من نومي ما طار. والله أعلم (للنواجي)

فصول في العتاب والاعتذار

فصول لاحمد بن يوسف:

٣٣٦ لولا حسن الظن بك أعزك الله لكان في إغضائك عني ما يقبضني عن الطلبة إليك. ولكن أمسك برمق من الرجاء علمي برأيك في رعاية الحق وبسط يدك إلى الذي لو قبضتها عنه لم يكن له إلا كرمك مذكرا وسؤددك شافعا. (فصل). لا سبيل إلى شكايتك إلا إليك ولا استعانة إلا بك. وما أحق من جعلك على أمر عونا أن تكون له إلى النجاح سببا. وقال الشاعر:

عجبت لقلبك كيف انقلب ومن طول ودك أني ذهب
وأعجب من ذا وذا أنني أراك بعين الرضا في الغضب

(فصل). إن مسألتي إليك حوائجي مع عتبك علي من اللوم. وإن إمساكي عنها في حال ضرورة إليها مع علمي بكرمك في السخط والرضا لعجز. غير أني أعلم أن أقرب الوسائل في طلب رضاك مسألتك ما سنح من الحاجة. إذ كنت لا تجعل عتبك سببا لمنع معروفك

فصل في العتاب للعتابي

٣٣٧ تَأَنَّيْنَا إِفَاقَتَكَ مِنْ سَكْرَتِكَ وَتَرَقَّبْنَا انْتِبَاهَكَ مِنْ رَقْدَتِكَ. وَصَبَرْنَا عَلَى تَجَرُّعِ الْغَيْظِ فِيكَ. فَهَا أَنَا قَدْ عَرَفْتُكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ فِي تَعَدِّيكَ لِطَوْرِكَ وَاطِّرَاحِكَ حَقَّ مَنْ غَلِطَ فِي اخْتِيَارِكَ (لابن عبد ربّه)

فصول لابن مكرَّم في الاعتذار

٣٣٨ لَيْسَ يُزِيلُنِي عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ فِعْلُ حَمَكَ الْأَعْدَاءُ عَلَيْهِ. وَلَا يَقْطَعُنِي عَنْ رَجَائِكَ عَتْبٌ حَدَثَ عَلَيَّ مِنْكَ. بَلْ أَرْجُو أَنْ يَتَقَاضَى كَرَمُكَ إِنْجَازَ وَعْدِكَ إِذْ كَانَ أَبْلَغَ الشُّفَعَاءِ إِلَيْكَ. وَأَوْجَبَ الْوَسَائِلِ لَدَيْكَ. (فَصْلٌ) أَنْتَ أَعَزَّكَ اللهُ أَعْلَمُ بِالْعَفْوِ وَالْعُقُوبَةِ مِنْ أَنْ تُجَازِيَنِي بِالسُّوءِ عَلَى ذَنْبٍ لَمْ أَجْنِهِ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ بَلْ جَنَاهُ عَلَيَّ لِسَانُ وَاشٍ. فَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّكَ لَا تُسَهِّلُ سَبِيلَ الْعُذْرِ فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْكَرَمِ وَأَرْعَى لِلْحُقُوقِ. وَأَقْعَدُ بِالشَّرَفِ وَأَحْفَظُ لِذِمَامَاتِهِ. مِنْ أَنْ تَرُدَّ يَدَ مُؤَمِّلِكَ صِفْرًا مِنْ عَفْوِكَ إِذَا الْتَمَسَهُ. وَمِنْ عُذْرِكَ إِذَا جَعَلَ فَضْلَكَ شَافِعًا فِيهِ

٣٣٩ مرض الحسن بن وهب فلم يَعُدْهُ ابن الزيّات ولم يتعرَّف خبرهُ فكتب اليه:

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ أَيَّدَكَ اللَّـ ـهُ وَأَبْقَاكَ لِي زَمَانًا طَوِيلَا
أَجْمِلَا تُرَاهُ يَا أَكْرَمَ النَّا سِ لِكَيْمَا أَرَاهُ أَيْضًا جَمِيلَا
أَتَنِي قَدْ أَقَمْتُ عَشْرًا عَلِيلَا مَا تُرَى مُرْسِلًا إِلَيَّ رَسُولَا
إِنْ يَكُنْ يُوجِبُ التَّعَهُّدُ فِي الصُّحْـ ـبَةِ مَنًّا عَلَيَّ مِنْكَ طَوِيلَا
فَهْوَ أَوْلَى يَا سَيِّدَ النَّاسِ بِرًّا وَافْتِقَادًا لِمَنْ يَكُونُ عَلِيلَا

فاجابه ابن الزيات :

دَفَعَ اللهُ عَنْكَ نَائِبَةَ الدَّهْـ ـرِ وَحَاشَاكَ أَنْ تَكُونَ عَلِيلَا
أَشْهَدُ اللهَ مَا عَلِمْتُ وَمَاذَا كَ مِنَ الْعُذْرِ جَائِزًا مَقْبُولَا
وَلَعَمْرِي أَنْ لَوْ عَلِمْتُ فَلَازَمْـ ـتُكَ حَوْلًا لَكَانَ عِنْدِي قَلِيلَا
فَاجْعَلَنْ لِي إِلَى التَّعَلُّقِ بِالْعُذْـ ـرِ سَبِيلًا إِنْ لَمْ أَجِدْ لِي سَبِيلَا
فَقَدِيمًا مَا جَادَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْـ ـوِ وَمَا سَاحَ الْخَلِيلُ خَلِيلَا

فصول في الذمّ

كتاب ابي بكر الخوارزمي الى العامل على البريد بالاهواز

٣٤٠ كُتِبْتُ ظَنَنْتُ بِكَ يَا أَخِي ظَنًّا كَذَّبَهُ قُبْحُ فِعْلِكَ. وَضُعْفُ هَجْرِكَ وَوَصْلِكَ. فَإِنَّكَ لَا تَعْمَلُ فِيهِمَا عَلَى قِيَاسٍ وَاجِبٍ وَلَا تَصْبِرُ مِنْهُمَا عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ. فَلَاجَرَمَ لَقَدْ رَجَعْتُ فِي وِدِّي لَكَ وَمَا كُنْتُ أَرْجِعُ فِي هِبَةٍ. وَنَدِمْتُ عَلَى ثِقَتِي بِكَ وَعَهْدِي أَنْ لَا أَنْدَمَ عَلَى حَسَنَةٍ (للخوارزمي)

كتاب عمر بن الخطّاب الى ابي موسى الاشعريّ

٣٤١ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لِلنَّاسِ نَفْرَةً عَنْ سُلْطَانِهِمْ. فَاحْذَرْ أَنْ تُدْرِكَنِي وَإِيَّاكَ عَمْيَاءَ مَجْهُولَةً. وَضَغَائِنَ مَحْمُولَةً. وَأَهْوَاءً مُتَّبَعَةً وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً. فَأَقِمِ الْحُدُودَ وَلَوْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ وَبَاشِرْ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَافْتَحْ بَابَكَ لَهُمْ. فَإِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّ اللهَ جَعَلَكَ أَثْقَلَهُمْ حِمْلًا. وَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ فَشَتْ لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ هَيْئَةٌ فِي لِبَاسِكَ وَمَطْعَمِكَ وَمَرْكَبِكَ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ مِثْلُهَا. فَإِيَّاكَ يَا عَبْدَ اللهِ أَنْ تَكُونَ كَالْبَهِيمَةِ

هَمُّهَا فِي السِّمَنِ وَالسِّمَنُ حَتْفُهَا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَامِلَ إِذَا زَاغَ زَاغَتْ رَعِيَّتُهُ. وَأَشْقَى النَّاسِ مَنْ يَشْقَى بِهِ النَّاسُ. وَالسَّلَامُ (لابن عبد ربه)

كتاب صلاح الدين الى مُعِزّ الدين صاحب الجزيرة

٣٤٢ إِنَّكَ أَنْتَ قَصَدْتَ الِانْتِمَاءَ إِلَيَّ ابْتِدَاءً وَرَاجَعْتَنِي فِي ذٰلِكَ مِرَارًا. وَأَظْهَرْتَ الْخِيفَةَ عَلَى نَفْسِكَ وَقَلْبِكَ وَبَلَدِكَ مِنْ أَهْلِكَ. فَقَبِلْتُكَ وَآوَيْتُكَ وَنَصَرْتُكَ وَبَسَطْتُ يَدَكَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ وَدِمَائِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ. فَنَفَّذْتُ إِلَيْكَ وَنَهَيْتُكَ عَنْ ذٰلِكَ مِرَارًا فَلَمْ تَنْتَهِ. فَاتَّفَقَ وُقُوعُ هٰذِهِ الْوَاقِعَةِ لِلْإِسْلَامِ فَدَعَوْنَاكَ فَأَتَيْتَ بِعَسْكَرٍ قَدْ عَرَفْتَهُ وَعَرَفَهُ النَّاسُ. وَأَقَمْتَ هٰذِهِ الْمُدَّةَ الْمَدِيدَةَ وَقَلِقْتَ هٰذَا الْقَلَقَ وَتَحَرَّكْتَ هٰذِهِ الْحَرَكَةَ. وَانْصَرَفْتَ عَنْ غَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ وَغَيْرِ قَصْدِ حَالٍ مَعَ الْعَدُوِّ. فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَأَبْصِرْ مَنْ تَنْتَمِي إِلَيْهِ غَيْرِي. وَاحْفَظْ نَفْسَكَ مِمَّنْ يَقْصِدُكَ فَمَا لِي إِلَى جَانِبِكَ الْتِفَاتٌ (سيرة صلاح الدين لابن شاذي)

٣٤٣ كتاب عبد الله بن طاهر الى محمد بن عبد الملك الزيّات

أَحُلْتَ عَمَّا عَهِدتُّ مِنْ أَدَبِكْ أَمْ نِلْتَ مُلْكًا فَتِهْتَ فِي كُتُبِكْ
أَمْ قَدْ تَرَى أَنَّ فِي مُلَاطَفَةِ الْـ إِخْوَانِ نَقْصًا عَلَيْكَ فِي أَدَبِكْ
أَكَانَ حَقًّا كِتَابُ ذِي مِقَةٍ يَكُونُ فِي صَدْرِهِ وَأَمْتَعَ بِكْ
أَتْعَبْتَ كَفَّيْكَ فِي مُكَاتَبَتِي حَسْبُكَ مِمَّا لَقِيتَ مِنْ تَعَبِكْ

(فكتب إليه محمد بن عبد الملك الزيّات)

كَيْفَ أَخُونُ الْإِخَاءَ يَا أَمَلِي وَكُلُّ شَيْءٍ أَنَالُ مِنْ سَبَبِكْ

أَنكَرْتَ شَيْئًا فَلَسْتُ فَاعِلَهُ وَلَنْ تَرَاهُ يُخَطُّ فِي كُتُبِكْ
إِنْ يَكُ جَهْلٌ أَتَاكَ مِنْ قِبَلِي فَعُدْ بِفَضْلٍ عَلَيَّ مِنْ حَسَبِكْ
فَأَعْفُ قَدَتْكَ النُّفُوسُ عَنْ رَجُلٍ يَعِيشُ حَتَّى الْمَمَاتِ فِي أَدَبِكْ

فصول في التوصية

كتاب عمر الى ابي عُبيدة بعد فتوح الشام

٣٤٤ وَبَعْدُ فَإِنِّي وَلَّيْتُكَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا تَسْتَحْيِ فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ. وَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي يَبْقَى وَيَفْنَى مَا سِوَاهُ وَالَّذِي اسْتَخْرَجَكَ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى وَقَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى جُنْدِ مَا هُنَالِكَ مَعَ خَالِدٍ فَأَقْبِضْ جُنْدَهُ وَاعْزِلْهُ عَنْ إِمَارَتِهِ. وَلَا تَقُلْ إِنِّي أَرْجُو لَكُمُ النَّصْرَ فَإِنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْيَقِينِ وَالثِّقَةِ بِاللهِ. وَإِيَّاكَ وَالتَّغْرِيرَ بِإِلْقَاءِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْهَلَكَةِ. وَغُضَّ عَنِ الدُّنْيَا عَيْنَكَ وَأَلْهِ عَنْهَا قَلْبَكَ. وَإِنَّمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْآخِرَةِ سِتْرُ الْخِمَارِ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ سَلَفُكَ. وَأَنْتَ كَأَنَّكَ مُنْتَظِرٌ سَفَرًا وَرَحِيلًا مِنْ دَارٍ مَضَتْ نَضَارَتُهَا وَذَهَبَتْ زَهْرَتُهَا. فَأَحْزَمُ النَّاسِ فِيهَا الرَّحَّالُ عَنْهَا لِغَيْرِهَا وَيَكُونُ زَادُهُ التَّقْوَى. وَرَاعِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتَ. وَأَمَّا اخْتِصَامُكَ أَنْتَ وَخَالِدٌ فِي الصُّلْحِ أَوِ الْقِتَالِ فَأَنْتَ الْوَلِيُّ وَصَاحِبُ الْأَمْرِ. وَالسَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ (فتوح الشام للواقدي)

كتاب بديع الزمان الى ابن اخته

٣٤٥ أَنْتَ وَلَدِي مَا دُمْتَ وَالْعِلْمُ شَأْنُكَ. وَالْمَدْرَسَةُ مَكَانُكَ.

وَالْمُحْبِرَةُ حَلِيفُكَ . وَالدَّفْتَرُ أَلِيفُكَ . فَإِنْ قَصَّرْتَ وَلَا إِخَالُكَ . فَغَيْرِي خَالُكَ وَالسَّلَامُ

(رسائل بديع الزمان الهمذاني)

فصول لمحمد بن عبد الملك الزيات للخلفاء في التوصية

٢٤٦ إِنَّ حَقَّ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى السُّلْطَانِ تَنْفِيذُ أُمُورِهِمْ وَتَقْوِيمُ أَوَدِهِمْ وَرِيَاضَةُ أَخْلَاقِهِمْ . وَأَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَهُمْ فَيُقَدِّمَ مُحْسِنَهُمْ وَيُؤَخِّرَ مُسِيئَهُمْ . لِيَزْدَادَ هَؤُلَاءِ فِي إِحْسَانِهِمْ وَيَزْدَجِرَ هَؤُلَاءِ عَنْ إِسَاءَتِهِمْ . (وَفَصْلٌ لَهُ) : إِنَّ اللهَ أَوْجَبَ لِخُلَفَائِهِ عَلَى عِبَادِهِ حَقَّ الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ . وَلِعَبِيدِهِ عَلَى خُلَفَائِهِ بَسْطَ الْعَدْلِ وَالرَّأْفَةِ وَإِحْيَاءَ السُّنَنِ الصَّالِحَةِ . فَإِذَا أَدَّى كُلٌّ إِلَى كُلٍّ حَقَّهُ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِتَمَامِ الْمَعُونَةِ وَاتِّصَالِ الزِّيَادَةِ وَاتِّسَاقِ الْكَلِمَةِ وَدَوَامِ الْأُلْفَةِ . (وَفَصْلٌ) : لَيْسَ مِنْ نِعْمَةٍ يُجَدِّدُهَا اللهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَفْسِهِ خَاصَّةً إِلَّا اتَّصَلَتْ بِرَعِيَّتِهِ عَامَّةً وَتَمَّتِ الرَّعِيَّةَ كَافَّةً وَعَظُمَ بَلَاءُ اللهِ عِنْدَهُمْ فِيهَا وَوَجَبَ عَلَيْهِمْ شُكْرُهُ عَلَيْهَا . لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ بِنِعْمَتِهِ تَمَامَ نِعْمَتِهِمْ وَبِتَدْبِيرِهِ وَذَبِّهِ عَنْ دِينِهِ حِفْظَ حَرِيمِهِمْ . وَبِحِيَاطَتِهِ حَقْنَ دِمَائِهِمْ وَأَمْنَ سَبِيلِهِمْ . فَأَطَالَ اللهُ بَقَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُنْطَوِيَ الْقَلْبِ عَلَى مُنَاصَحَتِهِمْ مُؤَيَّدًا بِالنَّصْرِ . مُعَزَّزًا بِالتَّمْكِينِ . مَوْصُولَ الْبَقَاءِ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ

فصول في المديح والشكر

فصول للحسن بن وهب

٣٤٧ مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا أَوْ ثَرْوَةٍ أَقْدَرْتَهُ إِيَّاهَا . فَإِنَّ

شُكْرِي لَكَ عَلَى مُهْجَةٍ أَحْيَيْتَهَا وَحُشَاشَةٍ أَبْقَيْتَهَا وَرَمَقٍ أَمْسَكْتَ بِهِ وَقْتَ بَيْنَ التَّلَفِ وَبَيْنَهُ. فَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا حَدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ وَمَدًى يُوقَفُ عِنْدَهُ وَغَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ. خَلَا هٰذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي قَدْ فَاقَتِ الْوَصْفَ وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قَدْرَهُ. وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ. رَدَدْتَ عَنَّا كَيْدَ الْعَدُوِّ وَأَرْغَمْتَ أَنْفَ الْحَسُودِ فَنَحْنُ نَلْجَأُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَى ظِلٍّ ظَلِيلٍ وَكَنَفٍ كَرِيمٍ فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ وَأَيْنَ يَبْلُغُ جُهْدُ الْمُجْتَهِدِ. (وَلَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ): وَصَلَ كِتَابُكَ فَمَا رَأَيْتُ كِتَابًا أَسْهَلَ فُنُونًا وَلَا أَمْلَسَ مُتُونًا وَلَا أَكْثَرَ عُيُونًا وَلَا أَحْسَنَ مَقَاطِعَ وَمَطَالِعَ مِنْهُ. أَنْجَزْتَ فِيهِ عِدَةَ الرَّأْيِ وَبُشْرَى الْفِرَاسَةِ. وَعَادَ الظَّنُّ يَقِينًا وَالْأَمَلُ مَبْلُوغًا وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ

كتاب ابن مُكْرَم الى احمد بن المدبّر

٣٤٨ إِنَّ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَى الْمُثْنِي عَلَيْكَ أَنْ لَا يَخَافَ الْإِفْرَاطَ وَلَا يَأْمَنَ التَّقْصِيرَ. وَيَأْمَنَ أَنْ تَلْحَقَهُ نَقِيصَةُ الْكَذِبِ. وَلَا يَنْتَهِيَ بِهِ الْمَدْحُ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا وَجَدَ فَضْلَكَ تُجَاوِزُهَا. وَمِنْ سَعَادَةِ جَدِّكَ أَنَّ الدَّاعِيَ لَا يُقَدِّمُ كَثْرَةَ الْمُتَابِعِينَ لَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ (لابن عبد ربه)

فصول في التهنئة والهدايا

فصل للحسن بن وهب

٣٤٩ لَئِنْ تَخَلَّفْتُ عَنْ عِيَادَتِكَ بِالْعُذْرِ الْوَاضِحِ مِنَ الْعِلَّةِ مَا أَغْفَلَ قَلْبِي ذِكْرَكَ وَلَا لِسَانِي فَحْصًا عَنْ خَبَرِكَ. وَلَمَّا بَلَغَتْنِي إِفَاقَتُكَ كَتَبْتُ

مُهَنِّئًا بِالْعَافِيَةِ مُعْفِيًا مِنَ الْجَوَابِ إِلَّا بِخَبَرِ السَّلَامَةِ (للقيرواني)

كتاب سعيد بن حميد الى بعض اهل السلطان في يوم النيروز

٣٥٠ أَيُّهَا السَّيِّدُ الشَّرِيفُ عِشْتَ أَطْوَلَ الْأَعْمَارِ بِزِيَادَةٍ مِنَ الْعُمْرِ مَوْصُولَةٍ بِفَرَائِضِهَا مِنَ الشُّكْرِ. لَا يَنْقَضِي حَقُّ نِعْمَةٍ حَتَّى يُجَدَّدَ لَكَ أُخْرَى وَلَا يَمُرُّ بِكَ يَوْمٌ إِلَّا كَانَ مُقَصِّرًا عَمَّا بَعْدَهُ مُوفِيًا عَمَّا قَبْلَهُ. وَإِنِّي وَإِنْ أَهْدَيْتُ نَفْسِي فَهِيَ مُلْكٌ لَكَ لَاحِظَ فِيهَا لِغَيْرِكَ. وَرَمَيْتُ بِطَرْفِي إِلَى كَرَائِمِ مَالِي فَوَجَدْتُهَا مِنْكَ. فَإِنْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ مِنْهَا شَيْئًا لِمُهْدِ مَالَكَ إِلَيْكَ. وَنَزَعْتُ إِلَى مَوَدَّتِي فَوَجَدْتُهَا خَالِصَةً لَكَ قَدِيمَةً غَيْرَ مُسْتَحْدَثَةٍ. فَرَأَيْتُنِي إِنْ جَعَلْتُهَا هَدِيَّتِي لَمْ أَجِدْ لِهٰذَا الْيَوْمِ الْجَدِيدِ بِرًّا وَلَا لُطْفًا. وَلَمْ أَمِيزْ مَنْزِلَةً مِنْ شُكْرِي بِمَنْزِلَةٍ مِنْ نِعْمَتِكَ إِلَّا كَانَ الشُّكْرُ مُقَصِّرًا عَنِ الْحَقِّ وَالنِّعْمَةِ زَائِدًا عَلَى مَا تَبْلُغُهُ الطَّاقَةُ. فَجَعَلْتُ الِاعْتِرَافَ بِالتَّقْصِيرِ عَنْ حَقِّكَ هَدِيَّةً إِلَيْكَ وَالْإِقْرَارَ بِالْعَجْزِ عَمَّا يَجِبُ لَكَ بِرًّا أَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَيْكَ

وكتب بعض الكتّاب الى بعض الملوك

٣٥١ أَنْفَسُ لَكَ وَالرَّجَاءُ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ وَالْأَمَلُ مَصْرُوفٌ نَحْوَكَ. فَمَا عَسَى أَنْ أُهْدِيَ إِلَيْكَ فِي هٰذَا الْيَوْمِ. وَهُوَ يَوْمٌ سَهُلَتْ فِيهِ الْعَادَةُ سَبِيلَ الْهَدَايَا لِلسَّادَةِ. فَأُقْتَصِرُ نَاعَلَى هَدِيَّةٍ تَقْتَضِي بَعْضَ الْحَقِّ وَتَقُومُ عِنْدَكَ مَقَامَ أَجْمَلِ الْبِرِّ. وَلَا زِلْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ دَائِمَ السُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ فِي أَتَمِّ أَحْوَالِ الْعَافِيَةِ وَأَعْلَى مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ تَمُرُّ بِكَ الْأَعْيَادُ الصَّالِحَةُ.

فتُخلفها وأنت جديدٌ تستقبلُ أمثالها فتلقاكَ بيهائها (لابن عبد ربّه)

فصول في التعزية

كتاب الخوارزمي الى الشيخ ابي بكر

٣٥٢ بلغني ما قاساه شيخي أيّده الله تعالى في هذه المصيبة من غمّ يشكي بل يبكي. وجزع يضني. بل يفني. والموت خطب ثقل حتّى خفّ وكثر حتّى قلّ. وهان على الباقي لما رآه بالماضي. وعلى المعزي لما نظره في المعزّى. ودخل الجميع تحت قول المتنبّي:

فيدفن بعضنا بعضاً ويمشي أواخرنا على هام الأوالي

وشيخي أعرف بالله. من أن يتأدّب بغير أدب الله. ولا يسلّم لقضاء الله. ولكن لفاجأة المصيبة لذعة يستراح منها إلى مباثّة الصديق. وإلى تسلية الأخ الشفيق. والسلام (رسائل الخوارزمي)

غيره لبعضهم

٣٥٣ أمّا بعد فإنّ أحقّ من تعزّى وأولى من تأنّس وسلّم لأمر الله وقبل تأديبه في الصبر على نكبات الدنيا وتجرّع غصص البلوى من تنجّز من الله وعده وأخلص له نفسه واعترف له بما هو أهله. وفي قلبه سلوة من فقد كلّ حبيب وإن لم تطب النفس عنه وأنس من كلّ فقيد وإن عظمت اللوعة به. والموت سبيل الماضين والغابرين ومورد الخلائق أجمعين. وفي أنبياء الله وسالف أوليائه أفضل العبرة وأحسن الأسوة. فهل أحد منهم إلّا وقد أخذ من فجائع الدنيا بأجزل الإعطاء

وَمِنَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا بِاحْتِسَابِ الْأَجْرِ فِيهَا بِأَوْفَرِ الْأَنْصِبَاءِ . فَوَهَبَ اللهُ لَكَ مِنْ عِصْمَةِ الصَّبْرِ مَا يَكْمُلُ لَكَ بِهِ زُلْفَى الْفَائِزِينَ وَقُرْبَةُ الشَّاكِرِينَ . وَجَعَلَكَ مِنَ الْمَرْضِيِّينَ قَوْلًا وَفِعْلًا (لابن عبد ربه)

كتاب ابي العَيْناء الى المَهديّ بعد موت الخليفة المنصور

٣٥٤ أَجَرَ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَهُ وَبَارَكَ لَهُ فِيمَا خَلَّفَهُ لَهُ . فَلَا مُصِيبَةَ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَةِ إِمَامٍ وَالِدٍ وَلَا عُقْبَى أَفْضَلُ مِنْ خِلَافَةِ اللهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ . فَاقْبَلْ مِنَ اللهِ أَفْضَلَ الْعَطِيَّةِ وَاصْبِرْ لَهُ عَلَى أَعْظَمِ الرَّزِيَّةِ

فصول الى عليل

كتاب ابي بكر الخُوارزمي الى تلميذٍ له قد ظهر عليه الجدري

٣٥٥ وَصَلَنِي خَبَرُ الْجُدَرِيِّ فَنَالَ مِنِّي وَهَيَّجَ حُزْنِي . وَرَاعَ قَلْبِي وَأَسْهَرَ عَيْنِي وَهَذِهِ الْعِلَّةُ وَإِنْ كَانَتْ مُوجِعَةً . وَفِي رَأْيِ الْعَيْنِ فَظِيعَةً شَنِيعَةً . فَإِنَّهَا إِلَى السَّلَامَةِ أَقْرَبُ . وَطَرِيقُهَا إِلَى الْحَيَاةِ أَقْصَدُ . لِأَنَّ عَيْنَ الطَّبِيبِ تَقَعُ عَلَيْهَا . وَظَاهِرُ الدَّاءِ أَسْلَمُ مِنْ بَاطِنِهِ . وَبَارِزُ الْجُرْحِ أَهْوَنُ مِنْ كَامِنِهِ . وَلَعَمْرِي إِنَّهَا تُورِثُ سَوَادَ اللَّوْنِ . وَتَذْهَبُ مِنَ الْوَجْهِ بِدِيبَاجَةِ الْحُسْنِ وَلَكِنَّ ذَلِكَ يَسِيرٌ فِي جَنْبِ السَّلَامَةِ لِلرُّوحِ اللَّطِيفَةِ . وَالنَّفْسِ الشَّرِيفَةِ . وَلَسْتُ أَسْتَطِيعُ لَكَ غَيْرَ الدُّعَاءِ . لَا أَسْأَلُ صِحَّتَكَ . إِلَّا مِمَّنْ خَلَقَ عِلَّتَكَ . وَأَرَى لَكَ أَنْ تُحْسِنَ ظَنَّكَ بِرَبِّكَ . وَتَسْتَغْفِرَ مِنْ ذَنْبِكَ . وَتَجْعَلَ الصَّدَقَةَ شَفِيعَكَ . وَالْيَقِينَ طَبِيبَكَ . وَتَعْلَمَ أَنَّهُ لَا دَاءَ أَدْوَأُ مِنْ أَجَلٍ . وَلَا دَوَاءَ أَشْفَى مِنْ مَهَلٍ . وَلَا فِرَاشَ

أَوْطَأُ مِنْ أَمَلٍ. شَفَاكَ اللهُ تَعَالَى. وَحَسْبُكَ بِهِ طَبِيبًا (للخوارزمي)

ركتب الى تلميذ له ورد عليه كتابه بانهُ عليل

٣٥٦ وَصَلَ كِتَابُكَ يَا سَيِّدِي فَسَرَّنِي نَظَرِي إِلَيْهِ. ثُمَّ غَمَّنِي اطِّلَاعِي عَلَيْهِ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ ذِكْرِ عِلَّتِكَ. جَعَلَ اللهُ تَعَالَى أَوَّلَهَا كَفَّارَةً وَآخِرَهَا عَافِيَةً. وَلَا أَعْدَمَكَ عَلَى الْأُولَى أَجْرًا. وَعَلَى الْآخِرَةِ شُكْرًا. وَبِوُدِّي لَوْ قَرُبَ عَلَيَّ مُتَنَاوَلُ عِيَادَتِكَ. فَأَحْتَمِلُتُ عَنْكَ بِالتَّعَهُّدِ وَالْمُسَاعَدَةِ بَعْضَ أَعْبَاءِ عِلَّتِكَ. فَلَقَدْ خَصَّنِي مِنْ هٰذِهِ الْعِلَّةِ قِسْمٌ كَقِسْمِكَ. وَمَرِضَ قَلْبِي لِمَرَضِ جِسْمِكَ. وَأَظُنُّ أَنِّي لَوْ لَقِيتُكَ عَلِيلًا لَانْصَرَفْتُ عَنْكَ وَأَنَا أَعَلُّ مِنْكَ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى جَلْدٌ عَلَى أَوْجَاعِ أَعْضَائِي. غَيْرُ جَلْدٍ عَلَى أَوْجَاعِ أَصْدِقَائِي. شَفَاكَ اللهُ وَعَافَاكَ. وَكَفَانِي فِيكَ الْمَحْذُورَ وَكَفَاكَ. وَغَفَرَ ذَنْبَكَ. وَشَرَحَ قَلْبَكَ وَأَعْلَى كَعْبَكَ لَهُ)

فصول في وصاة للجاحظ

٣٥٧ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ أَسْعَفْتَهُ فِي حَاجَتِهِ وَأَجَبْتَهُ إِلَى طَلِبَتِهِ مَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْكَ بِالْأَمَلِ وَنَزَعَ نَحْوَكَ بِالرَّجَاءِ. وَإِنَّ فُلَانًا أَسْبَابُهُ مُتَّصِلَةٌ بِنَا يَلْزَمُنَا ذِمَامُهُ وَبُلُوغُ مُوَافَقَتِهِ مِنْ أَيَادِيكَ عِنْدَنَا. وَأَنْتَ لَنَا مَوْضِعُ الثِّقَةِ مِنْ مُكَافَأَتِهِ فَأَوْلِنَا فِيهِ مَا نَعْرِفُ مَوْقِعَنَا مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ وَتَكُونَ مُكَافَأَةُ لِحَقِّهِ عَلَيْنَا (وَلَهُ): أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانَا كِتَابُكَ فِي فُلَانٍ وَلَهُ لَدَيْنَا مِنَ الذِّمَامِ مَا يَلْزَمُنَا مُكَافَأَتُهُ وَرِعَايَةُ حَقِّهِ. وَنَحْنُ مِنَ الْمَعْتَبَةِ بِأَمْرِهِ عَلَى مَا كَانَ فِي حُرْمَتِهِ وَيُؤَدِّي شُكْرُهُ (لابن عبد ربه)

الباب التاسع عشر
في التراجم

شعراء النصرانية

٣٥٨ (أَلْبَرَّاقُ بْنُ رَوْحَانَ ٥٢٥). هُوَ أَبُو النَّضْرِ بْنُ رَوْحَانَ بْنِ أَسَدٍ التَّمِيمِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَهُوَ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ. وَكَانَ فِي صِغَرِهِ يَتْبَعُ رُعَاةَ الْإِبِلِ وَيَحْلُبُ اللَّبَنَ وَيَأْتِي بِهِ إِلَى رَاهِبٍ حَوْلَ الْمَرَاعِي فَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ تِلَاوَةَ الْإِنْجِيلِ وَكَانَ يَدِينُ بِدِينِهِ. ثُمَّ اشْتَهَرَ أَمْرُهُ وَسَارَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَظَهَرَ مِنْهُ مِنَ الْقِيَامِ وَالْفُرُوسِيَّةِ فِي الْحَرْبِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ بَنِي رَبِيعَةَ وَبَنِي إِيَادٍ وَلَخْمٍ مَا لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِ. وَمِنْ شِعْرِهِ:

يَا طَالِبَ الْأَمْرِ لَا يُعْطَى أَمَانِيَهُ ... اسْتَعْمِلِ الصَّبْرَ فِي مَا كُنْتَ تَبْغِيهِ
وَالْبَسْ لِسِرِّكَ مَا تُخْفِيهِ مُجْتَهِدًا ... وَالْبَسْ عَفَافَكَ فِي مَا كُنْتَ تَعْنِيهِ
فَصَاحِبُ الصِّدْقِ يَنْجِي صِدْقُهُ حَسَنًا ... وَصَاحِبُ الشَّرِّ سُوءُ الشَّرِّ يَنْجِيهِ

وَلَمَّا وَقَعَتْ بَيْنَ بَنِي رَبِيعَةَ وَبَنِي طَيِّءٍ وَقُضَاعَةَ الْحُرُوبُ الْمَشْهُورَةُ وَتَعَاظَمَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَهُمْ وَاتَّسَعَتْ أَعْيَا التَّدْبِيرُ فِي الصُّلْحِ حَتَّى لَحِقَ شَرُّهُمْ مَنْ كَانَ مُعْتَزِلًا عَنْهُمْ. فَاجْتَمَعَ إِلَى الْبَرَّاقِ كُلَيْبُ بْنُ رَبِيعَةَ وَإِخْوَتُهُ

(*) قد افردنا هذا الباب لذكر تراجم المشاهير من اهل النصرانيَّة الذين مع اشتهارهم يخفى على الكثير تاريخهم. وقد افردنا بابًا آخر لتراجم المشاهير من الاسلام وغيرهم قضى علينا ضيق المقام بوضعهِ في الجزء التالي. وقد اصطلحنا في الارقام ان يكون العدد الاوَّل دالاً على سنة الميلاد والثاني على سنة الوفاة. وان لم نرَ الا عددًا فذلك تاريخ سنة الوفاة. وهو بحسب التاريخ المسيحي

وسائر قبائل ربيعة يستنجدونه وقالوا: قد جلّ الخطب فلا قرار لنا عليه. وكان البراق معتزلاً عنهم بقومه. فأخذته الغيرة وأنشأ يقول:

لعمري لست أترك آل قومي وأرحل عن فنائي أو أسير
أأنزل بينهم إن كان يسر وأرحل إن ألم بهم عسير

ثم نادى في قومه وقال: قد علمتم كثرة قبائل طيّ وشدة بأسهم ونجدتهم فشدوا بنا الخيل وأبدوهم بالغارة. فوضعوا فيهم السيوف وعلت الأصوات وتبادرت إليهم الناس وحملت عليهم كل قبيلة بما يليها. فاعتركوا ساعة وولّت طيّ وقضاعة بعد قتلة مريعة. واتبعهم البراق. وامتلأت أيديهم من الغنائم وانقادت إليهم العربان. وعظمت منزلة البراق في أعين الناس واستهالوا أمره وأثنوا عليه جميلاً. وكانت وفاته سنة خمسمائة وخمس وعشرين للمسيح

٣٥٩ (امرؤ القيس ٥٦٦). قال الأصمعي: هو امرؤ القيس بن حجر ابن الحارث من بني كندة صاحب المعلقة المشهورة. وكان من فحول شعراء الطبقة الأولى مقدماً على سائر شعراء الجاهلية. سبق إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعته عليها الشعراء. وكان حجر أبو امرئ القيس ملكاً على بني أسد فقتلوه غيلة. قال ابن السكيت: فجاء رسول إلى امرئ القيس فأخبره عن أمر أبيه فقال: الخمر عليّ واللعب حرام حتى أقتل من بني أسد مائة. وأجز نواصي مائة

ثم قام امرؤ القيس وكان إذ ذاك غلاماً قد ترعرع يسير في أحياء

ٱلْعَرَبِ . وَلَمَّا جَنَّهُ ٱللَّيْلُ رَأَى بَرْقًا فَقَالَ :

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ بِلَيْلٍ أَهَلَّ يُضِيءُ سَنَاهُ بِأَعْلَى ٱلْجَبَلْ
أَتَانِي حَدِيثٌ فَكَذَّبْتُهُ بِأَمْرٍ تَزَعْزَعُ مِنْهُ ٱلْقُلَلْ
بِقَتْلِ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ جَلَلْ

ثُمَّ ٱرْتَحَلَ حَتَّى نَزَلَ بَكْرًا وَتَغْلِبَ فَسَأَلَهُمُ ٱلنَّصْرَ عَلَى بَنِي أَسَدٍ . وَبَعَثَ ٱلْعُيُونَ عَلَى بَنِي أَسَدٍ فَنَذِرُوا بِٱلْعُيُونِ وَلَجَأُوا إِلَى بَنِي كِنَانَةَ . فَنَهَضَ إِلَيْهِمْ وَبَنُو أَسَدٍ جَاثِمُونَ عَلَى ٱلْمَاءِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى كَثُرَتِ ٱلْجِرَاحَى وَٱلْقَتْلَى فِيهِمْ . وَحَجَزَ ٱللَّيْلُ بَيْنَهُمْ وَهَرَبَتْ بَنُو أَسَدٍ . فَلَمَّا أَصْبَحَتْ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ أَبَوْا أَنْ يَتْبَعُوهُ وَقَالُوا لَهُ : قَدْ أَصَبْتَ ثَأْرَكَ . فَقَالَ : وَٱللَّهِ مَا فَعَلْتُ وَلَا أَصَبْتُ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَحَدًا . قَالُوا : بَلَى وَلٰكِنَّكَ رَجُلٌ مَشْؤُومٌ . وَكَرِهُوا قِتَالَهُمْ بَنِي كِنَانَةَ وَٱنْصَرَفُوا عَنْهُ فَمَضَى هَارِبًا لِوَجْهِهِ حَتَّى لَحِقَ بِحِمْيَرَ . ثُمَّ خَرَجَ فَظَفَرَ بِبَنِي أَسَدٍ (قَالُوا) وَأَلَحَّ ٱلْمُنْذِرُ فِي طَلَبِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَأَمَدَّهُ أَنُوشِرْوَانُ بِجَيْشٍ مِنَ ٱلْأَسَاوِرَةِ فَسَرَّحَهُمْ فِي طَلَبِهِ . وَتَفَرَّقَ حِمْيَرُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَنْهُ فَنَجَا فِي عُصْبَةٍ مِنْ بَنِي آكِلِ ٱلْمُرَارِ حَتَّى نَزَلَ بِٱلْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ مِنْ بَنِي حَنْظَلَةَ وَمَعَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَدْرَاعٌ يَتَوَارَثُونَهَا مَلِكًا عَنْ مَلِكٍ . فَقَلَّمَا لَبِثُوا عِنْدَ ٱلْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ حَتَّى بَعَثَ إِلَيْهِ ٱلْمُنْذِرُ مِائَةً مِنْ أَصْحَابِهِ يُوعِدُهُ بِٱلْحَرْبِ إِنْ لَمْ يُسَلِّمْ إِلَيْهِ بَنِي آكِلِ ٱلْمُرَارِ . فَأَسْلَمَهُمْ وَنَجَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمَعَهُ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ ٱلْحَارِثِ وَبِنْتُهُ هِنْدُ بِنْتُ ٱمْرِئِ

ٱلْقَيْسِ وَٱلْأَدْرَعُ وَٱلسِّلَاحُ . ثُمَّ قَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ جَابِرِ بْنِ مَازِنٍ ٱلْفَزَارِيُّ : يَا ٱبْنَ حُجْرٍ إِنِّي أَرَاكَ فِي خَلَلٍ مِنْ قَوْمِكَ وَأَنَا أَنْفَسُ بِمِثْلِكَ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّرَفِ . أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَلَدٍ فَقَدْ جِئْتُ قَيْصَرَ وَجِئْتُ ٱلنُّعْمَانَ فَلَمْ أَرَ لِضَيْفٍ نَازِلٍ وَلَا لِمُجْتَدٍ مِثْلَهُ وَلَا مِثْلَ صَاحِبِهِ . قَالَ : مَنْ هُوَ وَأَيْنَ مَنْزِلُهُ . قَالَ : ٱلسَّمَوْأَلُ بِتَيْمَاءَ وَسَوْفَ أَضْرِبُ لَكَ مَثَلَهُ . هُوَ يَمْنَعُ ضُعْفَكَ حَتَّى تَرَى ذَاتَ غَيْكَ . وَهُوَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَحَسَبٍ كَبِيرٍ . فَمَضَى ٱلْقَوْمُ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى ٱلسَّمَوْأَلِ فَأَنْشَدَهُ قَوْلَهُ :

وَلَقَدْ أَتَيْتُ بَنِي ٱلْمُصَاصِ مُفَاخِرًا ... وَإِلَى ٱلسَّمَوْأَلِ زُرْتُهُ بِٱلْأَبْلَقِ
فَأَتَيْتُ أَفْضَلَ مَنْ تَحَمَّلَ حَاجَةً ... إِنْ جِئْتَهُ فِي غَارِمٍ أَوْ مُرْهَقِ
عَرَفَتْ لَهُ ٱلْأَقْوَامُ كُلَّ فَضِيلَةٍ ... وَحَوَى ٱلْمَكَارِمَ سَابِقًا لَمْ يُسْبَقِ

وَعَرَفَ لَهُمُ ٱلسَّمَوْأَلُ حَقَّهُمْ فَأَنْزَلَهُمْ فِي مَجْلِسٍ لَهُ بَرَاحٍ فَكَانَ عِنْدَهُ مَا شَاءَ ٱللهُ . ثُمَّ إِنَّهُ طَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ إِلَى ٱلْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ ٱلْغَسَّانِيِّ بِٱلشَّأْمِ لِيُوصِلَهُ إِلَى قَيْصَرَ . فَٱسْتَنْجَدَ لَهُ رَجُلًا وَٱسْتَوْدَعَ عِنْدَهُ ٱلْأَدْرَاعَ وَٱلْمَالَ وَأَقَامَ مَعَهَا يَزِيدَ بْنَ ٱلْحَارِثِ بْنِ مُعَاوِيَةَ ٱبْنِ عَمِّهِ . فَمَضَى حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى قَيْصَرَ فَقَبِلَهُ وَأَكْرَمَهُ وَكَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ مَنْزِلَةٌ . فَٱنْدَسَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهُ ٱلطَّمَّاحُ حَتَّى أَتَى إِلَى بِلَادِ ٱلرُّومِ فَأَقَامَ مُسْتَخْفِيًا . ثُمَّ إِنَّ قَيْصَرَ ضَمَّ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا وَفِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْمُلُوكِ . فَلَمَّا فَصَلَ دَخَلَ ٱلطَّمَّاحُ عَلَى قَيْصَرَ فَقَالَ : إِنَّ ٱلْعَرَبَ قَوْمٌ غُدَرٌ وَلَا تَأْمَنُ أَنْ يَظْفَرَ بِمَا يُرِيدُ ثُمَّ يَغْزُوكَ بِمَنْ بَعَثْتَ مَعَهُ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ قَيْصَرُ

٢٨٦ ـــــــ

أَتَاكَ بِأَنِّي قَدْ طَالَ حَبْسِي وَلَمْ تَسْأَمْ بِمَسْجُونٍ حَرِيبِ
وَبَيْتِي مُقْفِرٌ إِلَّا نِسَاءً أَرَامِلَ قَدْ هَلَكْنَ مِنَ النَّحِيبِ
يُبَادِرْنَ الدُّمُوعَ عَلَى عَدِيٍّ كَشَنٍّ خَانَهُ خَرْزُ الرَّبِيبِ
فَهَلْ لَكَ أَنْ تُدَارِكَ مَا لَدَيْنَا وَلَا تُغْلَبْ عَلَى الرَّأْيِ الْمُصِيبِ
فَإِنِّي قَدْ وَكَلْتُ الْيَوْمَ أَمْرِي إِلَى رَبٍّ قَرِيبٍ مُسْتَجِيبِ

وَكَتَبَ إِلَى أَخِيهِ أَبِي وَهُوَ مَعَ كِسْرَى:

وَتَقُولُ الْعُدَاةُ أَوْدَى عَدِيٌّ وَبَنُوهُ قَدْ أَيْقَنُوا بِعَلَاقِ
يَا أَبَا مُسْمِعٍ فَأَبْلِغْ رَسُولًا إِخْوَتِي إِنْ أَتَيْتَ صَحْنَ الْعِرَاقِ
أَبْلِغَا عَامِرًا وَأَبْلِغْ أَخَاهُ أَنَّنِي مُوثَقٌ شَدِيدُ وِثَاقِي
فِي حَدِيدٍ مُضَاعَفٍ وَغَلَالٍ وَثِيَابٍ مُنَضَّحَاتٍ خِلَاقِ
فَارْكَبُوا فِي الْحَرَامِ فُكُّوا أَخَاكُمْ إِنَّ عِيرًا تَجَهَّزَتْ لِانْطِلَاقِ

فَلَمَّا قَرَأَ أَبِيٌّ كِتَابَ عَدِيٍّ قَامَ إِلَى كِسْرَى فَكَلَّمَهُ فِي أَمْرِهِ وَعَرَّفَهُ خَبَرَهُ. فَكَتَبَ إِلَى النُّعْمَانِ يَأْمُرُهُ بِإِطْلَاقِهِ. فَأَتَى النُّعْمَانَ أَعْدَاءُ عَدِيٍّ فَأَغْرَوْهُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَتَلَهُ (*) (لابي الفرج الاصبهاني)

(*) واخبر صاحب كتاب الاغاني انهُ لمَّا انتهى خبر قتل عديّ الى كسرى سكت اشهرًا على ذلك ووقع في قلبهِ منهُ ما وقع. وجعل النعمان يستعدُّ ويتوقَّع حتى أتاهُ كتابهُ أن أقبل فانَّ للملك حاجةً اليك. فحمل سلاحهُ وما قوي عليهِ ثم لحق بالبادية وأقبل يطوف على قبائل العرب وليس احدٌ منهم يقبلهُ خوفًا من كسرى. فقال لهُ بعض أصحابهِ: عندي رأيٌ لك لستُ أشير بهِ عليك لأدفعك عمَّا تريدهُ من مجاورتي ولكنهُ الصواب. فقال: هاتهِ. فقال: ان كل أمرٍ يجمل بالرجل ان يكون عليهِ الَّا أن يكون بعد الملك سوقةً والموت نازلٌ بكل أحدٍ. ولأن تموتَ كريمًا خيرٌ من أن تتجرَّع الذلَّ أو تبقى سوقةً بعد الملك. فامضِ الى صاحبك واحمل

٢٨٨ ـــــــ

وَرِثْنَا ٱلْمَجْدَ عَنْ كُبَرَا نِزَارٍ فَأَوْرَثَنَا مَآثِرَنَا بَنِينَا
وَكُنَّا حَيْثُمَا عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَقَمْنَا حَيْثُ سَارُوا هَارِبِينَا
تُخَبِّرُكَ ٱلْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا عَدُّوا سِعَايَةَ أَوَّلِينَا
بِأَنَّا ٱلنَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ وَأَنَّا ٱلضَّارِبُونَ إِذَا ٱلْتَقَيْنَا
وَأَنَّا ٱلْمَانِعُونَ إِذَا أَرَدْنَا وَأَنَّا ٱلْعَاطِفُونَ إِذَا دُعِينَا
وَأَنَّا ٱلْحَامِلُونَ إِذَا أَنَاخَتْ خُطُوبٌ فِي ٱلْعَشِيرَةِ تَبْتَلِينَا
وَأَنَّا ٱلرَّافِعُونَ عَلَى مَعَدٍّ أَكُفًّا فِي ٱلْمَكَارِمِ مَا بَقِينَا
نُشَرِّدُ بِٱلْمُخَافَةِ مَنْ أَتَانَا وَنُعْطِينَا ٱلْمَقَادَةَ مَنْ يَلِينَا
نَسِيرُ بِمَعْشَرٍ قَوْمًا لِقَوْمٍ وَنَدْخُلُ دَارَ قَوْمٍ آخَرِينَا

وَحَضَرَ يَوْمًا مَجْلِسَ بَعْضِ ٱلرُّؤَسَاءِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَطْبَاقٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ فِيهَا وَرْدٌ أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ فَأَمَرَهُ بِوَصْفِهَا فَقَالَ:

كَأَنَّمَا ٱلْوَرْدُ ٱلَّذِي نَشَرَهُ يَعْبَقُ مِنْ طِيبِ مَعَانِيكَا
دِمَاءُ أَعْدَائِكَ مَسْفُوكَةٌ قَدْ قَابَلَتْ بِيضَ أَيَادِيكَا

وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ يَمْدَحُ ٱبْنَ جَدْعَانَ ٱلتَّيْمِيَّ صَدِيقَهُ:

خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ ٱلْخُلُقِ ٱلْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ
وَأَرْضُكَ كُلُّ مَكْرُمَةٍ بَنَتْهَا بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهَا سَمَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

قَالَ ٱللَّيْثِيُّ: لَمَّا مَرِضَ أُمَيَّةُ ٱلْمَرَضَ ٱلَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلَ يَقُولُ: قَدْ دَنَا أَجَلِي وَهَذِهِ ٱلْمَرَضَةُ مَنِيَّتِي. فَلَمَّا دَنَتْ وَفَاتُهُ أُغْمِيَ عَلَيْهِ قَلِيلًا

ثُمَّ أَفاقَ وَهُوَ يَقُولُ : لَبَّيْكُمَا لَبَّيْكُمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكُمَا . لَا مَالَ لِي يَفْدِينِي وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِينِي . وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَهُوَ يَقُولُ :

كُلُّ حَيٍّ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا حَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِي فِي قِلَالِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا
إِجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَاحْذَرْ غَوْلَةَ الدَّهْرِ إِنَّ لِلدَّهْرِ غُولَا

ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ فِي قَصْرٍ مِنْ قُصُورِ الطَّائِفِ (لابي زكريا النووي)

٣٦٣ (أَبُو زَبِيدٍ ٦٤٥). هُوَ حَرْمَلَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ مِنْ بَنِي طَيِّئٍ. وَكَانَ نَصْرَانِيًّا وَعَلَى دِينِهِ مَاتَ . وَهُوَ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ . كَانَ يَزُورُ الْمُلُوكَ وَخَاصَّةً مُلُوكَ الْعَجَمِ وَكَانَ عَالِمًا بِسِيَرِهِمْ . وَكَانَ عُثْمَانُ ابْنُ عَفَّانَ يُقَرِّبُهُ إِلَى ذَلِكَ وَيُدْنِي مَجْلِسَهُ . وَكَانَ يُكْثِرُ وَصْفَ الْأَسَدِ فَتَذَاكَرُوا مَآثِرَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهَا فَالْتَفَتَ عُثْمَانُ إِلَى أَبِي زَبِيدٍ وَقَالَ : يَا أَخَا تُبَّعٍ الْمَسِيحِ أَسْمِعْنَا بَعْضَ قَوْلِكَ . فَقَدْ أُنْبِئْتُ أَنَّكَ تُجِيدُ . فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

مَنْ مُبْلِغٌ قَوْمَنَا النَّائِينَ إِذْ شَحَطُوا أَنَّ الْفُؤَادَ إِلَيْهِمْ شَيِّقٌ وَلِعُ

وَوَصَفَ الْأَسَدَ فَقَالَ عُثْمَانُ : تَاللهِ تَفَتَّأُ تَذْكُرُ الْأَسَدَ مَا حَيِيتَ وَاللهِ إِنِّي لَأَحْسَبُكَ جَبَانًا هَرَّابًا . قَالَ : كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنِّي رَأَيْتُ مِنْهُ مَنْظَرًا وَشَهِدْتُ مِنْهُ مَشْهَدًا لَا يَبْرَحُ ذِكْرُهُ يَتَجَدَّدُ وَيَتَرَدَّدُ فِي قَلْبِي . وَمَعْذُورٌ أَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ مَلُومٍ . فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ : وَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ . قَالَ : خَرَجْتُ فِي صِيَابَةٍ أَشْرَافٍ مِنْ أَبْنَاءِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ذَوِي هَيْئَةٍ

وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ تَرْمِي بِنَا الْمَهَارِيُّ بِأَكْسَائِهَا وَنَحْنُ نُرِيدُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شِمِرٍ الْغَسَّانِيَّ مَلِكَ الشَّامِ. فَأَخْرَوَطَ بِنَا السَّيْرُ فِي حِمَارَةِ الْقَيْظِ حَتَّى إِذَا عَصَبَتِ الْأَفْوَاهُ. وَذَبَلَتِ الشِّفَاهُ وَسَالَتِ الْمِيَاهُ. وَأَذْكَتِ الْجَوْزَاءُ الْمِعْزَاءَ وَصَرَّ الْجُنْدَبُ قَالَ قَائِلٌ: أَيُّهَا الرَّكْبُ غُورُوا بِنَا فِي ضَوْجِ هٰذَا الْوَادِي. وَإِذَا وَادٍ قَدْ بَدَا لَنَا كَثِيرُ الدَّغَلِ دَائِمُ الْغَلَلِ. أَشْجَارُهُ مُغِنَّةٌ وَأَطْيَارُهُ مُرِنَّةٌ. فَحَطَطْنَا رِحَالَنَا بِأُصُولِ دَوْحَاتٍ كَنَهْبَلَاتٍ. فَأَصَبْنَا مِنْ فَضَلَاتِ الزَّادِ وَأَتْبَعْنَاهَا الْمَاءَ الْبَارِدَ. فَإِنَّا لَنَصِفُ حَرَّ يَوْمِنَا وَتَمَاطَلَتْهُ إِذْ صَرَّ أَقْصَى الْخَيْلِ أُذُنَيْهِ. وَقَحَصَ الْأَرْضَ بِيَدَيْهِ. فَوَاللّٰهِ مَا لَبِثَ أَنْ جَالَ. ثُمَّ حَمْحَمَ الْخَيْلُ وَتَكَعْكَعَتِ الْإِبِلُ وَتَقَهْقَرَتِ الْبِغَالُ. فَمِنْ نَافِرٍ بِشِكَالِهِ. وَنَاهِضٍ بِعِقَالِهِ. فَعَلِمْنَا أَنْ قَدْ أُتِينَا وَأَنَّهُ السَّبُعُ فَفَزِعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى سَيْفِهِ فَاسْتَلَّهُ مِنْ جِرَابِهِ. ثُمَّ وَقَفْنَا رَزْدَقًا أَرْسَالًا وَأَقْبَلَ أَبُو الْحَارِثِ مِنْ أَجَمَتِهِ يَتَظَالَعُ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ نَعْتِهِ كَأَنَّهُ مَجْنُوبٌ أَوْ فِي هِجَارٍ بِصَدْرِهِ نَحِيطٌ. وَلِبَلَاعِمِهِ غَطِيطٌ. وَلِطَرْفِهِ وَمِيضٌ. وَلِأَرْسَاغِهِ نَقِيضٌ. كَأَنَّمَا يَخْبِطُ هَشِيمًا. أَوْ يَطَأُ صَرِيمًا. وَإِذَا هَامَةٌ كَالْبَجَنِ. وَخَدٌّ كَالْمِسَنِّ. وَعَيْنَانِ سَجْرَاوَانِ. كَأَنَّهُمَا سِرَاجَانِ يَتَّقِدَانِ. وَكَفٌّ شَثْنَةُ الْبَرَاثِنِ إِلَى مَخَالِبَ كَالْمَحَاجِنِ. فَضَرَبَ بِيَدِهِ فَأَرْهَجَ. وَكَشَرَ فَأَفْرَجَ عَنْ أَنْيَابٍ كَالْمَعَاوِلِ مَصْقُولَةٍ غَيْرِ مَفْلُولَةٍ. ثُمَّ أَقْعَى فَأَقْشَعَرَّ ثُمَّ مَثَلَ فَأَكْفَهَرَّ. ثُمَّ تَجَهَّمَ فَازْبَأَرَّ. فَلَا وَذُو بَيْتُهُ فِي السَّمَاءِ مَا أَتَقَيْنَاهُ إِلَّا بِأَخٍ لَنَا مِنْ فَزَارَةَ كَانَ ضَخْمَ الْجَزَارَةِ. فَوَقَصَهُ ثُمَّ نَفَضَهُ نَفْضَةً فَقَضْقَضَ مَتْنَيْهِ فَجَعَلَ

يَلِغُ فِي دَمِهِ . فَذَمَرْتُ لِأَصْحَابِي فَاخْتَلَجَ رِجْلًا أَعْجَرَ ذَا حَوَايَا فَنَفَضَهُ نَفْضَةً تَرَايَلَتْ مَفَاصِلُهُ . ثُمَّ نَهَمَ فَفَرْفَرَ ثُمَّ زَفَرَ فَبَرْبَرَ . ثُمَّ زَأَرَ فَجَرْجَرَ . ثُمَّ لَحَظَ فَوَاللهِ لَخِلْتُ الْبَرْقَ يَتَطَايَرُ مِنْ تَحْتِ جُفُونِهِ مِنْ شِمَالِهِ وَيَمِينِهِ . فَأُرْعِشَتِ الْأَيْدِي وَاصْطَكَّتِ الْأَرْجُلُ وَأَطَّتِ الْأَضْلَاعُ . وَارْتَجَّتِ الْأَسْمَاعُ . وَشَخَصَتِ الْعُيُونُ . وَتَحَقَّقَتِ الظُّنُونُ وَانْخَزَلَتِ الْمُتُونُ . فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ : اسْكُتْ فَقَدْ أَرْعَبْتَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ . وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا زَيْدٍ عُمِّرَ مِائَةَ سَنَةٍ بِنَيْفٍ وَدُفِنَ فِي الرَّقَّةِ فِي بِيعَةِ النَّصَارَى (الاغاني)

٣٦٤ (أَلْقَطَامِيُّ ٧١٠) . هُوَ لَقَبٌ غَلَبَ عَلَيْهِ وَاسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ شُيَيْمٍ وَكَانَ نَصْرَانِيًّا . قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ : أَوَّلُ مَا حَرَّكَ مِنَ الْقَطَامِيِّ وَرَفَعَ مِنْ ذِكْرِهِ أَنَّهُ قَدِمَ فِي خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ دِمَشْقَ لِيَمْدَحَهُ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ بَخِيلٌ لَا يُعْطِي الشُّعَرَاءَ وَالشِّعْرُ لَا يَنْفُقُ عِنْدَهُ . وَهٰذَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ سُلَيْمَانَ فَامْدَحْهُ . فَمَدَحَهُ فَقَالَ لَهُ : كَمْ أَمَّلْتَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : أَمَّلْتُ أَنْ يُعْطِيَنِي ثَلَاثِينَ نَاقَةً . فَقَالَ : قَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِخَمْسِينَ نَاقَةً مُوقَرَةً بُرًّا وَتَمْرًا وَثِيَابًا ثُمَّ أَمَرَ بِدَفْعِ ذٰلِكَ إِلَيْهِ . وَلَمَّا سَارَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُبَابِ لِمُحَارَبَةِ بَنِي عَنَّابٍ وَفِيهِمْ أَخْلَاطٌ تَغَلَّبَ اسْتَحَرَّ بِهِمُ الْقَتْلُ وَأُصِيبَ أَكْثَرُهُمْ وَأُسِرَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمُ الْقَطَامِيُّ . وَأُخِذَتْ إِبِلُهُ فَأَتَى الْأَمِيرَ زُفَرَ فَخَلَّى سَبِيلَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِائَةَ نَاقَةٍ . فَقَالَ الْقَطَامِيُّ يَمْدَحُهُ :

يَا زُفَرَ بْنَ الْحَارِثِ ابْنَ الْأَكْرَمِ ... قَدْ كُنْتَ فِي الْحَيِّ قَدِيمَ الْمَقْدَمِ
إِذْ أَعْجَمَ الْقَوْمُ وَلَمَّا تُعْجِمِ ... إِنَّكَ وَابْنَيْكَ حَفِظْتُمْ مَحْرَمِي

وَحَقَنَ اللهُ بِكَفَّيْكَ دَمِي مِنْ بَعْدِ مَا جَفَّ لِسَانِي وَفَمِي
أَنْقَذْتَنِي مِنْ بَطَلٍ مُعَمَّمِ وَالْخَيْلُ تَحْتَ الْعَارِضِ الْمُسَوَّمِ

أَخْبَرَ الْمَدَائِنِيُّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِلْأَخْطَلِ وَعِنْدَهُ عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ: أَتُحِبُّ أَنَّ لَكَ قِيَاضًا بِشِعْرِكَ شِعْرَ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَمْ تُحِبُّ أَنَّكَ قُلْتَهُ. قَالَ: لَا وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنِّي وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قُلْتُ أَبْيَاتًا قَالَهَا رَجُلٌ مِنَّا مُغْدِفُ الْقِنَاعِ. قَلِيلُ السَّمَاعِ قَصِيرُ الذِّرَاعِ. قَالَ: وَمَا قَالَ. فَأَنْشَدَهُ قَوْلَ الْقُطَامِيِّ فِي عَبْدِ الْوَاحِدِ سُلَيْمَانَ:

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ وَإِنْ بَلِيتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطِّيَلُ
لَيْسَ الْجَدِيدُ بِهِ تَبْقَى بَشَاشَتُهُ إِلَّا قَلِيلًا وَلَا ذُو حَلَّةٍ يَصِلُ
وَالْعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنٌ وَلَا حَالَ إِلَّا سَوْفَ تَنْتَقِلُ
قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا. فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ: ثَكَلَتِ الْقُطَامِيَّ أُمُّهُ. هٰذَا وَاللهِ الشِّعْرُ

٣٦٥ (الْأَخْطَلُ ٧١٢) هُوَ أَبُو مَالِكٍ غِيَاثُ بْنُ غَوْثِ بْنِ الصَّلْتِ بْنِ الطَّارِفَةِ. وَأَصْلُ تَسْمِيَتِهِ بِالْأَخْطَلِ أَنَّهُ هَجَا رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا غُلَامُ إِنَّكَ لَأَخْطَلُ اللِّسَانِ. فَغَلَبَتْ عَلَيْهِ. وَكَانَ الْأَخْطَلُ نَصْرَانِيًّا وَمَحَلُّهُ فِي الشِّعْرِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى وَصْفٍ. وَهُوَ وَجَرِيرٌ وَالْفَرَزْدَقُ طَبَقَةٌ وَاحِدَةٌ. سُئِلَ حَمَّادٌ الرَّاوِيَةُ عَنِ الْأَخْطَلِ فَقَالَ: مَا تَسْأَلُونِي عَنْ رَجُلٍ قَدْ حَبَّبَ شِعْرُهُ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: لَوْ أَدْرَكَ

الأَخْطَلُ يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مَا قَدَّمْتُ عَلَيْهِ أَحَدًا. قِيلَ لِجَرِيرٍ مَا تَقُولُ فِي الأَخْطَلِ. قَالَ: كَانَ أَشَدَّنَا اجْتِرَاءً وَأَرْمَانَا لِلْفَرَائِصِ وَأَمْدَحَ النَّاسِ لِكَرِيمٍ. وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: شُعَرَاءُ الإِسْلَامِ الأَخْطَلُ ثُمَّ جَرِيرٌ ثُمَّ الْفَرَزْدَقُ. وَكَانَ يُشَبِّهُ الأَخْطَلَ بِالنَّابِغَةِ لِصِحَّةِ شِعْرِهِ وَيَقُولُ: الأَخْطَلُ أَشْبَهُ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَأَشَدُّهُمْ أَمْرَ شِعْرٍ وَأَقَلُّهُمْ سَقَطًا. أَخْبَرَ عَلِيُّ بْنُ مُجَاهِدٍ قَالَ: دَخَلَ الأَخْطَلُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ زَعَمَ ابْنُ الْمَرَاغَةِ أَنَّهُ يَبْلُغُ مِدْحَتَكَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. وَقَدْ أَقَمْتُ فِي مِدْحَتِكَ (خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا) سَنَةً فَمَا بَلَغْتُ كُلَّمَا أَرَدْتُ. فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: مَا سَمِعْنَاهَا يَا أَخْطَلُ. فَأَنْشَدَهُ إِيَّاهَا فَجَعَلْتُ أَرَى عَبْدَ الْمَلِكِ يَتَطَاوَلُ لَهَا. ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ يَا أَخْطَلُ أَتُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى الآفَاقِ أَنَّكَ أَشْعَرُ الْعَرَبِ. قَالَ: أَكْتَفِي بِقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَمَرَ لَهُ بِجَفْنَةٍ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَمُلِئَتْ دَرَاهِمَ وَأُلْقِيَ عَلَيْهِ خِلَعًا. وَخَرَجَ بِهِ مَوْلًى لِعَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى النَّاسِ يَقُولُ: هَذَا شَاعِرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَشْعَرُ الْعَرَبِ. وَأَخْبَرَ أَبُو عَمْرٍو قَالَ: لَقَدْ كَانَ الأَخْطَلُ يَجِيءُ وَعَلَيْهِ جُبَّةُ خَزٍّ وَفِي عُنُقِهِ سِلْسِلَةُ ذَهَبٍ فِيهَا صَلِيبُ ذَهَبٍ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِغَيْرِ إِذْنٍ. قَالَ الأَخْطَلُ: فَضَلْتُ الشُّعَرَاءَ فِي الْمَدِيحِ وَالْهِجَاءِ بِمَا لَا يُلْحَقُ بِي فِيهِ. فَقَوْلِي بِالْمَدِيحِ:

نَفْسِي فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا ... أَبْدَى النَّوَاجِذَ يَوْمٌ عَارِمٌ ذَكَرُ

أَلْخَائِضُ الْغَمْرَةَ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ ... خَلِيفَةُ اللهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ

وقولي في الهجاء:

وكُنتُ إذا لقيتُ عبيدَ تيمٍ وتيمًا قلتُ أيهما العبيدُ
لئيمُ العالمينَ يسودُ تيمًا وسيدهم وإن كرهوا مسودُ

قال عبد الخالق: وصدق لعمري لقد فضلهم. قال الجوهري: كان مما يُقدَّم به الأخطل أنه كان أخبث الشعراء هجاءً في عفاف من الفحش. وقال الأخطل: ما هجوت أحدًا قطُّ بما تستحي العذراء أن تُنشده أباها. قال ابن عبد المطلب: قدمتُ الشام وأنا شاب. فكنتُ أطوف في كنائسها ومساجدها فدخلتُ كنيسة دمشق وإذا الأخطل فيها محبوس. فجعلتُ أنظر إليه فسأل عني فأُخبر بنسبي. فقال: يا فتى إنك لرجل شريف وإني أسألك حاجة. فقلتُ: حاجتك مقضية. قال: إن القس حبسني ههنا فتكلمه ليخلي عني. فأتيتُ القس فانتسبتُ له فرحّب وعظّم. فقلتُ: إن لي إليك حاجة. قال: ما حاجتك. قلتُ: الأخطل تخلي عنه. قال: أعيذك بالله من هذا. مثلك لا يتكلم فيه. فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم. فلم أزل أطلب إليه حتى مضى معي متكئًا على عصاه. فوقف عليه ورفع عصاه وقال: يا عدوَّ الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات. وهو يقول: لستُ بعائد ولا أفعل ويستخذي له. قال: فقلتُ له: يا أبا مالك الناس يهابونك والخليفة يكرمك وقدرك في الناس قدرك وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع

٢٩٦ ـــــــ

لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرْ
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرْ (*)

٣٦٧ (إِلْيَا الثَّالِثُ ١١٢٨ ـ ١١٩٠). هُوَ ابْنُ الْحَدِيثِيِّ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي حَلِيمٍ. هٰذَا الْأَبُ كَانَ كَهْلًا حَسَنَ الْخِلْقَةِ تَامَّ الْقَامَةِ حَبِيبًا كَرِيمًا عَالِمًا فَاضِلًا مِنْ أَهْلِ بَلَدِ مَيَّافَارِقِينَ وَكَانَ مَطْرَانًا عَلَى نَصِيبِينَ فَانْتَشَرَتْ شُهْرَتُهُ. وَلَمَّا اسْتَنَاحَ يَشُوعْيَابُ وَرَدَ إِلَى بَغْدَادَ مَعَ الْآبَاءِ لِلِاخْتِيَارِ. وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ لِأَنَّ الْآبَاءَ الْوَارِدِينَ مَعَهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَنْ يُمَاثِلُهُ عِلْمًا وَحِكْمَةً وَكَرَمًا وَحُسْنًا وَبَلَاغَةً وَفَصَاحَةً. فَاخْتِيرَ فِي خِلَافَةِ الْمُسْتَضِيءِ وَأُقِيمَ فَطْرَكًا بِدَيْرِ الْمَدَائِنِ... وَوَفَّقَهُ اللهُ وَأَجْرَى الْخَيْرَاتِ عَلَى يَدِهِ. وَأَقَامَ جَمَاعَةً مِنَ الْمَطَارِنَةِ وَجَدَّدَ بِنَاءَ هَيْكَلِ مَارِ

(*) وجاء في كتاب الأغاني عن بعضهم قال: بينا أنا بجبل يُقال لهُ سمعان في يوم شديد الحرّ إذ أنا بقُسّ بن ساعدة وبقبرين بينهما مسجد فقلتُ لهُ: ما هذان القبران قال: هذان قبرا أخوين كانا لي فماتا فاتخذتُ بينهما مسجدًا أعبد الله جلَّ وعزَّ فيه حتى ألحق بهما. ثمَّ ذكر أيَّامهما فبكى ثم أنشأ يقول:

خليليَّ هُبَّا طالما قد رقدتُما ... أجدَّاكما لا تقضيان كراكما
ألم تعلما ما لي بَرَاوندَ هذه ... ولا بخُزاقٍ من ندمٍ سواكما
مُقيمٌ على قبريكما لستُ بارحًا ... طِوالَ الليالي أو يُجيبَ صداكما
جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما ... كأنَّ الذي يسقي المُقارَ سقاكما
أُناديكما كيما تجيبا وتنطقا ... وليس مجابًا صوتُهُ مَن دعاكما
أمن طول نومٍ لا تجيبان داعيًا ... خليليَّ ما هذا الذي قد دهاكما
قضيتُ بأني لا محالة هالكٌ ... وأني سيعروني الذي قد عراكما
سأبكيكما طولَ الحياة وما الذي ... يردُّ على ذي عَولةٍ إن بكاكما

مَارِي الرَّسُولِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْبِيَعِ وَالْأَدْيَارِ . وَكَانَ مَعَ أَوْصَافِهِ الْجَمِيلَةِ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْخَلْقَةِ سَخِيًّا بِالْمَالِ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ مَعَ النَّاسِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَعَ الْحُكَّامِ وَالْمُتَوَلِّينَ لِأَجْلِ جَاهِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ . وَمَعَ ذٰلِكَ كَانَ مُرْتَاضًا بِالْعُلُومِ النَّحْوِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ السُّرْيَانِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ . وَمِنْ جُمْلَةِ مَوْضُوعَاتِهِ كِتَابُ تَرَاجِيمِ الْأَعْيَادِ السَّيِّدِيَّةِ وَخُطَبٌ وَمَوَاعِظُ كَثِيرَةٌ وَرَسَائِلُ كَثِيرَةٌ فِي إِثْبَاتِ الْأَمَانَةِ وَالْاِعْتِقَادِ وَصِحَّةِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ . وَدَبَّرَ الْكُرْسِيَّ تَدْبِيرًا حَسَنًا وَاسْتَنَاحَ يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ نِيسَانَ . وَكَانَتْ مُدَّةُ رِئَاسَتِهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً . وَعِنْدَ مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ جَاءَ الْآبَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ إِلَى عِيَادَتِهِ فَأَخَذَ يُرْثِي نَفْسَهُ وَيُعَزِّيهِمْ وَفِي آخِرِ ذٰلِكَ قَالَ:

أَرُونِي مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامِي إِذَا مَا الْأَمْرُ جَلَّ عَنِ الْخِطَابِ
بِمَنْ تَسْتَصْرِخُونَ إِذَا خَشُوتُمْ بِأَنْمُلِكُمْ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ

(ملخص عن كتاب المجدل لعمرو بن متى)(*)

مشاهير اطباء النصرانية

٣٦٨ (جِيُورْجِيسُ بْنُ بَخْتِيشُوعَ ٧٧٠) كَانَ الْمَنْصُورُ فِي صَدْرِ أَمْرِهِ عِنْدَمَا بَنَى بَغْدَادَ أَدْرَكَهُ ضُعْفٌ فِي مَعِدَتِهِ وَسُوءُ اسْتِمْرَاءٍ وَقِلَّةُ شَهْوَةٍ وَكُلَّمَا عَالَجَهُ الْأَطِبَّاءُ ازْدَادَ مَرَضُهُ . فَقِيلَ لَهُ عَنْ جِيُورْجِيسَ بْنِ

(*) ومن خطباء النصرانيّة خالد القسري (٧٤٥) وهو معدود من خطباء العرب المشهورين. ومنهم يوسف بن أيوب الهمداني الزاهد الربّاني (١١٤٦) صاحب المقامات والكرامات. عقد ببغداد مجلس الوعظ بالمدرسة النظاميّة وصادف بها قبولاً. ثم انقطع الى الله وتنصّر بالقسطنطينيّة

بختيشوع الجنديسابوري إنه أفضل الأطباء فتقدم بإحضاره فأنفذه العامل بجنديسابور بعد ما أكرمه. فخرج ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان. واستصحب معه تلميذه عيسى بن شهلاثا. ولما وصل إلى بغداد أمر المنصور بإحضاره. فلما وصل إلى الحضرة دعا له بالفارسية والعربية فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره. وأمره بالجلوس وسأله عن أشياء أجابه عنها بسكون. وخبره بمرضه فقال له جيورجيس: أنا أدبرك بمشيئة الله وعونه. فأمر له في الوقت بخلعة جليلة وتقدم إلى الربيع بإنزاله في أجمل موضع من دوره وإكرامه كما يكرم أخص الأهل. ولم يزل جيورجيس يتلطف له في تدبيره حتى برئ من مرضه وفرح به فرحا شديدا. وكان المنصور أمر أن يحمل إليه من الجواري الروميات ثلاث فردهن جيورجيس. فلما اتصل الخبر إلى المنصور أحضره وقال له: لم رددت الجواري. قال: لا يجوز لنا معشر النصارى أن نتزوج بأكثر من امرأة واحدة ما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها. فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده وهذا ثمرة العفة. ثم مرض جيورجيس مرضا صعبا ولما اشتد مرضه أمر المنصور بحمله إلى دار العامة. وخرج ماشيا إليه وتعرف خبره فخبره وقال له: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدي لأنظر أهلي وولدي وإن مت قبرت مع آبائي. فقال المنصور: إنني منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض التي

٣٠٠ ـــــــ

النَّاسِ فِي قُصُورٍ ابْتَنَوْهَا بِظَاهِرِ الْحِيرَةِ. وَتَسَمَّوْا بِالْعِبَادِ لِأَنَّهُ لَا يُضَافُ إِلَّا إِلَى الْخَالِقِ وَأَمَّا السَّيِّدُ فَيُضَافُ إِلَى الْمَخْلُوقِ وَالْخَالِقِ. وَيُنْسَبُ إِلَيْهِمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ. وَكَانَ إِسْحَاقُ وَالِدُ حُنَيْنٍ صَيْدَلَانِيًّا بِالْحِيرَةِ. فَلَمَّا نَشَأَ حُنَيْنٌ أَحَبَّ الْعِلْمَ فَدَخَلَ بَغْدَادَ وَحَضَرَ مَجْلِسَ يُوحَنَّا بْنِ مَاسَوَيْهِ وَجَعَلَ يَخْدِمُهُ وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ. ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ وَأَقَامَ بِهَا سَنَتَيْنِ حَتَّى أَحْكَمَ اللُّغَةَ الْيُونَانِيَّةَ وَتَوَصَّلَ فِي تَحْصِيلِ كُتُبِ الْحِكْمَةِ غَايَةَ إِمْكَانِهِ. وَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ وَنَهَضَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى أَرْضِ فَارِسَ. وَدَخَلَ الْبَصْرَةَ وَلَزِمَ الْخَلِيلَ ابْنَ أَحْمَدَ حَتَّى بَرَعَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ. قَالَ يُوسُفُ الطَّبِيبُ: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى جَبْرَئِيلَ بْنِ بَخْتِيشُوعَ فَوَجَدْتُ حُنَيْنًا وَجَبْرَئِيلَ يُخَاطِبُهُ بِالتَّبْجِيلِ وَيُسَمِّيهِ الرَّبَّانَ. فَأَعْظَمْتُ مَا رَأَيْتُ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ جَبْرَئِيلُ مِنِّي. فَقَالَ: تَسْتَكْثِرُ هَذَا مِنِّي فِي أَمْرِ هَذَا الْفَتَى. فَوَاللَّهِ لَئِنْ مُدَّ لَهُ فِي الْعُمْرِ لَيَفْضَحَنَّ سَرْجِيسَ. وَسَرْجِيسُ هَذَا هُوَ الرَّأْسُ عَيْنِي الْيَعْقُوبِيُّ نَاقِلُ عُلُومِ الْيُونَانِيِّينَ فِي السُّرْيَانِيِّ. وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُ حُنَيْنٍ يَقْوَى وَعِلْمُهُ يَتَزَايَدُ وَعَجَائِبُهُ تَظْهَرُ فِي النَّقْلِ وَالتَّفَاسِيرِ حَتَّى صَارَ يَتْبُوعًا لِلْعُلُومِ وَمَعْدِنًا لِلْفَضَائِلِ. وَاتَّصَلَ خَبَرُهُ بِالْخَلِيفَةِ الْمُتَوَكِّلِ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ. وَلَمَّا حَضَرَ أَقْطَعَهُ إِقْطَاعًا سَنِيًّا وَأَحَبَّ امْتِحَانَهُ. فَاسْتَدْعَاهُ وَأَمَرَ أَنْ يُخْلَعَ عَلَيْهِ. فَشَكَرَ حُنَيْنٌ هَذَا الْفِعْلَ ثُمَّ قَالَ لَهُ بَعْدَ أَشْيَاءَ جَرَتْ: أُرِيدُ أَنْ تَصِفَ لِي دَوَاءً يَقْتُلُ عَدُوًّا أُرِيدُ قَتْلَهُ. وَلَيْسَ

يمكن إعلان هذا ونزيده سرًّا. فقال حنين: ما تعلمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها. ثم رغبه وهدده وأحضر سيفًا ونطعًا. فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية. قال الخليفة: فإني أقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ لي حقي غدًا في الموقف الأعظم. فتبسم المتوكل وقال له: طب نفسًا فإنا أردنا امتحانك والطمأنينة إليك. فقبل حنين الأرض وشكر له. فقال الخليفة: ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق الأمر منا في الحالين. قال حنين: شيئان هما الدين والصناعة. أما الدين فإنه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالأصدقاء. وأما الصناعة فإنها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجاتهم. ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالًا لأحد. فقال الخليفة: إنهما شرعان جليلان. وأمر بالخلع فأفيضت عليه فخرج وهو أحسن الناس حالًا وجاها (لأبي الفرج الملطي)

٣٧١ (إسحاق بن حنين ٨٣٠–٩١١). هو أبو يعقوب إسحاق بن حنين ابن إسحاق العبادي الطبيب المشهور كان أوحد عصره في علم الطب. وكان يلحق بأبيه في النقل وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها. وكان يعرب كتب الحكمة التي بلغة اليونانيين إلى اللغة العربية كما كان يفعل أبوه. إلا أن الذي وجد من تعريبه في كتب الحكمة من كلام أرسطاطاليس وغيره أكثر مما يوجد من تعريبه لكتب

الطب. وكان قد خدم من الخلفاء والرؤساء من خدمه أبوه. ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير الإمام المعتضد بالله. واختص به حتى إن الوزير المذكور كان يطلعه على أسراره وينفض إليه بما يكتمه عن غيره له. ولأبيه المصنفات المفيدة في الطب. ولحقه الفالج في آخر عمره. وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين ومائتين (ابن خلكان)

٣٧٢ (يوحنا بن ماسويه ٨٥٧). ومن أطباء الرشيد يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة. وخدم الرشيد ومن بعده إلى أيام المتوكل. وكان معظما ببغداد جليل القدر وله تصانيف جميلة. وكان يعقد مجلسا للنظر ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة وكان يدرس ويجتمع إليه تلاميذ كثيرون. وكان في يوحنا دعابة شديدة يحضره من حضر لأجلها في الأكثر. وكان من ضيق الصدر وشدة الحدة على أكثر مما كان عليه جبريل بن بختيشوع. وكانت الحدة تخرج من يوحنا ألفاظا وهي مضحكة. فمما حفظ من نوادره أن رجلا شكا إليه علة وكان أشار عليه بالقصد. فقال له: لم أعتد القصد. قال له يوحنا: ولا أحسبك اعتدت العلة من بطن أمك (لابي الفرج)

٣٧٣ (ابن التلميذ ١١٦٥). وهو أبو الحسن هبة الله بن التلميذ النصراني الطبيب الملقب بأمين الدولة. شيخ النصارى والأطباء وسلطان الحكماء مقصد العالم في علم الطب بقراط عصره

وَجَالِينُوسُ زَمَانِهِ. خُتِمَ بِهِ هٰذَا الْعِلْمُ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمَاضِي مَنْ بَلَغَ مَدَاهُ فِي الطِّبِّ. عُمِّرَ طَوِيلًا. وَعَاشَ نَبِيلًا جَلِيلًا. وَرَأَيْتُهُ وَهُوَ شَيْخٌ بَهِيُّ الْمَنْظَرِ حَسَنُ الرُّوَاءِ عَذْبُ الْمُجْتَلَى وَالْمُجْتَنَى لَطِيفُ الرُّوحِ ظَرِيفُ الشَّخْصِ بَعِيدُ الْهَمِّ عَالِي الْهِمَّةِ ذَكِيُّ الْخَاطِرِ مُصِيبُ الْفِكْرِ حَازِمُ الرَّأْيِ رَأْسُ النَّصَارَى وَقِسِّيسُهُمْ وَرَئِيسُهُمْ. وَلَهُ فِي النَّظْمِ كَلِمَاتٌ رَائِقَةٌ وَحَلَاوَةٌ جَنِيَّةٌ وَغَزَارَةٌ بَهِيَّةٌ. وَذُكِرَ فِي أُنْمُوذَجِ الْأَعْيَانِ مِنْ شُعَرَاءِ الزَّمَانِ أَنَّ ابْنَ التِّلْمِيذِ الْمَذْكُورَ كَانَ مُتَفَنِّنًا فِي الْعُلُومِ ذَا رَأْيٍ رَصِينٍ. وَعَقْلٍ مَتِينٍ. طَالَتْ خِدْمَتُهُ لِلْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ. وَكَانَتْ مُجَالَسَتُهُ أَحْسَنَ مِنَ التِّبْرِ الْمَسْبُوكِ وَالدُّرِّ فِي السُّلُوكِ. وَكَانَ يَتَعَجَّبُ فِي أَمْرِهِ كَيْفَ حُرِمَ الْإِسْلَامَ مَعَ كَمَالِ فَهْمِهِ وَغَزَارَةِ عَقْلِهِ وَعِلْمِهِ. وَكَانَ إِذَا تَرَسَّلَ اسْتَطَالَ وَسَطًا. وَإِذَا نَظَمَ وَقَعَ بَيْنَ أَرْبَابِ النَّظْمِ وَسَطًا. وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْحَدِ الزَّمَانِ هِبَةِ اللهِ الْحَكِيمِ الْمَشْهُورِ تَنَافُسٌ وَكَانَ هٰذَا يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ. وَأَصَابَهُ الْجُذَامُ فَعَالَجَ نَفْسَهُ بِتَسْلِيطِ الْأَفَاعِي عَلَى جَسَدِهِ فَبَالَغَتْ فِي نَهْشِهِ فَبَرِئَ مِنَ الْجُذَامِ. فَعَمِلَ فِيهِ ابْنُ التِّلْمِيذِ شِعْرًا:

لَنَا صَدِيقٌ يَهُودِيٌّ حَمَاقَتُهُ إِذَا تَكَلَّمَ تَبْدُو فِيهِ مِنْ فِيهِ
يَتِيهُ وَالْكَلْبُ أَعْلَى مِنْهُ مَنْزِلَةً كَأَنَّهُ بَعْدُ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ التِّيهِ

وَكَانَ ابْنُ التِّلْمِيذِ مُتَوَاضِعًا وَأَوْحَدُ الزَّمَانِ أَبُو الْبَرَكَاتِ مُتَكَبِّرًا فَعَمِلَ فِيهِمَا الْبَدِيعُ الْأَسْطُرْلَابِيُّ شِعْرًا:

أَبُو الْحَسَنِ الطَّبِيبُ وَمُقْتَفِيهِ أَبُو الْبَرَكَاتِ فِي طَرَفَيْ نَقِيضِ

فَهٰذَا بِالتَّوَاضُعِ فِي الثُّرَيَّا وَهٰذَا بِالتَّكَبُّرِ فِي الْحَضِيضِ

وَتُوُفِّيَ ابْنُ التِّلْمِيذِ سَنَةَ سِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَقَدْ نَاهَزَ الْمِائَةَ مِنْ عُمْرِهِ (١١٦٥). وَلَمْ يَبْقَ بِبَغْدَادَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مَنْ لَمْ يَحْضُرِ الْبِيعَةَ وَلَمْ يَشْهَدْ جَنَازَتَهُ. وَلِابْنِ التِّلْمِيذِ فِي الطِّبِّ تَصَانِيفُ نَافِعَةٌ فِي بَابِهَا مِنْهَا كِتَابُ أَقْرَابَاذِينَ وَحَوَاشٍ عَلَى كُلِّيَّاتِ ابْنِ سِينَا (الخريدة للعماد الاصبهاني)(*)

مشاهير المؤرخين والكتاب والفلاسفة من اهل النصرانية

٣٧٤ (أَبُو الْفَرَجِ الْمَلَطِيُّ ١٢٢٦ـ١٢٨٦). جَمَالُ الدِّينِ غَرِيغُورِيُوسُ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ حَكِيمًا (*) الطَّبِيبُ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْعِبْرِيِّ تَاجُ الْفُضَلَاءِ. مُحَلِّلُ الْمُشْكِلَاتِ الْخَفِيَّةِ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ. وَحِيدُ الْعَصْرِ وَفَرِيدُ الزَّمَانِ. رَئِيسُ رُؤَسَاءِ الْأُمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ. وَخُلَاصَةُ نُضَارِ الْمِلَّةِ الْيَعْقُوبِيَّةِ. كَانَ كَثِيرَ الِاطِّلَاعِ وَحَصَّلَ عُلُومًا شَتَّى وَأَتْقَنَهَا وَانْفَرَدَ بِالطِّبِّ فِي زَمَانِهِ حَتَّى شُدَّتْ إِلَيْهِ الرِّحَالُ بِأَرْضِ

(*) ومن اشتهر ايضاً بين النصارى في الطب سعيد بن ماري صاحب المقامات الستين. ويوحنا بن بطريق ترجمان الخليفة المأمون. ومنهم ابن العطار متطبب القاهر. ومنهم كُتيفات خدم البساسيري. ومنهم ابن المقشر المصري طبيب العزيز. ومنهم ابن بطلان ولهُ تصانيف جليلة في الطب انقطع في آخر عمرهِ للعبادة. ومنهم حسنون الرهاوي خدم سيف الدين وزير قلج ارسلان. ومنهم يعقوب بن صقلان الملكي المقدسي اجتمع بالملك المعظم ابن الملك العادل وعالجهُ وارتفعت عندهُ حالهُ. ومنهم صاعد بن هبة الله وابو الخير الاركيذياقون أخوا الجاثليق ابن المسيحي. ومنهم صاعد بن توما البغدادي الملقَّب بامين الدولة استوثقهُ الامام الناصر

(*) وأخبر في تاريخهِ قال: في سنة أربعين وستمائة (١٢٤٣) لمَّا سمع أهل ملَطية ما فعل التاتار بقيسارية هلعوا وجزعوا أفحش الجزع طالبين حلب. فأمسك والدي عن الخروج واجتمع بالمطران دينوسيوس وتشاورا في مرابطة المدينة. وجمعا المسلمين والنصارى في البيعة

ٱلْمَغْرِبِ . وَأُقِيمَ أَسْقُفًا عَلَى مَدِينَةِ مَلَطْيَةَ وَأَخَذَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ فُضَلَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَمِنْ تَصَانِيفِهِ كِتَابُ تَارِيخٍ مُخْتَصَرِ ٱلدُّوَلِ وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ ٱلتَّوَارِيخِ وَشَرْحُ قَانُونِ ٱبْنِ سِينَا وَبُقْرَاطَ وَدِيُوسْقُورُسَ وَكِتَابُ دَفْعِ ٱلْهَمِّ وَدِيوَانُ شِعْرٍ فِي ٱلْإِلٰهِيَّاتِ وَغَيْرُهَا (*)

٣٧٥ (ثَابِتُ بْنُ قُرَّةَ ٨٣٦–٩٠٢) . أَبُو ٱلْحَسَنِ بْنُ كَرَايَا ٱلْحَاسِبُ كَانَ فِي مَبْدَإِ أَمْرِهِ صَيْرَفِيًّا بِحَرَّانَ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى بَغْدَادَ . وَٱشْتَغَلَ بِعُلُومِ ٱلْأَوَائِلِ فَمَهَرَ فِيهَا . وَكَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ ٱلْفَلْسَفَةَ وَلَهُ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ فِي فُنُونٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ مِقْدَارُ عِشْرِينَ تَأْلِيفًا . وَأَخَذَ كِتَابَ أُقْلِيدُسَ ٱلَّذِي عَرَّبَهُ حُنَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ ٱلْعِبَادِيُّ فَهَذَّبَهُ وَنَقَّحَهُ وَأَوْضَحَ مِنْهُ مَا كَانَ مُسْتَعْجِمًا . وَكَانَ مِنْ أَعْيَانِ عَصْرِهِ فِي ٱلْفَضَائِلِ . وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ أَشْيَاءُ أَنْكَرُوهَا عَلَيْهِ فِي ٱلْمَذْهَبِ . فَرَافَعُوهُ إِلَى رَئِيسِهِمْ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ مَقَالَتَهُ وَمَنَعَهُ مِنْ دُخُولِ ٱلْهَيْكَلِ فَتَابَ وَرَجَعَ عَنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ خَرَجَ مِنْ حَرَّانَ وَنَزَلَ كَفَرْتُوثَا وَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً إِلَى أَنْ قَدِمَ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى مِنَ

الكبيرة وتحالفوا أن لا يخون بعضهم بعضاً ولا يخالفوا المطران في جميع ما يتقدّم اليهم من مداراة التاتار والقيام بحفظ المدينة والبيتوتة على أسوارها وكفّ أهل الشرّ عن الفساد . فنظر الله الى حسن نيّاتهم ودفع العدوّ عنهم ووصلوا بالقرب من ملطية ولم يتعرّضوا اليها . وفي إحدى وأربعين (١٢٤٦) غزا شاورنو بن بلد الشام واجتاز بملطية وخرّب بلدها وأخذ غلاتها . ثمّ رحل عنها وطلب طبيباً يُداويه عن مرض عرض له . فخرج اليه والدي وسار معهُ الى حرّت بَرْتَ فدبّره حتى برأ . ثم جاء ولم يُطل المقام بملطية ورحل بنا الى أنطاكية فاستكنّاها

(*) ومن مؤرخي النصارى سعيد بن البطريق بطرك الاسكندريّة وجرجيس بن العميد مكمّل تاريخ الطبري . ومنهم ابن الراهب وابو البركات وابن المسبحي وكثيراً ما يستشهدهم ابن خلدون في تاريخهِ . ومنهم عمرو بن متّى (١٣٤٠) نقل عنهُ العلّامة السمعاني

بِلَادِ الرُّومِ. فَاجْتَمَعَ بِهِ فَرَآهُ فَاضِلًا فَصِيحًا فَاسْتَصْحَبَهُ إِلَى بَغْدَادَ وَأَنْزَلَهُ فِي دَارِهِ وَوَصَلَهُ بِالْخَلِيفَةِ. وَعَقِبُهُ بِهَا إِلَى الْآنَ. وَلَهُ وَلَدٌ يُسَمَّى إِبْرَهِيمَ بَلَغَ رُتْبَةَ أَبِيهِ فِي الْفَضْلِ وَكَانَ مِنْ حُذَّاقِ الْأَطِبَّاءِ. عَالَجَ مَرَّةً السَّرِيَّ الرَّفَّاءَ الشَّاعِرَ فَأَصَابَ الْعَافِيَةَ فَعَمِلَ فِيهِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي طَبِيبٍ:

هَلْ لِلْعَلِيلِ سِوَى ابْنِ قُرَّةَ شَافِي ... بَعْدَ الْإِلٰهِ وَهَلْ لَهُ مِنْ كَافِي
فَكَأَنَّهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ نَاطِقًا ... يَهَبُ الْحَيَاةَ بِأَيْسَرِ الْأَوْصَافِ
يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَفِيُّ كَمَا بَدَا ... لِلْعَيْنِ رَضْرَاضُ الْغَدِيرِ الصَّافِي

٣٧٦ الْكِنْدِيُّ (٢٤٦ هـ) (٨٦٠ م). هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ النَّصْرَانِيُّ. وَكَانَ شَرِيفَ الْأَصْلِ بَصْرِيًّا وَكَانَ أَبُوهُ إِسْحَاقُ أَمِيرًا عَلَى الْكُوفَةِ لِلْمَهْدِيِّ وَالرَّشِيدِ. وَيَعْقُوبُ هٰذَا أَوْحَدُ عَصْرِهِ فِي فُنُونِ الْآدَابِ وَشُهْرَتُهُ تُغْنِي عَنِ الْإِطْنَابِ. وَكَانَ لَهُ الْيَدُ الطُّولَى بِعُلُومِ الْيُونَانِ وَالْهِنْدِ وَالْعَجَمِ مُتَفَنِّنًا عَالِمًا بِالطِّبِّ وَالْمَنْطِقِ وَتَأْلِيفِ الْأُلْحُونِ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْهَيْئَةِ وَالْفَلْسَفَةِ. وَلَهُ فِي أَكْثَرِ هٰذِهِ الْعُلُومِ تَآلِيفُ مَشْهُورَةٌ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ مَنِ اشْتَهَرَ عِنْدَ النَّاسِ بِمُعَانَاةِ عِلْمِ الْفَلْسَفَةِ حَتَّى سَمَّوْهُ فَيْلَسُوفًا غَيْرَ يَعْقُوبَ. وَكَانَ مُعَاصِرًا لِقُسْطَا بْنِ لُوقَا الْفَيْلَسُوفِ الْبَعْلَبَكِّيِّ النَّصْرَانِيِّ وَاسْتَوْطَنَ بَغْدَادَ وَأَخَذَ عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ الْبَلْخِيِّ. وَمِنْ أَنْسِبَاءِ يَعْقُوبَ هٰذَا عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ وَلَهُ رِسَالَةٌ مُشْتَهِرَةٌ فَنَّدَ فِيهَا اعْتِرَاضَاتِ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ الْهَاشِمِيِّ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ. ذَكَرَهَا أَبُو رَيْحَانَ الْبِيرُونِيُّ فِي تَارِيخِهِ

٣٧٧ (الصَّابِئُ ٩٣٤–٩٨٣) أَبُو الْحَسَنِ إِبْرَهِيمُ بْنُ هِلَالِ بْنِ إِبْرَهِيمَ ابْنِ زَهْرُونَ بْنِ حَبُّونَ الْحَرَّانِيُّ الصَّابِئُ صَاحِبُ الرَّسَائِلِ الْمَشْهُورَةِ وَالنَّظْمِ الْبَدِيعِ وَكَانَ كَاتِبَ الْإِنْشَاءِ بِبَغْدَادَ عَنِ الْخَلِيفَةِ وَعَنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ بَخْتِيَارِ بْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ ابْنِ بُوَيْهَ الدَّيْلَمِيِّ. وَتَقَلَّدَ دِيوَانَ الرَّسَائِلِ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ. وَكَانَتْ تَصْدُرُ عَنْهُ مُكَاتَبَاتٌ إِلَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهَ بِمَا يُؤْلِمُهُ فَحَقَدَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا قُتِلَ عِزُّ الدَّوْلَةِ وَمَلَكَ عَضُدُ الدَّوْلَةِ بَغْدَادَ اعْتَقَلَهُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ. وَكَانَ قَدْ أَمَرَهُ أَنْ يَصْنَعَ لَهُ كِتَابًا فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ الدَّيْلَمِيَّةِ فَعَمِلَ الْكِتَابَ التَّاجِيَّ. فَقِيلَ لِعَضُدِ الدَّوْلَةِ إِنَّ صَدِيقًا لِلصَّابِئِ دَخَلَ عَلَيْهِ فَرَآهُ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ مِنَ التَّعْلِيقِ وَالتَّسْوِيدِ وَالتَّبْيِيضِ فَسَأَلَهُ عَمَّا يَعْمَلُ فَقَالَ: أَبَاطِيلُ أُنَمِّقُهَا وَأَكَاذِيبُ أُلَفِّقُهَا. فَحَرَّكَتْ سَاكِنَهُ وَهَاجَتْ حِقْدَهُ وَلَمْ يَزَلْ مُبْعَدًا فِي أَيَّامِهِ. وَكَانَ مُتَشَدِّدًا فِي دِينِهِ. وَجَهِدَ عَلَيْهِ عِزُّ الدَّوْلَةِ أَنْ يُسْلِمَ فَلَمْ يَفْعَلْ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٍ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ (*) (لابن خلكان)

(*) وقد اشتهر كثير من الكتّاب والمصنفين بين النصارى نستغني بذكر بعضهم فمنهم ابن المقفّع الكاتب المشهور صاحب الرسائل البديعة والدرّة اليتيمة ومعرّب كتاب كليلة ودمنة. ومنهم زكريا الافرنجي المنطقي نزيل بغداد. ومنهم قسطا بن لوقا البعلبكي توفي سنة ٩٠٨ الحاسب الفيلسوف عرّب كتبًا كثيرة منها كتاب الفلاحة. ومنهم القديس قزما المنشيء ومنهم القديس يوحنا الدمشقي يعرفهُ العرب بابن منصور وكان ابوهُ من اعيان الدولة الاموية خرّجهُ في العلوم والمعارف على القديس قزما الشيخ فبلغ منها المبلغ الطائل حتى صار مشكاةً للآداب. ودافع عن اكرام الصُوَر فردّت لهُ العذراء يدهُ المقطوعة بدسائس الملك لاون الايزوري. ثم انقطع الى الله في بلاد فلسطين وألّف عدّة تآليف فلسفيّة ولاهوتيّة فلُقّب بمجرى الذهب وتوفي سنة ٧٨٠. وقد اشترت اليسوعيّة داره بدمشق من عهد قريب وموقعها قرب باب توما

الباب العشرون
في التاريخ

صاحب الشريعة الاسلامية محمد بن عبد الله

٣٧٨ ذَكَرَ النَّسَّابُونَ أَنَّ نِسْبَتَهُ تَرْتَقِي إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِي وَلَدَتْ لَهُ هَاجَرُ أَمَةُ سَارَا زَوْجَتِهِ . وَكَانَ وِلَادُهُ بِمَكَّةَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِمَائَةٍ لِلْإِسْكَنْدَرِ وَلَمَّا مَضَى مِنْ عُمْرِهِ سَنَتَانِ بِالتَّقْرِيبِ مَاتَ عَبْدُ اللهِ أَبُوهُ وَكَانَ مَعَ أُمِّهِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ سِتَّ سِنِينَ . فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ أَخَذَهُ إِلَيْهِ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِحِيَاطَتِهِ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَكَفَلَهُ . ثُمَّ خَرَجَ بِهِ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ إِلَى الشَّامِ . فَلَمَّا نَزَلُوا بُصْرَى خَرَجَ إِلَيْهِمْ رَاهِبٌ عَارِفٌ اسْمُهُ بُحَيْرَا مِنْ صَوْمَعَتِهِ وَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ الْقَوْمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ : سَيَكُونُ مِنْ هٰذَا الصَّبِيِّ أَمْرٌ عَظِيمٌ يَنْتَشِرُ ذِكْرُهُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا . وَلَمَّا كَمَلَ لَهُ مِنَ الْعُمْرِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَرَضَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ ذَاتُ شَرَفٍ وَيَسَارٍ اسْمُهَا خَدِيجَةُ أَنْ يَخْرُجَ بِمَالِهَا تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ وَتُعْطِيَهُ أَفْضَلَ مَا تُعْطِي غَيْرَهُ . فَأَجَابَهَا إِلَى ذٰلِكَ وَخَرَجَ . ثُمَّ رَغِبَتْ فِيهِ وَعَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ فَتَزَوَّجَهَا وَعُمْرُهَا يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ سَنَةً . وَأَقَامَتْ مَعَهُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَتْ بِمَكَّةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً . وَلَمَّا كَمَلَ لَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً أَظْهَرَ الدَّعْوَةَ . وَلَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ عَمُّهُ وَمَاتَتْ أَيْضًا خَدِيجَةُ زَوْجَتُهُ أَصَابَتْهُ قُرَيْشٌ بِعَظِيمٍ مِنْ أَذًى

٣١٠ ـــــــ

حَرْبٍ. وَفِي (السَّنَةِ العَاشِرَةِ) حَجَّ حَجَّةَ الْوَدَاعِ. ثُمَّ وَعَكَ وَمَرِضَ وَتُوُفِّيَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ صَفَرٍ وَكَانَ عُمْرُهُ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً. وَلَمَّا تُوُفِّيَ أَرَادَ أَهْلُ مَكَّةَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَدَّهُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا مَسْقِطُ رَأْسِهِ. وَأَرَادَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ دَفْنَهُ بِالْمَدِينَةِ لِأَنَّهَا دَارُ هِجْرَتِهِ وَمَدَارُ نُصْرَتِهِ. ثُمَّ دَفَنُوهُ بِالْمَدِينَةِ فِي حُجْرَتِهِ حَيْثُ قُبِضَ (*) (لابي الفرج)

ذكر الخلفاء الراشدين (٦٣٢ ـ ٦٦١)

خلافة ابي بكر (٦٣٢ — ٦٣٤)

٣٧٩ ثم اجتمع المهاجرون والأنصار للبيعة فارتفعت الأصوات وكثر اللغط. فلما أشفق عمر الاختلاف قال: إنا والله ما وجدنا أمرًا هو أقوى من مبايعة أبي بكر ثم قال لأبي بكر: ابسط يدك فابايعك. فبسط يده فبايعهُ وبايعهُ المهاجرون وبايعهُ الأنصار. ولما بويع أبو بكر ضرب بعثًا على أهل المدينة ومَن حولهم. وأمَّر أسامة بن زيد فقال لهُ الناس: إنَّ هؤلاء جُلّ المسلمين على ما ترى نجم فيهم النفاق وانتقضوا بك. فليس ينبغي لك أن تُفرّق عنك جماعة المسلمين. فقال: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننتُ أنَّ السباع تخطفني لأنفذتُ بَعْثَ أسامة الى الشام. ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذتهُ. ثم خرج أبو بكر الى البعث حتى أتاهم. فشيّعهم وشيّعهم وهو ماشٍ وأسامة راكبٌ. فقال لهُ أسامة: يا أمير المؤمنين والله لتركبنَّ أو لأنزلنَّ. فقال: لا نزلتَ ولا أركبُ وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعةً (تاريخ الملوك للطبري)

خبر الاسود العنسي ومسيلمة الكذابَيْن (٦٣٤)

٣٨٠ كان الأسود هذا غلب على صنعاء ومفازة حضرموت الى عمل الطائف الى البحرين. وادَّعى النبوءة وطابقت عليهِ اليمن وجعل يستطير استطارة الحريق. فبعث أبو بكر رجالًا لمحاولتهِ أو مُصاولتهِ. فدخلوا على أزاد وهي امرأتهُ فقالوا لها: يا ابنة العم قد عرفتِ بلاء هذا

(*) وصفهُ عليّ بن ابي طالب قال: كان راجح العقل يكثر الذكر ويقلّ اللغو دائم البشر مطيل الصمت لا ينفر احدًا. وكان ليس بالطويل ولا بالقصير ضخم الراس كث اللحية مشربًا وجههُ حمرةً وقيل: كان ادعج العينين سَبْط الشعر سَهْل الخدَّين. واختُلف في ازواجهِ قال ابو الفداء: تزوج بخمس عشرة امرأة وولد لهُ سبعة اولاد كلهم من خديجة الّا ابرهيم ابنهُ فانهُ من مارية القبطية التي بعث بها المقوقس ولم يعش منهم بعدهُ الّا فاطمة فتوفيت بعد ابيها بثلاثة اشهر

الرجل عند قومكِ قتل أباكِ وطأطأ في قومك القتل وسفَّل بمن بقي منهم فهل عندكِ من مما لأةٍ عليهِ . فاجابت أُزاد الى قولهم . ولما جنَّ الليل أدخلت الرجال في مقصورة الأسود زوجها . وهو يغطُّ فألحموهُ بمِيلاة وأمروا الشفرة على حلقهِ . فخار خوار الثور . فابتدر الحرسُ البابَ وهم حول المقصورة : ما هذا ما هذا . فقالت المرأة : النبي يوحى اليهِ . ولما قُتل الأسود وأراح الله الإسلام من شرّه تراجع الامراء واعتذر الناس (الآداب السلطانية للفخري)

ثم ظهر مُسيلمة الكذَّاب . وأوقع أعظم فتنةٍ في أهل اليمامة وكان يؤذَّن لهُ ويُشهَد لهُ بالرسالة . وكان يسجع لقومهِ باسجاعٍ يزعم أنَّها قرآنٌ يأتيهِ ويأتي بمخارق يزعم أنَّها معجزاتٌ فيقع منها ضد المقصود . فامر أبو بكرٍ خالدَ بن الوليد بالمسير الى محاربتهِ . وكان بينهما وقعات واشتدَّ الحرب بين الفريقين . واقتحم المسلمون باجمعهم الى مسيلمة وأصحابهِ . فقاتلوهم حتى احمرَّت الأرض بالدماء . ونظر عبدٌ أسود اسمهُ وحشيٌّ الى مسيلمة فرماهُ بحربةٍ فوقعت على خاصرتهِ فسقط عن فرسهِ قتيلاً (للطبري)

فتح العراق (٦٣٢) والشام (٦٣٣ — ٦٣٨) وموت ابي بكر (٦٣٥)

٣٨١ ومن هناك توجه خالد الى أرض العراق فزحف الى الحيرة ففتحها صلحاً . وكان ذلك أوَّل شيءٍ افتتح من العراق . وقد كان ابو بكر وجَّه قبل ذلك أبا عُبَيدة بن الجرَّاح في زهاء عشرين الف رجل الى الشام . وبلغ هرقل ملك الروم ورود العرب الى أرض الشام . فوجَّه اليهم سرجيس البطريق في خمسة آلاف رجل من جنودهِ ليحاربهم . وكتب أبو بكر الى خالدٍ عند افتتاحهِ الحيرة يأمرهُ أن يسير الى أبي عُبَيدة بارض الشام . ففعل والتقى العرب والروم باجنادين فانهزم الروم . وقُتل سرجيس البطريق وذلك أنَّهُ في هربهِ سقط من فرسهِ . فركَبهُ غلمانهُ فسقط فركَّبوهُ ثانياً فهبط ايضاً وقال لهم : فوزوا بانفسكم واتركوني أُقتَل وحدي . وفي سنة ثلاث عشرة للهجرة مرض أبو بكرٍ خمسة عشر يوماً ومات رحمهُ الله يوم الاثنين لثمانٍ خلون من جمادى الآخرة . وهو ابن ثلاثٍ وستين سنةً وكانت خلافتهُ سنتين وأربعة أشهرٍ

خلافة عُمر (٦٣٤ — ٦٤٤) فتح دمشق (٦٣٦) فارس (٦٣٢) مصر (٦٤٢)

٣٨٢ ثم قام بالأمر بعدهُ عُمَر بن الخطَّاب بويع لهُ بالخلافة في اليوم الذي مات فيهِ أبو بكرٍ . فقام بعدهُ بمثل سيرتهِ وجهادهِ وثباتهِ وصبرهِ على العيش الخشن والقناعة باليسير وفتح الفتوحات الكبار والأقاليم الشاسعة . وهو أوَّل مَن سُمّي بامير المؤمنين فأرَّخ التاريخ ودوَّن الدواوين ومصَّر الأمصار وشهد بدراً . وهو اوَّل مَن عسَّ في عملهِ لحفظ الدين والناس . وهابهُ الناس هيبةً عظيمةً وزاد في الشدَّة في مواضعها واللين في مواضعهِ . ولمَّا ولي الأمر لم يكن لهُ همَّةٌ الَّا العراق . فعقد لأبي عُبَيد بن مسعود على زهاء الف رجلٍ وأمرهُ بالمسير الى العراق فعبروا اليها . فزحف اليهم العجم فتناجزوا من وقت الزوال الى أن توارت الشمس بالحجاب .

فحمل العرب حملة رجلٍ واحدٍ وقتلوا مهران قائدهم . فانهزم العجم لاحقين بالمدائن . ثم وكى يزدجرد عظيماً من عظماء مرازبتهِ لهُ سنٌّ وتجربةٌ يقال لهُ رستم . وعقد ايضاً لرجلٍ آخر يُسمَّى الهرمزان في جنودٍ كثيرة . وعند الالتقاء قُتِل هذان المرزبانان ومرَّت العرب في أثر العجم يقتلون مَن أدركوا منهم (تاريخ ابن خلدون)

وفي خلافة عُمَر فتح أبو عُبَيدة وخالدٌ دمشق بعد حصار سبعة اشهر فخرج اهل دمشق وبذلوا الصلح لأبي عُبَيدة . فأمَّنهم وصالح اهل طبريَّة وقيسارية وبعلبكَّ . وعلى يد عُمَر انتهى الفتح الى حمص والرها وماردين وطرابلس وعسقلان وما يليها من الساحل وبيت المقدس . وفتح عمرو بن العاص مصر عنوةً وفتح الإسكندريَّة صلحًا . حتى هاب عُمَر ملوك فارس والروم . ومع ذلك كلِّهِ بقي على حالهِ كما كان قبل الولاية في لباسهِ وزيِّهِ وافعالهِ وتواضعهِ يسير منفردًا من غير حرسٍ ولا حجاب . لم تغيِّره الإمرة ولم يستطِل على مسلم بلسانهِ . ولا حابى احدًا في الحقّ . وكان لا يطمع الشريف في حيفهِ ولا ييأس الضعيف من عدلهِ . ومات عُمَر يوم الاربعاء لخمسٍ بقينَ من ذي الحجَّة . وقتلهُ ابو لؤلؤة المجوسيّ وكان عمرهُ ثلاثًا وستين سنةً . وكانت خلافتهُ عشر سنين وستة اشهر . ولما فتح عمرو بن العاص مصر طلب منهُ يوحنا النحويّ النصرانيّ كتب الحكمة التي في الخزائن الملكيَّة . فكتب عمرو الى الخليفة يستأذن امير المؤمنين . فكتب اليهِ عُمَر : الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى . وان كان فيها ما يخالفهُ فلا حاجة اليهِ فتقدَّم باعدامها . فشرع عمرٌو في تفريقها على حمَّامات الاسكندريَّة واحراقها في مواقدها . فاستيقدت في مدَّة ستة اشهرٍ (لابن العميد)

عثمان بن عفَّان (٦٤٥—٦٥٧)

٣٨٣ بُويع لهُ بالخلافة في اوَّل يومٍ من سنة اربعٍ وعشرين . وكانت لهُ شفقةٌ ورأفةٌ بالرعيَّة . وافتتحت في ايامهِ أفريقية وغزا معاوية قبرس وأنقرة ففتحها صلحًا . وانتزع عثمانُ عمرَو ابن العاص عن الاسكندريَّة فأمَّر عليها اخاهُ لأمِّهِ . ثم ان الناس انكروا على عثمان اشياء منها كلفهُ باقاربهِ . فحنقت العرب على ذلك وجمعوا الجموع ونزلوا فرسخًا من المدينة . وبعثوا الى عثمان من يستعتبهُ ويقول لهُ : إمَّا أن تعتدل او تعتزل

وكتب عثمان اليهم كتابًا يقول فيهِ : اني انزع عن كل شيءٍ انكرتموهُ وأتوب الى الله . فلم يقبلوا منهُ ثم اشتدَّ عليهِ الحصار عشرين يومًا حتى تسوَّر محمد بن أبي بكر مع رجلين حائط عثمان فضربهُ احدهم بمشقص في اوداجهِ . وقتلهُ الآخر والمصحف في حجرهِ . وكانت خلافتهُ اثني عشرة سنةً . وعمرهُ نيفٌ وثمانون سنةً (للدميري)

عليّ بن ابي طالب (٦٥٧ — ٦٦١)

٣٨٤ ولمَّا قُتِل عثمان اجتمع طلحة والزُّبَير والمهاجرون والأنصار وأتوا عليًّا يبايعونهُ

٣١٤ ـــــــ

دولٍ وسائس أُمم وراعي ممالك ابتكر في الدولة اشياء لم يسبقهُ احد اليها . منها انهُ وضع البريد لوصول الاخبار بسرعة . واخترع ديوان الخاتم فصارت التواقيع تصدر منهُ مختومةً لا يتمكن احد من تغييرها . وفي سنة خمسين سير جيشاً كثيفاً الى القسطنطينيَّة فاوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينيَّة ولم يدخلوها . وفي ايامهِ بُنيَت القيروان وكمل بناؤُها في خمس سنين . ولمَّا حضرتهُ الوفاة جمع اهلهُ فقال : ألستم اهلي . قالوا : بلى فداك الله بنا . قال : فهذه نفسي قد خرجتْ من قدمي فردّوها عليَّ ان استطعتم . فبكوا وقالوا : ما لنا الى هذا سبيل . فرفع صوتهُ بالبكاء ثم قال : فلا تغرَّكم الدنيا بعدي . وتوفي بدمشق في مستهلّ رجب سنة ستين (للفخري)

خلافة يزيد بن معاوية (٦٨٠—٦٨٣)

٣٨٧ بويع لهُ بالخلافة يوم مات ابوهُ . وكان يزيد بحمص فقدم منها وبايعهُ الناس . ولم يبايعهُ الحُسين بن عليّ بن ابي طالب ولا عبد الله بن زُبير . فسيَّر جيشاً الى محاربة الحسين فادركوهُ فحملوا عليهِ واصحابهُ واحتزُّوا راس الحسين . اما عبد الله بن زُبير فلحق بمكَّة وتحصَّن في المسجد الحرام . فسار اليهِ الحصين بن نمير ونصب المنجنيق على ابي قبيس ورمى بهِ الكعبة فحُرقت استارها . وبينما هم كذلك اذ ورد الى الحصين الخبر بموت يزيد بن معاوية . فارسل الى ابن زُبير يسألهُ الموادعة فاجابهُ الى ذلك . وتوفي يزيد في شهر ربيع الاوَّل سنة اربع وستين . وكان آدم جعدًا احور العينين . بوجههِ آثار جُدَري حسن اللحية خفيفها طويلاً . وكان موفَّر الرغبة في اللهو والقنص . تعلم الفصاحة ونظم الشعر في بادية بني كلب (لابي الفداء)

معاوية الثاني (٦٨٣) ومروان بن الحكم (٦٨٤)

٣٨٨ ثم قام بعدهُ بالامر معاوية ابنهُ ولم تكن ولايتهُ غير ثلاثة اشهر . ثم تخلى بالعبادة ومات بالطاعون . واما عبد الله بن زُبير فلمَّا مات يزيد دعا الناس الى البيعة وادعى الخلافة . فظفر بالحجاز والعراق وخراسان واليمن ومصر والشام الَّا الاردنّ . ثم بويع بالاردن لمروان بن الحكم وكان كاتب السرّ لعثمان . ثم دخل الشام فاذعن اهلها لهُ بالطاعة . وسار اليهِ من قبل عبد الله بن زُبير الضحَّاك بن قيس . فاقتتلوا بغوطة دمشق فقُتِل الضحَّاك . ومات مروان بدمشق مخنوقاً . وكانت مدَّة خلافتهِ تسعة اشهر

عبد الملك بن مروان (٦٨٥—٧٠٥)

٣٨٩ بويع سنة خمس وستين بالشام . واما ابن الزُبير فبعث اخاهُ مُصعَبًا على العراق فقدم البصرة واعطاهُ اهلها الطاعة . واستولى المصعب على العراقين فسار اليهِ عبد الملك بن مروان . فالتقوا بسكن وقتل مصعب واستقام العراق لعبد الملك . وكان الحجَّاج بن يوسف الثقفيّ على شرطهِ فرأى عبد الملك من نفاذهِ وجلادتهِ ما اعجب بهِ . فبعثهُ الى عبد الله بن زُبير فقتلهُ وسلخ جلدهُ وحشاهُ تبناً وصلبهُ . وتوفي عبد الملك سنة ست وثمانين وكان حازمًا عاقلاً

فقيهاً عالماً وكان ديّناً . فلمّا تولى الخلافة استهوتهُ الدنيا فتغيَّر عن ذلك (لابي الفرج)

الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ٧١٥)

٣٩٠ هو سادس خلفائهم وكان مغرماً بالبناء واستوثقت لهُ الامور . ومن بناياتهِ المسجد الاقصى واعطى المجذمين ومنعهم السؤال الى الناس . واعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً. ومنع الكتّاب النصارى من ان يكتبوا الدفاتر بالروميَّة ولكن بالعربيَّة . وفي ايامهِ اجاز طارق الى الاندلس فنهض لذريق ملك القوط وزحف الى طارق فالتقوا بلحص شريش فهزم الله لذريق واذعنت الاندلس لامر الوليد . وفتحت في ايَّامهِ الفتوحات الكثيرة من ذلك ما وراء النهر . وتغلغل الحجّاج في بلاد الترك . وتغلغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الروم ففتح وسبى . وفتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد الهند . وفي سنة ثمان وثمانين امر الوليد ببناء جامع دمشق * وكان فيهِ كنيسة فهدمها . فانفق عليهِ اموالاً كثيرة تجلّ عن الوصف . وفي ايامهِ توفي الحجّاج وقيل انهُ أحصي من جملة الذين قتلهم الحجّاج فكانوا مائة الف وعشرين الفاً . ومات الوليد سنة ست وتسعين (للدميري)

سليمان بن عبد الملك (٧١٥—٧١٧) عمر بن عبد العزيز (٧١٧— ٧٢٠)

٣٩١ ثم قام بالامر بعدهُ اخوهُ سليمان وهو ساجم . واحسن السيرة وردّ المظالم وآوى للمقترين واخرج المحبوسين . وكان غيوراً شديد الغيرة فحماً واتخذ ابن عمهِ عمر بن عبد العزيز وزيراً وجهز اخاهُ مسلمة لغزو القسطنطينيَّة . ونزل سليمان في مرج دابق فشتَّى مسلمة على قسطنطينيَّة وزرع الناس بها الزرع واكلوهُ . واقام مسلمة قاهراً قسطنطينيَّة حتى جاءهُ الخبر بموت سليمان متخماً . وكانت خلافة سليمان سنتين وثمانية اشهر واستخلف وزيرهُ عمر بن عبد العزيز

كان عمر عفيفاً زاهداً ناسكاً عابداً تقيّاً . وهو اوَّل من فرض لابناء السبيل . وابطل في الخُطَب سبَّ عليّ . وكان اليهِ المنتهى في العلم والفضل والشرف والورع والتألف ونشر العدل . وتوفي عمر بدير سمعان وكان موتهُ بالسمّ عند اكثر اهل التاريخ . فان بني أُميَّة علموا انهُ ان امتدَّت ايامهُ اخرج الامر من أيديهم وانهُ لا يعهدهُ بعدهُ الّا لمن يصلح للامر فعالجوهُ وما امهلوهُ. وكانت خلافتهُ سنتين وخمسة اشهر . وكان في وجههِ شجَّةٌ من رَمح دابَّة . وكان يُدعَى بالاشجّ . وكان متحرياً سيرة الخلفاء الراشدين . وكانت نفقتهُ كل يوم درهمين . وفي ايامهِ تحركت دولة بني هشام وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الابيات :

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ ... وليلك نومٌ والردى لك لازمُ
يغرُّك ما يفنى وتفرح بالمُنى ... كما غرَّ باللذَّات في النوم حالمُ
وشغلك فيما سوف تكرهُ غبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

(*) راجع مقالة ابن جبير في وصف دمشق وجامعها في وجه ٢٢٦ من هذا الجزء

يزيد الثاني (٧٢٠—٧٢٤) هشام (٧٢٤—٧٤٣)

٣٩٢ ثم قام بالامر بعدهُ يزيد بن عبد الملك . وكان ابيض جسيماً مليح الوجه خرج في ايامهِ يزيد بن المهلَّب فارسل عليهِ اخاهُ مسلمة فقاتلهُ وظفر بهِ . ثم توفي يزيد لاربع سنين من خلافتهِ بعد ان عهد بالخلافة الى اخيهِ هشام . بويع لهُ بالخلافة يوم مات اخوهُ . وكان حازماً عاقلاً صاحب سياسة حسنة ابيض . وكان ذا راي ودهاء وحزم وفيهِ حلم وقلّة شره وقام بالخلافة اتمَّ قيام . وكان يجمع الاموال ويوصف بالبخل والحرص . يقال انهُ جمع من الاموال ما لم يجمعهُ خليفة قبلهُ . وفي ايامهِ غزا المسلمون بلاد الترك فانتصروا وغنموا شيئاً كثيراً . وقتلوا من الاتراك مقتلة عظيمة وقتلوا ابن خاقان ملك الترك . وكان المتولي لحربهم اسد بن عبد الله القسري . وفي ايام هشام ايضاً خرج زيد بن زين العابدين ودعا الى نفسهِ فاسرعت اليهِ الشيعة . وكان الوالي على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عُمَر الثقفي . فجمع العساكر وناوش زيداً القتال فاصاب زيداً سهم في جبهتهِ فحُمِل من المعركة فمات ودُفِن . فلمَّا اصبحوا استخرجهُ يوسف من قبرهِ فصلبوهُ . ومات هشام بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة . وكان مرضهُ الذبحة

الوليد الثاني (٧٤٣—٧٤٤) يزيد الثالث (٧٤٤—٧٤٤)

٣٩٣ كان الوليد مقيماً في البادية فلما مات هشام سار من فورهِ الى دمشق واقام في الخلافة سنة واحدة وكان اكمل بني أُميَّة ادباً وفصاحةً وظرفاً واعرفهم باللغة والنحو . وكان جواداً مفضالاً . ومع ذلك لم يكن في بني أُميَّة اكثر ادماناً للشراب والسماع ولا اشدّ مجوناً وخلعاً واستخفافاً بامر الامَّة من الوليد بن يزيد . فاجمع اهل دمشق على خلعهِ وقتلهِ لاشتهارهِ بالمنكرات وتظاهرهِ بالكفر والزندقة . فلم يلبث الا ايامًا يسيرة حتى قُتِل شرَّ قتلة وصُلِب راسهُ على شُرافات قصرهِ ثم على اعلى سور بلدهِ . ولما قُتِل اضطربت البلاد واستنصر بنو أُميَّة اعداؤهم ولم تقم لهم قائمة بعدهُ . ثم تولى يزيد الثالث ابن الوليد وابن عم الوليد بن يزيد وسمي الناقص فتفاءل بنو أُميَّة بولايتهِ فاقام في الخلافة والامور مضطربة عليهِ . وكان مظهراً للنسك محمود السيرة مرضي الطريقة ويتخلَّق باخلاق عمر بن عبد العزيز . وكان ذا دين وورع الَّا انهُ لم يتمتَّع ببغتتهُ المنية

ابرهيم بن الوليد (٧٤٥) مروان الثاني (٧٤٦)

٣٩٤ ثم بويع اخوهُ ابرهيم فلم يثبت لهُ امر . ومكث سبعين يوماً فسار اليهِ مروان بن محمد . فبرز اليهِ الخليفة وعسكر بظاهر دمشق فخذلهُ جندهُ وحاصروا عليهِ بعد ان انفق عليهم الخزائن واختفى امرهم فبايع الناسُ مروان واستوثق لهُ الامر وخلعوا ابرهيم . وظهر السفَّاح بالكوفة وبويع لهُ بالخلافة . فجهز جيشاً لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان قرب الموصل . فهزم مروان وقُتِل في هربهِ وظهرت دولة بني عبَّاس وانقرضت دولة بني أُميَّة (لابي الفداء)

تمَّ بحولهِ تعالى

فهرس الجزء الرابع من كتاب مجاني الادب

	وجه
الباب الاوّل في التديُّن	٣
عظمة الخالق وجبروته	٣
متن الشيبانية في التوحيد	٤
قصيدة للبرعي في الاستدلال على الحق	٥
مُتن بدء الامالي في التوحيد	٦
قصيدة للبرعي في الحق سبحانهُ	٧
قصيدتان لهُ في الابتهال الى الله وحمدهِ	٩
ولهُ ايضاً من قصيدة في الرجاء بالله	١١
قصيدة لعبد الغني النابلسي في الثقة بالله	١٢
قصيدة للبابي في التوسّل والاستعطاف	١٣
الباب الثاني في الزهد	١٥
الزهد في الدنيا والانقطاع الى الله	١٥
قصيدة للبرعي في الزهد	١٧
زهد رجل من بني عبّاس	٢٠
ذو النون والزاهدة	٢١
ذلّة الدنيا	٢٢
زوال الدنيا	٢٣
ذكر المنيّة والعواقب	٢٧
في الدهر ونوائبهِ	٣٣
قصيدة لاسماعيل المقري في التوبة	٣٤
للبرعي في الاغراء بالتوبة	٣٥
ما كُتب على القبور	٣٨
الباب الثالث في المراثي	٤١
رثاء مشاهير العرب	٥٨
الباب الرابع في الحكم	٦٥

	وجه
وصيّة ابن سعيد المغربي لابنهِ	٦٧
وصيّة ابن طاهر لابنهِ	٧٣
وصيّة ابرهيم الدكدجي لابنهِ	٨٠
نخبة من حكم ابي عثمان ذِنون النجيبي	٨٣
نخبة حكم اوردها البستي في ديوانهِ	٨٤
نخبة من اراجيز الشيخ السابوري	٨٥
التجارب	٨٦
الصمت وحفظ اللسان	٨٧
الصبر صدق النطق	٨٨
المكارم	٨٩
القصيدة الزينبيّة لصالح بن عبد القدوس	٨٩
لاميّة ابن الوردي	٩٢
نونيّة ابي الفتح البستي	٩٤
الباب الخامس في الامثال	٩٨
امثال في معانٍ مختلفة جمعها ابن عبد ربّهِ	٩٨
ابيات مثليّة للتنوخي والحريري	١٠٤
نخبة من تفريد الصادح لابن حجة الحموي	١٠٨
نخبة من قصيدة ابي العتاهية المثليّة	١٠٩
الباب السادس في الامثال والاشارات	
الملك المتروّي	١١٠
نخبة من كشف الاسرار عن حكم الطيور والازهار لابن غانم المقدسي	١١٧
اشارة النسيم	١١٨
اشارة الورد اشارة المرسين	١١٩
اشارة النرجس	١٢٠
اشارة البان	١٢١

	وجه
اشارة النفيج	١٢٢
اشارة الحزام	١٢٣
اشارة الشقيق	١٢٤
اشارة السحاب	١٢٥
اشارة الهزار	١٢٦
اشارة الباز	١٢٧
اشارة الحمام	١٢٨
اشارة الخطّاف	١٣٠
اشارة البوم	١٣١
اشارة الدرّة	١٣٢
اشارة الديك	١٣٣
اشارة البطّ	١٣٤
اشارة النحل	١٣٦
اشارة الشمع	١٣٧
اشارة الغراب	١٣٨
اشارة الهدهد	١٤١
اشارة الكلب	١٤٢
اشارة الجمل	١٤٤
اشارة الفرس	١٤٥
اشارة دود القز	١٤٦
اشارة العنكبوت	١٤٨
اشارة النملة	١٤٩
اشارة العنقاء	١٥٠
الباب السابع في الذكاء والادب	١٥٢
مدح مختلف العلوم	١٥٢
ابو تمّام والمتنبي وابو عبادة البحتري	١٥٤
وصف القلم	١٥٧
وصف المحبرة و وصف الخط	١٥٨
قصيدة ابن البوّاب في وصف الخطّ	١٥٩
في الادب وتربية الصغار	١٦٠
الباب الثامن في السيف والقلم	١٦٢
فصلٌ في التفاوت بين مراتب السيف والقلم	
في الدول	١٦٣
في شرف الكتّاب	١٦٦
الباب التاسع في اللطائف	١٦٨
وزير المأمون والشاعر	١٦٨
مروان بن ابي حفصة وجعفر البرمكي	١٦٩
الصِلات والصَلاة	١٧٠
معن بن زائدة والثلاث جواري	١٧١
الحسين بن الضحاك عند المتوكل	١٧٢
الباهلي والرشيد	١٧٣
عليّ بن الخليل وزيد بن المزيد	١٧٥
الباب العاشر في المديح	١٨٠
بلعاء بن قيس وبنو هاشم	١٨٠
مديح المأمون	١٨٠
مدح مقامات الحريريّ	١٨١
الباب الحادي عشر في الفخر والحماسة	١٩٣
قصيدة ابن سناء الملك في الفخر	٢٠١
الباب الثاني عشر في الهجو	٢٠٥
الباب الثالث عشر في الالغاز	٢٠٨
الباب الرابع عشر في الوصف	٢١٤
وصف مصر	٢١٤

	وجه
وصف دابّة	٢١٥
وصف ابليس لنفسه	٢١٦
زهريّة صفي الدين الحلي	٢٢٠
قصيدة عبد الغني النابلسي في وصف الشام	٢٢٥
الباب الخامس عشر في الحكايات	٢٢٩
هارون بن عبد الله والفيل	٢٢٩
الوفاء والفضل والمعروف عند بعض الكرماء	٢٣٠
حجدر والسبع	٢٣٤
عصيان ابرهيم بن المهدي على امير المؤمنين	٢٣٦
الباب السادس عشر في الفكاهات	٢٤٤
الطبيب والخليفة	٢٤٥
الفضل بن يحيى والاعرابي	٢٤٨
الباب السابع عشر في النوادر	٢٥٣
مدينة الزهراء في الاندلس	٢٥٣
عجائب مصر كالمقياس والاهرام والنيل	٢٥٥
عنترة والاسد	٢٥٨
ذكر القهوة	٢٦٠
الاندلس وعوائد اهلها واختراعاتهم	٢٦٢
الباب الثامن عشر في المراسلات	٢٦٥
فصل في المراسلات بين الملوك والامراء	٢٦٥
في الطلب وحسن التواصل	٢٦٨
في الاشواق	٢٧٠
فصول في العتاب والاعتذار	٢٧١
فصول في الذمّ	٢٧٣
فصول في التوصية	٢٧٥
فصول في المديح والشكر	٢٧٦

	وجه
فصول في التهنئة والهدايا	٢٧٧
فصول في التعزية	٢٧٩
فصول الى عليل	٢٨٠
الباب التاسع عشر في التراجم	٢٨٢
شعراء النصرانيّة	٢٨٢
خطباء النصرانيّة	٢٩٦
مشاهير اطبّاء النصرانيّة	٢٩٨
مشاهير المؤرّخين والكتّاب والفلاسفة من اهل النصرانيّة	٣٠٥
الباب العشرون في التاريخ	٣٠٩
صاحب الشريعة الاسلاميّة محمّد	٣٠٩
الخلفاء الراشدون خلافة ابي بكر	٣١١
خبر الاسود العنسي ومسيلمة الكذّابين	٣١١
فتح العراق والشام وموت ابي بكر	٣١٢
خلافة عمر وفتح دمشق وفارس ومصر	٣١٢
عثمان بن عفّان	٣١٣
عليّ بن ابي طالب	٣١٣
الحسن بن عليّ بن ابي طالب	٣١٤
دولة الامويين خلافة معاوية	٣١٤
خلافة يزيد بن معاوية	٣١٥
معاوية الثاني ومروان بن الحكم	٣١٥
عبد الملك بن مروان	٣١٥
عبد الوليد بن عبد الملك	٣١٦
سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز	٣١٦
يزيد الثاني وهشام	٣١٧
الوليد الثاني ويزيد الثالث	٣١٧
ابرهيم بن الوليد ومروان الثاني	٣١٧

تمّ طبع هذا الكتاب على مطابع
المطبعة الكاثوليكية في بيروت
في الخامس من شهر نيسان ١٩٥٦

٥ - ٣٤٥١ / ٥ - ٤ - ٥٦

Library of



Princeton University.

Princeton University Library
32101 043490208



المكتبة الشرقية - بيروت